

الحياة في الإسلام

في العصر الجاهلي

تأليف

د. محمد عبد المنعم خفاجي

الأستاذ والعيد بجامعة الأزهر

دار الحديث

بيروت

جميع الحقوق محفوظة لدار الجيل

الطبعة الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

مقدمة

هذه هي الطبعة الثالثة لكتاب « الحياة الأدبية في العصر الجاهلي » تصدر بعد الطبعتين السابقتين بوقت طويل، وبعد أن نفذت نسخ الكتاب، وتعذر الحصول عليه.

وفي هذه الطبعة زيادات كثيرة عن الطبعتين السابقتين، وفيها تحقيقات عديدة أضفناها إلى الكتاب.

ولا يمكنني أن أنوه بالجهد الذي بذلته، والعبء الذي حملته، في سبيل إصدار الكتاب في هذا الحجم الكبير.

ولكنني أعتمد على ثقة القراء وتقديرهم.

ومن الله أستمد التوفيق، وأطلب العون، وألتمس السداد، وما توفيقى إلا بالله.

المؤلف

تمهيد الأدب وأطواره

- ١ -

يطلق الأدب فنهم منه بادیء ذی بدء معناه ، الذى يدور حول الجيد
البليغ من الكلام أثره ونظمه .

فالأدب هو كل كلام عبر عن معنى من معانى الحياة ، وجلا صورة من
صورها بأسلوب جميل ، ولفظ بديع ، فتثير معانيه العاطفة ، وتستثير بلاغته
الاعجاب . فالكلام لا يكون أدباً إلا إذا اشتمل على : معان تبعث عواطف
القارى . والسماع ، وعلى ألفاظ جميلة تؤدي بها هذه المعانى والأفكار ، وإلا
إذا لام الذوق ؛ ووافق الطبع ، وأثر فى النفس ، وصور لك الأشياء كما تجدها
أنت حين تخلو إليها وتفكر فيها .

وتمتلك الجمال فى الكلام قد يكون فى معانيه ودقتها وعمقها وروعها ،
وقد يكون فى ألفاظه وسحرها وفصاحتها وعذوبتها أو فخامتها ، وقد يكون
فى ألفاظه ومعانيه جميعا ، وذلك أتم لبلاغة الكلام ، وأجمع لسحره وتأثيره ؛
وأدعى لخلوده وبقائه على أمد العصور .

وبعد ، فجودة الأدب هى مقياس حظه من القبول والاعجاب والخلود ،
ولنما تتأتى الجودة بحسن المعانى وتخير ما يتصل منها بالموضوع وما يناسبه فى
دقة وحسن ترتيب ، وبحسن الألفاظ والأساليب والملازمة بين الألفاظ
والمعانى ، وعلى أى حال فإن أجود البيان أثره ونظمه ما صدر عن الطبع ،
وجاء عقو القرينة من غير تكلف ولا استكراه ولا إغراب .

ومتى كان الكلام جيدا على هذا النحو ، فهو الذى نسميه أدباً ، ونعنى
بمحفظة وروايته وتدوينه .

وقد مرّت كلمة أدب بأطوار تاريخية مختلفة في نشأتها اللغوية (١) مما
نلم به في هذا المقام . .

١ - وردت كلمة أدب في الشعر والنثر المأثورين عن العصر الجاهلي :

١ - قال الأعشى :

جروا على أدب منى بلا نزق ولا إذا شمّرت حرب بأغمار (٢)

٢ - وقال عتبة بن ربيعة لا بلته هند عن أبي سفيان : «يؤدب أهله ولا
يؤدبونه» ، وقالت له : «وسأأخذ به أدب البعل» (٣)

(١) راجع الجزء الأول من العصر الجاهلي للرافعي ، ومقالات في الأدب
للزيات ، والأدب الجاهلي لطلح حسين ، والرد عليه للفمراوى وخضر حسين -
وأصول النقد الأدبي للشايب ، ولسان العرب مادة «أدب» ، وخزانة الأدب في بيت
سهم بن حنظلة : «حسن ذا أدبا» ، وكذلك ترجمته في الأغاني ، ٢٧ : ٢ : أمالي
المرتضى ، ١٤٥ : ٣ شرح الحماسة للتبريزي ، وقصيدة كعب بن سعد التي فيها «شب
وهو أديب» في المفضليات ، وترجمته في الخزانة وشرح أمالي المرتضى (مع
ملاحظة أن القصيدة في الجمهرة منسوبة لمحمد بن كعب الغنوي - ص ٢٧٤ - وفي
الخزانة والسيوطي والعيني لكعب بن سعد الغنوي) ، وترجمة مزاحم العقيلي
في الخزانة والأغاني ، وبيته «الأديب المذلل» ، و١٣ شرح أدب الكاتب للجواليقي ،
و١٠٤ : ٢ : الأمالي في حديث عتبة مع ابنته هند ، وحديث قيس بن زهير في الأغاني
وأمالي المرتضى ١٤٩ : ١ ، و١٦٠ : ٧ شرح الكامل ، ٦٣ : ٣ شرح الكامل للبيت
«أبعد ستين عندي يبتغي الأدبا» ، من قصيدة جاهلية لامرأة ، وص ١٧ ج ٦
تاريخ الطبري «يؤدبني الحجاج» ، ونهج البلاغة ، والأدب الصغير والأدب الكبير
لابن المقفع ، ورسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب .

(٢) البيت من قصيدة للأعشى في شرح راجع ص ١٤ من الروائع العدد

الخامس الخاص بالأعشى .

(٣) ١٠٤ : ٢ : الأمالي

٣ - وقال النعمان الخطباء العرب الذين أوفدهم إلى كسرى : فلا يكون ذلك منكم فيجد في آدابكم مطعنا ، (١) . وقال في رسالته إلى كسرى :

« وقد أوفدت أيها الملك رهطاً من العرب لهم فضل في أحسابهم وآدابهم » (١)

٤ - وورد في شعر جاهلي لامرأة : أبعد سئين تندي يبتغي الأدبا ؟

وهي في كل هذه النصوص لا تخرج عن المعنى الخلق المعروف .

ب - وجاء الإسلام بعد ظلمات من الجهل والضلالة والجاهلية ، فنجد كلمة أدب تتردد في نصوص إسلامية كثيرة منها :

١ - جاء في الحديث الشريف « أدبني ربّي فأحسن تأديبي ، وهو حديث مشهور ، ويبدو أن التأديب هنا بمعنى التهذيب الخلق ، ولكن إذا رجعنا إلى الرواية في أصل ورود الحديث وهي (٢) أن أبا بكر قال لرسول الله (ص) ما سمعت أفصح منك فن أدبك ؟ فقال رسول الله (ص) : « أدبني ربّي فأحسن تأديبي » ، نجد أن التأديب هنا بمعنى التعليم وهو طور من أطوار كلمة أدب المشهورة بيننا الآن .

٢ - وفي حديث مشهور يروى عن عمر بن الخطاب : « طفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار » .

وعلى الجملة فالأدب في كل هذه النصوص بمعنى الخلق الكريم واصطناع السيرة الحميدة ، ودلت هذه الكلمة على ذلك في العصر الجاهلي ، كما دلت عليه في صدر الإسلام ، قال الجواليقي م ٥٤٠ هـ في شرح أدب الكاتب :

والأدب الذي كانت العرب تعرفه هو ما يحسن من الأخلاق وفعل المسكرم (٣) ،

(١) ١: ١٦٩ المقطع ١٩٣٥ القاهرة المطبعة التجارية

(٢) راجعها في ص ٣٤ من الأدب العربي وتاريخه في عضري صدر الإسلام والدولة الأموية للرحوم محمود مصطفى ط ١٩٣٧

(٣) ١٣ شرح أدب الكاتب للجواليقي ، ص ٢٧ شفاء الغليل للشهاب الخفاجي

ج - ثم جاء عصر بني أمية . ووردت كلمة أدب ورددت فيه كثيراً :

١ - من ذلك ما أنشده الجاحظ :

ولاني - على ما كان من عنجيتي ولوثة أعرابيتي - لأديب (١)

٢ - وقول كعب بن سعد الغنوي :

حبيب إلى الزوار غشيان بينته جميل المحيا شب وهو أديب

٣ - وقول سالم بن وابصة الأسدي الشاعر من قصيدته التي ذكرها صاحب الحماسة (٢) :

إذا شئت أن تدعى كريماً مكرماً أديباً ظريفاً عاقلاً ماجداً حراً

إذا ما أنت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالاً لزلة عذراً

٤ - وروى صاحب اللسان (٣) في مادة « أدب » ، لمزاحم العقيلي - وهو شاعر أموي - قوله في صفة الإبل :

وهن يصرفن النوى بين عالج ونجران تصريف الأديب المذلل (٤)

٥ - وقال بعض الفراريين :

كذلك أدبت حتى صار من خلقي أنى وجدت ملاك الشيمة الأدبا

٦ - وقال سهم بن حنظلة ، ويظهر لي أنه أموي :

(١) البيت في ص ١٢٦ ج ١ البيان والتبيين ط ١٩٢٧ . العنجهية : الحق والجمل . اللوثة : الحق أيضاً ، والمراد بكل ذلك جفاء الأخلاق

(٢) ١٦ ج ٢ ديوان الحماسة الطبعة الثالثة ١٩٢٧ بمطبعة السعادة . وسالم بن وابصة تابعي وأبوه وابصة صحابي جليل ، وبعض هذه الآيات في الأمالي ص ٢٢٤ طبع دار الكتب .

(٣) ٢٠٠ ج ١ اللسان

(٤) رمل عالج : جبال متصلة يتصل أعلاها بالدنهاء بقرب اليمامة وأسفلها بنجد وتلتسع اتساعاً كثيراً . النوى : الوجه الذي ينويه المسافر من قرب أو بعد وهي مؤنثة لاغير .

لم يمنع الناس مني ما أردت ، ولا أعطيهم ما أرادوا حسن ذأدبا (١)
٧- وألف ابن المقفع م ١٤٣ هـ كتابين له ، سماهما . الأدب الكبير
والأدب الصغير ، وفي الأدب الصغير تتردد كلمة أدب كثيرا (٢) ، وكذلك
في الأدب الكبير .

٨- ومن خطبة للحجاج : هذا أدب ابن نهية (٣) أما والله لاؤدبنكم
غير هذا الأدب . .

٩- ومن رسالة لعبد الحميد الكاتب : أحب (أمير المؤمنين) أن يعهد
إليك عهدا . . يحملك منه أدبه ، ويشرع لك عظته . .
وهي في كل ذلك بالمعنى الخلق العام المعروف .
ولكن وردت نصوص أخرى في هذا العصر منها :

١- قال عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي لمعلم ولده : أدبهم برواية
شعر الأعشى .

٢- وقال معاوية : اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر آدابكم (٤) .

٣- ووجدت طبقة المعلمين ، الذين كانوا يؤدبون الناشئين من أبناء
الخلفاء والأمراء والولاة ، ويعلمونهم الأخبار واللغة والشعر وغيره ،
وأطلق عليهم لقب « الأدباء » و « المؤدبين » ، مما يدل على أن الكلمة كانت
تستعمل بمعنى التعليم .

٤- وقال عبد الحميد الكاتب من رسالته للكتاب : « فتنافسوا يا معشر
الكتاب في صنوف الآداب » .

(١) وينسب البيت لطيفيل الغنوى وهو جاهلي (١٣) شرح أدب الكاتب ط
القدسى ١٩٣٥ ، ٢٧ شفاء الغليل ط ١٢٨٢)
(٢) ص ٥٦ و ٥٣ و ٤٠ وسواها من الأدب الصغير ط ١٩١١ .
(٣) رجل كان على شرطة البصرة قبل الحجاج
(٤) ٤١ ج ٢ وفيات الأعيان

٥ - وفي الأدب الصغير لابن المقفع م ١٤٣ هـ « جل الأدب بالمنطق ، وكل المنطق بالتعليم ، ليس حرف من حروف معجمه ، ولا اسم من أنواع أسمائه ، إلا وهو مروي متعلم مأخوذ من إمام سابق من كلام أو كتاب » .

٦ - وقال محمد بن علي بن عبد الله بن عباس المتوفى عام ١٢٥ هـ : كماك من علم الأدب (١) أن تروى الشاهد والمثل .

وهي في أغلب هذه النصوص كلها ليست بالمعنى الخاقي المعروف ، إنما هي تدل على ما كان يلقبه المعلم إلى طلبته من الشعر والقصص والأخبار والأنساب وكل ما من شأنه أن يثقف نفس الصبي ويهذبها من أنواع العلوم المختلفة الخاصة باللغة والشعر وما يتصل به .

ومن ذلك كان ملشأ السكسة المشهورة : « حرفة الأدب » ، وأول من قالها الخليل (٢) ، وذلك لأنهم كانوا يتكسبون بالتعليم .

فكلمة « أدب » في العصر الأموي كانت تطلق : على المعنى الخلقى المعروف ، وعلى رواية أشعار العرب وأخبارها وأيامها وأنسابها ، أو تعليمها للناشئين والمتعلمين .

وثقافة السكاتب - وهو أخص من الأديب - تجدها مبسطة في رسالة عبد الحميد السكاتب إلى السكاتب .

٥ - وجاء عصر بني العباس ، فنشأت دراسات في النحو والصرف والعروض واللغة والبلاغة ، وشملت كلمة « أدب » هذه الدراسات جميعها ، كما كان يطلق لفظ الأدباء على السكاتب والشعراء لتكسيبهم بالأدب ، ويقول الجواليقي

(١) في القرن الأول كانوا يطلقون على موضوعات علم الأدب : علم العرب ، أما اصطلاح علم الأدب فقد وجد في القرن الثاني .

(٢) ٥٢٩ هـ تمار القلوب للشمالي

في شرح أدب السكاتب (١) ، اصطلاح الناس بعد الإسلام بمدة طويلة على أن يسموا العالم بالنحو والشعر وعلوم العرب « أدبياً » ، ويسموا هذه العلوم الأدب ، وذلك كلام موله ، لأن هذه العلوم حدثت في الإسلام .

ولما اشتدت حركة التأليف وقويت النهضة العلمية استقلت هذه العلوم بنفسها وبحوثها وانعزلت عن الأدب ، وأصبحت منذ منتصف القرن الرابع كلمة أدب تدل على الكلام الجيد من المنظوم والمنثور وما يتصل به ويفسره من الشرح والنقد والأخبار والأنساب وعلوم العربية ؛ شملت الشعر كما شملت النثر الذي أجاد فيه فحول الكتاب في هذا العصر أيضاً ، كما شملت النقد الذي بدأ ينمو فيه . وكذلك الغناء (٢) ، قال ابن خلدون : « وكان الغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن - الأدب - لما هو تابع للشعر ، إذ الغناء إنما هو تلحينه ، وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه (٣) ، وصار لفظ الأدباء من ذلك الحين لا يطلق إلا على الشعراء والكتاب ، فانفردوا به ، وزال عن العلماء جملة لاستقلال العلوم يومئذ وضعف الرواية ونضوب مادتها ، حتى قيل . ختم تاريخ الأدب بشعلب والمبرد . وألفت في الأدب بهذا المعنى كتب مشهورة : كالبيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ م ٢٥٥ هـ ، والكامل لأبي العباس محمد بن يزيد المبردم م ٢٨٥ هـ ، وكتاب العقد الفريد لابن عبدبربه الأندلسي م ٣٢٨ هـ ، والامالي لأبي علي القالي م ٣٥٦ هـ ، وكذلك الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني م ٣٥٦ هـ ، وسواها من أصول كتب الأدب ومصادره الأولى ، وكان الذين يقومون بدراسة علوم الأدب وروايتها

(١) ١٢ و ١٤ شرح أدب السكاتب للجواليقي ، ٢٧ من شفاء الغليل للشهاب الخفاجي ط ١٢٨٢ هـ

(٢) ٢٤ : ١ تاريخ آداب العرب للرافعي

(٣) ٤٨٩ المقدمة ط ١٩٣٠ بالمطبعة الأزهرية

يسمون « المؤذنين » ، إلى أن كان القرن الرابع الهجرى وانتشرت العجمة وضعفت العصبية العربية فانتهى عهد المؤذنين حتى قيل : ختم تاريخ الأدب بالمبرد ٢٨٥ هـ وتعلب ٢٩١ م (١) ، وصار لفظ الأديب يطلق على الشاعر أو الكاتب أو الناقد فحسب ، وأصبح الأدب يدل كما قدمنا حتى اليوم على الجيد من الكلام المأثور شعراً ونثراً وما يحتاج إليه من التفسير وتبيين ما فيه من مظاهر الجمال أو القبح ، وأصبح النحوى أو العالم بأصول البلاغة أو بأوزان الشعر وقوافيه لا يستطيع أن يسمى نفسه أديباً (٢) .

ويقول ابن خلدون في حد الأدب : هذا العلم لا موضوع له وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهى الإجادة فى فنى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم ، فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر على الطبقة ويجمع متساو فى الإجادة ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة مع ذكر بعض من أيام العرب وذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة (٣) .

والخلاصة أن :

١ - كلمة أدب وردت فى نصوص جاهلية وإسلامية بمعنى الخلق الكريم

(١) راجع ١٢٢ : ٥ معجم الأدباء الشعر فريد رفاعى

(٢) وذلك بعد أن كان اسم النحوى مرادفا لاسم الأديب حتى إن بعض العلماء قد ألف فى تراجم النحويين كتباً سميت باسم طبقات الأدباء كما فعل ابن الأنبارى فى كتابه « نزهة الألبا فى طبقات الأدباء » ، والفرزدقى التميمى فى « م ٤٧٩ هـ فى كتابه : « شجرة الذهب فى معرفة أئمة الأدب » ، وهو تراجم للغويين والنحويين ، ولم يكن النحوى هو من عرف القواعد فحسب بل كان النحوى هو من عرف القواعد وحفظ أشعار العرب وعلم تخريجها وحفظ أيامهم وخطبهم وحكمهم ومساجلاتهم (راجع ص ٦٨ مشكلة اللغة العربية للاستاذ محمد عرفه ط ١٩٤٦)

(٣) ٤٨٨ المقدمة لابن خلدون .

٢- وأنها وردت في العصر الأموي بمعنى الخلق الكريم ، والتعليم والتثقيف اللذين يقودان إلى الكريم الفاضل من الأخلاق ، ثم استعملت في رواية النثر والشعر لأنهما يدعوان إلى الفضائل ومكارم الأخلاق .

٣- وأنها في صدر العصر العباسي إلى منتصف القرن الثالث استعملت بمعنى التعليم أيضاً ، وأصبحت فيه كلمة أدب تطلق على : رواية الشعر وما يتصل به من الأخبار والانساب وعلوم اللغة والعربية ، وعلى تعليمها (١) ، ثم استقلت هذه العلوم فأصبح الأدب منذ منتصف القرن الرابع لا يطلق إلا على الجيد المأثور من الشعر والنثر حتى العصر الحديث (٢)

وأطلق لقب الأدباء على الشعراء والكتاب لتكسيهم بالأدب كما كان يتكسب المؤدبون بصناعة التعليم .

ويجب أن يلاحظ مع ذلك أن كلمة أدب في العصر العباسي كانت تطلق من أواخر القرن الثالث أحياناً عند العظماء والكبراء وحاشيتهم وعلى سبيل التجوز على ما يشمل الثقافة العامة من غناء وسمر ، وحسن أدب المنادمة والحديث وخدمة الخلفاء والملوك ، والبراعة في الصيد وفي لعب النرد والشطرنج ، وقيل لهذه العلوم : آداب رفيعة وهي قريبة من الفنون الجميلة عندنا اليوم ، وكان الأدب يقابل لفظ المثقف : ومن هذا يمكننا أن نقول إن للأدب معنيين مختلفين : الأدب بمعناه الخاص وهو الكلام الجيد الذي

(١) في القرن الثاني كان تطلق كلمة الادباء والمؤدبين على المعلمين ، ومن ذلك كان منشأ الكلمة المشهورة « حرقة الادب » ، وأول من قالها هو الخليل أحمد م ١٧٤ هـ ، وإنما سموا بالادباء لانهم كانوا يتكسبون بالتعليم

(٢) يقول الرافعي : لم ينتصف القرن الرابع حتى كان لفظ الادباء قد زال عن العلماء جملة وانفرد به الشعراء والكتاب لاستقلال العلوم يومئذ ، على ما كان من ضعف الرواية ونضوب مادتها ، حتى قالوا : ختم تاريخ الادباء بشعوب والمبرد ٢٦٦ : ١ الرافعي .

يحدث في نفس قارئه وسامعه لذة فنية شعراً كان أو نثراً ، والأدب بمعناه العام وهو ما يشمل الثقافة العامة التي تكون الرجل وترقى به إلى مستوى عقلي ممتاز .

هذا ولقلة اطلاع بعض المستشرقين ومن تابعهم من أدبائنا ، زعموا أن كلمة الأدب لم ترد في نص جاهلي أو إسلامي ، ولما قيل لهم إن الحديث « أدبني ربّي » ينفي ما ذهبتم إليه ، قالوا إنه حديث ضعيف . ثم قالوا : وإذا كانت كلمة « أدب » لم ترد في نص جاهلي أو إسلامي موثوق به وبصحة روايته ، وليست مع ذلك في اللغة العربية والسريانية كما يؤيده الباحثون في اللغات فمن أين إذا اشتقت هذه الكلمة وكيف استعملت في اللسان العربي ؟ اختلفوا في الإجابة عن ذلك السؤال :

١ - فبعض الباحثين يذهبون إلى أن كلمة « أدب » بالفتح مأخوذة من كلمة « أدب » بسكون الدال بمعنى الدعاء يقال : أدب القوم يأدبهم أدباً : إذا دعاهم إلى المأدبة لتناول الطعام (١) ، واسم الفاعل منه « أدب (٢) » قال طرفة الشاعر الجاهلي الفحل :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الأدب فينا يلتقر (٣)
ويجمع على « أدبة » ، ومنه قول الإمام علي رضي الله عنه : « أما إخواننا بنو أمية فقادة أدبة (٤) » .

فقد تولدت كلمة « أدب » إذاً من كلمة « أدب » بمعنى الدعاء (٥) ، فالأدب

(١) ١:٢٠٠ اللسان (٢) ١:٢٠١ اللسان
(٣) الجفلى : الدعوة العامة . النقرى : الدعوة الخاصة . انتقر : دعا النقرى
(٤) ٢:٢٠١ اللسان (٥) ويذكر ذلك الجواليقي في شرح أدب الكاتب
(ص ١٣) كما يذكر وجهاً آخر لاشتقاق كلمة أدب وهو أنها مأخوذة من الادب

يدعو إلى المحامد والآداب دعاء إلى الطعام ، وفي اللسان ما يؤيد ذلك قال ابن منظور م ٧١١ هـ في اللسان : « والآداب : الذي يتأدب به الأديب من الناس ، لأنه يأدب الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقايح (١) » .

وأخذ كلمة « أدب » من الأدب بالسكون رأى يعوزه الحجة ، فضلا عن أن الكلمة لم تنقل بنصها وسكون دالها والمعهود استعمال الكلمة عند نقلها من معنى إلى معنى بهيئتها وشكلها (٢) .

٢ - ويرى الأستاذ تليو من المستشرقين أن كلمة « أدب » مشتقة من كلمة « آداب » ، جمع « داب » بعد أن دخلها القلب المكاني (٣) ، ومع مرور الزمن تنوسى الأصل وتوهم أنها جمع « أدب » .

ويضعف هذا أن « داب » لم تجمع على آداب ، وأن هذا الرأي مجرد حدس وظن .

٣ - وقيل إن كلمة « أدب » أخذت عن بعض اللهجات العربية من غير اللهجة القرشبية (٤) وهي لهجات كانت لا تزال موجودة في العصر الإسلامي ثم ذاعت الكلمة بين الجميع ثم نقلت من المعنى الخلقى إلى المعنى الاصطلاحي

== وهو العجب فسكانه الشيء الذي يعجب منه لحسنه ، ولأن صاحبه الرجل الذي يعجب منه لفضله (١٣ و ١٤ شرح أدب الكاتب)

(١) راجع : ٢٠٠ : ١ اللسان

(٢) وفي اللسان (٢٠١ ج ١) الأدب مصدر قولك أدب القوم يأدبهم أدبا إذا دعاهم إلى طعامه والآداب الداعي إلى الطعام ، وقال سيبويه : قالوا المأدبة كما قالوا الدعاء وقيل المأدبة من الأدب . وفي اللسان أيضا : الأدب : الظرف وحسن التناول (٢٠٠ ج ١ اللسان)

(٣) ص ١٨ الأدب الجاهلي لطله حسين

(٤) ص ٢٠ من المرجع نفسه

المعروف في العصر الأموي للنسابة بين المعنيين ، قالوا : وهذا رأى قريب إلى العقل وهو أشبه بالصواب .

٤ - وهناك من الباحثين من يفرض أن كلمة أديب مأخوذة من لغة السومريين إذ كان معناها عندهم (إنسان) ، وبقيت في لغة العرب كما كانت في الأصل مراداً بها معنى الانسانية ، وغيرت في اللغات السامية الأخرى من أديب إلى آدم (١) .

وكل هذه الفروض والتأويلات ترينا مدى تخبط هؤلاء وهؤلاء .

إن كلمة أدب قد وردت في نهوض جاهلية وإسلامية وأموية بنصها حيناً وبمادتها حيناً آخر ، وإذا كان بعض اللغويين لم يروا هذه النصوص ولا هذه الكلمة عن العصر الجاهلي كإن منظور فانها مبثوثة في كتب الأدب وسواها فارجعوا إليها إن شئتم .

ولا حاجة لنا - بعد وجود هذه النصوص في الأدب الجاهلي - إلى أن نبني على استنتاج لا يؤيده الدليل آراء هي من صنع الوهم والخيال .

- ٤ -

وبعد فالأدب مظهر للبلاغة ، وصورة من صور التفكير والخيال والعاطفة والإحساس والشعور والذوق والفهم والحياة ، وهو وسيلة المصلحين والمرسلين وأصحاب الدعوات العامة ، ولا يستغنى عنه إنسان في العصر الحديث ، فالصحافي والقاضي والمحامي والنائب والوزير والأمير والسكران والمصلح والواعظ والمرشد وغيرهم في حاجة ماسة إلى الأدب وتأثيره وقوته في التعبير والافتقار وإثارة المشاعر في نفوس الجماهير والطبقات .

هذا والأدب العربي من أغنى آداب الأمم جميعاً ، ولا يزال كما

(١) راجع الفصل الأول من الباب الأول من كتاب أصول النقد الأدبي للشايب

كان حافلا بأسباب القوة والبلاغة ، وعاملا كبيراً في المجتمعات العربية وإصلاحها .

وينقد الدكتور طه حسين رأي من يذهب إلى أن كلمة أدب مشتقة من الأدب بمعنى الدعوة إلى الطعام كما ينقد رأي نليينو الذي ذهب إليه من أن الكلمة مأخوذة من آداب جمع دأب (١) ويذهب إلى أن الكلمة - أدب - استعملت في عصر بني أمية بمعنى التعليم بطريق الرواية على اختلاف ألوان هذه الرواية (٢) ، وأنها قد دخلت في لغة قريش إبان العصر الأموي حيث انتقلت إليها من إحدى اللهجات العربية الغير القرشية التي ضاعت (٣) .

ويقول : إن الأدب في القرن الثاني والثالث والرابع كان يدل على ما يؤثر من الشعر والنثر ، وما يتصل بهما لتفسيرهما من ناحية ، ولتقدمهما من ناحية أخرى (٤) .. وهذا هو مدلول الأدب الآن عندنا ، وعند الأمم الأجنبية القديمة والحديثة على السواء (٤) .. فالأدب عنده هو ما يؤثر الكلام ، والأدب يستطيع ألا يتجاوز ما يؤثر الكلام نظماً كان أو نثراً ، ولكن مؤرخ الأدب لا يستطيع أن يكتفى بما يؤثر الكلام ولا بما يتصل به من علوم ، وإنما هو مضطر إلى أن يدرس تاريخ العقل الإنساني ، فيلم بتاريخ العلوم والفلسفة والفنون وسواها (٥) .

ويدخل طه حسين النقد في الأدب ، ويخالفه هيكل في ذلك ، فيخرج النقد عن الأدب ، بدعوى أن القصيدة مثلاً تغلب فيها الذاتية أي تظهر فيها شخصية الشاعر وميوله وأهواؤه ، أما النقد فتغلب عليه الموضوعية ، أي تدمج أو تكاد تدمج فيه شخصية الناقد ولا تظهر فيه إلا أصول النقد وموازينه الدقيقة ، وهو من أجل هذا - عند هيكل - إلى أن يكون علماً أدنى منه إلى أن يكون أدباً .. من حيث يرى طه حسين أن الذاتية هي المؤثر

(١) ١٨ و ١٩ الأدب الجاهلي طه حسين طبعة ١٩٢٧

(٢) ص ١٩ المرجع (٣) ٢١ المرجع

(٤) ص ٢٤ المرجع (٥) ٢٦ المرجع

الأول في النقد ، وأن الذوق هو المسيطر على الناقد ، فالذاتية هي الظاهرة في النقد لا الموضوعية ، فهو كالتصيدة مثلاً سواء بسواء ، فن القالو - كما يقول طه حسين - أن يقصر لفظ الأدب على الشعر والقصة والرسالة دون ما يمس هذه الآثار كلها من النقد ؛ ويرى هيكل أن التاريخ الأدبي ليس من الأدب لأنه علم ، ولكن طه حسين يقول : إن كلمة الأدب لها معنيان : أحدهما خاص وهو يدل على الشعر والنثر الفني وكل كلام يقصد به إلى الجودة وإلى إحداث المتعة الفنية في نفس القارئ أو السامع ، والثاني عام يعتمد إليه الذين يريدون تاريخ الآداب وهو يدل على كل ما تنتجه النفس الإنسانية من ثقافات ، فالأدب بمعناه الخاص عند طه حسين يدخل فيه النقد والتاريخ الأدبي وبعض كتب التاريخ وبعض كتب الفلسفة أحياناً .

- ٦ -

وأدب لغة أية أمة من الأمم هو ذلك الفن البليغ من مآثور شعرها ونثرها مما يصدر عن الطباع ، ويؤثر في النفوس ، ويشير العواطف ، ويدعو إلى الإعجاب والاستحسان ، وما يتصل بذلك من شرح ونقد وقصص وأخبار وأنساب وثقافة عامة تعين على فهم الآثار الأدبية وتذوقها ، ولذلك يقول ابن خلدون م ٨٠٨ هـ في مقدمته : الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف ، وقد سبقه إلى ذلك ابن قتيبة م ٢٧٦ هـ فقال : « من أراد أن يكون عالماً فليأزم فنا واحداً ، ومن أراد أن يكون أديباً فليتسع في العلوم » (١) .

وأهم مصادر الأدب العربي : البيان والتبيين للجاحظ والكامل للمبرد والأغانى للأصفهاني ، والأمالى للقالى . وأمالى ابن الشجرى ، والعقد الفريد لابن

(١) ٤٨٨ المقدمة ط المطبعة الأزهرية . وهو مسبوق بكلام عبد الحميد الكاتب في رسالته إلى الكتاب حيث يقول منها في ثقافة الكاتب : « قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه وإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به ،

عبد ربه، وبتيمة الدهر ، ومعجم الأدباء لياقوت م ٦٢٦ هـ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان م ٦٨١ هـ ، وزهر الآداب للحصري م ٤٢٣ هـ ، وبغية الوعاة للسيوطي م ٩١١ هـ ونفح الطيب للمقري وقلائد العقبان للفتح بن خاقان ، والمستظرف للأبشي من علماء القرن التاسع الهجري ، وثمرات الأوراق لابن حجة الحموي م ٨٣٧ هـ ، وسواها من الكتب والمصادر .

- - ٧ - -

أما تاريخ أدب اللغة العربية ، فهو علم جديد حديث للنشأة ، ابتكره الإيطاليون في القرن الثامن عشر (١) ، وعنى به المستشرقون في القرن التاسع عشر ، ونقله عنهم المغفور له الأستاذ حسن توفيق العدل إثر عودته من ألمانيا عام ١٨٩٢ وقيامه بتدريسه في مدرسة المعلمين العليا ودار العلوم ؛ ثم سار على أثره جورجى زيدان في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ، ثم ألف فيه بعد ذلك عدد من بحول الأدباء من أمثال الاسكندري في الوسيط الذي اشترك معه في تأليفه الشيخ مصطفى العنانى ، وفي غير الوسيط من كتبه في تاريخ الأدب التي كانت تدريس في دارالعلوم ، والشيخ علام سلامة ، والمرحوم أستاذنا محمود مصطفى والدكتور طه حسين في الأدب الجاهلي ، وأحمد حسن الزيات في كتابه « تاريخ الأدب العربى » ، والمغفور له مصطفى صادق الرافعى في كتابه « تاريخ أدب لغة العرب » الذى طبع بعد وفاته في ثلاثة أجزاء ، وأصحاب الفصل مجزئيه - وقد كان علم تاريخ أدب اللغة العربية في أول القرن العشرين يسمى تاريخ أدبيات اللغة العربية :

كان منهج أدباء العرب في دراسة الأدب العربى (٢) ينحون نحو دراسة تراجم الأدباء والكتاب والشعراء ورواية آثارهم الادبية ونقدها والموازنة بينها وبين غيرها من الآثار مع تدوين مآثور أدب العرب شعراً ونثراً وشرحه

(١) على أن أول من ميز الأدب والفنون بالتاريخ هو باكون مؤسس الفلسفة الحديثة المتوفى ١٦٢٦ م فقد جعل التاريخ ثلاثة أنواع : التاريخ الدينى وتاريخ الاجتماع وتاريخ الآداب والفنون (٢) راجع كتابى « مذاهب الأدب » ص ٧٩

وتحليله ونقده والإلمام ببعض أصول الأدب والشعر في الأسلوب والطبع والروح والذوق ، ومن هؤلاء : الجاحظ في البيان والمبرد في الكامل ، وابن سلام في طبقات الشعراء ، وابن قتيبة في « الشعر والشعراء » ، وأبو الفرج في الأغاني ، والقالي في الأمالي ، وابن عبد ربه في العقد ، والآمدي م ٢٧١ هـ في الموازنة ، والقاضي الجرجاني م ٣٦٦ هـ في الوساطة . وابن رشيق م ٤٥٦ هـ في العمدة ، وأبو هلال في الصناعتين . ومن هذه الكتب : وفيات الأعيان لابن خلكان م ٦٨١ هـ ، وقيمة الدهر لشعالي م ٤٢٨ هـ ، ومعجم الأدباء لياقوت م ٦٢٦ هـ ، ونفح الطيب للمقري ، وقد تبع هذا المنهج في العصر الحديث الشيخان : المرصفي في الوسيلة الأدبية ، وحمزة فتح الله في المواهب الفتحية .

ويقول ابن خلدون : كتب الأدب أربعة : كتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب الكامل للمبرد وكتاب أدب السكاك لابن قتيبة وكتاب النوادر لابن قتيبة أيضاً .

ولكن المستشرقين (١) استمدوا من هذه الأصول والدراسات العامة المبثوثة المفركة في أدبنا العربي ما أعانهم على بحث تاريخ الأدب العربي على ضوء بحوثهم في تاريخ آداب لغاتهم ، فأخذوا يبحثون عصور الآداب العربية وحالة اللغة والأدب في كل عصر وحلوا المؤثرات العامة التي أثرت في الأدب في كل فترة من هذه الفترات نهضة أو ضعفاً ، وعنوان تاريخ أعلام الأدب العربي في الشعر والنثر والخطابة وترجموا لهم ودرسوا آثارهم الأدبية دراسة واسعة وذكر والخلاف بين المدارس الأدبية المختلفة وأثر كل مدرسة في الأخرى ، والتجديد والتقليد بين هذه المدارس المتنوعة ، إلى غير ذلك من جديد الدراسات التي لم توجد بهذا اللون في الأدب العربي القديم ، والتي

(١) راجع مقدمة الأدب الجمالي ومقدمة تجديد ذكرى أبي العلاء لطف

لا تعتمد دراسات العمدة والمثل السائر وفهرست ابن التديم بجانبها شيئاً مذكوراً
وسميت هذه الدراسات « علم تاريخ أدب اللغة العربية » .

فهذا العلم جديد لذاً ، وهو يبحث في أحوال اللغة نثرها ونظمها في شتى
العصور المختلفة ، وفي المؤثرات العامة في الادب العربي في كل عصر ضعفاً
وقوة ، وفي ما كان لآعلام الادب العربي من الاثر فيه وفي اللغة ، وفي
حياتهم وتحليل أديهم ونقده .

ولهذا العلم منزلة كبيرة في دراسات الادب في العصر الحديث : فهو
يوقفنا على الاساليب الاولى التي أثرت في الادب العربي ارتقاء وضعفاً في شتى
العصور ؛ ويعرض علينا الآثار الادبية لكل عصر ، حتى لنكاد نلمس سمات
كل عصر في التعبير والبيان ، ونقف على الفروق بين الادب وأساليبه في كل
جيل ، وهو فوق ذلك لا يلبس أعلام الادب ورجاله ، فيؤرخ حياتهم ويدرس
آثارهم ، ويمحي ذكرهم على مر الاجيال .

- ٨ -

والتاريخ الأدبي لأداب أمة من الامم شديد الصلة بتاريخها الاجتماعي
والسياسي :

- ١ - فهو يؤرخ حياة الامم الادبية والفكرية والخلقية .
- ٢ - ويعين المؤرخ السياسي في فهم حقائق التاريخ وحالة الامة التي
يريد تدوين تاريخها العام .

وإذا كان التاريخ الأدبي مؤثراً في التاريخ العام فلا شك أنه يتأثر به إلى
حد كبير أيضاً ، فليس من السهل دراسة أدب الامة إلا بعد دراسة تاريخها
السياسي وأثره في حياتها الادبية ؛ وليس من السهل دراسة الادباء من شعراء
وكتاب ، إلا بعد دراسة عصورهم التي نشأوا فيها ، وأثر بيئاتهم وأحوال
مجتمعاتهم في حياتهم العامة والخاصة ، فضلاً عن أن الاحداث السياسية الكبرى
هي التي تؤثر في حالة الادب وحياته وضعفه أو قوته .

فكلا التاريخين في الحقيقة متأثر بصاحبه مؤثر فيه .

وتاريخ أدب اللغة العربية يمكنك أن تقسمه إلى عصور متعددة ،
تختلف حالة الأدب العربي في كل عصر منها عن حالته في الآخر اختلافاً
واضحاً ، لاختلاف الحياة السياسية في هذا العصر عنها في العصر الذي يليه
أو الذي قبله .

وهذه العصور هي :

١ - العصر الجاهلي : ويبتدىء باستقلال العدنانيين عن اليمنيين في منتصف
القرن الخامس للميلاد ، وينتهي بظهور الإسلام سنة ٦٢٢ م .

٢ - العصر الإسلامي : ويبتدىء بظهور الإسلام وينتهي بقيام الدولة
العباسية سنة ١٣١ هـ ، وبعض الباحثين يقسم هذا العصر إلى قسمين :

أ - عصر صدر الإسلام : من ظهور الإسلام حتى قيام الدولة الأموية
عام ٤١ هـ .

ب - العصر الأموي : من عام ٤١ إلى سقوط الدولة الأموية عام ١٣٢ هـ

٣ - العصر العباسي : ويبتدىء بقيام الدولة العباسية عام ١٣٢ هـ وينتهي
بسقوطها على أيدي التتار عام ٦٥٦ هـ .

وبعض العلماء يقسمه إلى عصرين :

أ - العصر العباسي الأول : ويبتدىء من قيام الدولة إلى عام ٣٣٤ هـ .

ب - العصر العباسي الثاني ، يبتدىء من عام ٣٣٤ هـ إلى آخر عهد الدولة .

٤ - العصر التركي : ويبتدىء بسقوط بغداد عام ٦٥٦ هـ ، وينتهي بحكم
محمد علي لمصر عام ١٢٢٠ هـ .

ويقسمه البعض إلى عصرين :

عصر المماليك ، وعصر العثمانيين :

٥ — عصر النهضة الحديثة : من قيام حكم محمد على فى مصر عام ١٢٢٠ هـ حتى يومنا هذا .

ولعل من الجدير بالذكر أن ننوه هنا بأن الحياة الأدبية فى أول عصر من العصور لا تنكاد تختلف عنها فى نهاية العصر الذى قبله فى كثير ، ذلك أن حياة الأمة وحالتها الاجتماعية والخلقية والعقلية والفكرية لا تتغير إلا ببطء وبعد مدة كبيرة تعمل فيها عوامل التغيير السياسى الجديد عملها ، وفى بدء الانقلاب السياسى لا تنكاد تشعر بفارق كبير بين الحياة الادبية التى توجد فى بدء الانقلاب وبينها قبيل الانقلاب ، فإذا ما مضى الزمن وسارت الأيام ظهر أثر هذا التغيير السياسى الجديد فى حياة الأمة وتفكيرها وتراثها الادبى بجميع فنونه وألوانه .

هذا والمؤثرات السياسية ليست وحدها هى العامل الرئيسى فى التغيرات الادبية ، بل هناك عوامل كثيرة أخرى منها : نفس الإقليم الذى تعيش فيه الأمة ، ونوع الحضارة التى نحيا فى ظلها ، ومقدار الثقافة التى تشيع فيها ، ومنها الدين الذى هو قوام الحياة النفسية والوجدانية للشعوب : ومنها مدى الاتصال بين هذا الشعب والشعوب الأخرى التى تجاوره أو البعيدة عنه ، ومنها استعداد الأمة الفطرى الذى يلون ملكاتها العامة بألوان خاصة متميزة ومنها الحروب التى تقوم بين الأمة وغيرها من الأمم المجاورة لها ؛ إلى غير ذلك من شتى المؤثرات فى الحياة الادبية .

ومن ذلك نعلم أن الحياة السياسية لا يستلزم تحسنها نهضة الادب والشعر فى أى أمة من الأمم ، بل قد تسوء الحياة السياسية ومع ذلك ترقى الآداب وتنهض كما حدث فى القرن الرابع الهجرى فقد ارتقت الحياة الادبية إلى حد كبير بتشجيع الملوك والأمراء للآداب والشعر واللغة ، وقد ترقى الحياة السياسية للأمة ومع ذلك يضعف أدبها كما فى عصور الطغیان السياسى فى حكم الملوك المستبدين .

الباب الاول

المؤثرات العامة

في الأدب الجاهلي

يتأثر الأدب عامة في شتى العصور بمؤثرات كثيرة (١)، أهمها : البيئة ؛ والدين ؛ وحياة الأمة السياسية، ومقدار حظها من البداوة أو الحضارة ، وما يؤثر في عقول أبنائها من ثقافة ومعرفة ، ومدى ما بينها وبين غيرها من الأمم المختلفة من اتصال وعلاقة ، وفطرة الأمة نفسها وما تدفعها إليه هذه الفطرة من اتجاهات وأهداف ، ومن المؤثرات في الأدب : التنافس الأدبي ؛ وظهور النقد، والأسواق الأدبية والأندية الثقافية ، وسوى ذلك مما ينهض بالأدب ويؤثر فيه .

وقد كانت هناك عوامل كثيرة تؤثر في الأدب الجاهلي ، منها هذه البيئة العربية . وحياة العرب السياسية والاجتماعية والدينية . ومعارفهم العامة ، ومدى اتصالهم بغيرهم من الأمم والشعوب ، ومنها هذه اللغة العربية نفسها . إلى غير ذلك من المؤثرات في الأدب الجاهلي (٢) مما سنلم به في هذا الباب في شيء من التفصيل .

(١) راجع المؤثرات العامة في الأدب بتفصيل في كتابي «مذاهب الأدب» ص ٦٩ وما بعدها ، وفي كتاب «الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام» تأليف : خفاجي وحسن حاد والمسئول ص ٤٨ طبعة ١٩٥٥ ، وفي أصول الأدب كلاً من : ولذلك آثرنا عدم التعرض لها بتوسع في هذا المقام .

(٢) راجع كتاب «قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي» - تأليف عبد الله عبد الجبار ومحمد عبد المنعم خفاجي

الامة العربية

موطن العرب ، وصف للجزيرة العربية :

العرب هم سكان الجزيرة العربية . وتطلق على هذه البقعة اسم « جزيرة » مع أن الماء لا يحيط بها من كل حدودها . فبينما تجد أنه يحيط بها من الغرب بحر القلزم « البحر الأحمر » ، ومن الجنوب بحر الهند أو بحر العرب « المحيط الهندي » ، ومن الشرق بحر عمان وفارس ونهر الفرات ، تجد حدودها من الشمال أرضا مقسمة شاسعة تشمل الجزيرة وبلاد الشام وفلسطين إنما هو خارج عن شبه الجزيرة ، وإن كان العرب قد سكنوا قبل الإسلام جزأ كبيراً من سوريا والجزيرة العربية وأرض فلسطين .

وتنقسم شبه جزيرة العرب إلى خمسة أقسام هي : تهامة ، ونجد والحجاز واليمن ، والعروض .

تهامة : هي الجزء الواقع غرب جبل السراة الذي يقسم شبه الجزيرة من الجنوب (اليمن) إلى الشمال (الشام) قسمين .

وهي أرض منخفضة ، وتسمى الغور ، وتمتد على شاطئ البحر الأحمر ، وسموها تهامة لشدة حرها وركود ريحها ، من التهم وهو شدة الحرور كود الريح . ويسمى جبل السراة الحجاز لأنه حجز بين تهامة الواقعة غربيته وبين نجد الواقعة شرقيه ، ومن ذلك يقال : أغار وأنجد وأتهم .

وتهامة أقسام : تهامة اليمن ، وتهامة الحجاز .

وأما نجد : فهي الواقعة شرقي جبل السراة من أدنى حدود اليمن جنوباً إلى السماوة شمالاً وتنتهى من الشرق إلى العروض ، وسميت نجداً لارتفاع أرضها .

وتقع اليمن جنوبي نجد إلى ساحل بحر الهند وتمتد شرقاً إلى حضرموت

والشحر و عمان . وتشمل قسما من تهامة وقسما من نجد .

وأما العروض : فتشمل اليمامة والبحرين وما والاها وفيها مرتفعات ومنخفضات ومسائل أودية . وسميت عروضا لاعتراضها بين اليمن ونجد والعراق .

وأرض شبه الجزيرة كثيرة الجبال الجرد المختلفة اللون ومنها الحارر جمع حرّة . وهى الجبال السوداء اللون . يتخلل هذه الجبال : بعض الأودية التى تجرى فيها السيول أحيانا ، والصحارى الواسعة السكيرة .

وأشهر الأودية بشبه الجزيرة وادى الدهناء بنجد ، وهو فى مواطن تميم بالقرب من البصرة .

وتكثر فى بلا اليمن الأودية والرياض (١) . من حيث تقل فى الحجاز ، فيعتمد أهله على العيون أو ماء المطر الذى يلبث الكلا فى بعض الأراضى القرية من الأودية . ولعدم نزول المطر فى مواعيد منظمة تعذر على العرب المكث فى مكان واحد . ومن أجل ذلك أكثروا الرحلة والانتجاع لمواقع الماء ومنابت الكلا والعشب .

وجو شبه الجزيرة شديد الحرارة فى تهامة مع رطوبة شواطئها الواقعة على البحر الأحمر ، شديد أيضا فى الجبال صيفا وإن اشتد البرد بالجبال شتاء . أما نجد فمعتدلة الهواء ، وحول الأودية أكثر ، لارتفاعها ، ووجود بعض الأعشاب والحشائش والمزروعات فيها . وأما اليمن فمعتدلة شتاء ، شديدة الحرارة صيفا ؛ ينزل بها المطر بغزارة فى الربيع . وأطيب الرياح بشبه الجزيرة ربيع الصبا ، وأشدّها حرارة ربيع السموم .

وأهم مدن الحجاز : مكة وتقيم بها قريش وكنانة وبجنوبها هذيل . والمدينة وبها الأوس والخزرج وهم الانصار وبنو قريظة والنضير وقينقاع

(١) هى المواضع التى يستنقع فيها الماء

من اليهود وشمالها فدك وخيبر . وبمحاذاة فدك وادى القرى الذى يقول فيه جميل :

ألا ليت شعري هل آيتن ليالة

بوادى القسرى لى إذا لسعيد

ومن مدنه كذلك الطائف وتسكنها ثقيف وهى فى الجنوب الشرقى لمكة ويقع شرقها سوق عكاظ ، وهى خصبة جيدة الجو والهواء تزرع بها القمح وتقع جدة على البحر الأحمر فى امتداد مكة . كما تقع يلبع عليه فى امتداد المدينة .

وأشهر مدن اليمن نجران شمالا وقد اعتنق سكانها النصرانية ، وأراد ذو نواس إرغامهم على اليهودية فأبوا فأحرقهم فى الأخدود الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم « قتل أصحاب الأخدود » . وبنجران بنى أبرهة معبدا كبيرا ليصرف العرب عن الكعبة إليه ولكنه أخفق فيما أراد . ومن مدن اليمن : مأرب أو سبأ وكان فى الجنوب الغربى منها السد الذى خربه سيل العرم عام ١٢٠ ق م وفيه يقول الاعشى :

وفى ذلك للوتسى أسوة ومأرب عفى عليها العرم

رُخام بلته لهم خمير إذا جاء مؤاره لم يرم

فأروى الزرع وأعنا بها على سعة مأوئهم إذ قسم

فصاروا أيادى ما يقدر ن منه على شرب طفل فطم

ومن مدنها صنعاء وهى حاضرتها حتى اليوم ، وبها قصر غمدان وفى جنوبها خرائب مدينة « ظفار » حاضرة الحميريين . وفى المثل « من دخل ظفار حمر ، أى تكلم باللغة الحميرية . وتشمل اليمن : حضر موت ومهرة والشحر ، وشمال حضر موت الأحقاف مساكن عاد واذكر أبا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف » ، وإلى مهرة تنسب الإبل المهرية وقيل إن نسبتها إلى مهرة حتى من قضاة من عرب اليمن ولغة المهرين حميرية مستعجمة لاتكاد تفهم وأهم القبائل باليمن : همدان وكان لها فى الجاهلية صهيان يغوث ويعوق .

وكذلك مذحج ومراد . والحضارمة ذو نشاط في التجارة والرحلة .
وبنجد مدينة الرياض ، ومن جبالها أجأ وسلي جبالطيء ؛ وبها كثير
من القبائل العربية المشهورة كطيء وتميم وبكر وتغلب وقيس وعيلان
وعظفان ، ونجد : إقليم صحراوي تسكنها الدارات (الواحات) والاوذية
وجوها معتدل طيب الهواء ، وقد أشاد بها وبجوها الشعراء ، قال الشاعر :

نَمْتَحُ من شميمِ عَرَارٍ نَجْدُ فما بعدَ العشيَّةِ من عَرَارٍ
ألا يا حبيذاً نفحاتِ نَجْدٍ وريا روضة بعد القطار (١)

ولابن الصمة :

قفا ودّعاً نجداً ومن جلّ بالحمى وقلّ لنجدٍ عندنا أن يودّعاً
بنفسى تلك الأرض ما أطيب الربا وما أحسن المصطاف والمتربعا
وأما العروض فتلتظم اليمامة والبحرين وعمان .

وأما عمان فقطرجيلي على شاطئ البحر في الجنوب الشرقي للجزيرة وقد
اشتهر أهلها بالملاحة وكان يسكنها قوم من طيء من أشهرهم قبيلة نهبان .
واليمامة في الداخل وتسبب إليها زرقاء اليمامة وتقع في الجنوب الشرقي لنجد
وكانت مسكناً لطسم وجديس . والجزء الممتد في شرق الجزيرة إلى حدود
العراق على بحر فارس يسمى البحرين ومن أشهر مدنه : هجر وتشتهر بالتمر ،
وفي المثل : كناقل التمر إلى هجر ، وخر بها القرامطة وبنوا مكانها الإحساء ،
ومن مدنه كذلك قطر .

واشتهر أهلها بالفوص على اللؤلؤ . وقد كان يسكن البحرين قبائل من
عبد القيس وقيم .

أصل العرب :

العرب إحدى الأمم السامية التي تنسب إلى سام بن نوح ومن الأمم

(١) العرار : نبت طيب الرائحة : القطار : جمع قطر جمع قطرة

السامية البابليون والآشوريون والسبثيون والآراميون والانباط والاحباش
والعبرانيون والفيليقيون .

وقد اعتمد العالم ايشهرون م ١٨٢٧ هـ هذا التقسيم وأقره وحشر هذه
الشعوب كلها في زمرة واحدة .

وقد استخلصت هذه التسمية « السامية » من التوراة (١)

فمجموعة الامم التي كانت تقطن بلاد آسيا الدنيا هي التي كانت تكون
هذه الوحدة الديموية واللغوية المستقلة .

ولكن هل كان لجميع الامم السامية موطن واحد ومهد أصلي نشأت كلها
فيه ثم تفرعت عنه وانتشرت في أنحاء المعمورة (٢) ؟

لم يتفق الباحثون من المستشرقين بعد على شيء في ذلك . فبعضهم يقول
بالإيجاب ، وبعضهم يحجب بالنفي ، والذين يقولون إنه كان للأمم السامية
موطن أصلي واحد يزعم بعضهم أن المهد الأصلي للساميين هو أرض أرمينية
بالقرب من حدود كردستان . والتوراة تؤيد أن هذا المهد الأصلي هو
أرض بابل ، ويؤيد ذلك المستشرق الإيطالي جويدي . والبعض يرون أن مهد
الساميين هو جزيرة العرب ، وآخرون يرونه في الحبشة . ومن الذين ينفون
هذا المواطن الأصلي المشترك للساميين نولدكه ويؤيد رأيه باختلاف
مسميات المشاهدات الأولى - من جبل وشجر وحيوان ونبات - في جميع
اللغات السامية .

ومهما يكن فأقدم الهجرات السامية كانت هجرة سكان الجزيرة الذين

(١) سفر التكوين الاصحاح العاشر

(٢) راجع : كتاب « اتجاه الموجات البشرية لمحج الدين الخطيب ، وفي مجلة
الرسالة عام ١٩٣٦ بحث لكاتب في أصل الحضارة العربية وهل نشأت في الجزيرة
العربية أو في العراق أو الحبشة ثم انتقلت اليها ، وراجع كذلك كتاب تاريخ
اللغات السامية .

اتجهوا نحو بابل وأسسوا لهم مملكة كبيرة في وادى الفرات .

الشعوب العربية :

يجتمع رأى المؤرخين على أن العرب ثلاث طبقات :

١ - الطبقة الأولى وقد بادت وتلاشت وتسمى العرب البائدة أو العاربة وقد درست آثارهم وأخبارهم إلا القليل . والمشهور منهم قبيلة عاد وكانت بلادها الأحقاف بين اليمن وعمان من البحرين إلى حضرموت والشحر ، وقبيلة ثمود وكانت منازلهم بالحجر ووادى القرى بين الحجاز والشام وكانوا ينحتون بيوتهم من الجبال ، وغيرها من القبيلتين : كالمالقة ، وطسم بالأحقاف ، وجديس ، ويزعم بعض الباحثين أن الحمورايين من العرب البائدة وهو خطأ فى البحث والرأى .

ب - والطبقة الثانية - التى بقيت آثارها وأخبارها - هى أولاد قحطان الذى يسمى فى التوراة باسم يارح بن يقطان وأبوهم يعرب بن قحطان أول من نطق بالعربية من هذا الجيل ، ويزعم العرب أنه أصل لسانهم وبذلك يفتخر حسان فى قوله :

تَعَلَّمْتُمْ مِنْ مَنْطِقِ الشَّيْخِ يَعْرُبٍ أَيْبَيْنَا فَصَرْتُمْ مُعَرَّبِينَ ذَوِي نَفْسٍ
وَكُنْتُمْ قَدِيمًا مَا لَكُمْ غَيْرَ عَجْزَةٍ كَلَامٌ وَكُنْتُمْ كَالْبَهَائِمِ فِي الْقَفْرِ
وقد سكنوا اليمن بعد المعيليين مهاجرين اليها من بابل أو الحبشة . وهذه الطبقة فرعان :

١ - العرب المستعربة ، وقد ورثوا صفات العرب القديمة . وهم السبئيون والحيريون .

٢ - العرب المستعربة وهم عرب الشمال أو الاسماعيلية أو العدنانية الذين استفادوا اللغة من عرب الجنوب ، ونقلوا العادات والأخلاق عنهم بمصاهرة اسماعيل لقبيلة جرهم الثانية اليمنية التى نزحت من الجنوب إلى الشمال

وهي غير جرم الأولى إحدى القبائل البائدة . والعديانويون أهل الحجاز وأصحاب اللغة الفصحى ومظاهر المدنية العربية إلى يومنا هذا . أما أهل الجنوب من ولد قحطان فقد بادت دولهم وطويت صحائفهم قبل البعثة بعدة قرون ، ومن بق منهم اندمج في عرب الشمال .

ويتهى نسب العدنانيين إلى اسماعيل عليه السلام الذي هاجر به أبوه إبراهيم إلى مكة بواد غير ذي ذرع هو وأمه هاجر المصرية وتزوج من جرم ثم كثر أولاده واستقلوا بهذه البلاد وطردها منها الجرهميين ، وأصبحوا عنصراً جديداً يخالف في الحياة والتقاليد واللغة عنصر القحطانيين .

ويبدأ تاريخ العدنانيين منذ القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، وسلسلة نسبهم إلى عدنان - من ذرية اسماعيل - معروفة أما ما بين عدنان واسماعيل فيختلف فيه علماء الأنساب اختلافاً كبيراً .

القبائل العربية (١) :

١ - القبائل القحطانية :

(١) راجع في هذا :

أ - كتب التاريخ كابن خلدون والطبري والكامل لابن الأثير وسواها

ب - كتب الأنساب وهي كثيرة لا يحصها العد

ج - كتب الأدب : ومن أهمها : العقد الفريد (٢٠٨ - ٢٦٣ : ٢ العقد

ط التجارة ١٩٣٥)

ملاحظة : قال ابن السكيت : الشعب أكبر من القبيلة ثم من الهارة ثم البطن ثم الفخذ ثم العشيرة ثم الفصيلة ، والفصيلة هي أهل بيت الرجل خاصة ، والعشيرة هي روط الرجل . وقال غيره : الشعوب العجم والقبائل العرب (راجع ٢٢٣ ج ٢ العقد ط ١٩٣٥ .. وراجع ١١٢ الشهاب الراصد للطبق جمعه ط ١٩٢٦ - والأحكام السلطانية للماوردي ص ٣٥٣ بون ط ١٨٥٣ ، ولسان العرب مادة نخذ ، وبلوغ الأرب ١٩٠ : ٣ وما بعدها)

قحطان (١) هو الجند الأول للقبائل القحطانية ، وأبوهم هو يعرب بن قحطان .

وكان مهد شعب قحطان هو اليمن . وأشهر قبائلهم : كهلان وحير .
أما كهلان : فكان لهم ملك باليمن حيث شاركوا الحميريين في ملك هذه البلاد ، ثم انفرد الحميريون بالملك وصارت بطون كهلان تحت إمرتهم ونفوذهم ثم تضائل ملك حمير وبقيت الرياسة على العرب بالبادية لبني كهلان .

ومن بطون كهلان : « الأزد » ومنها : الأوس والخزرج سكان المدينة ، وغسان ملوك الشام ، و « طيء » وكانت منازلهم باليمن ثم هاجروا منها بعد سيل العرم وأقاموا بنجد بجبل أجأ وسلمى (٢) ، و « كندة » باليمن ونجد ، و « بجيلة » و « لحم » و « عاملة » شمالي الشام ، و « ومذحج » باليمن ، ومراد وهمدان بها أيضا ، و « جذام » على خليج العقبة .

وأما حمير : فكانت بلادهم مشارف اليمن فظفار وما حولها . ومن قبائلهم : « قضاعة » وكان قضاعة مالكا لبلاد الشحر ، وقبره موجود بجبل الشحر واليه نسبت القبيلة . ويزعم بعض النسابين أن قضاعة من القبائل العدنانية وهذا خطأ واضح . وانقسمت قضاعة إلى بطون من أشهرها :

(١) راجع انساب اليمن في العقد (٢٤٢ : ٢ ط ١٩٣٥) . وفي كتاب تاريخ سني الملوك لحمة الأصفهاني تفصيل لتاريخهم وانسابهم .

(٢) يقعان في الشمال الشرقي للمدينة ويخترقهما وادي الدهناء . ولما عنتهما عشر بنو طيء . في عز ومنعة قال شاعرهم عارق الطائي :

ومن مبلغ عمر بن هند رسالة إذا استحققتهم العيس تنضي . من اليمد
أيوعدني والرمل يئني وبينه تأمل رويدا ما أمامة من هند ؟
ومن أجأ حولي دعان كأنها قبائل خيل من كيت ومن ورد

« بلى ، شمالى الحجاز و « جهينة ، كذلك « وعذرة ، جنوب الحجاز
و « تنوخ ، قرب المعرة .

هذا وكان اليمينيون يسمون مقاماتهم باليمن مخالفين لجمع بخلاف ، ويضاف
إلى اسم القبيلة التى تسكنه .

وقد أثر فى حياتهم الاجتماعية والسياسية سيل العرم تأثير كبيراً . فقد
كانوا بنوا فى مارب سداً كبيراً بمثابة (الخزانات الحديثة المعروفة عندنا)
وأفادوا منه فى تجميع مياه السيول والأمطار وخزنها فيه وتصريفها عنه على
حسب الحاجة . ولما قلت العناية به وبالسهر عليه تصدعت جوانب هذا
السد ولم يستطع مقاومة هجمات السيول المتواردة عليه والمياه الكثيرة
المحجوزة خلفه فاكسر وفاضت المياه على ما أمامه من القرى والمزارع
فأتلفتها ، وكان ذلك على ما حققه الباحثون عام ١٢٠ ق م وأدى ذلك إلى هجرة
أهل الجنوب إلى الشمال .

٢ - العدنانيون أو الاسماعيليون أو الحجازيون أو عرب أهل الشمال :

يلتهى نسبهم إلى اسماعيل بن ابراهيم الذى نزل مكة وجاور جرهما وصاهرهم
وبنى هو وأبوه ابراهيم البيت الحرام ، ثم تناسل أبناؤه وكان منهم عدنان
وولده ، ومن عدنان تبتدىء سلسلة نسب العدنانيين المعروفة .

وقد انقسمت القبائل العدنانية من نزار بن معد بن عدنان . ومن بهلونه :
إياد وربيعة ومضر وأنمار . وأشهرهم وأكثرهم ربيعة ومضر .

أما ربيعة فمنها قبائل كثيرة لها شهرة وذكر عظيم فى تاريخ العرب حيث
كانوا ينادون مضر فى الشرف والسيادة ومنهم كان أكثر الخوارج فى الإسلام
ومن ربيعة : عبد القيس ، ومنها بكر وتغلب ابنا وائل ، ومن بكر حنيفة
وعجل ابنا لجيم .

وأما مضر (١) فانتقسمت إلى جذمين كبيرين :

١ - قيس عيلان بن مضر . ولها بطون كثيرة أشهرها : سليم وهوازن وغطبان ، وعبس وذبيان ، وأشجع ، وعدوان ، وغنى ، ومن قيس : عامر ابن صمصمة ومنه تفرعت بطون كثيرة .

٢ - إلياس بن مضر وقد تشعبت منه بطون كثيرة منها : تميم بن مر ، وهذيل بن مدركة ، وبنو أسد بن خزيمه وبطون ، كنانة بن خزيمه . ومن كنانة : قريش وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة .

وانقسمت قريش إلى قبائل كثيرة أشهرها : جمح ، وسهم ، وعدى ، ومخزوم ، وتيم ، وزهرة بن كلاب ، وعبد الدار بن قصي ، وأسد بن عبد العزى ابن قصي ، وعبد مناف بن قصي .

وكان من عبد مناف أربع فصائل : عبد شمس ، ونوفل ، وعبد المطلب ، وهاشم . وبيت هاشم هو الذى كان منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم صلوات الله عليه ، ومنه العباسيون أولاد عباس بن عبد المطلب وأما الأمويون فليسوا من بني هاشم ، وإنما هم من بني عبد شمس أخيه ، وبالجملة فهد شعب عدنان مكة وما جاورها من أرض الحجاز وتهامة ؛ ولما تكاثرت أولاد عدنان هاجروا إلى بلاد كثيرة .

فهاجرت عبد القيس - من ربيعة - وبطون من بكر بن وائل إلى البحرين وكان معهم بطون من تميم ومنهم كان أمير هذه الجهة من قبل الفرس حين مجئ الإسلام ، وهو المنذر بن ساوى التميمي .

وهاجرت بنو حنيفة - من بكر - إلى اليمامة ، ونزلوا بمجر حاضرتها ، وكان أميرهم حين مجئ الإسلام هو هوذة الحنفى وفيه يقول الأعشى .

(١) وبمجد مضر يفتخر شاعرهم ويقول :

إذا مضر الجراء كانت أرومى وقام بنصرى خازم وابن خازم
عطست بأنف شاخ وتناولت يداى الثريا قاعدا غير قائم

من يَره هُوذة، يسجد غير متثبٍ إذا تعمم فوق التاجِ أو وَضعا
له أ كالبل بالياقوت فصلها صَوَّغها، لا ترى عيبا ولا طبعها
وأقامت سائر بكر . وائل ما بين اليمامة والبحرين حتى أطراف
سواد العراق .

وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية . وسكنت بنو تميم ببادية البصرة .
وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة . وسكنت ثقيف بالطائف ، وهوارن
في شرقي مكة . وبنو أسد شرقي تيماء وغربي الكوفة ، وأقام بهكة وضواحيها
بطون قریش .

حياة العرب الاجتماعية والسياسية والدينية

تمهيد :

العرب (١) اسم جمع واحد عربي، وأصل هذه المادة على اختلاف أوضاعها تدل على التحول والانتقال مثل «عبر»، و«برع»،... الخ. ويرى بعض المعاصرين أن هذه الكلمة كانت في أصلها تطلق على نوع خاص من القبائل التي كانت تسكن الخيام وتنتقل من موضع إلى آخر. وكان قدماء العبرانيين يطلقون هذا الاسم على صنف خاص من القبائل التي كانت تنتقل بجحياهما في جهات طورسينا وبادية فلسطين والشام. وبهذا يتبين أن كلمة «عرب» لم تكن تدل في أصلها على كل من يتكلم باللغة المنسوبة إلى العرب وإنما كانت تدل على القبائل المتبدية التي كانت تسكن شمال الجزيرة ثم شاعت لغة هذه القبائل وسار لها السلطان على أكثر قبائل الجزيرة العربية فأطلق لفظ «العرب» على كل من يتكلم بهذه اللغة من أولئك السكان سواء أكانوا بدوا أم حضرا. ويزعم آخرون أن لفظة «عربي» أو «عرب» يراد بها في اللغة السامية الأصلية «الغربيون»، ويريدون بهم سكان غربي الفرات من بدو وحضر إلى البحر المتوسط، وكانوا يسمون بلادهم «مات عربي»، أي بلاد الغربيين، فلفظ «العربي» مرادف للفظ «الغربي»، أي من يسكن غربي الفرات ثم سرى هذا الاسم على جميع سكان الجزيرة عندما تغلبت عليها لغة الساكنين في هذه الجهات وما لبث العرب أن أفردوا لفظا يدل على سكان الخيام المتنقلين في البوادي وهو لفظ «الأعراب». فاذا أرادوا هذا الجيل مطلقا سواء كان حضريا أو بدويا أطلقوا عليه اسم «العرب»، وإذا أرادوا سكنة الخيام المتنقلين خاصة أطلقوا عليهم اسم «الأعراب»، فكل أعرابي عربي ولا عكس.

وقد كان الناس في العصر الثامن الهجري وما بعده يطلقون اسم «العرب»

ولا يريدون به إلا الأعراب خاصة فجري ابن خلدون في مقدمته على عرف أهل زمانه ، ولذلك اختلط على الناس فهم كلامه فاختلّفوا في مراده . ففهم من قال إنه لا يريد بهذه الكلمة إلا المتنقلين من أهل البوادي خاصة ، ومنهم من قال إنها كلمة مطلقة فيجب إجراؤها على إطلاقها فهو يريد بهم هذا الجيل من الناس بدوهم وحضرهم . وقد أطنب الكتاب في هذا الموضوع وأسهبوا ، مع أن الأمر من الواضح بحيث لا يحتاج إلى إيضاح . فإن أسلوب ابن خلدون يدل على أنه جارى عرف زمانه في إطلاق لفظ « العرب » على الأعراب خاصة . ولا يزال هذا العرف شائعا عند العامة من عرب هذا العصر في العراق والشام ومصر وغيرها فلا يفهمون من لفظ « العرب » إلا البدو أو القبائل التي تقطن الأرياف (١) . وبعض الناس اليوم يظن أن العرب والأعراب لمظان مترادفان لا يتميز أحدهما عن الآخر .

ولما أراد علماء العربية تدوين اللغة وضبط قواعدها في القرن الثاني الهجري استعانوا بالقرآن الكريم أولا وبكلام العرب الموثوق بعربيّتهم ثانيا ، ولما كان العرب حينئذ متشربين في الأرض يخاطبون حمراء الأسم وصفراءها وقد اضطربت سلاقتهم ولى علماء العربية وجوههم شطر الأعراب في وسط الجزيرة ، فنقلوا الكثير من أشعارهم وأخبارهم ودونوا أمثالهم وخطبهم وما يتعلق بأحسابهم وأنسابهم فاجتمع لهم من ذلك الشيء الكثير ، وأصبح ما نقلوه مادة الأدب ويلبّسوع الشاهد في ضبط قواعد اللغة . وهذا هو الذى حدا ببعض الناس إلى الظن بأن الأعراب هم مصدر اللغة ويلبّسوعها ، ومنهم تستشهد أصولها وفروعها ؛ وأنهم الأكثرية في سكان الجزيرة العربية . وإذا أرادوا أن يمثلوا العرب لا يجدون له مثالا إلا الأعرابي . وهذا وهم شائع . لأنك إذا تقرّبت الجزيرة العربية في صدر الإسلام وجدت سكان الأرياف والقرى والمدن الذين يقيمون على المياه ويعيشون على الزراعة والتجارة هم الأكثرية وعليهم كان الاعتماد في الفتوح

(١) راجع ص ١٥٢ من كتاب صور من الفكر العربي للنخاسي

الإسلامية ، منهم القواد والقسم الأعظم من الأجناد . أما الأعراب فكانوا على الهامش لاشأن لهم في الفتوح إلا تبعاً . ولم يبلغ فيهم من أهل الحسنة إلا القليل .

حياتهم الاجتماعية :

العرب بدو وحضر : فالبدو هم الذين يقيمون بالبادية ، والحضر هم سكان المدن .

وكان بالجزيرة العربية مدن كثيرة أكثرها ببلاد اليمن : كعرب وصنعا وزبيد وعدن . ومن أشهر مدن الجزيرة العربية : مكة والمدينة والطائف . وفرق كبير بين حياة البدو وحياة الحضر :

فالبدو قوم رحل ، يرتادون منابت الكلاء ومواقع الغيث . لا يستقر بهم مقام ، يرحلون بأغنماهم وأنعامهم إلى حيث تطيب لهم الإقامة حيناً ، غذاؤهم لحوم أنعامهم وألبانها ولباسهم من أصوافها وأوبارها ، وحياتهم كفاف وقناعة . اللبن والتمر واللحم هي ما كولاتهم . ومن أجل هذا الفقر والشقاء كثرت بينهم الغارات والحروب ، يأبون أن يكونوا أصحاب حرقة ويرون في ذلك عارا كبيرا . أهم ما يفتخرون به البطولة والقوة على النضال والنزال أما أهل المدن فعيشتهم مستقرة ، يعتمدون على الزراعة والصناعة في اليمن أو على التجارة في الحجاز ، يأوون إلى بيوت ومساكن ، ويعيشون في ظل أمن وسلام غالبا وكانوا أقل شجاعة وأشد حبا للمال وأكثر توفرا على وسائل الترف والنعيم . وكان اليمنيون أمن في الحاضرة وقد نقل المؤرخون كثيرا من أحوالهم بما يدل على إفراط في الترف من السبيج الفاخر وأطباق الذهب والفضة وتزين قصور أغنيائهم بأنواع الزينة ، وقد أوصلهم إلى ذلك كثرة الأموال في أيديهم من طريق التجارة والزراعة . وكان أكثر الحجازيين تمحضرا قریش في مكة فقد أغنتهم التجارة ومن يأوي إليهم من الحجاج ، فنعموا بما لم ينعم به غيرهم من سكان الحجاز .

والقبيلة هي الوحدة التي بنيت عليها حياتهم ، وأفراد القبيلة ينتسبون إلى أب واحد (١) وقل أن ينتسب إليها من لم يشاركها في نسبها إلا عن طريق الحلف (٢) أو الولاء .

والقبيلة تسمى غالباً باسم الأب كربيعة وضر والأوس والخزرج ، وقليلاً ما تنتسب إلى الأم كخندف وبجيلة ، وقد تعرف القبيلة بمحادث حدث كفسان وهو اسم الماء الذي نزلت به هذه القبيلة . ولكن الكثير الذائع نسبة القبيلة إلى الأب .

ويسود أفراد القبيلة العصبية والتناصر والتعاون ، وكل فرد يتعصب لقبيلته أصابت أم أخطأت :

وما أأ إلا من د غزيرة ، إن غوت غويت وإن ترشدة غزية أرشدة
والقبيلة تحميه من العدوان وتطالب بدمه إن جنى أحد عليه ؛ وإذا خرج فرد منها على تقاليد القبيلة أو جر عليها المغارم تخلت عنه وأعلنت براءتها منه وسمى « خليعاً » ، وقد يلتجئ فرد إلى غير قبيلته فيسمى « حليفاً » .
ولكل قبيلة رئيس هو سيدها ومرجعها وملاذها في الشدائد (٣) ؛

(١) ١٢٠ ج ٣ المخصص .

(٢) وكما كان الفرد يصير حليفاً لقبيلة غير قبيلته فقد كانت القبيلة تحالف قبيلة أخرى تحتوى بها ، وإن بقيت بعض القبائل معترزة بعصبيتها متجمرة بنفسها لالتحالف غيرها ، وجرات العرب ثلاثة : ضبة ونمير وعبس ، والبعض يزيد أربعة هي بنو الحارث بن عبد المدان .

(٣) وكان لرئيس القبيلة حق معلوم في الغنائم ، قال الشاعر يخاطب بسطام ابن قيس سيد شيبان :

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطه والفضول

المرباع : ربع الغنيمة . والصفايا : ما يصطفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة ، والنشيطه : ما أصابه الرئيس في الطريق قبل الوصول إلى دار العدو . والفضول : ما فضل من الغنيمة مما لا يقبل للقسمة على عدد الغزاة .

ولها شاعر أو أكثر يتغنى بمفاخرها وشرفها ومجدها ، ويذود عنها أعداءها
وخصومها .

وعلاقة القبيلة بالقبائل الأخرى علاقة عداء غالباً : إغارة وسلب وحرب
وانتقام وأخذ بالتأر :

يُغار علينا واثرينَ فَيَشْتَتِي بنا إن أُصِبتنا ، أو نُغِيرُ على وَثِرِ
قَسَمْنَا بِذَلِكَ الدهرَ شَطْرينَ بَيْننا فما يَنْقُضِي إلّا وَنَحْنُ على شَطْرِ
وكانت القبيلة تنقسم إلى أسر ، والأسرة تخضع للأب خضوعاً مطلقاً
في كل شيء .

وللرأة شأن في الأسرة العربية . يبدأ بذكرها الشعراء قصائدهم ،
ويتغنون بحمائلها ويكنشونها بكنيتها ، ويحترمونها ، ويفخرون بنسبتهم
إلى أمهاتهم كما يفخرون بالنسبة إلى الأب ، ويستمعون لمشورة
زوجاتهم ونسائهم وحسبك أن الحارث بن عوف أحد أشراف
العرب كانت زوجته الصغيرة بنت أوس بن حارثة بن لأم الطائي هي التي
أشارت عليه بأن يسعى في الصلح بين عبس وذبيان ففعل فاستحق بذلك
حمد الناس ومدح الشعراء ، وكانوا يستشيرونها في الزواج ويقبلون
رأيها (١) .

كانوا يتزوجون ويعددون بين الأزواج كما كانوا يطلقون ،
قال الأعشى :

أيا جارتى بينى فانك طالقة كذاك أمور الناس غاد وطارقة

(١) راجع في ٢٠٤ هـ الأمامي أخذ عتبسة بن ربيعة لرأى ابنته هند في
زواجها وكانت قد شرطت عليه ذلك . وبرأيها وموافقتها تزوجت أبا سفيان
ابن حرب .

وكانوا يحبون أولادهم ويحنون عليهم :
وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض
وإذا كان بعض العرب قد أدوا البنات خشية الفقر أو العار ، فأنما كان
ذلك في طبقة منحلة منهم في بعض بطون من تميم وأسد ، وقد كان بعض
العرب يكره أن تلد امرأته بنتا (١) .
وعلاقة الرجل بإخوانه من قبيلته علاقة محبة وتناصر وكافي المثل ، انصر
أخاك ظلماً أو مظلوماً . ويقول الشاعر :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائمات على ما قال برهانا
وكانوا يلهمون بالخمر (٢) وغناء القيان والقمار ، ويصيدون الوحوش
بالخيل أو بالكلاب المعلقة ، وقد قالوا إن كليب بن وائل أول من اصطاد
بالفهد - ويرد في شعرهم كثير من الآيات يصفون فيها صيد بقر الوحش
وحمار الوحش وغيرهما ، والجود والكرم أهم خصائص العربي (٣) .
وكانوا يتمدحون بالمروءة والأخلاق والشرف والشجاعة والكرم

(١) وفي ذلك تقول زوج عربي ولدت بنتا فغضب زوجها وتحول إلى
بيت جاره :

ما لأبي حمزة لا ياتينا يظل في البيت الذي يلينا
غضبان ألا تلد البنتا والله ما ذلك في أيدينا
وإنما نأخذ ما أعطينا ونحن كالارض لزارعينا

(٢) ومن العرب من حرم الخمر على نفسه في الجاهلية (راجع ١٢٠٤ ج ١ الأمل)
(٣) راجع أجواد أهل الجاهلية في العقد لفريد (١٤٥ ج ١ ط ١٩٢٨)
وراجع حديث حاتم وما اشتهر به من الجود والنجدة وما وقع له مع زوجته
ما وية في ذيل الأمل ص ١٥٢ . ومن أجواد العرب : كعب بن مامة
الإيادي وأوس بن حارثة بن لام الطائي وهرم بن سنان (راجع بلوغ الأرب)

والوفاء (١) .

والسكرم في حياة العربي حظ كبير ، ومن العرب أناس اشتبهوا بالجد
والسخاء وصاروا مضرب الأمثال كحاتم وسواه .

والإبل هي عماد الحياة في جزيرة العرب ، وكانوا يعنون بالخيول
للطعان والنزال .

وأشهر صناعاتهم الغزل ، وفي المدينة والطائف واليمن قامت الزراعة
وكذلك حول المياه والعيون (٢) .

وكانت التجارة دأب القرشيين الذين كانوا يغدون ويروحون في
الجزيرة العربية آمنين مطمئنين ، وكان لبني عبد مناف رحلات إلى
الشام واليمن ، والحبشة وفارس ، لأخذ العهود من ملوكها وتأمين السبل
لتجار قریش (٣) .

(١) وقصة وفاء السموال معروفة ، ومن وفاتهم انهم قتلوا أخاهم وفاء بعهد
الجار قال الشاعر :

قتلنا أخانا للوفاء بجارنا وكان أبونا قد تجبر مقابره

(راجع ٥٩ : تاريخ الامم الاسلامية للخضري بك ط ١٩٢٦) . وكذلك
قصة وفاء هانيء بين قبضة لأمانات النعمان بن المنذر التي أودعها عنده والتي
تعرض بسببها هو وقومه والعرب لحرب كسرى في يوم ذي قار ، قصة معروفة
مشهورة (راجع ٣٣٧٤ من العقد الفريد ط ١٩٢٨)

(٢) البيت الذي رواه سيدي في شواهد (٣٥٩ ج ١ الكتاب لسيدي) وهو :

إلا رجلا جزاه الله خيرا يدل على محصلة تبيت

يدل على أنهم كانوا يعرفون استخراج الذهب ، ولا شك أن ذلك كان في اليمن
إذا صح أن هذا البيت جاهلي . والمحصلة : المرأة التي تحصل الذهب من تراب
المعادن وتخلصه منه وطلبها للبيت لغرض التحصيل طبعاً .

(٣) ١٩٩ النوادر ملحق بكتاب الأمل . ويقول الشاعر :

يا أيها الرجل المحول رحله هلا نزلت بآل عبد منافع

وامتدت تجارة قریش إلى الین والشام ، وكانت لهم رحلتان رحلة إلى الین شتاء ورحلة إلى الشام صيفاً ، وقد تقسم أولاد عبد مناف البلاد التي يتاجرون معها ، فكان هاشم يذهب إلى الشام ونوفل إلى فارس وعبد شمس إلى الحبشة والمطلب إلى الین ، ولم يكن يتعرض لهم أحد لأنهم أهل بيت الله وحماة .

وأمدت هذه الرحلات الهاشميين بثقافة واسعة وصقلت أفكارهم وأذواقهم وأسلوبهم وجعلتهم أرقى عرب الشمال ذكراً وأبناً نظراً وأحصفهم عقلاً .

حياتهم السياسية :

(أ) المجتمع العربي يتحكم فيه رؤساء القبائل وساداتها ، فكل قبيلة تأتمر بأمر سيدها وتخضع لإرادته في السلم والحرب جميعاً :

دعانا والأسنة مشرعات فكنا عند دعوته الجوابا

وهو الحكم والمراجع في كل ما شجر بين أفرادها من خلاف . وللقبيلة بجانب رئيسها حكم امتازوا بأصالة الرأي وحصافة العقل وصدق النظر يفرع اليهم في الخصومات الأدبية كالمفاخرة في المنسب ونحوها (١) .

وهذا النظام هو الذي كانت تسير عليه أغلبية العرب من البدو في نجد والحجاز وتهامة . ويستثنى من ذلك مكة والإمارات التي على النخوم والین .

= الأخذون العهد من آفاقها والراحلون لرحلة الإيلاف

والخالطون غنيهم بفقرهم حتى يكون فقيرهم كالكافي

(١) وكان عمرو بن حمزة الدوسي أحد حكام العرب (راجع ١٤٣هـ ٢٠٢١م)

(ب) والقرشيون لثرائهم من التجارة ، ولا تصالهم بالأمم المتحضرة كفارس والروم ، ولنضوج عقليتهم وثقافتهم وتفكيرهم ، كانوا يحكمون مكة حكماً أدق وأنضج من هذا النظام البدوي السائد ، وقد وضع قصى في القرن الخامس الميلادي أساس هذا النظام الجديد ، فقد جمع شتات القرشيين ووجد كبتهم وأخذ ولاية البيت الحرام وجدد بناء الكعبة وبني دار الندوة ليجتمع فيها الرؤساء الذين لا تقل أعمارهم عن الأربعين ليتشاوروا ويعقدوا أنكحتهم وألويتهم ويفصلوا في خصوماتهم .

وأصبح لقصى السيادة التامة في مكة ، كما صار الرئيس الديني للبيت ؛ وكان له رئاسة دار الندوة ، واللواء ، فلا تعقد راية الحرب إلا بيده ، والحجاجة وهي حجابة الكعبة لا يفتح بابها إلا هو وهو الذي يلى أمر خدمتها ، وسقاية الحاج ورفادته ، والسقاية هي الحياض التي كانوا يملأونها بالماء ويحلبونها بشيء من التمر والزبيب ليشرب منها الناس إذا وردوا مكة ، والرفادة هي الطعام الذي كان يصنع للحجاج على سبيل الضيافة ، وكانت قريش تساعد قصبيا على ذلك بما تقدمه من خراج سنوى .

وورث أولاد قصى هذه المآثر والمفاخر ، وتنافسوا عليها ، ثم استقر رأيهم على اقتسامها بينهم (١) .

١ — فكانت السقاية في بني هاشم ويقوم بها العباس بن عبد المطلب .

٢ — والعقاب - راية قريش - كانت في بني أمية عند أبي سفيان بن حرب وإذا كانت عند رجل أخرجها إذا حميت الحرب فإذا اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب وإلا رأسوا صاحبها فقدموه .

٣ — والرفادة كانت في نوفل عند الحرث بن عامر ، والرفادة هي ما كانت تخرجه من أموالها وترفد به منقطع الحاج .

(١) راجع العقد الفريد ، ١٢٤٩ ج ١ بلوغ الأرب

٤ - والسدانة لبنى عبد الدار يقوم بها الحرث بن طلحة وكان اليه السدانة مع الحجابة ، والسدانة خدمة الكعبة وحجابتها ويبد صاحبها مفتاح الكعبة ولها المقام الأول عندهم .

٥ - والمشورة لبنى أسد وصاحبها يزيد بن زمعة بن الأسود وكان يستشار في الأمور الكبيرة .

٦ - والندوة فى بنى عبد الدار أيضاً ، وهى الاشراف على دابر الندوة .

٧ - والأشناق وهى الديات والمغارم وهى فى بنى تميم ونهض بها أبو بكر الصديق ، وكان صاحبها إذا احتمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا حمالة من نهض معه وإن احتملها غيره خذلوه .

٨ - القبة والأعنة ، والقبة هى الخيمة التى كانوا يضربونها ويجمعون اليها أدوات الحرب ، والأعنة هى تولى أمر الخيل فى الحرب ، وكان ذلك لبنى مخزوم ونهض بهما خالد بن الوليد ؛ وقيل إن الأعنة كانت فى بنى عدى .

٩ - السفارة وهى لبنى عدى ونهض بها عمر بن الخطاب وكانت اليه السفارة فى الجاهلية وهى التوسط بين قريش وغيرها فى الحرب وفى السلم معاً

١٠ - الأيسار وهى تولى أمر الأزام وكانت فى بنى جمح وقام بها صفوان بن أمية .

١١ - الحكومة والأموال المحجرة التى سموها لأهلهم وهى لبنى سهم ويقوم بها الحرث بن قيس ... وما وضعته قريش « حلف الفضول » فقد اجتمعت بطون قريش وتحالفوا فى دار عبد الله بن جدعان على رد المظالم بكه ولا يظلم أحد إلا ممنعوه وأخذوا للظالم بمحقه ، وحضره الرسول صلى الله عليه وسلم وهو فى الخامسة والعشرين من عمره وقال فيه : « لقد شهدت حلف الفضول وما أحب أن لى به حمر النعم » .

(ج) ولقد قامت في اليمن دول متحضرة منظمة من أشهرها :

١ - دولة (١) المعيليين : ما بين ١٢٠٠ - ٨٠٠ ق م .

نزحوا من العراق إلى اليمن واستوطنوا بها وشادوا القصور
والمخالف .

٢ - دولة سبأ : من القرن الثامن قبل الميلاد حتى أواخر القرن الثاني
قبل الميلاد أيضا ، وقد ورد ذكرها في التوراة ، وفي القرآن الكريم ما يدل
على رف أهلها : وقد ازدهرت مدينة سبأ قبل الميلاد بقرون وتدل النقوش
والآثار التي عثر عليها على أنها كانت في القرن الثامن قبل الميلاد .

وحاضرة هذه الدولة هي مأرب وكانت تربطها التجارة بين الهند والحبشة
والعراق ومصر والشام في بعض العصور ، فازدهرت المدينة والدولة .
ووجدت صلات تجارية بين بلقيس ملكة سبأ والملك سليمان بن داود ملك
أورشليم . إلا أنه أثر في حياة دولة سبأ أمران :

أولهما : انتقال التجارة إلى الطريق البحري واقطاع مرورها بسبأ ،
وثانيهما : سيل العرم الذي حطم سد مأرب فأغرق البلاد ، وهاجر أهلها
منها وتفرقوا في أرجاء الجزيرة العربية .

٣ - الدولة الحميرية : ١٢٠ ق م - ٥٥٠ م .

وعاصمة هذه الدولة ظفار ، وامتازت بالفتوحات ومحاربتها الفرس

(١) راجع ص ٢٢٧ وما بعدها من كتاب تاريخ اللغات السامية لولف فسنون
ط القاهرة سنة ١٩٢٩ في الحديث عن اليمن ودولها وتاريخها والمصادر التاريخية
التي تتحدث عنهم . وراجع كتاب تاريخ المدن الإسلامي

والجبشة ، وتضارب المؤرخون في أسماء ملوكهم (١) وعددهم ومدة حكمهم .

وتنقسم هذه الدولة إلى طبقتين :

١ - الأولى ينتهى حكمها فى أواخر القرن الثالث الميلادى (٢) .

٢ - والثانية مدت سلطانها على الشجر وحضرهوت ويسمى ملوكها التبابعة (٣) وآخرهم ذو نواس (٥١٥ - ٥٢٥ م) .

وذو نواس صاحب الاخدود الذى عذب فيه أهل نجران لعدم تركهم النصرانية واتباعهم دينه الرسمى (اليهودية) وأحرق الكتاب المقدس مما دعا إلى غضب الجبشة فقامت بحملة حربية على اليمن دفاعا عن النصرانية (٤) وكانت بقيادة أرياط وأبرهة فاستولوا على اليمن عام ٥٢٥ م وحكمها أرياط ثم أبرهة ، وأبرهة هو الذى بنى كنيسة عظيمة بصنعا، اصرف العرب عن السكبة اليها ، ثم غزا مكة ليهدم الكعبة فأهلكه الله ، وملك بعده ابنه يكسوم ؛ ثم قام سيف بن ذى يزن وحارب الحبشيين وأخرجهم من

(١) راجع اجتماع العرب عند ملك من ملوك حمير (٧٦ ج٢ الأمالى) ، وتعزية وفود العرب لسلامة ذى فائش فى ابنه (٢٩٩ ج٢ الأمالى)

(٢) ومن ملوكها : ربيعة وهو الذى قص رؤيته على شق سطيج وأقام بعض أبنائه بالحيرة ومنهم النعمان بن المنذر

(٣) فتبع الأول اسمه زيد ، وتبع الآخر هو أسعد أبى كرب وكان ملكه قبل ملك ربيعة بن مضر ، وذلك من ٣٨٥ - ٤٢٠ م ، وقالوا : إنه غزا المدينة وكسا الكعبة فى مكة وأنه أول من تهود من العرب

(٤) ويعمل المؤرخون اليونانيون هذه الحملة الحربية بتعليل آخر (١١٦ الشهاب الراصد)

الذين بمساعدة الفرص له الذين أمدوه بجيش بقيادة وهرز (١) .

وكانت مدة حكم الحبشة لليمن اثنتين وسبعين سنة ، وكتاب الإكليل
للممداني أحسن مرجع قديم عن اليمن وتاريخها .

(د) إمارة الحيرة : من القرن الثالث الميلادي إلى ٦٣٢ م

وهي إمارة عربية أقامها الفرس على حدود بلادهم بالقرب من الكوفة
لتحميمهم من غارات العرب وليحاربوا بها أعداءهم الروم . فقد وضع
أردشير يده على هذه البلاد واستولى عليها وحكم العرب المقيمين فيها بما
أدّى إلى هجرة قضاة عنها إلى الشام ، ورأى أردشير أنه يستحيل عليه أن
يحكم العرب مباشرة ويمنعهم من الإغارة على تخوم ملكه إلا بأن يملك عليهم
رجلا منهم . فاختار جذيمة الوضاح ملكا على الحيرة وسائر من
بادية العراق والجزيرة من ربيعة وهضر ، وجذيمة هو الذي قتلته الزباء نحو
عام ٢٦٨ م انتقاما منه لقتله والدها ، فاحتال ابن أخت له اسمه عمرو بن عدى
حتى قتلها (٢) .

(١) راجع ١٦٦٧٥ الأغانى ، ٢: ٥٣ الأغانى أيضا . وراجع وفود قریش
على سيف بن ذى یزن فی العقد الفريد (ص ١٧٥ ج ١ ط ١٩٢٨)
(٢) المصادر الافرنجية تذهب إلى أن الزباء كانت ملكة تدمر من قبل
الرومانين ، ثم حاربها الرومان وأسروها وماتت في روما نحو عام ٢٧٣ م ،
وكان اسمها عندهم زنوبيا . وكان سابور قد هاجم تدمر بعد أن أسر الامبراطور
فالريان امبراطور الروم ، ولكن ملكة تدمر قاومته بما سارت عليه من حرب
العصابات حتى هزمته ومنحت روما ملك تدمر لقب د أمير الشرق وملك تدمر ،
وكان اسمه د اودناتوس ، ثم قتل وتولى الملك بعده ابنه الطفل وقامت زوجته
وصية على ولدها وكانت تلك الزوجة هي زنوبيا . أرادت زنوبيا التوسع
فأرسلت جيشا ليقطع مصر ويخرج الرومان منها فأفلح في ذلك ، ثم غزت الاناضول
واستولى جيشها عليها عام ٢٧٠ م واعترف بها الامبراطور شريكه له في
الامبراطورية وأصبحت تدمر عاصمة مهابة . ثم تولى د كولوديوس ، امبراطورية =

ثم ولى على الحيرة عمرو بن عدى بن نصر اللخمي أول ملوك اللخمين بالحيرة ، وملكهم ما بين عامي (٢٦٨ ، ٦٣٢ م) أى حتى فتح خالد بن الوليد للحيرة .

ومن ملوكها : النعمان بن امرئ القيس صاحب الخورنق والسدير (١) . والنعمان بن المنذر الذى مدحه النابغة وقد قتله كسرى وقامت من أجله موقعة ذى قار عام ٥٨٠ م (٢) .

وولى على الحيرة بعد النعمان بن المنذر إلياس بن قبيصة الطائي ، وحارب هانيء بن مسعود الشيباني طلباً لودائع النعمان بن المنذر التي أودعها عنده وانتصر بنو شيبان وهزموا الفرس هزيمة منكرة ، ثم عاد الملك إلى آل لخم .

== الرومان تخلف لمحادبة زنوبيا فهزمها في الاناضول ثم على حدود تدمر وحاصر عاصمتها تدمر . ثم أخذوها أسيرة هي وابنها واستولوا على تدمر وخربوها عام ٢٧٢ م .

(١) بناهما له سنجار الذى قتله الملك خوفاً أن يبني مثلهما ف قيل في المثل : جزاء جزاء سنجار ،

(٢) راجع خطبة هانيء بن قبيصة في قومه يحرضهم على الحرب في يوم ذى قار في الامالى (١٦٩ ج ١)

وراجع في الامالى (١٩٥ النوادر الملحق بالامالى) خير المنذر بن ماء السماء وقتله نديمه وجعله لنفسه في كل سنة يوم يؤس ويوم نعيم وقتله عبيد بن الابرص يوم يؤسه .

ولهند بنت النعمان بن المنذر لرجل أولها يدا فدعت له : شكرتك يد نالتها خصاصة بعد ثروة ، وأغناك عن يد نالتها ثروة بعد فاقة (٢٧ : ٤ زهر الآداب) وراجع اجتماع وفود العرب عند النعمان في العقد (٢٥٦ : ١ ط ١٩٢٨) ، وفود العرب على كسرى في العقد (١٦٦ : ١) ، وفود حاجب بن زرارة على كسرى (١٧٤ : ١ العقد) ، وفود أبي سفيان على كسرى (١٧٤ : ١ العقد) وفود حسان بن ثابت على النعمان (١٧٥ : ١ العقد)

وقد تأثرت إمارة الخيرة بحضارة الفرس وثقافتها ومعارفها تأثراً كبيراً
وكان ملوكها في استقلال داخلي .

ووفادة العرب على كسرى مظهر للنفوذ الفارسي في بلاد العرب ، حدث
ابن القطامي عن السكبي قال :

« قدم النعمان بن المنذر على كسرى ، وعنده وفود الروم والهند والصين ،
فذكروا من ملوكهم وبلادهم ، فافتخر النعمان بالعرب ، وفضلهم على جميع
الأمم ، لا يستثنى فارس ولا غيرها . »

فقال كسرى — وأخذته عزة الملك — : « يانعمان ، لقد فكرت
في أمر العرب وغيرهم من الأمم ؛ ونظرت في حال من يقدم على من وفود
الأمم ، فوجدت الروم لها حظ في اجتماع ألفتها ، وعظم سلطاتها ، وكثرة
مدائنها ، ووثيق بليانها ، وأن لها ديناً يبين حلالها وحرامها ويرد سفهها .
ويقيم جاهلها . ورأيت الهند نحواً من ذلك في حكمتها وطبها مع كثرة أنهار
بلادها وثمارها ، وعجيب صناعاتها ، وطيب أشجارها ، ودقيق حسابها ، وكثرة
عددتها . وكذلك الصين في اجتماعها ؛ وكثرة صناعات أيديها وفروسياتها ،
وهمتها في آلة الحرب وصناعة الحديد ، وأن لها ملسكا يجمعها . والترك
والخزر — على ما بهم من سوء الحال في المعاش ، وقلة الريف والثمار والحصون
وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس — لهم ملوك تضم قواصمهم
وتدبر أمرهم .. ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخير ، في أمر دين ولا دنيا ،
ولا حزم ولا قوة ، ومع أن بما يدل على مهانتها وذللها وصغر هممتها محلتهم التي
هم بها مع الوحوش النافرة والطير الخائرة ، يقتلون أولادهم من الفاقة ،
ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة . قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها
ومشاربها ، ولهوها ولذاتها : فأفضل طعام ظنر به ناعمهم لحوم الإبل التي
يعافها كثير من السباع لثقلها ، وسوء طعمها ، وخوف دائها . وإن قرى

أحدهم ضيفاً عدّها مكرمة ، وإن أطعم أكلة عدها غنيمة - تنطق بذلك أشعارهم ، وتفتخر بذلك رجالهم ما خلا هذه التثوية التي أسس جدى اجتماعها ، وشد مملكتها ، ومنعها من عدوها ، فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا وإن لها - مع ذلك - آثاراً ولبوساً ، وقرى وحصوناً ، وأموراً تشبه بعض أمور الناس (يعنى الذين) . ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من الذلة والقلّة والبؤس ، حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس .

قال النعمان : « أصلح الله الملك ! حق لأمة الملك منها أن يسمو فضلها ، ويعظم خطبها ، وتعلو درجتها . إلا أن عندى جواباً فى كل ما نطق به الملك فى غير رد عليه ، ولا تكذيب له . فإن أمننى من غضبه ، نطق به » . قال كسرى : « قل ، فأنت آمن » . قال النعمان : أما أمتك - أيها الملك - فليست تذازع فى الفضل لموضعها الذى هى به من عقولها وأحلامها ، وبسطة محلها ، وبحبوحة عزها ، وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك . وأما الأمم التي ذكرت فأى أمة تقرنها بالعرب إلا فضلها » : قال كسرى : « بماذا ؟ » قال النعمان : بعزها ومنعتها ، وحسن وجوها ، وبأسها ، وسخاها وحكمة أسلتها ، وشدة عقولها ، وأنفتها ، ووفائها . . . فأما عزها ومنعتها ، فلاها لم تزل مجاورة لأبائك الذين دوخوا البلاد ووطدوا الملك ، وقادوا الجند . ولم يطمع فيهم طامع ، ولم ينلهم نائل . حصونهم ظهور خيلهم ، ومهادم الأرض ، وسقوفهم السماء ، وجنتهم السيوف ، وعدتهم الصبر : إذ غيرها من الأمم إنما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور .

وأما حسن وجوها وألوانها . فقد يعرف فضلهم فى ذلك على غيرهم ، من الهند المنحرفة ، والصين المنحرفة ، والترك المشوّهة ، والروم المقشرة . . . وأما أنسابها وأحسابها ، فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها ، وكثيراً من أولها ، حتى إن أحدهم ليسأل عن وراء أبيه دنيا ، فلا يدسبه ولا يعرفه . وليس أحد من العرب إلا يسمى أباه أباً فأباً ، أحاطوا بذلك أحسابهم ، وحفظوا أنسابهم ، فلا يدخل رجل فى غير قومه

ولا ينتسب إلى غير نفسه ، ولا يدعى إلى غير أبيه . وأما سخاؤها ، فإن أديانهم رجالا تكون عنده البكرة والناب عليها بلاغه في حمله . وشبعه وريه فيطرقه الطارق الذي يكتفي باللذة ويجتريء بالشربة ، فيعقرها له ، ويرضى أن يخرج عن ديناه كلها فيما يسكبه حسن الأحداث ، وطيب الذكر . وأما حكمة ألسنتهم . فإن الله تعالى أعطاهم في أشعرهم ، وروثق كلامهم ، وحسنه ووزنه وقوافيه ، مع معرفتهم بالأشياء وضربهم للأمثال ، وإبلاغهم في الصفات - ما ليس لشيء من السنة الأجناس ، ثم خيلهم أفضل الخيل ، ونساؤهم أعف النساء . ولباسهم أفضل اللباس ومعادهم الذهب والفضة ، وحجارة جبالهم الجزع ، ومطاياهم التي لا يبلغ على مثلها سفر ولا يقطع بمثلها بلد قفر . وأما دينها وشريعتها فإنهم متمسكون به ، حتى يبلغ أحدهم من نسكه أن لهم أشهراً محرماً ، وبلداً محرماً ، وبيتاً محجوجاً ، يمسكون فيه مناسكهم ، ويذبحون فيه ذبائحهم ، فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه ، وهو قادر على أخذ ثأره ، وإدراك رغبته منه ، فيحجزه كرمه ، ويمنعه دينه عن تناوله بأذى . وأما وفاؤها ، فإن أحدهم يلحظ اللحظة ، ويومئ الإيماء ، فهي واث وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه ، وإن أحدهم يرفع عوداً من الأرض فيكون رهناً بدينه ، فلا يعلق رهنه ولا تحفر ذمته . وإن أحدهم ليبيلقه أن رجلاً استجار به ، وعسى أن يكون نائياً عن داره فيصاب ، فلا يرضى حتى يغنى تلك القبيلة التي أصابته أو تغنى قبيلته ؛ لما أخفر من جواره ، وإنه ليبلغ إلىهم المجرم المحدث ، من غير معرفة ولا قرابة ، فتكون أنفسهم دون نفسه ، وأموالهم دون ماله .

أما قولك ، أيها الملك يتدون أولادهم ، فإنما يفعل من يفعل منهم بالإناث أنفة من العار ، وغيره من الأزواج . وأما قولك : « إن أفضل طعامهم لحوم الإبل ، على ما وصفت منها ، فما تركوا ما دونها إلا احتقاراً له فعمدوا إلى أجلبها وأفضلها . فكانت مراكبهم وطعامهم ، مع أكثر البهائم شحوماً ، وأطيبها لحماً ، وأرقها ألباناً ، وأقلها غائلة ، وأحلاها مضغة ؛ وإنه لا شيء من

اللعمان يعالج ما يعالج به لخصها إلا استبان فضلها عليه . وأما تحاربهم ، وأكل بعضهم بعضاً ، وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم ، فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم ، إذا أنست من نفسها ضعفاً ، وتخوفت من نهوض عدوها إليها بالزحف . وإنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد ، يعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون إليهم أمورهم ، وينقادون لهم بأرمتهم ، وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم ، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين مع أنفقتهم من الخراج .

وأما اليمن التي وصفها الملك ، فإنما أتى جد الملك الذي أتاه ، عند غلبة الجيش له على ملك متسق ، وأمر يجتمع . فأتاه مساوياً طريداً مستحضراً قد تقاصر عن إيوانه ، وصغر في عينه ما شيد من بنائه . ولولا ما وتر به من يليه من العرب ، لمال إلى مجال ؛ ولو وجد من يجيد الطعان ويغضب للأحرار من غلبة العبيد الأشرار .

فمجب كسرى لما أجابه النعمان به ، وقال : « إنك لأهل لموضعك من الرياسة في أهل إقليمتك ؛ ولما هو أفضل ، ثم كساه من كسوته وسرحه إلى موضعه من الحيرة . فلما قدم النعمان الحيرة ، وفي نفسه ما فيها ، بما سمع من كسرى من تنقص العرب ، وتهجين أمرهم . بعث إلى أكتم بن صيفي ، وحاجب بن زرارة التميميين ، وإلى الحرث بن عباد وقيس بن مسعود البكرين ، وإلى خالد بن جعفر وعلقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل العامريين ، وإلى عمرو بن الشريد السلسي ، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي ، والحارث بن ظالم المري - فلما قدموا عليه في الخورنق ، قال لهم :

« قد عرفتكم هذه الأعاجم ، وقرب جوار العرب منها . وقد سمعت من كسرى مقالات تخوفت أن يكون لها غور ، أو يكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خوفاً كبعض طماطمته في تأتيم الخراج إليه كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله . فقص عليهم مقالات كسرى وما رد

عليه . فقالوا : « أيها الملك ، وفقك الله ! ما أحسن ما رددت ! وأبلغ ما
حججت به ! فرنا بأمرك ، وادعنا بما شئت . قال : « إنما أنا رجل منكم ،
وإنما ملكك وعزرت بمكانكم ، وما يتخوف من ناحيتكم . وليس شيء
أحب إلى مما سدد الله به أمركم ، وأصلح به شأنكم ، وأدام عزكم ، والرأى
أن تسيروا بجماعتكم - أيها الرهط - وتنطلقوا إلى كسرى . فإذا دخلتم
فطق كل رجل منكم بما حضره ، ليعلم أن العرب على غير ما ظن أو
حدثته نفسه ، ولا ينطق رجل منكم بما يغضبه ، فإنه ملك عظيم السلطان
كثير الأعوان ، مترف معجب بنفسه . ولا تنخذلوا له انخزال الخاضع
الذليل . وليكن أمر بين ذلك تظهر به وثاقة حلومكم ، وفضل منازلكم
وعظيم أخطاركم . وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام أكرمهم بنصيبه
سنة . ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التي وضعتكم بها ، فإنما دعاني إلى
التقدمة إليكم علمي بميل كل رجل منكم إلى التقدم قبل صاحبه ، فلا يكون
منكم ذلك فيجد في آدابكم مطعناً ؛ فإنه ملك مترف ، وقادر متسلط . »
دعا لهم بما في خزائنه من طرائف حلل الملوك ، لكل رجل منهم حلة
وعمه عمامة ، وختمه بياقوته . وأمر لكل رجل منهم بنجية مصرية وفرس
نجية ، وكتب معهم كتاباً : « أما بعد ، فإن الملك ألقى إلى من العرب ما قد
علم وأجبت به بما قد فهم ، بما أحببت أن يكون منه على علم ، ولا يتلجلج في
نفسه أن أمة من الأمم التي احتجرت دونه بمملكته ، وحت ما يليها بفضل
قوتها ، تبلغها في شيء من الأمور التي يتعزز بها ذوو الحزم والقوة والتدبير
والمكيده . وقد أوفدت - أيها الملك - رهطاً من العرب لهم فضل من
أحسابهم وأنسائهم ، وعقولهم وآدابهم ، فليسمع الملك وليغض عن جفاء ،
إن ظهر من منطلقهم وليسكر مني بإكرامهم وتعجيل سراحهم . وقد نسبتهم
في أسفل كتابي هذا إلى عشائريهم ، فخرج القوم في أهبتهم حتى وقفوا بباب
كسرى بالمدائن ، فدفعوا إليه كتاب النعمان . فقرأه وأمر بإيصالهم إلى أن
يجلس لهم مجلساً يسمع منهم فلما أن كان بعد ذلك بأيام ، أمر الرؤساء

ورجوه أهل مملكته ، فحضرُوا وجلسوا على كراسي عن يمينه وشماله . ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التي وصفهم النعمان بها في كتابه ، وأقام الترجمان يؤدي إليه كلامهم . ثم أذن لهم في الكلام . فتكلم كل رجل بما حضره ، وكسرى يسمع فيقبل ما يعجبه ويقوم ما يراه معوجا ، حتى انتهوا . فقال : « قد فهمت ما نطقت به خطباؤكم ، وتفنن فيه متكلموكم . ولولا أني أعلم أن الأدب لم يشقف أودكم ، ولم يحكم أمركم ، وأنه ليس ملك يجمعكم فتتطقون عنده منطق الرعية الخاضعة الباخعة فنطقتم بما استولى على ألسنتكم وغلب على طباعكم - لم أجز لكم كثيرا عما تكلمتم به : وإني لأكره أن أجبه وفودي ، أو أحقق صدورهم ، والذي أحب لإصلاح مدبركم . وتألف شواذكم ، والاعذار إلى الله فيما بيني وبينكم . وقد قبلت ما كان في منطقكم من صواب ، وصفححت عما كان فيه من خلل . فانصرفوا إلى ملككم فأحسنوا مؤازرته ، والتزموا طاعته . واردعوا سفهاكم وأقيموا أودهم ، وأحسنوا أدبهم - فإن في ذلك صلاح العامة » .

(هـ) إمارة غسان :

هاجرت قبائل من قضاة إلى مشارف الشام وسكنت بها لخصبها ، وكانت هذه البلاد تحت حكم الرومان فاصطنعهم الرومان ليمنعوا غارات العرب عن ملكهم وليكونوا عدة ضد الفرس واللخميين ، ثم تغلب على هذه البلاد بنو جفنة الغسانيون ورئيسهم جفنة بن عمرو فولته الروم ملكا على الشام ، وشمل حكمهم مقاطعتي حوران والبلقاء ، وعاصمة ملكهم هي جولان أو الجابية أو جلق بالقرب من دمشق .

وقد تأثرت هذه الإمارة بالحضارة الرومانية ، ومن أشهر (١) ملوكها الحارث بن جبلة وقد عينه الامبراطور جوستينيان عام ٥٢٩ م أميرا على

(١) ومن ملوكها الحارث بن أبي شمر الغساني . راجع حديثه مع قيس بن رفاعة في الامالي (١: ٢٥٧)

جميع قبائل العرب في الشام ومنحه لقب بطريق وكان الحارث نصرانيا على مذهب اليعاقبة وقد سافر إلى القسطنطينية عام ٥٦٣ م وهو الذي توسط لأمريء القيس في الذهاب إلى قيصر في القسطنطينية ليستعين به . وآخر ملوكهم هو جبلة بن الأبرم ، وقد اشتهر الغسانيون بالكرم ومدحهم الشعراء كحسان والأعشى والنايعة وعلقمة الفحل .

وقد حارب الغساسنة الفرس واللخمين وكانت لهم أيام انتصروا فيها على اللخمين .

الحياة الدينية عند العرب :

الحياة الدينية عند العرب مختلفة الألوان والمظاهر والعقائد فمن وثنية إلى يهودية ونصرانية إلى حنيفية وتحنث : ويهمننا هنا أن نلم بكل هذه الألوان المختلفة من التدين عند العرب .

وكانت الوثنية هي الدين السائد في جزيرة العرب ، وهي عبادة الأصنام والأوثان .

والأصنام هي تماثيل الإنسان من المعادن أو الخشب ، والأوثان هي تماثيل الإنسان من الحجر

وكان بدء عبادة الأصنام عند العرب أنهم كانوا يعظمون الكعبة تعظيما شديدا فلما تكاثروا وضائق بهم مكة وهاجروا منها كان لا يظعن ظاعن إلا حمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما له وحبا لمكة فحيثما حل وضعه وطاف به كما كان يطوف بالكعبة . واستمروا على تعظيم هذه الحجارة حينما تأصل فيه حبهم لها وتعظيمهم إياها ثم استحال هذا التعظيم عادة فعبادة ، ثم عمت هذه العبادة حتى وصلته إلى مكة مقر التوحيد .

وكان أول من غير دين إبراهيم وإسماعيل فوضع الأصنام في الكعبة عمرو بن لحي ، وكان حاجب البيت الحرام ، شاهد أهل البلقاء يعبدون

الأصنام فنصب صنما في الكعبة سماه « هبل » وجعل عبادته إليه ، ومن أشهر الأصنام عند العرب :

مناة : وكان منصوبا على ساحل البحر بين المدينة ومكة وكانت العرب تعظمه وتذبح حوله وكان الأوس والخزرج يعظمونه وقد ذكرت « مناة » في القرآن الكريم « ومناة الثالثة الأخرى » وكان من أسماء العرب « عبد مناة » و « زيد مناة » . قيل كان يعبد مناة خزاعة ، قيل : وهذيل أيضا ، وقيل أنها كانت لبني كعب . والصحيح أنها كانت للأوس والخزرج . وفي سنة ٨٨ هـ وهي عام الفتح بعث الرسول (ص) عليا رضى الله عنه فهدمها .

واللات وهى صخرة مربعة بلت عليها ثقيف بناء بالطائف وكانت ثقيف تعبدنها ومن سدننها عتاب بن مالك ، ومن أسماء العرب : زيد اللات وتيم اللات . وورد ذكرها في القرآن الكريم : أفرأيتم اللات والعزى . ويقول عمر بن الجعيد :

فانى وتركى الكأس عمدا لكالذى تبرأ من لات وكان يدينها

وبقيت إلى أن أسلمت ثقيف فبعث رسول الله المغيرة بن شعبه فهدمها وحرقها بالنار ، وفى ذلك يقول شداد بن عارض ينهى ثقيفا عن العودة إلى عبادتها :

لَا تَنْصَرُوا اللَّاتَ إِنَّ اللَّهَ مَهْلِكُهَا وكيف نصركم من ليس يلتصرُ
إِنَّ الَّتِي حَرَقْتَ بِالنَّارِ فَاشْتَعَلَتْ ولم تقاتلْ لدى أحجارها هدرُ
إِنَّ الرَّسُولَ مَتَى يَنْزِلُ بِسَاحَتِكُمْ يظعنُ وليس بها من أهلها بشرُ

ويقول أوس بن حجر :

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله إنَّ الله ممنهٌ أكبرُ

والعزى : وهى شجرة وكانت أعظم الأصنام فكانت قريش تخصصها بالزيارة والهدايا والنحر عندها . وكانت العزى بواد من نخلة بأرض الشام

يقال له حرض وقيل بالقرب مكة وسدنتها من بنى مرة من سليم ، ومن أسماء العرب عبد العزى . وبعد ظهور الإسلام أرسل الرسول صلوات الله عليه خالد بن الوليد وذلك عام الفتح فقطعها .

وكان من العرب من يقولون إن الثلاث — اللات والعزى ومناة — بنات الله .

ومن أصنامهم : ود ، وسواع ، ويعوق ، ويعوق ، ونسر . وكان ود لكعب ، ومعوغ لهذيل : قال الشاعر :

تراهم حول قبيلتهم عكوفاً كما عكفت هذيل على سُواع

ويعوق المذبح ، ويعوق لعمدان وقيل لمراد ، ونسر لمخير قبل أن يدينوا باليهودية . ومن أصنامهم : « هبل » وهو أعظم الأصنام التي كانت حول الكعبة وكانوا يستقسمون عنده بالأزلام ، « وذو الخالص » وهو الخشم وهو مروة بيضاء منقوش عليها مثل هيئة التاج وقد بنى له بيت بين مكة والمدينة على مسيرة سبعة ليال من مكة . وروى أن امرأ القيس استقسم عنده في الأخذ بشار أبيه فنهى عن ذلك فرمى بالقدح في وجهه وقال :

لو كنت يا ذا الخالص الموتورا مثلي وكان شيخك المقبوراً

لم تنه قتل العدا زورا

وقيل إنه وجد حول الكعبة بمكة يوم الفتح ستون وثلاثمائة صنم حطمها الرسول (ص) بيده كلها . وكان لأهل كل بيت صنم في بيتهم يعظمونه . وكان لغير قريش بيوت عبادة كالكعبة وتسمى الطواغيت وكانوا يضعون فيها الأصنام ويطوفون بها ويهدون إليها الهدايا ويذبحون الذبائح ويستقسمون عندها بالقداح ولها سدنة وحجاب .

وهكذا كانت حياة العرب متأثرة بهذه الأصنام أيما تأثر (١) إلا أن

(١) ومن القرايين - الذبائح - التي كانوا يذبحونها عندها : البجيرة والسائبة والوصيلة والحام . وهي مذكورة في القرآن الكريم .

الشعر العربي الذي يصور هذه الناحية الدينية من نواحي حياة العرب العامة غير كثير ، وقد يكون ذلك لأن رواة الشعر الجاهلي بعد الإسلام قد أهملوا ما ظهرت فيه الوثنية تديناً وارضاء لله

ودخلت اليهودية إلى جزير العرب فانتشرت في يثرب وحولها في فذلك وخيبر ، وفي اليمن ومن أول ملوكهم الذين تهودوا ، ذو نواس ، وقد تعصب لليهودية وحاول جعلها الديني الرسمي وأحرق نصارى نجران في الأخدود تعصياً ليهوديته مما أثار الحبيشة النصرانية فغزت اليمن بلاد وملكتها وكان ذلك في أوائل القرن السادس الميلادي كما تقدم

وتهود كذلك بعض أناس من كندة وكفانة وأشهر شعراء العرب من اليهود السموأل بن عاديات .

ودخلت النصرانية إلى الجزيرة أيضاً حيث استقرت في ربيعة وغسان وبعض قضاعة وطى ، انتردهم على الروم وفي قبائل العباد ، بالحيرة وكان بنو تغلب من نصارى العرب أيضاً ، وأشهر مواطن النصرانية في اليمن « نجران » وكان أهلها على مذهب اليعاقبة كالحبيشة

وكانت اليهودية والنصرانية قليلتين بالنسبة إلى الدين السائد في الجزيرة وهو الوثنية . وكان القسوس والرهبان يردون العرب ويدعون إلى دينهم ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار ، وأشهر شعراء النصرانية قس بن (١) ساعدة وأميرة ابن أبي الصلت وعدى بن زيد .

ومن العرب من كان يعبد الكواكب ، فقد كان بين اليمنيين من عبد الشمس ، وعبدت كنانة القمر ، وعبد قوم من لحم وخزاعة وقريش نجم الشعرى ، وروى أن قوماً من قريش اعتنقوا الزندقة أخذوها عن بعض أهل الحيرة الذين أخذوها عن الفرس ، والزندقة تسير على مذهب

(١) راجع حديثه مع قبصر (٢: ٣٧ الأمالى)

مانى وتقول يالهيـن : إله النور وهو أصل كل خير وإله الظلام وهو منبع كل شر .

ووجد من العرب من أنكر هذه الأديان كلها وقالوا ما حكاه الله عز وجل عنهم « ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » .

وكانت قریش لها ولاية البيت وبعض ميزات دليـلة كعدم الوقوف بعرفة أو الإفاضة منها وسوى ذلك . وكان بعض قليل من العرب يعبدون الله على ما يتصورون من دين الحنيفية البيضاء دين ابراهيم واسماعيل .

وبعضهم أنكروا الأديان وغابت عنهم حقيقة الحنيفية ففترقوا في البلدان يلتمسونها ويطلبون التوحيد ، ومن هؤلاء ورقة بن نوفل الأسدى وزيد بن عمرو بن نفيل العدوى وعثمان بن الحويرث بن خزيمه وعبيد الله ابن جهش الأسدى ، فأما ورقة فتنصر ، وأما زيد فاعتزل الأديان كلها وقال أعبد رب ابراهيم ، وأما عثمان بن الحويرث فقدم على ملك الروم وتنصر ، وأما عبيد الله فأقام على ما هو عليه من الشك حتى جاء الإسلام فأسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة فلما قدمها تنصر فيها .

وكان في العرب كهان مشهورون ، لهم قصص كثيرة وكان العرب يأخذون رأيهم في المشكلات . . ومنهم : سطيح ، وطريفة ، وزبراء الكاهنة (١) ، وسواد بن قارب (٢) .

وكان منهم الطوارق بالخصى (٣) ، ومن الكهان ابنة الخنس (٤) .

(١) راجع حديث زبراء مع بنى رثام من قضاة في الامالى (١: ١٢٦) ، وقرأ وفود عبد المسيح على سطيح في العقد الفريد (١: ١٧٨ ط ١٩٢٨)

(٢) ٢: ٢٨٩ الامالى

(٣) راجع الامالى (١: ١٤٢)

(٤) راجع حديثها مع أبيها في (ذيل الامالى ص ١٠٧)

معارف العرب في الجاهلية

١ - كان التبابعة في اليمن ، والمناذرة والساسنة في الحيرة والشام على حظ من المعرفة والثقافة يدلنا على ذلك ما وصلوا إليه من بناء السدود وحفر المجارى المائية وتخطيط المدن وتنظيم الجيوش وهندسة الأمواه ، ولا شك أنهم تأثروا بالفرس والروم وسواهم من الأمم المتحضرة وأخذوا عنهم الطب والحساب والزراعة .

ب - أما سواد العرب فأميون بدو لاعهد لهم بعلم أو ثقافة ولا بتعليم أو تدريس ، وإنما كانت لهم معارف وصناعات أفادوها بتجارهم أو باتصالهم بالأمم الأخرى عن طريق التجارة أو الأمارات القائمة على الحدود أو البعوث الدبلوماسية ، ومن أشهر معارفهم :

١ - النجوم والمطر والرياح :

ففي اللغة العربية أسماء متعددة للنجوم ، وللرياح على اختلاف أنواعها ، وللمطر . وتشابه أسماء البروج والكواكب في العربية والكلدانية كثير .

وبعض هذا وصلهم عن الكلدانيين أهل بابل القديمة ، وبعضه اهتموا إليه بفطرتهم لحاجتهم إلى معرفة الوقت والعلم بزمان الخصب والمحل وأوقات الرياح والمطر سواء كانوا في البر أو البحر ، وساعدهم على ذلك صفاء جو الصحراء وحدة فطنتهم ، وحاجتهم إلى المطر والسحاب .

ويتصل بهذا ما كان عليه بعض عرب السواحل كأهل اليمن والبحرين من معرفة بالملاحة البحرية وسير المراكب في البحار ، وفي اللغة العربية ألفاظ كثيرة لذلك ، ويقول طرفة :

كَأَن حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غُدُوءَ خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَرِّ
عَدُوِّ لَيْثَةٍ أَوْ مِنْ سَفِينِ ابْنِ يَامِنْ يَجُورُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي
يَشْتَقِي حَبَابَ الْمَاءِ حِزْوْمُهَا بِهَا كَمَا قَسَمَ التَّرْبَ الْمُفْأِيلُ بِالْيَدِ

٢ - الطب

وقد وصلهم بعض 'معلومات عنه من الفرس والروم واليونان وكان
الحارث بن كلدة طبيب العرب في الجاهلية م ١٣ هـ قد تعلم في بلاد الفرس
وكان من ثقيف وعاش حتى جاء الإسلام وكان الرسول صلى الله عليه وسلم
يشير على المرضى أن يذهبوا إليه ، ويضرب المثل بابن حذيم الطبيب قال
الشاعر أوس بن حجر :

فَهَلْ لَكُمْو فِيهَا إِلَى ، فَاَنِي طَبِيبٌ بِمَا أَعْيَا النَّطَاطِمِي حَذِيمًا (١)
وتروى عنه الحكمة المشهورة « البطننة بيت الداء والحمية رأس الدواء ،
وهو من تيم وكان يقال « أطبُّ من ابن حذيم » .

كما استمدوا بعضه من تجاربهم العامة . وكان للكي بالنار حظ كبير في
علاجهم . وكانوا يعالجون إبلهم وخيلهم بالكي وبالقطران إلى غير ذلك
من العلاج .

وفي اللغة الغريبة أسماء لكثير من الأمراض ولكثير من الأدوية النائية
وسواها ، ولكثير من أوصاف الإبل والخيل .

ويضرب بطب الحارث بن كلدة المثل ، وقد وفد الحارث (٢) بن كلدة

(١) الضمير يعود للمعزى أى فهل لكم ميل في رد المعزى إلى وهى معرء على
إغتنصها فضيقوه . النطاطمي : العالم

(٢) كان الحارث من الطائفة طبيب العرب في عصره ، وقد سافر إلى فارس
وتعلم الطب ، وعرف الداء والدواء ، وكان يضرب بالعود ، تعلم ذلك بفارس
والين ، وبقي أيام رسول الله وأبي بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية توفي نحو
سنة ٥٠ هـ راجع ٣٢٨ : ٣ بلوغ الأدب ، ٣٤١ : ٤ العقد القريد

الثقفي على كسرى أنوشروان ، فأذن له بالدخول عليه ، فلما وقف بين يديه ، قال له : من أنت ؟ قال : أنا الحرث بن كلدة الثقفي . قال : فما صناعتك ؟ قال : الطب ، قال : أعرابي أنت ؟ قال : نعم من صميمها ، وبمحبوة (١) دارها ، قال : فما تصنع العرب بطبيب مع جهلها وضعف عقولها ، وسوء أغذيتها ؟ قال : أيها الملك ؛ إذا كانت هذه صفتها كانت أحوج إلى من يصلح جهلها ، و يقيم عوجها ، ويسوس أبدانها ، ويعدل أمشاجها (٢) ؛ فإن العاقل يعرف ذلك من نفسه !

قال كسرى : فكيف تعرف ما تورده عليها ؟ ولو عرفت الحلم لم تنسب إلى الجهل !

فقال : أيها الملك ، العقل من قسم الله تعالى ، قسمه بين عباده كقسمة الرزق فيهم ، فكل من قسمته أصاب ، فمنهم مثر ومعدم ، وجاهل وعالم ، وعاجز وحازم ، وذلك تقدير العزيز العليم ! فأعجب كسرى من كلامه .

ثم قال : فما الذي تحمد من أخلاقها ، ويعجبك من مذاهبها وسجاياها ؟ قال الحرث : أيها الملك ؛ لها أنفس سخية ، وقلوب جرية ، ولغة فصيحة ، وألسن بليغة ، وأنساب صحيحة ، وأحساب شريفة ، يمرق (٣) من أفواههم الكلام مروق السهم من نبعة الرام (٤) ، أعذب من هواء الربيع ، وألين من سلسبيل الممين (٥) ؛ مطعموا الطعام في الجذب ، وضاربو الهام في الحرب ، لا يرام عزهم ، ولا يضام جارهم ، ولا يستباح حريمهم ، ولا يذل كريمهم ، ولا يقرون بفضل الأنعام ، إلا للملك الهام ، الذي لا يقاس به أحد ، ولا يوازيه سوقة (٦) ولا ملك !

(١) بمحبوة : صميم (٢) الأمشاج : الأخلاط :

(٣) يمرق : يخرج . (٤) الرام شجر

(٥) السلسبيل : اللين الذي لا خشونة فيه ، والممين : الماء الجاري

(٦) السوقة : خلاف الملك .

فاستوى كسرى جالساً ، وسر لما سمع من محكم كلامه ؛ وقال جلسائه :
لانى وجدته راجحاً ، ولقومه مادحاً ، وبفضيلتهم ناطعاً ، وبما يورده من لفظه
صادقاً ؛ وكذا العاقل من أحكامه التجارب ! ثم أمره بالجلوس فجلس ، فقال له :
كيف بصرك بالطب ؟ قال : ناهيك !

قال : فما أصل الطب ؟ قال : ضبط الشفتين ، والرفق باليدين ، قال :
أصبحت ! فما الداء الدوى ؟ قال : إدخال الطعام على الطعام ، هو الذى يفنى
البرية ، ويهلك السباع فى جوف البرية ، قال : فما الجرة التى تلب منها
الأدواء ؟ قال : هى التخمة ، إن بقيت فى الجوف قتلت ، وإن تحللت أسعت .
قال : صدقت .

فما تقول فى الحجامة ؟ قال : فى نقصان الهلال ، فى يوم صحو لا غيم فيه ،
والنفس طيبة ، والمروق ساكنه ، والسرور يفاجئك ، وهم يباعدك ، قال : فما
تقول فى دخول الحمام ؟ قال : لا تدخله شعبان ، ولا تقم بالليل عريان ، ولا تقعد
على الطعام غضبان ، وارفق بنفسك ، يكن أرخى لبالك ، وقلل من طعامك ،
يكن أهنأ لنومك .

قال : فما تقول فى الدواء ؟ قال : ما لزمك الصحة فاجتنبه ، فإن هاج داء
فاحسمه بما يردعه قبل استحكامه ؛ فإن البدن بمنزلة الأرض ؛ إن أصلحتها
عمرت ، وإن تركتها خربت .

قال : فما تقول فى الشراب ؟ قال : أطيبه أهنأ ، وأرقه أمراء ؛ وأعذبه
أشهاد ، لا تشربه صرفاً فيورثك صداعاً ، ويشير عليك من الأدوية أنواعاً .

قال : فأى اللحم أفضل ؟ قال : الضأن القى ؛ والقديد المالح مهلك الأكل
واجتنب لحم الجزور والبقر .

قال : فما تقول فى الفواكه ؟ قال : كلها فى إقبالها وحين أولانها ، واتركها إذا
أدبرت وولت وانقضت زمانها ؛ وأفضل الفواكه الرمان والأترج ، وأفضل

الرياحين الورد والبنفسج . وأفضل البقول الهندباء (١) والخس .

قال : فما تقول في شرب الماء ؟ قال : هو حياة البدن ، وبه قوامه ،
يذبح ما شرب منه بقدر الحاجة ، وشربه بعد النوم ضرر ، أفضله أمراه ،
وأرقه أصفاه .

قال : فما طعمه ؟ قال : شيء لا يوصف ، قال فما لونه ؟ قال : اشتبه على
الآبصار لونه ، لأنه يحكى لون كل شيء يكون فيه .

قال : فما النور الذى فى العينين ؟ قال : مركب من ثلاثة أشياء : فالبياض
شحم ، والسواد ماء ، والناظر ريح .

قال : فعلى كم جبل وطبع البدن ؟ قال : على أربعة طباع : المرة السوداء
وهى باردة يابسة ، والمرة الصفراء وهى حارة يابسة ، والدم وهو حار رطب ،
والبلقم وهو بارد رطب ؛ قال : فلم لم يكن من طبع واحد ؟ قال : لو خلق من
طبع واحد لم يأكل ولم يشرب ؛ ولم يمرض ولم يملك ؛ قال : فمن طبيعتين ؟ لو كان
اقتصر عليهما ؛ قال : لم يحز لأنهما ضدان يقتتلان ؛ قال : فمن ثلاث ؟ قال :
لم يصلح موافقان ومخالف ؛ فالأربع هو الاعتدال .

قال فأجل لى الحار والبارد فى أحرف جامعة ؟ قال : كل حلو حار ، وكل
حامض بارد ، وكل حريف حار ؛ وكل مر معتدل ، وفى المرحار وبارد ، قال
فأفضل ما عولج به المرة الصفراء ؟ قال : كل بارد لين ، قال : فالمرة السوداء ؟ قال
كل حار لين ، قال فالبلغم ؟ قال : كل حار يابس ، قال فالدم ؟ قال : لإخراجه
إذا زاد ، وتطاعته إذا سخن بالأشياء الباردة اليابسة ، قال فالرياح ؟ قال بالحقن
اللينة ، والأدهان الحارة اللينة ، قال أفتأمر بالحقنة ؟ قال : نعم قرأت فى بعض
كتب الحكماء أن الحقنة تنقى الجوف ، وتكسح الأدواء عنه ، والعجب لمن

(١) بقلة نائمة للبعدة والكبد والطحال .

احتقن كيف يهرم أو يعدم الولد ! وإن الجاهل من أكل ما قد عرف مضرته ؛
ويؤثر شهوته على راحة بدنه .

قال : فما الحمية ؟ قال : الاقتصاد في كل شيء . ، فإن الأكل فوق المقدار
يمنع على الروح ساحتها ، ويسد مسامها .

قال : فما تقول في النساء (١) .. وأين القلب اليها أميل ، والعين
برؤيتها أسر ؟

قال : إذا أصبتها مديدة القامة ، عظيمة الهامة (٢) ، واسعة الجبين ،
قنواء العينين (٣) ، كحلأ (٤) لعساء (٥) ، صافية الخد ، عريضة الصدر ،
مليحة النحر (٦) ، في خدها رقة وفي شفيتها لعس ، مقرونة الحاجبين ، ناهدة
الثديين ، لطيفة الخصر (٧) والقدمين ، بيضاء ، فرعاء (٨) جمدة (٩) ، غضة
بضة (١٠) ، تخالها في الظلمة بدرأ زاهراً . تبسم عن أقحوان (١١) ، وعن
مبسم كالأرجوان (١٢) ، كأنها بيضة مكنونة ، ألين من الزبد ، وأحلى من
الشهد ، وأنزه من الفردوس والخلد ، وأزكى ريحاً من الياسمين والورد ،
تفرح بقرها ، وتسرك الخلوة معها .

فاستضحك كسرى حتى اختلجت كنفاه ! وقال : لله درك من أعرابي ، لقد
أعطيت علماً ، وخصصت فطنة وفهماً ! وأحسن صلته وأمر بتدوين ما نطق به .

-
- (١) عبارات نابية في الأصل حذف هنا (٢) الهامة : الرأس
(٣) قنواء : بيضة القنأ وهو ارتفاع أعلى الأنف واحديداب وسطه وسبوغ
طرفه ، والعينين : الأنف كله أو ما صلب منه .
(٤) الكحلأ : التي كأنها مكحولة ولم تكحل (٥) لعساء : في شفها سواد
(٦) النحر . أعلى الصدر (٧) الخصر : وسط الإنسان
(٨) الفرعاء : التامة الشعر (٩) جمدة : غير سبطة الشعر
(١٠) بضة ناعمة (١١) الأقحوان : نبت من نبات الربيع ، له نور
أبيض ، كأنه ثغر جارية حديثة السن (١٢) الأرجوان : صبيغ أحمر ،
(٥)

٣ - الأنساب والأخبار (١) :

أما الأخبار فمصدرها عندهم قصص التوراة والإنجيل وأساطير الفرس والروم والأخبار المتوارثة عن آباءهم وأجدادهم وعن الأمم الأخرى المجاورة لهم .

وأما الأنساب فكانوا على جانب كبير من النبوغ فيها لأنهم كانوا شديدي العناية بحفظ أنسابهم لاعتزازهم بعنصرهم ودمهم .
وكان في كل قبيلة نسابون يعرفون الكثير من أنساب العرب وقبائلهم وبطونهم ومفاخرهم وتاريخهم وأيامهم ووقائعهم .

ومن أشهر النسابين : « دغفل » السدوسي وقد ضرب به المثل وأدرك زمن الرسول وعاش إلى زمن معاوية ، ومن أشهرهم أيضاً : ابن لسان الحمرة من بني تيم اللات ابن ثعلبة ، ومن أشهرهم أيضاً « زيد ابن الكيس النمرى » وسيدنا أبو بكر الصديق .

ويقول الجاحظ في البيان والتبيين :

ومن رؤساء النسابين : دغفل بن حنظلة وزيد بن الكيس النمرى (٢) .
ويذكر أسماء بعض النسابين (٣) ، وفي مختصر العقد ذكر لأخبار عن أبي بكر الصديق ودغفل في هذا الباب (٤) .

(١) أشهر النسابين :

أ - دغفل ، وابن الأشقر (الراقي - الفهرست - أديان العرب ٢٢٦ ج ١

و ٩٦ ج ٣ البيان والتبيين - الميداني)

ب - ابن لسان الحمرة وهو من علماء زمانه من بني تيم ومن أنساب العرب كان في السكوة أيام المغيرة بن شعبه (١٣٨ ج ١٤ الأغانى)

(٢) ٢١٠ ج ١ البيان والتبيين

(٣) ٢٠٨ و ٢٠٩ و ٢١٠ و ٢١١ ج ١ البيان

(٤) ٢٠١ - ٢٠٤ مختصر العقد

٤ - الفراسة والقيافة :

والعراسة هي الاستدلال بالأمور الظاهرة على الخفية كالاستدلال بشكل المرء ولونه وقوله على خلقه ، وللعقل فيها نصيب كبير .

والقيافة قسمان : قيافة الأثر وهي الاهتداء إلى الهارب بآثار أقدامه ، وقيافة البشر وهي الاستدلال بهيئة الرجل وشكل أعضائه على نسبه .

اشتهر بنو لُحَب بالقيافة وكذلك بنو مُدَج ، كما اشتهروا أيضاً بالزجر وهو الاستدلال بصوت الحيوان وحركته على الحوادث ، وكانوا يتفاملون بالطير الذى يمر من ميامن الإنسان ويتشامعون بالطير الذى يمر من مياسره ويسمون الأول سانحاً والثانى بارحاً ، ويقول النابغة :

زعم العواذلُ أن رحلتنا غداً وبذاك خبرنا الغرابُ الأسودُ
وفى بنى لُحَب يقول الشاعر :

خبيز بنو لُحَب فلاتك مُلغياً مقالة لُحَيِّ إِذا الطيرُ مرَّتْ

٥ - الكهانة والعرافة :

وهما الأخبار عن الأمور المغيبة ماضية كانت أو مستقبلية . وقيل الكهانة الإخبار عن الماضى والمستقبل والعرافة خاصة بالماضى . وكان فى العرب كهان ولهم فيهم اعتقاد . ومن أشهرهم (١) : سطيح الذئبي . وطريقة الخير ، ومن أشهر العرافين الأبلق الأسدى عراف نجد ، ورباح بن عجلة عراف اليمامة ويقول عروة بن حزام :

جعلتُ لعرافِ اليمامة حِكْمَهُ وعرافِ نجدٍ إن هما شفيانى
وكان العرب يفزعون إلى كهانهم فى كل ما يطرأ عليهم من أمر أو

(١) راجع ص ٤٩ من هذا الكتاب . هذا والكهانة بالفتح والكسر، والعرافة بالكسر فى الحرف الاول

يستعصى عليهم من مشكلات وأزمات وشدائد .

ومن السكمان المشهورين : طريفة (١) ، و يروى أنه كانت العمارة في أرض سبأ أزيد من مسيرة شهرين المراكب المجد ، وكان أهلها يقتبسون النار بعضهم من بعض مسيرة أربعة أشهر ؛ ثم مزقوا كل محرق .

وكان أول من خرج من اليمن في أول الأمر عمرو بن عامر مزينة (٢) وكان سبب خروجه أنه كانت له زوجة كاهنة ، يقال لها طريفة الخير ، وكانت رأت في منامها : أن سحابة غشيت أرضهم ، فأرعدت وأبرقت ، ثم صمقت (٣) فأحرقت كل ما وقعت عليه ، ففرعت طريفة لذلك فزعا شديداً وأتت الملك عمراً ، وهي تقول : ما رأيت كالיום ، أزال عني النوم ، رأيت غيماً أرعد وأبرق ، وزجر وأصعق ، فما وقع على شيء إلا أحرق . فلما رأى ما دخلها من الفزع سكنها .

ثم إن عمراً دخل حديقة له ، ومعه جاريتان من جواريه ، فبلغ ذلك طريفة ، فخرجت إليه ، وخرج معها وصيف (٤) لها اسمه سنان ؛ فلما برزت من بيتها عرض لها ثلاث مناجد (٥) منتصبات على أرجلهن ، واضعات أيديهن على أعينهن ، فقعدت إلى الأرض واضعة يديها على عينيها ، وقالت لوصيفها : إذا ذهب هذه المناجيد فأخبرني . فلما ذهبت أخبرها ، فانطلقت مسرعة ، فلما عارضها الخليج الذي في حديقة عمرو وثبت من الماء سلحفاة ،

(١) شرح مقامات الحريري ص ٢٦٥ ج ١ ، بلوغ الأرب ص ٢٨٣ ج ٣ ،
جمع الأمثال ص ٢٥٢ ج ١ ، المسعودي ص ٣٤٤ ج ١ ، معجم البلدان (مأرب)
(٢) ملك اليمن ، ومزينة : لقبه ، فقد كان يلبس كل يوم حلتين ويمزقهما
بالعش ، يكره العود فيهما ، ويأنف أن يلبسهما غيره (٣) أصابت بصاعقة :
وهي نار تسقط من السماء مع الرعد الشديد (٤) الوصيف : الخادم ، غلاماً كان
أو جارية (٥) هي دواب تشبه اليرابيع ، واليربوع : دويبة نحو القفارة ، لكن
ذنبه وأذنيه أطول منها ، ورجليه أطول من يديه .

فوقعت في الطريق على ظهرها ، وجهملت تروم الانقلاب فلا تستطيع ، وتستمين بذنبها فتحشو التراب على بطنها من جنباته ، وتقذف بالبول قذفا .

فلما رأته طريفة جلست إلى الأرض ، فلما عادت السلحفاة إلى الماء مضت طريفة إلى أن دخلت على عمرو ، وذلك حين انتصف النهار في ساعة شديد حرها فإذا الشجر يتسكفا (١) من غير ريح ، فلما رآها استبحيا منها ، وأمر الجارينين بالانصراف إلى ناحية ؛ ثم قال لها : هلمى يا طريفة ، فكمننت (٢) له ، وقالت : والنور والظلماء ، والأرض والسماء ، إن الشجر لهالك ، وليعودن الماء كما كان في الزمن السالك .

قال عمرو : من أخبرك بهذا ؟ قالت : أخبرني المناجد ، بسنين شذائد ، يقطع فيها الولد الوالد . قال : ما تقولين ؟ قالت : أقول قول الندمان لهفا ، لقد رأيت ساحفا (٣) ، تجرف التراب جرفا ، وتقذف بالبول قذفا ؛ فدخلت الحديقة ؛ فإذا الشجر من غير ريح يتسكفا !

قال : ما ترين في ذلك ؟ قالت : هي داهية دهياء (٤) من أمور جسيمة ، ومصائب عظيمة ! قال : وما هو ؟ وبلك ! قالت : أجل ! إن فيه الويل ! وما للويل فيه من قيل (٥) ، وإن الويل فيما يجي به السيل !

فالتقى عمرو نفسه عن فراشه ، وقال : ما هذا يا طريفة ؟ قالت : خطب جليل وحزن طويل ، وخلف (٦) قليل ! قال : وما علامة ما تذكرين ؟ قالت : اذهب إلى السد ، فإذا رأيت جرذاً (٧) ؛ يكثر يديه في السد

(١) يميل (٢) كهن له : قضى له بالغيب (٣) السلحفاة (٤) داهية دهياء : شديدة (٥) قال قتيلا : نام في القائلة ، وهي نصف النهار ، والمراد الإقامة والمسكن .

(٦) الخلف : ما استخلفته من شيء .

(٧) ضرب من الفهران

الحفر ، ويقلب برجليه من أجل الصخر ، فاعلم أن غمر الغمر (١) . وأن قد وقع الأمر .

قال : وما الذى تذكرين أنه يقع ؟ قالت : وعد من الله تعالى نزا وباطل بطل ، ونكال بنا نكل ؛ فبقيرك يا عمرو يكون الشكل (٢) !

فانطلق عمرو فإذا الجرذ يقلب برجليه صخرة ما يقلبها خمسون رجلا ، فرجع إلى طريفة فأخبرها الخبر ، وهو يقول :

أبصرت أمراً عادني منه ألم وهاج لي من هوله برح (٣) السقم
من جرذ كفحل خنزير الأجم (٤) أو كبش صرم (٥) من أفاريق (٦) الغم
يسحب صخرأ من جلاميد العرم له مخالب وأنياب قضم (٧)
ما فاته سحلا (٨) من الصخر قضم (٩)

فقالت طريفة : وإن علامة ذلك الذى ذكرته لك أن تجلس فتأمر بزجاجة فتوضع بين يديك فإن الريح تملؤها من تراب البطحاء من سهلة (١٠) الوادى ورملة ، وقد علمت أن الجنان مظلمة لا يدخلها شمس ولا ريح .

فأمر عمرو بزجاجة فوضعت بين يديه ، ولم تمكث إلا قليلا ، حتى امتلأت من التراب ، فأخبرها بذلك ، وقال لها : متى يكون ذلك الخراب الذى يحدث فى السد ؟ قالت : فيما بينى وبينك سبع سنين ! قال : ففى أيها يكون ؟ قالت : لا يعلم بذلك إلا الله تعالى ، ولو علمه أحد لعلمته ، وإنه

(١) الغمر : الماء الكثير

(٢) الشكل : كسبب وقفل : الموت والهلاك (٣) البرح : الشدة

(٤) الأجم : جمع أجمة ، وهى الشجر الكثير الملتف (٥) الصرم : الجماعة

(٦) الأفاريق : الفرق تجمع على فرق وجمعت فى الشعر على أفارق وجمع الجمع

أفراق وجمعه أفاريق (٧) قضم قضميا : أكل بأطراف أسنانه (٨) سحله :

قشره ونحته (٩) قضم : كسر (١٠) السهلة : تراب كالرمل يجىء به الماء .

لأتأتى على ليلة فيما بينى وبين سبع السنين إلا ظننت هلاكه فى غدها
أو فى مساءها !

ثم رأى عمرو فى منامه سيل العرم (١) ، وقيل له : إن آية ذلك أن ترى
الحصباء قد ظهرت فى سعف النخل ؛ فنظر إليها فوجد الحصباء قد ظهرت فيها ،
فعلم أنه واقع . وأن بلادهم ستخرب .

فكنتم ذلك ، وأجمع على بيع كل شيء له بأرض مأرب . وأن يخرج منها
هو وولده ؛ ثم خشى أن تنكر الناس عليه ذلك ، فأمر أحد أولاده لإذاعه
لما يدعوه إليه أن يتأبى عليه (٢) ، وأن يفعل ذلك به فى الملامن الناس ؛ وإذا لطمه
يرفع هو يده ، ويلطمه .

ثم صنع عمرو طعاماً ، وبعث إلى أهل مأرب : إن عمراً قد صنع طعاماً
يوم مجد وذكر ، فاحضروا طعامه !

فلما جلس الناس للطعام جلس عنده ابنه الذى أمره بما قد أمره ، فجعل
يأمره فيتأبى عليه ؛ فرفع عمرو يده فلطمه ، فلطمه ابنه فصاح عمرو : واذا له يوم
تفر عمر ويهيج صبي ويضرب وجهه ! وحلف ليقتلنه ، فلم يزالوا به حتى
تركه ، وقال : والله لا أقیم بموضع صنع هذا بي فيه ! ولا يبعن أموالى ، حتى
لا يرث بعدى منها شيئاً ! .

فقال الناس بعضهم لبعض : اغتصموا غصبة عمرو ، واشتروا منه أمواله
قبل أن يرضى ؛ فابتاع الناس منه كل ماله بأرض مأرب ، وفشا بعض حديثه
فيما بلغه من شأن سيل العرم ، فقام ناس من الأزد فباعوا أموالهم ؛ فلما
أكثروا البيع استنكر الناس ذلك فأمسكوا عن الشراء ! فلما اجتمعت إلى عمرو
أمواله أخبر الناس بشأن السيل وخرج تفرج لخروجه منها بشر كثير .

(١) العرم : السيل الذى لا يطاق ، وقيل هو المطر الشديد ، وقيل هو اسم واد
(٢) تأبى عليه : امتنع .

٦ - ومن معارفهم الخط والكتابة وستحدث عنهما بتفصيل .
وكان الشعر ديوانهم ومظهر معرفتهم وأهم ثقافة لهم .

٧ -- وفوق ذلك فقد كان العرب يعرفون بعض الصناعات كالغزل وصناعة الرماح وكانت تصنع في الخط بالبحرين . أما السيوف فكانوا يجعلونها من العراق والابلة وكانوا يسمون الابلة الهند ولذلك يقولون سيوف هندية ، إلى غير ذلك من صناعاتهم الصغيرة . واشتهرت اليمن والحيرة ومشارف الشام بألوان كثيرة من الصناعات .

الخط العربي (١) في الجاهلية

١ - كان العرب أميين لا يقرأون ولا يكتبون ، كان ذلك هو الغالب عليهم والذائع فيهم والمشهور عنهم . ذلك أن الكتابة أثر من آثار الحضارة والعرب كانوا لا يزالون يعيشون على الفطرة والبداءة كما كانوا من قديم الأزمان والعصور .

٢ - وأول الخطوط المعروفة وأقدمها هو « الخط المهرى » ، القديم ، وهو مبدأ سلسلة الخط العربي . وقد استمد الفيلانيون منه « خطهم الفيلاني » والفيلانيون هم سكان ساحل الشام ، وكانوا يترددون على مصر للتجارة وغيرها كما خضعوا لحكم الفراعنة قديماً ، وعن الخط الفيلاني أخذت أمم كثيرة أصول خطوطها كالآراميين (سكان فلسطين والشام والعراق) والحيثيين (سكان اليمن) .

(١) راجع ١٩٦ وما بعدها من تاريخ اللغات السامية ط القاهرة ١٩٢٩ - ص ٥٨ وما بعدها ج ١ من تاريخ آداب اللغة العربية لمحمد بك دياب - وكتاب الخط الخط لمرفان بك - ٤٣٠ ج ٢ صبح الاعشى وج ٣ ص ٥ من صبح الاعشى أيضا - و ٢١٤ - ٢٢٢ ج ٢ المزهري للسيوطي طبع صبيح

فسكران اليمن من معيليين ثم سبئيين ثم حميريين قد أخذوا خطهم عن
الفيلقيين وأدخلوا عليه شيئاً من التنقيح والتحوير فسمى بالخط المسند
أو الحميري .

وهذا عمل اتفاق بين المؤرخين من العرب والمستشرقين وبعد ذلك يختلف
الفريقان اختلافاً كثيراً :

١ - مؤرخو العرب :

يرون أن النبط (١) أخذوا خطهم من الخط الحميري (المسند) مستدلين
على ذلك بالآثار التي عثر عليها في بلادهم وعليها خطوط حميرية ، ويشرح
ذلك أن النبط كانوا متصلين باليمن تجارياً وكانت اليمن على جانب كبير من
الحضارة .

وعن النبط وعن كنده التي ترجع إلى أصل حميري أخذ أهل الحيرة
والأنبار خطهم المعروف بالخط الحميري وعنه أخذ الحجازيون خطهم وهو
الخط العربي وعن الخط الحجازي أو العربي أخذ الخط الكوفي مع شيء
من التحسين .

فلسلسلة الخطوط المعروفة على هذا الرأي هكذا :

الخط المصري - الفنيقي - الآرامي والحميري - النبطي وهو مأخوذ
من الخط الحميري - الحميري - الحجازي فالكوفي . وعلى هذا الرأي يسير

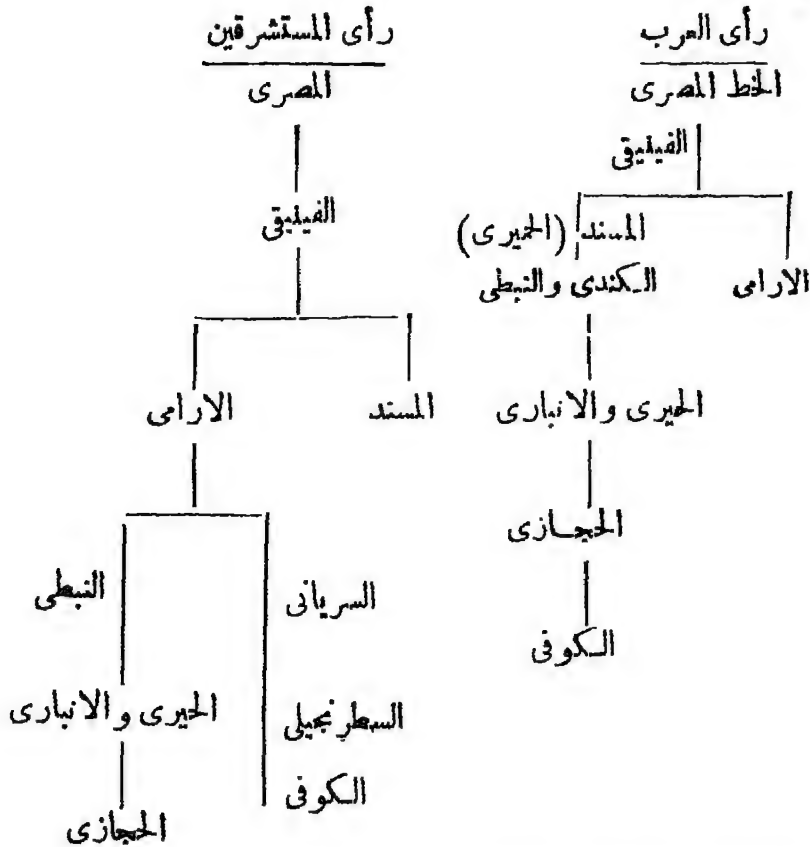
(١) عنصر سامي ظهر في شبه جزيرة طور سينا وامتد إلى صحراء سوريا حتى
شملت دولتهم دمشق وتوغلوا في بلاد الحجاز نحو عام ٨٠ ق م ثم استولى الرومان
على بلادهم عام ١٠٦ م (راجع ١٣٤ تاريخ اللغات السامية ط ١٩٢٩)
ويرى المستشرقون أن النبط ليسوا آرمين خالصين وهناك ميل عند طائفة من
المستشرقين إلى أن النبط من سلالة العرب وكانوا يستعملون الكتابة الآرامية في
النقوش وسائر الشؤون العمرانية

الأستاذ محمد هاشم عطية في كتابه تاريخ الأدب الحاهل (١)

ب — والمستشرقون :

يرون أن النبط أخذوا خطهم من الخط الآرامى لقرب بلادهم بعضها من بعض ، والخط الكوفى فى رأيهم متولد من نوع من الخط السريانى يسمى السطر نجيبى قبل الإسلام . وسلسلة الخطوط على هذا رأى هكذا :

المصرى — الفينيقي — المسند والآرامى — النبطى وهو مأخوذ من الآرامى — الحيرى — الحجازى وعلى هذا الرى يسير الزيات فى كتابه تاريخ الأدب العربى (٢) .



(١) مقتبساً ذلك عن تاريخ الأدب احفنى ناصف (٤٢ ط ١٩٣٦ محمد هاشم)

(٢) ص ٧٦ ط ١٩٣٥

٣ - وجاء الإسلام وليس أحد يكتب بالعربية غير بضعة عشر رجلاً (١) وفي غزوة بدر جعل الرسول فداء الأسير تعلم عشرة من صبيان المدينة وشيخ الرسول ﷺ الكتاب واتخذ كتاباً له ، وكان زيد بن ثابت يعرف الفارسية والحبشية والقبطية والرومية (٢) . وكان عدد كتابه ثلاثة وأربعين كتاباً وكان العرب يكتبون في الرق والعظام والاحجار حتى انتشر بينهم الورق عام (٢) ١٢٠ هـ والظاهر أن انتقال الخط الحيرى إلى الحجاز كان على يد التجار من الحيرة .

ويروى أن الذى نقل الخط الحيرى إلى الحجاز هو حرب بن أمية وأنه كان قد صادق في رحلاته التجارية بشر بن عبد الملك أخا أكيدر صاحب دومة الجندل واستصحبه إلى مكة وزوجه بنته الصبية ، فأقام بشر بمكة مدة علم فيها نفرا من أهلها الكتابة منهم حرب وقيل إن الذى علمه هو عبد الله بن جدعان وقيل غير ذلك . ويقول بعض الشعراء : من دومة الجندل من كندة يمن على قریش بذلك :

ولا تجحدوا نعماء بشر ، عليكم فقد كان ميمون النقيبة أزهرها
أناكم بخط الجزم (٤) حتى حفظتم من المال ما قد كان شتى مبعثراً

(١) ص ٤ : ٣ العقد

(٢) (راجع ص ٦ ج ٣ للعقد الفريد ط ١٩٣٥) . وفى العقد يروى أن ثلاث نفر من طيء اجتمعوا ببيعة وهم : مرامر بن مرة . واسلم بن سدره . وعامر بن جدرة ، فوضعوا الخط وقاضوا هجاء العربية على هجاء السريانية فنقله قوم من الانبار (٢ ج ٣ العقد) وذلك رأى جد خطير

(٣) أسس أمير سمرقند العربى مصنعا للورق فى سمرقند اشرف عليه بعض الاسرى الصينيين وذلك سنة ٧٥١ م . وفى سنة ٧٩٣ م استقدم الرشيد بعض صناع سمرقند إلى بغداد فأسسوا مصنعا آخر للورق . وانتقلت الصناعة إلى دمشق التي صارت تورد إلى العالم العربى الورق

(٤) سمي بالجزم لانه مقتطع من الخط الحيرى

فأجريت الأقلام عوداً وبداة وضاهيتمو كتاب كسرى وقيصر
ونخط الجزم هو الخط الذي تفرع من الخط المسند الحميري (١)
أو قل هو الخط الحميري ؛ وبشر هو بشر بن عبد الملك الذي ذكرنا قصته
فيما سبق آنفا .

(١) سمي بالجزم لأنه مقتطع من الخط الحميري

أيام العرب^(١) وأثرها في الأدب

- ١ -

١ - كانت العرب تعيش قبائل وشعوبا متنافرة متخاصمة ، تنز كل قبيلة بشرفها وكرامتها وعصبيتها . ونحاول أن نقيم على مواقع القيث ومنابت السكلا ولو اغتصبته بالرماح والسيوف من قبيلة أخرى ، وكانوا يقدسون الحرية ويعيشون في ظلال الفوضى . وكما يقول حافظ :

ولذيذ الحياة ما كان فوضى ليس فيه مسيطر أو أمير
وأسباب الحرب عند العرب كثيرة : ترجع إلى التنازع حول الرياسة ، وعلى أما كن المياه والعشب ، أو إلى الاعتزاز بالعصبية والانتصار لها . أو إلى المحافظة على الشرف والكرامة والذود عنهما . أو إلى الأخذ بالتأروحية الجار ومساعدة الحليف أو إلى الدفاع عن الملك والتعصب لذي سلطان أو إلى التنازع في مفاخرة من المفاخرات أو منافرة من المنافات . أو إلى الفقر الذائع الذي يدفع إلى النهب والعدوان .

ونفس العربي وما فطرت عليه من شجاعة وإباء وشتم وفروسية كانت تجعل الحرب قريبة منه مألوفة لديه بل محبوبة عنده في كثير من الأحيان . وكانوا يغيرون على أعدائهم فإن لم يجدوا لهم أعداء أغاروا على الأقرباء :

(١) راجع في ذلك كتب التاريخ العامة وراجع العقد الفريد (٣٠٣ - ٣٧٨ : ط ١٩٢٨ م) والجزء الأول والثاني من تاريخ ابن الأثير ، وأمثال الميداني والجزء الأول والثاني من تاريخ الطبري ، والاغاني . وبلوغ الأرب وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان . ومعجم البلدان في الكلام على أسماء البلدان . والنقائض وقصة الأدب الحجاز في العصر الجاهلي

أغرّن (١) من الضباب على حلال وصبة إنه من حان حانا
وأحيانا على بكر أخينا إذا مالم نجد إلا أخانا

وأيام العرب كثيرة جدا (٢) ، منها ما كان بين العرب والفرس كيوم
ذى قار . ومنها ما كان بين التزاريين واليمنيين كيوم خزازى (٣) وما كان
بين اليمنيين بعضهم مع بعض كبعث بين الخزرج والأوس . وما كان بين
التزاريين ربيعة ومضر . ومنها ما كان بين الربيعيين بعضهم مع بعض كحرب
البسوس بين بكر وتغلب ، وما كان بين المضريين كحرب داحس والفراء
بين عيس وذبيان .

٣ - وهذه الأيام كانت أكبر ميدان تتسابق فيه العقول والبلاغات
والملكات .

فشعراء القبائل المختلفة طالما نظموا الشعر للتمدح بشجاعة الأبطال
وظفرهم في الحرب . ووصفوا المعارك المختلفة وأحوالها . والقتال وأدواته
وأسلحته . والأسرى وذلمهم . ورثوا القتلى .

كما كانوا ينظمونه طلبا للأخذ بالتأثر : أو دعوة إلى السلام ومدحا
لدعاة السلم والعاملين على إنهاء الحرب كما فعل زهير ، مع ما اتصل بذلك من
صلح ووفاء ومقارم ومحامل في الديات .

(١) الضمير يعود إلى الافراس المذكورة في بيت سابق ، والابيات للقطامي ،
وهي في الخامسة ١٣٥ - ١ : الضباب عدة قبائل منهاضبة ومجسل ، الحلول : الذين
يكونون في مكان واحد

(٢) ويروى أن أبا الفرج الاصفهاني صاحب الاغانى ألف كتابا في أيام العرب
يشمل ألفا وسبعائة يوم . وأن أبا عبيدة ألف فيها كتابا صغيرا حوى خمسة
وسبعين يوما ، وآخر كبيراً جمع فيه ألفا ومائة يوم . وقد ألف جماعة من الأدباء
المعاصرين كتابا في أيام العرب

(٣) هو أسم جبل ما بين البصرة إلى مكة

فليس بعجيب إذا أن نقول إن شعر الحماسة وهو أغلب فنون الشعر عند العرب في جاهليتهم وكذلك جزء كبير من شعر الرثاء والذخر والمدح كان أمراً لهذه الأيام التي اشتعلت فيها الحروب وتصارولت الأبطال من شتى القبائل في الجاهلية . كما يشغل ذلك جزءاً كبيراً من النثر الجاهلي أيضاً ، كما تجدد في خطبة هانيء بن قبيصة في قومه يحرضهم على الحرب يوم ذي قار (١) وسواها .

وغناية العرب بأنسابهم وبخيولهم وأسلحتهم وبأنواع الحيوان المشهورة بالبطش والقوة كالأسد والذئب ؛ كل ذلك من آثار شعورهم بالحاجة إليها حين الخصام والنضال وفي المعارك والحروب .

- ٢ -

وبعد فستتحدث عن أهم هذه الأيام وأكثرها أمراً في اللغة والأدب والشعر بما يكون قد اشتمل على خطبة بليغة أو قصيدة رائعة أو حكمة سائرة أو شعر قيل في أثناء النضال والخصام :

١ - حرب داحس والغبراء (٢)

وكان السبب الذي هاجمها أن قيس بن زهير وحمل بن بدر ، تراخيا على فرسيهما : « داحس » و « الغبراء » أيهما يكون له السبق . وكان داحس لقيس وكانت الغبراء لحمل بن بدر وجعلا الرهان مائة بعير وجعلتا منتهى

(١) ١٦٩ : ١ الأما

(٢) راجع ٣٨ : ٢ الميداني . و ٢٠ > ١٦ الأغاني . والجزء الثالث من خزائن الأدب . ومعجم البلدان . والنقائض . والجزء الثاني من العقد . ٤٣ : ١ أماري المرتضى ، والجزء الأول من ابن الأثير . والروض الانف . وتاريخ ابن كثير . وقد كانت حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان من مضر

الغاية مائة غلوة (١) .

ثم قادوهما إلى رأس الميدان بعد أن أضمر وهما أربعين ليلة وفي طرف الغاية شعاب كثيرة فأكن حمل بن بدر في تلك الشعاب فتينا على طريق الفرسين وأمرهم إن جاء داحس سابقا أن يردوا وجهه عن الغاية فأرسلاهما فلما جريا سبقت الغبراء فقال حمل بن بدر : سبقتك يا قيس ، فلما أو غلا في الجرد (٢) وخرجا إلى الوعث (٣) برز داحس عن الغبراء فقال قيس : جرى المذكيات غلاء (٤) ، فذهبت مثلا ، فلما شاف داحس الغاية ودنا من النتبة وثبوا في وجه داحس فردوه عن الغاية في ذلك يقول قيس بن زهير :

كما لا قيت من حمل بن بدر وإخوته على ذات الأصاد
همو تغروا على بغير نغفر وردوا دون غايته جوادى

وئارت الحرب بين عبس وذبيان ابني بنيض أربعين سنة لم تلج لهم ناقة ولا فرس لاشتغالهم بالحرب . بعث حذيفة بن بدر ابنه مالك إلى قيس بن زهير يطلب منه حق السبق ، فقال قيس : كلا . لا مطلقك به ، ثم أخذ الرمح فطعنه به فوق صلبه ، ورجعت فرسه عائرة فاجتمع الناس فاحتملوا دية مالك مائة عشراء ، وزعموا أن الربيع بن زياد حملها وحده فقبضها حذيفة وسكن الناس ، ثم أن مالك بن زهير أخا قيس نزل اللقطة من أرض الشربة فأخبر حذيفة بمكانه فعدا عليه فقتله . في ذلك يقول عنبرة الفوارس :

فلله عيننا من رأى مثل مالك فقيرة قوم إن جرى فرسان
فليتهدما لم يجرىا قيـد غلوة وإيتهدما لم يرسلأ لرهان
فقال بنو عبس : مالك بن زهير بمالك بن حذيفة وردوا علينا مالا ،

(١) توازى أربعمئة ذراع

(٢) القضاء لانيات به (٣) الطريق تفرق فيه الاقدام

(٤) ويرى غلاب والمذكاة من الخيل المسنة

فأبى حذيفة أن يرد شيئاً . وكان الربيع بن زياد القيسي عم قيس مجاوراً
لبنى فزارة ولم يكن في العرب مثله ومثل إخوته وكان يقال لهم الكلمة .

وكان بينه وبين قيس بن زهير بغضاء وخصام ، فلما قتل مالك بن زهير
قامت بنو فزارة يسألون ويقولون : ما فعل حماركم قالوا صدناه ، فقال
الربيع : ما هذا الوحى ؟ قالوا : قتلنا مالك بن زهير ، قال : بئس ما فعلتم
بقومكم ، قبلتم الدية ثم رضيتم بها وغدرتم ، قالوا : لولا أنك جارنا لقتلناك
وكانت خفرة الجار ثلاثاً ، فقالوا له : بعد ثلاث ليال اخرج عنا ، فخرج
واتبعوه فلم يلحقوه حتى لحق بقومه ، وأتاه قيس بن زهير فعاقده وفي ذلك
يقول الربيع :

فإن تك حربكم أمست عواناً فإنى لم أكن بمن جناها
ولسكن ولد سودة أرثودا وحنوا نارها لمن اصطلاها
فإنى غير خاذلكم ولكن سأسعى الآن إذ بلغت مداها
ورثى الربيع مالك بن زهير فقال :

من كان مسروراً بمقتل مالك فليأت فسوتنا بوجه نهار
ثم نهضت بنو عبس وحلفاءهم بنو عبد الله بن غطفان إلى بنى فزارة
وذيان ورئيسهم الربيع بن زياد ورئيس بنى فزارة حذيفة بن بدر واستمرت
الحرب بين الفريقين وظلت أربعين سنة . ومن أشهر أيامها :

يوم المريقب : لعبس على ذيان ، وفيه قتل عنبرة ضمضها المرى فتو عده
وقال في ذلك عنبرة من معلقته :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابني ضمضم
الشامي عرضي ولم أشتمهما والناذرين إذا لقيتهما دى
إن يفعلوا فلقد تركت أباهما جزر السباع وكل نسر قشعم
ويوم ذى حسا : وهو لذيان على عبس

ويوم الهياة: لعيس على ذبيان ، وقتل فيه حمل بن بدر وأخوه حذيفة
ولما اشتد الكرب بحمل قال : ناشدتك الله والرحم يا قيس ، فقال : لبيكم
ليكم ، فعرف حذيفة أنه لن يدعهم ، فأنهر حملا وقال : « إياك والمأثور
من الكلام ، فذهبت مثلاً ، وقال لقيس : لئن قتلتني لا تصلح غطفان بعدها
فقال قيس : أبعدها الله ولا أصلحها ؛ ولما قتلا قال قيس يرثي حمل
ابن بدر :

تعلم ان خير الناس ميت	على جفر الهباة ما يريم
ولولا ظله ما زلت أبكي	عليه الدهر ما طلع النجوم
ولكن القى حمل بن بدر	بغى والبغى مرتعه وخيم
أظنّ الحلم دل على قومي ؟	وقد يستضعف الرجل الحلم
ومارست الرجال وما رسوني	فمعوج على ومستقيم

ومثلوا بحذيفة .

فما أصيب أهل الهباة واستعظمت غطفان قتل حذيفة تجمعوا ،
وعرفت بنو عيس أن ليس لهم مقام بأرض غطفان . فخرجوا إلى
اليمامة ، فنزلوا بإخوانهم بني حنيفة ، ثم رحلوا عنهم فنزلوا ببني سعد بن
زيد مناة .

وقال قيس أيضاً يرثي حذيفة وأخاه :

شغيت النفس من حمل بن بدر وسيفي من حذيفة قد شفاني
فإن أن قد بردت بهم غليلى فلم أقطع بهم إلا بناني
يوم الفروق : ولما امتد لهيب الحرب وطال أمدها ، سعى الحارث بن
عوف وهرم بن سنان المريان في الصلح وتحملا ديات القتلى ، وفي ذلك قال
زهير معلقته .

أمن أم أو في دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالتمسلم
ومنها :

لعمري لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سجيل ومبرم
تداركنما عبساً وذبيان بعدما تفانوا ودقوا يدينهم عطر منشم (١)

(١) ويروى أن الحارث بن عوف قال لصديق له : أتراني أخطب إلى أحد
فيردني قال، نعم قال ومن ذلك قال : أوس بن حارثة بن لام الطائي فقال الحارث
لغلامه ارحل بنا ففعل فركبا حتى أتيا أوس بن حارثة في بلاده فوجداه في منزله
فلما رأى الحارث بن عوف قال مرحباً بك يا حارث وقاك ربك ما جاء بك يا حارث
قال جئتكم خاطباً قال لست هناك فأنصرف ولم يكلمه . ودخل أوس على امرأته
مغضباً وكانت من عبس فقالت : من رجل وقف عليك فلم تطل ولم تكلمه قال ذلك
سيد العرب الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري قالت فمالك لا تستنزه قال : إنه
استحمق قالت وكيف ؟ قال جاءني خاطباً قالت أفتريد أن تزوج بناتك قال نعم ،
قالت فإذا لم تزوج سيد العرب فمن ؟ قال قد كان ذلك قالت فتدارك ما كان منك قال
فإذا ؟ قالت تلحقه قترده قال وكيف وقد فرط مني ما فرط إليه قالت تقول له إنك
لقتيتني مغضباً بأمر لم تقدم مني فيه قولاً فلم يكن عندي فيه من الجواب إلا ما سمعت
فأنصرف ولك عندي كل ما أحببت فانه سيفعل فركب في أثرهما . قال خارجة بن
سنان والظاهر إنه غلام الحارث (: فوالله إنني لأسير إذ حانت مني التفاتة فرأيت
فأقبلت على الحارث يكلمني غماً فقلت له : هذا أوس بن حارثة في أثرنا . قال وما
نصنع به امض فلما رأنا لا نقف عليه صاح : يا حارث ، اربع على ساعة فوقفنا
له فبكلمه بذلك الكلام فرجع مسروراً فبلغني أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته
ادعي لي فلانة لا كبر بناته فأنته ، فقال يا بنية هذا الحارث بن عوف سيد من
سادات العرب قد جاءني طالباً خاطباً وقد أردت أن أزوجه منه فما تقولين ؟
قالت : لا تفعل ، قال : ولم ؟ قالت : لأنني امرأة في وجهي ردة وفي خلقي بعض
العهد ولست بابنة عمه فيرعى رحي وليس بجارك في البلد فيستحي منك ولا آمن
أن يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون على في ذلك ما فيه ، قال : قومي بارك الله فيك
وادعي لي فلانة لا بنته الوسطى فدعتها ثم قال لها مثل ما قال لاختها ، فأجابته بمثل
جوابها وقالت إنني خرقاء وليست بيدي صناعة ولا آمن أن يرى مني ما يكره
فيطلقني فيكون على في ذلك ما تعلم وليس بابن عمي فيرعى حق ولا جارك في بلدك
فيستحييك ، قال قومي بارك الله فيك ادعي لي بهية يعني الصغرى فأبى بها فقال لها

كما قال لها فقلت أنت وذاك فقال لها إني قد عرضت ذلك على أختيك فابتاه ولم يذكر لها مقالتيهما فقلت : لكني والله الجميلة وجهها الصناع يدا الرفيعة خلقها الحسنية أبا فان طلقني فلا أخلف الله عليه بخير فقال بارك الله عليك . ثم خرج إلينا فقال قد زوجتك يا حارث بهية بنت أوس قال قد قبلت فأمر أمها أن تهيتها وتصلح من شأنها ثم أمر بيوت فضرب له وأنزله إياه فلما هيئت بعث بها إليه فلما أدخلت إليه لبث هنيهة ثم خرج فقلت أفرغت من شأنك؟ قال لا والله قلت وكيف ذلك؟ قال لما مددت يدي إليها قالت مه أعند أبي واخوتي هذا والله ما لا يكون قال فأمر بالرحلة فارتحلنا بها معنا فسرنا ما شاء الله ثم قال لي تقدم فتقدمت وعدل بها عن الطريق فإلبث أن لحق بي فقلت أفرغت قال لا والله . قلت ولم؟ قال : قالت لي أكما يفعل بالامة الجليلة أو السبية الاخيذة؟ لا والله حتى تنحر الجزر وتذبح الغنم وتدعو العرب وتعمل ما يعمل لمثل قلتي والله إني لأرى همة وعقلا وأرجو أن تكون المرأة منجبة إن شاء الله فرحلنا حتى جئنا بلادنا فاحضر الإبل والغنم ثم دخل عليها وخرج إلى فقلت أفرغت قال لا والله قالت لي لقد ذكرت لي من الشرف ما لا أراه فيك قلت وكيف قالت أفرغت لنكاح النساء والعرب يقتل بعضها بعضا وذلك في أيام حرب عيس وذبيان قلت فيكون ماذا قالت اخرج إلى هؤلاء القوم فاصلح بينهم ثم ارجع إلى أهلك فإن يفوتك فقلت والله إني لأرى همة وعقلا ولقد قالت قولا . قال فاخرج بنا فخرجنا حتى أتينا القوم فشينا فيما بينهم بالصلح فاصطلحوا على أن يحتسبوا القتل فيؤخذ الفضل من هو عليه فحملنا عنهم الديات فكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين فانصرفنا بأجل الذكر، قال محمد بن عبد العزيز : فمدح بذلك وقال فيه زهير ابن أبي سلمى (راجع ٢٩٤ : ١٠ : الأغاني ، ٢٢٢ : ٢ المستطرف) :

آمن أم أوفى دمنة لم تسكلم

ومنها :

تداركتنا عبساً وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطره ثم
فأصبح يجرى فيهم من تلادكم مضانهم شتى من إفال مزمن
ينجمها قسوم لقوم غرامة ولم يهريقوا بينهم ملء محجم

٢ — حرب البسوس بين بكر وتغلب من ربيعة

١ — مجد كليب (١) :

لم تجتمع معد كلها إلا على ثلاثة رهط من رؤساء العرب ، وهم : عامر وربيعة ، وكليب ، فالأول عامر بن الظرب ، والثاني ربيعة بن الحارث ، والثالث كليب بن ربيعة ، وقاد معدا كلها يوم خزازى ففرض جوع اليمن وهزمهم . فاجتمعت عليه معد كلها ، وجعلوا له قسم الملك وتاجه ونجيته ، وأطاعته معد بذلك حيناً من دهره ، ثم دخله زهو شديد ، وبقي على قومه لما هو فيه من عزة وانقياد معد له ، حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حماه ، ويحير على الدهر فلا تحفر ذمته ، ويقول : وحش أرض كذا في جوارى فلا يهاج ، ولا تورداً بل أحد مع إبله ، ولا توقد نار مع ناره ، حتى قالت العرب : أعز من كليب وائل . وكانت بنو جشم وبنو شيبان في دار واحدة بتهامة ، وكان كليب قد تزوج بنت مرة بن ذهل بن شيبان ، وأخوها جسساس . وكانت البسوس بنت منقذ التيمية خالة جسساس ، وكانت نازلة في بني شيبان مجاورة لجساس ، وكان لها ناقة يقال لها سراب ، ولها تقول العرب أشأم من سراب وأشأم من البسوس ففرت إبل لكليب بسراب ناقة البسوس وهي معقولة ، فلمات رأت سراب الإبل نازعت دقها حتى قطعته وتبعته الإبل ، واختلطت بها ، حتى أتت إلى كليب وهو على

وذكر قيامهم في ذلك فقال :

صحا القلب عن سلى وقد كاد لا يسلو

وفي قصيدة يقول فيها :

تداركتها الأحلاف قد نل عرشها وذيان قد ذلت بأقدامها النمل
وهذا لهم شرف إلى الآن . ورجع فدخل بها فولدت له بنين وبنات

(١) اسمه وائل ، وكليب لقبه (٤٤٠ - ٤٩٤ م)

الحوض معه قریش وكنانة ، فلما رأها أنكرها فشد عليها بسهم فخرم
ضربها ، فنفرت الناقة وهي ترغو ، فلما رأتها البسوس قد دفنت خمارها عن
رأسها وصاحت : واذلاه واجاراه .

٢ - مقتل كليب :

فأحسست جساسا ، فركب فرسا له مغرورا به ، وأخذ آلتة ، وتبعه عمرو
ابن الحارث بن ذهل على فرسه ومعه رجه ، حتى دخلا الحى على كليب فقال
له : يا أبا الماجدة . عمدت إلى ناقة جارتى ففقرتها ، فقال له : ما مانع من
أن أذب عن حماي ؟ فأحسسه الغضب ، فطعن جساس فقصم صلبه ، وطعنه
عمرو بن الحارث من خلفه فقطع بطنه ، فوقع كليب وهو يهجم برجله ،
وقال لجساس : أغثنى بشربة ماء فقال : تجاوزت شيننا والأحص ، وأجرز
عليه . وفي ذلك يقول الشاعر :

المستجير بعمره عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالدار

فلما قتل كليب ارتحلت بنو شيبان حتى نزلت بماء يقال له النهى ، وتشمر
المهلhel أخو كليب واسمه عدى بن ريبة ، واستعد لحرب بكر ، وترك النساء
والغزل وحرم القمار والشراب على نفسه ، وجمع إليه قومه فأرسل
رجلا منهم إلى بنى شيبان يعذر إليهم فيما وقع من الأمر . فأتوا مرة بن
ذهل وهو فى نادى قومه ، فقالوا له : إنكم أنيتم عظيمًا بقتلكم كليبًا بناب
من الإبل ، فقطعتم الرحم ، وانتهكتم الحرمة ، وإنا كرهنا المعجلة عليكم دون
الإعذار اليكم ، ونحن نعرض عليكم خلا لا أربع . لكم منها مخرج ، ولنا
فيها مقنع ، فقال مرة : وما هي ؟ قال : تحي لنا كليبًا ، أو تدفع إلينا جساسا
قاتله فنقتله به ، أو هما ما فإنه كفه له ؟ أو تمكنتنا من نفسك فان فيك
وفاء من دمه .

فقال : أما إحيائي كليباً فهذا ما لا يكون ، وأما جساس فإنه غلام
طعن طعنة على عجل ثم ركب فرسه فلا أدري أى البلاد احتوت عليه ، وأما

همام فإنه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة وكاهم فرسان قومهم فلن يسلموه
لى فأدفعه إليكم يقتل بجزيرة غيره . وأما أنا فهل هو إلا أن تجول الخيل
جولة غداً فأكون أول قتيل فيها فما أتعجل من الموت ؟ ولكن لكم عندي
خصلتان : أما إحداهما فهؤلاء بنى الباقون فعلقوا في عنق أيهم شتم نسعة
فانطلقوا به إلى رحالك فاذبحوه ذبح الجزور ، وإلا فألف ناقة سوداء
المقل أقيم لكم بها كفيلاً من بنى وائل فغضب القوم وقالوا : لقد أسأت ،
تبذل لنا ولدك وتسو منا اللين من دم كليب .

٣ - اشتعال الحرب :

ووقعت الحرب بينهم ، ولحقت جليلة زوجة كليب بأبيها وقومها واحتزات
قبائل بكر بن وائل وكرهوا معاونته بنى شيبان ومساعدتهم على قتال إخوتهم
وأعظموا قتل جساس كليبا بناب من الإبل ، وانقبض الحارث بن عباد
في أهله ، وهو أبو بجير وفارس النعامة ، وقال المهلهل يرثى كليبا :

بت ليلى بالإنعمين طويلاً أرقب النجم ساهراً أن يزولا
كيف أهدا ولا يزال قتيل من بنى وائل ينسى قتيلاً
إلى أن قال :

قتلوا ربهم كليبا سفاهاً ثم قالوا : ما إن نحاف عويلاً
كذبوا والحرام والحلل حتى يسلب الخدر بيضه المحجولا
ويموت الجنين في عاطف الرحم وكرور رماحنا والخيولا
وقال أيضاً يرثيه :

كليب لا خير في الدنيا ومن فيها إذ أنت حليتها فيمن يخليها ؟
نعم النعامة كليبا لى فقلت لهم مالت بنا الأرض أوزالت رواسيها
الحزم والعزم كانا من طبيعته ماكل آلائه يا قوم احصيا
القائد الخيل تردى في أعنتها زهواً إذا الخيل لجت في تعاذيها

من خيل تغلب ما تلقى أسلحتها إلا وقد خضبوها من أعاديها
ليت السماء على من تحتما وقعت وانشقت الأرض وانجابت بمن فيها
لا أصلح الله منا من يصلحكم ما لاحت الشمس في أعلى مجاريها

٤ - يوم النهى (لتغلب على بكر) :

وأول وقعة بينهم كانت على ماء يقال له النهى كانت بنو شييان نازلة
عليه ، ورئيس تغلب المهلهل ، ورئيس شييان الحارث بن مرة ، فكانت
الدائرة لبني تغلب وكانت الشوكة في شييان ، واستمر القتل فيهم إلا أنه لم
يقتل في ذلك اليوم أحد من بني مرة - وكان هذا اليوم لتغلب على بكر .

٥ - يوم عنيزة :

ثم التقوا بعنيزة فظفرت بنو تغلب . ثم كانت بينهم معارك ووقائع
كثيرة وكانت الدائرة لبني تغلب على بني بكر فيها كلها . وقال مهلهل يصف
هذه الأيام وينعى على بكر في قصيدة طويلة أولها :

أَلَيْتَنَا بِذِي حُسَمٍ أَنْيَرِي إِذَا أَنْتِ انْقَضَيْتِ فَلَا تَحْوَري
وإن يكُ بالذَّنَابِ طَال لَيْلِي فَقَدْ أَبْكَى مِنَ اللَّيْلِ الْقَصِيرِ
وفيها يقول :

فلو نبش المقابر عن كليب لَأَخْبِرَ بِالذَّنَابِ أَى زِيرٍ
كَأَنَّا غُدُوَّةٌ وَبَنَى أَيْنَا بِجَنْبِ عُنَيْزَةٍ رَحِيماً مُدِيرَ
وإِنِّي قَدْ تَرَكْتُ بَوَارِدَاتٍ بُجَيْراً فِي دَمٍ مِثْلِ الْعَبِيرِ
هَتَكْتُ بِهِ بِيُوتَ بَنِي عَبَادٍ وَبَعْضُ الْقَتْلِ أَشَقَى لِلصَّدُورِ
على أن ليس عدلاً من كليب إِذَا بَرَزْتُ مُخَبَّاتِ الْخُدُورِ
ولولا الرِّيحُ أَسْمَعُ مِنْ بُحْجَرٍ صَلِيلِ الْبَيْضِ تُقْرِعُ بِالذِّكُورِ
وقال مهلهل لما أسرف في الدماء :

أَكْثَرْتُ قَتْلَ بَنِي بَكْرِ بِرَّهْمٍ حَتَّى بَكَيْتُ وَمَا يَبْكِي لَهُمْ أَحَدٌ

آيَةُ اللَّهِ لَا أَرْضِي بِقَتْلِهِمْ حَتَّى أُبْرِجَ بَكْرًا إِنَّمَا وَجَدُوا
قَالَ أَبُو حَاتِمٍ : ابْرِج : ادْعُهُمْ بِهَرَجًا ، لَا يَقْتُلُ فِيهِمْ قَتِيلًا ، وَلَا يُؤْخِذُهُمْ
دِيَّةً ، وَقَالَ : الْبَهْرَجُ مِنَ الدَّرَاهِمِ مِنْ هَذَا . وَقَالَ الْمُهَلِّهَلُ :
يَا لَ بَكْرٍ أَنْشِرُوا لِي كَلْبِيًّا يَا لَ بَكْرٍ أَيْنَ أَيْنَ الْفَرَارِ ؟
وَقَالَ :

قَتَلُوا كَلْبِيًّا ثُمَّ قَالُوا أَرْبَعُوا كَذَبُوا وَرَبَّ الْجَلِّ وَالْإِحْرَامِ
حَتَّى تَبِيدَ قَبِيلُهُ وَقَبِيلُهُ وَيَعْصُ كُلُّ مَثَقَفٍ بِالْهَامِ
وَتَقُومُ رَبَاتُ الْحُدُودِ حَوَاسِرًا يَمْسَحُنْ عَرَضَ ذَوَائِبِ الْأَيْتَامِ
حَتَّى يَعْصُ الشَّيْخُ بَعْدَ حَيْمِهِ مِمَّا يَرَى نَدْمًا عَلَى الْإِبْهَامِ

٦ - يَوْمُ قِضَةِ :

ثُمَّ إِنْ مَهْلَهْلًا أَسْرَفَ فِي الْقَتْلِ وَلَمْ يَبَالِ بِأَيِّ قَبِيلَةٍ مِنْ قِبَائِلِ بَكْرٍ ، وَكَانَ
أَكْثَرُ بَكْرٍ قَعْدَ عَنْ نَصْرَةِ بَنِي شَيْبَانَ لِقَتْلِهِمْ كَلِيبَ بْنِ وَائِلٍ ، فَكَانَ الْحَارِثُ
ابْنُ عِبَادٍ اعْتَزَلَ تِلْكَ الْحُرُوبِ حَتَّى قَتَلَ ابْنَهُ بِحَيْرٍ ، فَلَمَّا بَلَغَ الْحَارِثُ قَتْلَهُ قَالَ :
نَعَمْ الْقَتِيلُ قَتِيلًا أَصْلَحَ بَيْنَ ابْنِي وَائِلٍ ، وَظَنُّ أَنَّ الْمَهْلَهْلَ قَدْ أَدْرَكَ بِهِ نَارَ
كَلِيبٍ وَجَعَلَهُ كَقَوْلِهِ لَهْ فَقِيلَ لَهُ إِنَّمَا قَتَلَ بِشَسْعٍ نَعْلَ كَلِيبٍ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَهْلَهْلَ
لَمَّا قَتَلَ بِحَيْرًا قَالَ : « بُوَيْشَسْعٍ نَعْلَ كَلِيبٍ » ، فَغَضِبَ الْحَارِثُ بْنُ عِبَادٍ ، وَكَانَ
لَهُ فَرَسٌ يُقَالُ لَهَا النَّمَامَةُ . فَرَكَبَهَا ، وَتَوَلَّى أَمْرَ بَكْرٍ ، فَقَتَلَ مَنْ تَغَلَّبَ حَتَّى
هَرَبَ الْمَهْلَهْلُ ، وَتَفَرَّقَتْ قِبَائِلُ تَغَلَّبَ ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ الْحَرْثُ بْنُ عِبَادٍ :

قَرَّبًا مَرْبُطَ النَّمَامَةِ مِنِّي كَلِقَتْ حَرْبُ وَائِلٍ عَنْ حِيَالِ
لَمْ أَكُنْ مِنْ جَنَانِهَا عِلْمُ اللَّهِ وَإِنِّي بِمَجْرَاهَا الْيَوْمَ صَالِي
قَرَّبًا مَرْبُطَ النَّمَامَةِ مِنِّي إِنَّ قَتْلَ الْكَرِيمِ بِالشَّسْعِ غَالِي
وَكَانَ الْيَوْمَ الَّذِي شَهِدَهُ الْحَارِثُ بْنُ عِبَادٍ يَوْمَ قِضَةِ وَهُوَ يَوْمُ تَحْلَاقِ اللَّحْمِ (١)

(٢) سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّ بَنِي بَكْرٍ حَلَقُوا فِيهِ جَمِيعًا رُؤُسَهُمْ وَكَانَ لِبَكْرٍ عَلَى تَغَلَّبَ .

وفيه يقول طرفة :

سأناولوا عنا الذي يعرفنا بقوانا يوم تحلاق اللعم
وفيه أمر الخارث بن عباد المهلهل وهو لا يعرفه ، فقال الخارث له :
دلتني على عدى (اسم المهلهل) وأخلى عنك فقال له عدى : عليك اليهود بذلك
إن دلتك عليه ، قال نعم ، قال فأنا عدى . فجزّ ناصيته وتركه .

ثم إن المهلهل فارق قومه ونزل في بني مذحج فخطبوا إليه ابنته فتمنعهم ،
فأجبروه على تزوجها وساقوا إليه في صداقها جلوداً من آدم ، فقال في ذلك :

أعزز على تغلب بما لقيت أخت بني الأكرمين من جشم
وعاش مهلهل باليمن (١) حيناً . ثم ملئت تغلب الحرب فاصطلحت هي
وبكر على ترك القتال ولم يحضر المهلهل صلحهم ، ثم اشتاق إلى دياره فعاد
إليها ومات بعد قليل .

٧ - وكانت جميلة بنت مرة أخت جساس زوجا الكليب (٢) بن ربيعة ،
فلما قتل جساس (٣) كليياً اجتمع نساء الحى للأنتم ، فقلن لأخت كليب :
رحلى جائلة عن مأنمك ؛ فإن قيسامها فيه شماتة وعار علينا عند العرب ؛

(١) راجع أخذ المهلهل بثأر أخيه كليب وقصيدته (اليلتنا بذى حم أنيرى)
في الامالى ٢ : ١٢٩ .

(٢) كان كليب بن ربيعة سيد ربيعة ، ينزلهم ويرحلهم ، ولا يصدرون في
شيء إلا عن أمره ، ولا يجير أحد من بكر وربيعة إلا بأذنه ، وكان يحصى الصيد
وحياض الماء . وضرب به المثل فقالوا : أعز من كليب .

(٣) كان لجساس خاله من بنى سعد جاورت بنى مرة ، فنزلت على جساس
ابن أختها ، ومعها ناقة فندت الناقة يوماً ، فدخلت في إبل كليب ترعى في حماء ،
فنظر إليها فأسكرها ورماها بسهم في ضرعها ، فولت حتى بركت بفناء صاحبها
وضرعها يشخب دماً ، فصاحت : واذا له : فقتل جساس كليياً لذلك ، وقتل
جساس نحو سنة ٨٥ ق . هـ

فقال لها : يا هذه اخرجى عن مأتمنا ، فأنت أخت واثرا ، وشقيقة قاتلنا .
فخرجت وهى تجر أعطافها ، فلقبها أبوها مرة ، فقال لها : ما وراءك يا جليلة ؟
فقال : نكل العدد ، وحزن الأبد ، وفقد حليل ، وقتل أخ عن قليل . وبين
ذين غرس الأحقاد ، وتفتت الأكباد . فقال لها : أو يكف ذلك كرم الصفع
وإغلاء الديات ؟ فقالت جليلة : أمنية مخدوع ورب الكعبة ! أبا لبدن (١)
تدع لك تغلب دم رهبا !

ثم بلغ جليلة أن أخت كليب قالت حين رحلت : رحلة المعتدى وفراق
الشامت ، ويل غدا لآل مرة من الكرة بعد الكرة ! فقالت . وكيف
تشتت الحرة بهتك سترها ، وترقب وترها ! أسعد الله جد أختي . أفلا قالت :
نفرة الحياة ، وخوف الاعتداء ! ثم أنشأت تقول :

يا ابنة الأقوام إن شئت فلا	تعجلى باللوم حتى نسألى
فإذا أنت تبينت الذى	يوجب اللوم فلومى واعذلى
إن تكن أخت امرئ ليمت على	شفق منها عليه فافعللى
جل عندى فعل جساس فيا	حسرتى عما انجلت أو تنجللى
فعل جساس على وجدى به	قاطع ظهرى ومدن أجلى
تحمل العين قذى العين كما	تحمل الأم أذى ما تفتلى (٢)
يا قتيلا قوض الدهر به	سقف بيتى جميعاً من عل
هدم البيت الذى استحدثته	وانثنى فى هدم بيتى الأول
يا نساءى دونكن اليوم قد	خصنى الدهر برزء معضل
خصنى قتل كليب بلظى	من ورأى ولظى مستقبل
ليس من يمسكى ليومين كن	إنما يمسكى ليوم ينجللى
يشتمنى المدرك بالشار وفى	دركى تأرى نكل المشكل (٣)

(١) البدن : جمع بدنه تكون من الإبل والبقر .

(٢) تفتلى : تربى . (٣) المشكل : التى لازمها الحزن

لَيْتَهُ كَانَ دُمِي فَاحْتَبَسُوا بَدَلًا مِنْهُ دَمًا مِنْ أَكْحَلِي (١)
إِنِّي قَاتِلَةٌ مَقْتُولَةٌ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَرْتَاحَ لِي (٢)

٣ - يوم بعث (٣)

وبعث اسم موضع في ديار بني قريظة من اليهود ، وكان بنو النضير
وبنو قريظة يساعدون الأوس على الخزرج وذلك حينما قتل عمرو بن النعمان
رهائن اليهود التي كانت عند الخزرج .

والتقت الأوس وحلفاؤها من اليهود بالخزرج في بعث ، وعلى رأس
الأوس حضير الكتائب ، وعلى رأس الخزرج عمرو بن النعمان ؛ فهزمت
الخزرج ، ومات حضير بسبب جراح أصابته ، وفي رثائه يقول خفاف
ابن ندبة :

فِيَاءَيْنُ بَكَّى حَضِيرَ النَّدَى حَضِيرَ الْكَتَائِبِ وَالْمَجَاسِ

٤ - يوم حليلة (٤)

كثرت الحروب بين ملوك الحيرة وملوك غسان تبعاً للنخصومات
السياسية التي كانت بين الفرس والروم .

ومنها يوم حليلة ، وحليلة هي بلد الحرث بن أبي شمر الفسائي وكانت

(١) الاكحل : عرق في الذراع يفصد

(٢) راجع ٦٣ : ٥ الاغانى ، ٢١٤ : ٥ نهاية الارب ، ٢١٦ : ١

ابن الاثير .

(٣) وهو بين الأوس والخزرج - وكان قبل الهجرة بنحو خمس سنوات .

(٤) كان بين المناذرة والفسانيين

من أجل النساء ، أمرها أبوها أن تطيب فرسان الفسائيين الذين أرسلهم ليفتكوا بالمنذر بن المنذر بن ماء السماء ، وكان لتحميس حليلة لهم أثره في حماسهم وقتلهم للمنذر ملك الحيرة في مدينته اغتيالاً ، فنسب هذا اليوم إلى حليلة . وقيل سمي هذا اليوم يوم حليلة لأنه كان في مكان اسمه « مرج حليلة » ، ويضرب المثل بهذا اليوم . قالوا : « ما يوم حليلة بسر » . وقال النابغة يصف سيوفاً :

تخيرن من أزمان يوم حليلة إلى اليوم قد جربن كل التجارب

٥ - يوم الزَّوِيرَيْن (١)

سببه اعتداء بكر على أرض تميم وعيتمهم ييلادهم وهتكهم لعوراتهم فتحمس بنو تميم ، والتقوا ببني بكر ، وكان على بكر عمرو الأصم سيدها وكانت تميم قد أقبلت بحملين مقرونين مقيدتين وقالت : لا نبرح حتى يبرح هذان الزويران .

ودارت الدائرة على بني تميم ، وأخذت بكر الزويرين ، وفي ذلك يقول شاعرهم :

يا سلم إن تسألني عنا فلا كشف عند اللقاء ولستنا بالمقاريف (٢)
نحن الذين هزمنا يوم صبحنا جيش الزويرين في جمع الأحاليف
ظلموا وظلمنا نكر الخيل وسطهم بالشيب منا وبالمرء الفطاريف

٦ - يوم شعب جبلة (٣)

وهو أعظم أيام العرب وأكثرها جمعاً ، كان قبل الإسلام بنحو سبع وخمسين سنة .

(١) كان بين ربيعة ومضر

(٢) مقاريف جمع مقرف وهو : من أمه عربية وأبوه غير عربي والكشف

جمع أكشف وهو : من ينهزم في الحرب .

(٣) كان لعامر وعبس على ذبيان وتمر

أب لقيط بن زرارة الكلابي جموع العرب على بني عامر وبني عبس ،
وكان في جيشه : أبا الجون الكلابي ملك هجر ، وحسان أخو النعمان بن المنذر
لأمه ، وسنان بن أبي حارثة ، وسواهم من سادة العرب .

وكان الأحوص بن جعفر سيد هوازن وشيخها وبطلها ، فأظماً إبلاً
لقومه ومنعها المرعى وحبسها في الشعب . فلما اقتحم لقيط ومن معه عليهم
فهم الشعب أطلق الإبل من عقالها فانطانت نائرة إلى الماء والمرعى تحطم
كل شيء أمامها ، فهزم لقيط وأحلافه ، وقتل في هذا اليوم ، وأسر أخوه
حاجب بن زرارة كما قتل معاوية بن الجون الكلابي ، ورثت بنت لقيط
دختوس - أباها :

فرت بنو أسد فرا ر الطير عن أربابها
عن خير خندف كلما من كملها وشبابها
وأتمها حسبا إذا ضمت إلى أحسابها
ويقول جرير :

ويوم الشعب قد تركوا لقيطاً كأن عليه حلة أرجوان

٧ - يوم خزّازي (١)

ولى أبرهة الحبشي زهير بن جناب الكلابي على العدنانيين فامتنعوا عن
دفع الأتاوات له . ووقع بعض العدنانيين أسرى عنده ، فذهب وفد من
وجوه معد إليه ليطلق سراحهم ، فأطلقهم ولكنه احتجز بعض أعضاء
الوفد ، فثارت معد ، وقادهم كليب وسار بهم إلى خزّازي وهو جبل بين البصرة
ومكة فأوقد عليه النار ، وأقبلت مذحج إلى خزّازي ، فاقتتل الفريقان قتالاً
شديداً هزمت فيه مذحج وفي ذلك يقول عمرو بن كلثوم :

ونحن غداة أوقد في خزّاز رفدنا فوق رفد الرافدين

(١) كان بين نزار واليمن

وكننا الأيمنين إذا التقينا وكان الأيسرين بنو (١)ينا
فصالوا صولة فيمن يليهم وصلنا صولة فيمن يلينا
فآبوا يا لنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

٨ - أيام الفجار (١)

وهي أربعة أيام ، وكانت قریش ومعهما بكر على هوازن في هذه الأيام
وأهم هذه الأيام هو الفجار الرابع والذي أشعل الحرب فيه أن البراض
السكناني قتل عروة الرحال الذي أجار لطيمة النعمان بن المنذر ، وكان عروة
سيداً شجاعاً شريفاً ، والبراض خليعاً ماجناً ، فثارت الحرب .

وكان البراض بن قيس السكناني رجلاً فانتكاً خليعاً (٢) ، يجنى الجنائيات
على أهله . فخلعه قومه ، وتبرءوا من صليعه ، فنارقههم ، وقدم مكة ، خالف
حرب بن أمية ، ثم نبا به المقام بمكة أيضاً . فقارق أرض الحجاز إلى أرض
العراق العراق ، وقدم على النعمان بن المنذر الملك . وكان النعمان يبعث كل
عام بلطيمة (٣) للتجارة إلى عكاظ (٤) تباع له كل عام هناك . فقال يوماً ،
وعنده البراض وعروة بن عتبة بن جعفر المعروف بالرحال (٥) : ومن
يجوز لي لطيمتي هذه حتى يبلغها عكاظ ؟ فقال البراض : أبيت اللعن ! أنا
أجيزها على كنانة ، فقال النعمان : إنما أريد من يجيزها على كنانة وقيس ،
فقال عروة : أكلب خليع يجيزها ! أبيت اللعن ؟ أنا أخيزها على أهل
الشيخ والقيصوم (٦) من أهل تهامة وأهل نجد ! فقال البراض - في غضب -

(١) الاغانى ج ١٩ ، والجزء الثاني من العقد ، واديان العرب ومعجم البلدان

(٢) كان يضرب المثل بفتكه ، فيقال : دأفتك من البراض .

(٣) اللطيمة : العير التي تحمل الطيب وبز التجار (٤) عكاظ موضع كان

بين نخلة والطائف (٥) لقب بالرحال لكثرة رحلته إلى الملوك (٦) الشيخ

والقيصوم : نباتان مما يطلع في السهل .

وعلى كنانة (١) تجيئها يا عروة ؟ قال : وعلى الناس كلهم !

فدفع النعمان اللطيمة إلى عروة الرحال ، وأمره بالمسير بها ، وخرج
البراض يقبع أثره ، وعروة يرى مكانه ولا يخشى منه ، حتى إذا كان عروة
بين ظهراى قومه أدركه البراض بن قيس ، فأخرج قداحه يستقسم (٢) بها
في قتل عروة ، فربه عروة فقال ما تصنع يا براض ؟ فقال : استقسم في
قتلك ، أيؤذن لي أم لا ؟ فقال عروة : همتك أضعف من ذلك ، فوثب إليه
البراض بالسيف فقتله .

فلما رآه الذين يقومون على العير والأحمال قتيلا انهمزوا ، فاستاق
البراض العير ، وسار على وجهه إلى خيبر ، وتبعه رجلان ليأخذه : أحدهما
غنوى والآخر غطفاني ، وسارا حتى لقيهما البراض بخيبر ، فقال لهما : من
الرجلان ؟ قال من قيس قدمنا لنقتل البراض ، فأنزلهما وعقل راحلتيهما ،
ثم قال : أيكما أجراً عليه وأجود سيفاً ؟ قال الغطفاني : أنا ، فأخذه ومشى
معه ليدله - بزعمه - على البراض ، ثم قال للغنوى : احفظ راحلتيكما ففعل .

وانطلق البراض بالغطفاني حتى أخرجه إلى خربة (٣) في جانب خيبر ،
وقال له : هو في هذه الخربة يأوى إليها ، فأمهلني حتى أنظر أهو فيها ؟
فوقف ، ودخل البراض ، ثم خرج فقال : هو فيها وهو نائم ، فأرني سيفك
حتى أنظر إليه أضراب هو أم لا ، فأعطاه سيفه ، فضربه به حتى قتله ، ثم

(١) كنانة هم قوم البراض .

(٢) الاستقسام : كانوا إذا أراد أحدكم سفرأ أو تزويجاً أو نحو ذلك من المهام
ضرب بالقداح وكان على بعضها مكتوب : أمرني ربى ، وعلى بعضها الآخر :
نهاني ربى ، والباقي غفل ، فان خرج أمرني ربى مضى شأنه ، وأن خرج نهاني
ربى ، أمسك ، وأن خرج الغفل أجأها ، وضرب بها أخرى إلى أن يخرج
الامر أو النهى .

(٣) الخربة : موضع الخراب

أخفى السيف وعاد إلى الغنوى ، فقال له : لم أر رجلا أجبن من صاحبك ، تركته في البيت الذي فيه البراض وهو نائم فلم يقدم عليه ا فقال : انظر لي من يحفظ الراحلتين حتى أمضى إليه فأقتله ، فقال : دعهما وهما على ، ثم انطلقا إلى الخربة ، فقتله وسار بالعبير إلى مكة (١)

وسميت حرب الفجار ، لأنها حدثت في الأشهر الحرام : ذى القعدة والحجة ومحرم ورجب ، التي كان القتال فيها محرما .
وقد حضر النبي صلى الله عليه وسلم هذه الحرب واشترك فيها مع قومه وسنة أربع عشرة سنة ، وكان يذبل على أعماه .

٩ - يوم ذى قار (٢)

كان عدى بن زيد العبادى أستاذاً للنعمان بن المنذر ، ثم التحق عدى بخدمة أنو شروان ، فمات المنذر (٣) فأشار على كسرى بتولية النعمان على الحيرة مكان أبيه ، ثم وشى خصوم عدى به إلى النعمان فأرسل إليه يطلب أن يزوره في الحيرة فقدم عدى عليه فأمر بحبسه . وفي ذلك يقول عدى يستعطفه بشعره :

أبلغ النعمان عنى مألكا أنه قد طال حبسى وانتظارى
لو بغير الماء حلقى شرق كنت كالفصان بالماء اعتصارى
فأمر بإطلاقه ثم خاف منه فقتله ، واحتل زيد مكان أبيه عدى في خدمة

(١) راجع ١٠١ : ١ المضاف والمنسوب ، ٢٣ : ٢ مجمع الامثال ، ٣١٠ : ١ ابن الاثير

(٢) راجع ٣٧٤ : ٣ العقد الفريد ط ١٩٢٨ - وكان هذا اليوم بين العرب والفرس (٣) راجع خبر المنذر بن ماء السماء وقلته ندييه وجعله لنفسه في كل سنة يوم يؤس ويوم نعيم وقلته عبيد بن الأبرص يوم يؤسه (١٩٥ النوادر ملحق الأمالى) .

كسرى ، ثم أخذ زيد يحرض كسرى على النعمان فاستدعاه من الخيرة فليجأ إلى هانيء بن قبيصة مستجيماً به ووضع عنده أمواله وسلاحه وبنته حرة ، وذهب إلى كسرى فحبسه حتى مات في السجن ، وولى مكانه على الخيرة إياس ابن قبيصة الطائي ، وأمره أن يأخذ أمانات النعمان من هانيء ، فطلبها منه فرفض ، فثار كسرى وانتظر على بني شيبان حتى أنزلهم الحر بذي قار وأرسل إليهم جيشاً كثيفاً يحاربهم به ، ولكن بني شيبان وأحلافها من العرب صمدوا لجيش الفرس وهزموه هزيمة منكرة . وانتصر العرب انتصاراً مؤزراً .

وفي هذا اليوم خطب هانيء خطبته المشهورة (١) : يا معشر بكر ، هالك معذور خير من ناج فرور الخ . وكان هذا اليوم في مبعث الرسول صلوات الله عليه ، وقال فيه : « إن هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبني نصر » .

وقد افتخر الشعراء بهذا النصر العظيم ، قال الأعشى :

لو أن كل معد كان شاركني في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف
وقال العديل العجلي :

ما أوقد الناس من نار لمكرمة إلا أطلينا وكما موقدى النار
وما يعدون من يوم سمعت به للناس أفضل من يوم بذي قار
وقال أبو تمام :

وأنتم بذي قار أمالت سيوفكم عريش الذين استرهنوا قوس حاجب

اللغة العريية (١)

أصل اللغة العريية :

١ — هي إحدى اللغات السامية المشهورة الباقية إلى يومنا هذا ، وهي لغة الجلس العربى الذى تحدثنا عنه وعن موطنه وحياته العامة وصفاته وأخلاقه فى العصر الجاهلى .
واللغات السامية هي - حسب ترتيبها ترتيباً زمنياً مطابقاً لانتشار آدابها - كما يأتي :

- ١ — اللغة البابلية والآشورية (من ٣٠٠٠ إلى ٥٠٠ ق م)
- ٢ — د العبرية ظهرت من ١٥٠٠ ق م) واستمرت إلى يومنا هذا
- ٣ — د السبئية أو الجيرية أو العريية الجنوبية (٢) وجدت منها نقوش يرجع تاريخها إلى القرن الثانى بعد ميلاد المسيح وقد تلاشى السبئيون نهائياً من صفحات التاريخ حينما أخذ العدنانيون فى الظهور والقوة

(١) راجع الكلام على أصلها وخصائصها وعوامل نموها فى :
الخصائص - المزهر - الصحاح - كتب فقه اللغة - الادب العربى للرافعى
وراجع نشأة اللغة فى : ٤٣٣ : ٤ شرح نهج البلاغة ، و ٨٠ : ٣ بلوغ الأرب ،
والميسر والقداح لابن قتيبة ، وكتاب الأدب للرافعى .

(٢) راجع الكلام عليها فى ٢٢٧ وما بعدها من كتاب تاريخ اللغات السامية
لاسرائيل ولفنسون ط ١٩٢٩ القاهرة . ويرجع ولفنسون معلوماتنا عن اليمن
ولغاتها إلى : القرآن وكتب السيرة وكتاب الاكليل للهمداني ، وبعض مصادر
عبرية يهودية ، ومصادر تاريخية يونانية ورومانية لهيرودوت وسترابو الرومانى
وسواهما ، ونقوش وكتابات جمعها الرواد الأوربيون خلال القرن التاسع عشر

٤ - اللغة الآرامية وهي كاللغة الحيرية (نقوش وجدت منها منذ سنة ٨٠٠ ق م)

٥ - اللغة الفينيقية وترجع النقوش التي عثر عليها منها إلى القرن السابع قبل المسيح .

٦ - اللغة الحبشية (٣٥٠ ق م حتى يومنا هذا)

٧ - اللغة العربية العدنانية (١) ، وهي لغة الشعر والنثر الجاهليين ولغة القرآن الكريم . وهي من أحدث اللغات السامية عهدا وأقربها ظهورا ، وكل ما ألف ودون عنها وما روى من آثارها فهو ليس بعيداً عن البعثة المحمدية بأكثر من مائة عام تقريباً .

والعدنانية هي أقرب لغات الساميين إلى اللغة السامية القديمة (٢) لأن الجلس العربي عاش في عزلة تامة بعيداً عن العالم ولم يختلط بغيره اختلاطاً كاختلاط الأجناس الأخرى بسواها ولم تخضعهم أمم أخرى لحكمهم (٣) فلم تتأثر لغتهم تأثراً كبيراً بغيرهم .

ب - وتمتاز اللغات السامية عن أنواع اللغات الأخرى (٤) بميزات

(١) راجع تاريخ الأدب العربي للمستشرق الانجليزي رينولد نيكلسون .
وص ١٠٧ الشهاب الراصد للطني جمعه ط ١٩٢٦ .

(٢) راجع ٧ : ٢ من كتاب تاريخ اللغات السامية طبع القاهرة ١٩٢٩ .
(٣) وقد يكون السبب في قرب اللغة العربية من الأصل الأول للغات السامية أنها كانت موجودة في مهد اللغات السامية أو في ناحية قريبة منه أو أن العناصر التي نزحت إلى بلاد العرب كانت من أقدم الأمم السامية .

(٤) اللغات الأخرى تشمل مجموعتين : اللغات اليافضية أو الآرية ، واللغات الحامية :

أما الآرية فقد انتشرت في الهند وسارت منها إلى الافغان وفارس ثم إلى أوروبا . وهي قسمان :

وخصائص (١) منها :

(ا) كثرة عدد حروفها

(ب) أغلب الكلمات فيها يرجع في اشتقاقه إلى أصل ثلاثي الحروف وهذا الأصل هو الفعل ، والرأى الذى يذهب إليه بعض علماء العربية من أن أصل الاشتقاق هو المصدر مخالف لأصل الاشتقاق فى باقى اللغات السامية ولعله تسرب إلى اللغة العربية من العلماء الفرس الذين بحثوا فى اللغة العربية بعقليتهم الآرية إذ الأصل فى الاشتقاق عند الآريين هو المصدر الاسمي .

(ج) ليس فى اللغات السامية أثر لإدغام كلمة فى أخرى حتى تصير الكلمتان كلمة واحدة تدل على معنى مركب من معنى كلتین مستقلتين كما هى الحال فى غير اللغات السامية .

(د) اقتصارها فى الكتابة على الحروف دون حركاتها .

(هـ) كثرة اشتقاق صيغ متعددة من المادة الواحدة

(و) اشتراكها فى كثير من الكلمات مع اختلاف قليل أحيانا ويظهر ذلك من التشابه بين العربية والعبرية ، فبعض الكلمات بالسین فى العربية وهى بالشين فى العبرية ، والألف فى العربية واو فى العبرية ، فسلام فى العربية هى شلوم فى العبرية . وكذلك الثاء فى العربية شين فى العبرية كثور وشور ؛ وما كان فى العربية بالضاد فهو فى العبرية بالصاد كأرض وأرض وهكذا .

١ - الآرية الشمالية وهى لغات أوروبا القديمة والحديثة .

ب - الآرية الجنوبية وهى السنسكريتية (الهندية القديمة) وفروغيا : الهندية الحالية والفارسية والأرمنية والافغانية .

وأما الحامية فقد انتشرت شمالى افريقية وتشمل الزنجية والبربرية (لغة سكان المغرب) والمصرية القديمة (قبل فتح المكسوس لمصر)
وأما اللغات السامية فقد انتشرت غربى آسيا .

(١) راجع ص ١٤ وما بعدها من كتاب تاريخ اللغات السامية ط ١٩٢٩

وهذا الاشتراك دليل على أن اللغات السامية من أصل واحد (١) .
وأوجه الشبه بين أغلب اللغات السامية تظهر في بعض أسماء الأشياء التي
كانت معروفة لهم جميعاً كأسماء أعضاء الجسم وكالضائر فإنها متقاربة
فيها جميعاً .

ج - وتنقسم اللغة العربية بوجه عام - لا اللغة العدنانية خاصة -
إلى لهجتين :

١ - لهجات القبائل العدنانية شمالي الجزيرة .

ب - لهجات القبائل القحطانية جنوب الجزيرة وتسمى اللغة الحيرية (٢)
وهي أقدم من لغة الشمال ، وقد عثر في اليمن على نقوش مكتوبة بهذه اللغة
ولها حروف تخالف الحروف العربية المعروفة كما أن لها صيغاً في التنوين
وجمع المذكر السالم وجمع التكسير وأداة التعريف وغيرها تخالف لغة أهل
الحجاز وكذلك في حروف الكلمات فهمزة أفعل في بعض الكلمات
الحيرية هاء .

(١) يختلف الباحثون في ذلك : فالبعض يذهب إلى أن اللغات السامية تفرعت
من أصل واحد مجهول ، والبعض يذهب إلى أن إحداها أصل لآخراتها ، فقليل
البابلية هي الأصل ، وقيل العربية ، والراجح أن اللغات السامية تفرعت من أصل
واحد مجهول ، وأيد ذلك جورجى زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية .

واللغات السامية من الوجهة الجغرافية تنقسم إلى ثلاث مناطق :

١ - شرقية وتشمل البابلية والآشورية .

ب - غربية وتشمل الكنعانية والعبرية والآرامية .

ج - جنوبية وفيها اللهجات العربية في جميع بلدان الجزيرة العربية واللهجات
الحديثة .

(٢) وتشمل اللغة المعينية واللغة السبئية واللغة الحيرية ولغة قتيبان وحضر موت
وفي تاريخ اللغات السامية لو لفسون حديث طويل عنها (٢٢٧-٢٥٢ ط
القاهرة ١٩٢٩)

أما لغة الشمال أو لغة الحجاز أو اللغة العدنانية فهي أحدث من لغة الجنوب ، وما روى إلينا من شعر جاهلي فهو بها ، لأن الشعراء الذين نظموا هذا الشعر : إما من ربيعة أو مضر وهما فرعان عدنانيان : وإما من قبائل يمنية رحلت إلى الشمال كطى وكندة وتنوخ .

واللغة العدنانية هي التي يعيننا البحث عنها ، وهي التي ينصرف إليها الحديث عند إطلاقنا لفظ « اللغة العربية » .

نشأتها :

١ - اللغة العربية الباقية - التي هي العدنانية - هي مزيج من لهجات مختلفة اختلطت ببعضها ببعض وصارت لغة واحدة بعد أن فتى أصحاب اللهجات الأولى وبادوا بالحروب والمهاجرة والامتزاج بغيرهم (١) .

على أن امتزاج هذه اللهجات وتدخل بعضها في بعض لم يتم مرة واحدة أو في زمن واحد بل حدث شيئاً فشيئاً وسار تدريجياً أزمنة طويلة أثناء الجاهلية إلى ما قبل الإسلام بقليل وهكذا كانت لغة الشمال اللغية العدنانية ذات سلطان قوى ونفوذ واسع في العصور القريبة من ظهور الإسلام فابتلعت اللهجات الجنوبية واتهمتها الواحدة منها تلو الأخرى ، وسادت هي في أغلب أقاليم الجزيرة العربية ، وكونت لنفسها أدباً جديداً وشعراً فنياً .

وأخذت اللهجات في بلاد اليمن تتدهور وتتلأثى حتى كادت تفتى في القرن السادس الميلادي ، وخاصة لفقدان اليمن لحريتها بخضوعها للأحباش طوراً ثم للفرس طوراً آخر فتدهورت حضارتها ، وتناقص ظل اللهجات اليمنية .

ويسر ذلك السبيل أمام اللغة العدنانية للنهر في المهركة ، وبقي من اللهجات

(١) راجع ص ١٦٦ وما بعدها من تاريخ اللغات السامية ط ١٩٢٩

اليمنية في اللغة العربية صدى قليل لا يكاد يكون شيئاً مذكوراً (١).

٢ — ووجود بعض ألفاظ عبرية ، وآرامية ويونانية (٢) ، اندمجت في العربية بواسطة السريانية ، وفارسية (٣) ، من الخطأ أن تستدل به على إفادة اللغة العربية من هذه اللغات في طور نشأتها ، لأننا لا نعلم متى دخلت هذه الألفاظ في اللغة العربية ، ولو سلمنا أنها دخلت في العصر الجاهلي فيكون المعقول أن تعد أثراً من آثار تهذيب اللغة العربية أو طوراً من أطواره .

٣ — ولا شك أن اللهجات التي امتزجت باللغة العربية قسماً :

أ - لهجات سكان شمال الجزيرة كشمود (٤) وغيرها من القبائل العربية القديمة البائدة ؛ ومنها قبائل معين (٥) التي استوطنت في شمال الجزيرة العربية .

ب - ولهجات سكان جنوب الجزيرة وتمثل في اللغة المعينية القديمة

(١) وفي ص ٢٤٠ من المزهري للسيوطي أن بعض لهجات عربية حيرية كانت شائعة في اليمن للقرن الثامن الهجري .

(٢) مثل : النجيل واسطوانه ، وأسقف وناموس وميل وبستان وصراط وخندريس وفرذوس

(٣) مثل : بحروس وجيش وأستاذ (راجع في ذلك ١٥ : ١ من تاريخ آداب اللغة لمحمد دياب)

(٤) راجع موطنها وأخبارها في ١٧١ وما بعدها من كتاب تاريخ اللغات السامية .

(٥) راجع ص ١٧٦ وما بعدها تاريخ اللغات السامية

القديمة (١) ، واللغة السبئية التي خلفت اللغة المعينية (٢) ، أما اللغة الحميرية فهي السبئية مع خلاف قليل وقد نشأت مع اللغة العدنانية في وقت واحد (٣) ثم تغذت بها العدنانية ثم اتهمتها وقضت عليها . ومن المرجح أن ظهورهما بدأ قبل الميلاد بقرن واحد أي قبل البعثة بسبع مائة عام (٤).

٤ - ورحل ابراهيم بابنه اسمعيل إلى الحجاز وأقام بمكة وخاطب قبيلة جرهم الثانية اليمنية وصاهاها وتعلم لغتها فكان لهذا العنصر الذي يرجع إلى العبرية أثر في اللغة العربية العدنانية (٥) .

٥ - ثم بدأت عوامل تهذيب اللغة العربية العدنانية تعمل عملها : باختلاط القبائل العربية بعضها ببعض ، ورحلات القرشيين في البلاد واتصالهم بالأمم الأخرى ، ثم نزل القرآن الكريم فأضفى على العدنانية ثوب القوة والخلود (٦) .

وهكذا نشأت العدنانية ونضجت .. وقبل أن نختم هذا البحث نعرض هذا النص : قال الأستاذ محمد لطفي جمعة : في كتابه الشهاب الراصد (٧) :

(١) والمعينيون قدموا من العراق إلى اليمن وانغمهم بإبلية وباقامتهم في اليمن أخذت تتباعد عن أصلها شيئاً فشيئاً حتى صار لغة مستقلة (راجع ١٢٤ الشهاب الراصد) .

(٢) والسبئيون أو القحطانيون قدموا إلى جنوب شبه الجزيرة من الحبشة أو من العراق في القرن الثامن قبل الميلاد واقتبسوا لغة المعينيين (١٢٤ الشهاب الراصد) وأولهم هو قحطان رأس العرب العاربة وابنه يعرب هو الذي نطق بلغة المعينيين وبدأ يهذبها .

(٣) ١٢٥ الشهاب الراصد . (٤) ١٣٣ المرجع

(٥) وراجع ما كتبه الجاحظ في البيان والتبيين عن اسمعيل ونطقه بالعربية

دون تلقين (١٦٨ : ٣)

(٦) راجع ٢١٥ تاريخ اللغات السامية

(٧) ١٢٥ الشهاب الراصد

ومن المجمع عليه لدى علماء أصول اللغات وعلماء المشرقيات أن هذه العربية المحضة : العدنانية - هي الغاية التي انتهت إليها تلك اللغات وكانت جميعها روافد تغذى نهرها العظيم ، فالحبشية والسبئية والحيرية والعبرانية والنبطية وما تخلف عنها من لهجات متنوعة خدعت كلها تلك المضربة الفصحى الخالصة ،

أطوار تهذيب اللغة :

١ - سبق (١) أن ذكرنا أن المعينين بعد هجرتهم من العراق إلى اليمن انحرفت لغتهم البالية ثم استقلت فسميت اللغة المعيلية ، وتوارثها السبئيون وتحولت فصارت لغة جديدة هي اللغة السبئية ، وكانت هي لغة الحيريين إلا أنها اكتسبت صفات جديدة بفعل الزمن وتبدل الحياة والمعيشة ؛ ثم هاجر اسماعيل إلى مكة وأقام بها وكان لسانه عبرانيا ، وجاور جرهم الثانية القحطانية وخالطها وصاهرها وتكلم بلسانها - وهي اللغة القحطانية أو السبئية - وتكلم بهذه اللغة أحفاده ، وبذلك نشأت اللغة العدنانية ، وكانت نشأتها هي واللغة الحيرية في وقت واحد على الأرجح وذلك قبل الميلاد بقرن واحد أو قبل البعثة بسبعمائة عام ، ثم أفادت العدنانية من الحيرية وصارعتها حتى طورتها وتغلبت عليها ، وذلك هو الدور الأول من أدوار تهذيب اللغة العربية .

٢ - ثم كان لاجتماع القبائل واختلاطهم بعضهم ببعض أثر في تهذيب اللغة ورفقيها .

ولاشك أن : الحروب ، والتجارة ، والحج ، كان لها أثر كبير في اختلاط القبائل بعضها ببعض وتفاهمها وتقارب لغاتها ، مما يشبه الأثر الذي أحدثته سيل العرم - الذي حدث حوالي ميلاد المسيح (٢) - وأدى إلى هجرة القبائل

(١) راجع ١٣١ الشهاب الراسد .

(٢) راجع ١١٩ الشهاب الراسد . ويخطئ الزيات في جعل تاريخ سيل العرم هو عام ٤٧٢ م (راجع ص ١٣ تاريخ الأدب العربي الزيات)

واختلاط القمحطائيين بالعدنانيين وتأثرت لغاتهم بذلك الاختلاط .

والحنج له - من بين هذه العوامل - أثر كبير في تهذيب اللغة . فقد كان العرب يحججون إلى الكعبة وكانت قريش تتصل بهم ويتصلون بها ، وكان القرشيون على قسط من المعرفة والرقى الفكري ، وفيهم ذوق ولهم ملكات ناضجة في النقد اللغوي ، فكانوا يميزون بين اللهجات والألفاظ ، ويقتبسون من لهجات القبائل أعذبها ومن ألفاظهم أسهلها وأفصحها ، ويضيفون ذلك إلى لغتهم . فهدبوا لغتهم حتى خلت من السقيم والمستبشع من الألفاظ واللهجات . كما كانوا في رحلاتهم التجارية إلى الشام واليمن وفارس والحبيشة يأخذون من لغات هذه الأمم بعض ألفاظها ويدخلونها في لغتهم بعد أن ينطقوا بها نطقاً عربياً فصيحاً - وهو ما نسميه التعريب - وبذلك زادت ثروة اللغة العدنانية القرشية ، وقلدت القبائل الأخرى قريشاً في ذلك وحاكمتها في لغتها وأخذت عنها فكان بذلك لقريش أثر كبير في تهذيب اللغة ، بل كانت تقوم بما تقوم به مجامع اللغة الآن ، وصارت لغة قريش أعذب اللغات لفظاً وأبلغها أسلوباً وأوسعها مادة .

أثر الأسواق (١) : ومن العوامل الأخرى - التي ظهر فيها اختلاط العرب وكان لها أثر في تهذيب اللغة - الأسواق .

والأسواق العربية كانت ميداناً لاجتماع العرب وتبادلهم التجارة ، كما كانت سبباً في دعم الوحدة والتفاهم بينهم وفي مزجهم بعضهم ببعض ، وفي التقريب بين لغاتهم ولهجاتهم وكانت مع ذلك مجمعاً أدبياً كبيراً حيث كان يجتمع فيها الشعراء والخطباء فيلشدون ويخطبون .

(١) راجع الكلام على عكاظ والمربد في الرسالة العدد ١٢ و ١٣ و ١٥ و ١٦ ، وفي بلوغ الأرب ٢٦٤ : ١ ومعجم البلدان والكلام على عكاظ في العقد الفريد ص ٣٦٩ ج ٣

يقول سيديو : « أنشأ العرب أسواقاً عامة يتعارفون فيها ويتحابون فلم تكن هذه الأسواق في عكاظ ومجنة وذى المجاز سوى مؤتمرات للشعر في الحقيقة خالية من التحكم على النفوس ، ولا شيء أروع من تلك الأسواق على ما كان يسودها من البساطة فقد كانت تشابه الألعاب الأولمبية ، فكان ينهض مقاتل شجاع متزن الخطأ أمام جمهور صامت جامع لحواسه ، لم يكن عليه من الزينة ما يشير إلى أنه من طبقة عالية ؛ فكانت الأبصار تشخص إليه فيلشد بصوته الرخيم من فوق مرتقى قصيدة بأسرها ، فتراه يترنم بأعماله السامية وشرف عشيرته أحياناً ، وتراه يمدح القوة والشجاعة أحياناً ، وتراه يصور عجائب الطبيعة وعزلة الصحراء والمهازل المبتغاة ويصف الغزال أحياناً ، وذلك على حين يسير الجمهور مع المشاعر التي يود الشاعر أن يوحى بها إليه ، فيشاهد على وجهه المتلبه علائم الإعجاب بالبطل الصابر في الضراء كما تشهد علائم احتقار الجبان النذل ، وما كان المستمعون ليخفوا عواطفهم ، والشاعر كلما توسم اعتراف الجمهور بقدرته عاد إلى نشيده بحماسة جديدة . وقصائد الشعراء إذا ما تقيلتها مؤتمرات عكاظ بقبول حسن ، كتبت بحروف من ذهب على نسج ثمينة وعلقت في السكبة لتحفظ للحفدة ، ويستمتع العرب تحت الخيام مساءً لتلك الأشعار العجيبة بلذة وهي التي تجمع بين سحر القصة المؤثرة المحزنة ومحاسن الترنم وحلاوة التوقيع وعذوبة اللحن ، فيجدونها شاملة لما يثيرهم من العواطف والشجون والحماسة ، فكانت لها وضعت بلغة معبرة عما يجيش في صدورهم ، وتجد في شعر الشعراء الذين اشتهروا في هذا الدور وصفاً دقيقاً لحياة عرب البادية الذين لم يفسد الزمن طبائعهم . وليس من النادر أن كانت تحدث بعد الوقائع الدامية مباريات نفر وكرم عرفت بالمنافرات ويقع التحكم فيها من حكم يرضونه ، وأحكام كهذه لا بد أن تصدر في احتفال كبير فتؤثر في النفوس تأثيراً جليلاً .

وإذا كان الخطباء والشعراء ، وكل ذى كلام - يريد له سعة فهم وكثرة ذبوع ، ولا بد أن يريد - يرون لغة قريش أوفى اللغات بهذا ، فقد انتسبوا إليها جميعاً يستوحدون فصاحتها وبيانها ، ويستمدون قوتها وسلطانها حتى غطت على جميع اللهجات ، فأصبحت العلم الذى بنوره يهتدى ؛ والإمام الذى به يقتدى . عرف العرب لها ذلك واعتقدوه فى المحاكاة والتقليد ، فأخذوا يتقربون بلغاتهم إليها ؛ وكانت الأسواق من أقوى العوامل على هذا التقريب ، حتى قارب توحيد اللهجات التمام ، واستعد العرب لفهم القرآن الكريم الذى نزل بلغة قريش ، ولمعرفة مواطن الإعجاز فيه . وما زال القرآن الكريم هو الحفيظ على هذه الوحدة والدرع لهذه اللغة يصونها من أن تمحوها النوازل أو تلشع منها لهجات مختلفة تنقطع صلتها بالنبع الأول فينضب ويحذف .

ومن أهم هذه الأسواق : عكاظ ومجنة وذو المجاز :

١ - أما عكاظ : فهى قرية بين نخلة والطائف ، كانت تقام بها سوق تجارية عامة ، وتاريخ إقامة هذه السوق يبدأ من عام ٥٤٠ م ، وكانت تعقد فى أول ذى القعدة إلى العشرين ، وبقيت فى الإسلام ، إلى أن تمها الخوارج عام ١٢٩ هـ . وكانت ميداناً للمنافرة والمماخرة والتجارة وفداء الأسرى وإنشاد القصائد ، وجاء ذكرها فى الشعر العربى ، قال طريف بن تميم :

أوكليا وردت عكاظ قبيلة بعثوا إلى عربهم يتوهم
وقال النابغة :

أرأيت يوم عكاظ حين لقيتني تحت المعجاج ذا شققت غباري
وقال حسان :

سأنشر إن بقيت لهم كلاما يفرق فى المجمع من عكاظ

وسوق عكاظ سوق عامة كان يحضرها العرب جميعا ، أما الأسواق الأخرى فكانت أسواقا محلية. وعكاظ سمي عكاظا لأن العرب كانت تجتمع فيه فيعكظ بعضهم بعضاً بالفخار ، وكانوا يتفاحرون في سوق عكاظ إذا اجتمعوا . وعكاظ نخل في واديه وبين الطائف ليلة وبين مكة ثلاث ليال ، وبه كانت تقام سوق العرب (١) . وكانت قبائل العرب تجتمع بعكاظ في كل سنة ويتفاحرون فيها ويحضرها شعراؤهم ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ثم يتسرقون ، وكان هناك صخور يطوفون بها ويحجون إليها ، ولم يكن عندهم أعظم من عكاظ ، قالوا : كانت العرب تقيم بسوق عكاظ شهر شوال ثم تنتقل إلى سوق مجنة فتقيم فيه عشرين يوما من ذي القعدة ثم تنتقل إلى سوق ذي المجاز فتقيم فيه إلى أيام الحج (٢) . وهذا رأى آخر في زمان انعقادها .

وبروي أن المملقات أنشدت في عكاظ ، ويقول أحمد أمين من مقالة له : كان لعكاظ أثر كبير لغوى وأدبي ، فقد رأينا قبائل العرب على اختلافها من قحطانيين وعدنانيين تنزل بها ، وملك الحيرة يبعث تجارته إليها ، ويأتي التجار إليها من مصر والشام والعراق (٣) ، فكان ذلك وسيلة من وسائل تفاهم القبائل ، وتقارب اللهجات ، واختيار القبائل بعضها من بعض ما ترى أنه أليق بها وأنسب لها ، كما أن التجار من البلدان المتقدمة كالشام ومصر والعراق كانوا يطلعون العرب على شيء مما رأوا من أحوال تلك الأمم الاجتماعية . وفوق هذا كانت عكاظ معرضاً للبلاغة ومدرسة بدوية يلقي فيها الشعر والخطب وينقد ذلك كله ويهذب ، قال أبو المنذر : وكانت بعكاظ

(١) وقال الواقدي : عكاظ بين نخلة والطائف وراجع كتاب « قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي الخفاجي وعبد الجبار .

(٢) ٢٠٣ : ٦ معجم البلدان

(٣) يروون أن عبد الله بن جعدان أتى مصر فباع ما معه وعاد إلى سوق عكاظ انظر الأكليل للهمداني جزء ٨ ص ١٨٤ وما بعدها .

منابر في الجاهلية يقوم عليها الخطيب بخطبته وفعاله وعد مأثره وأيام قومه
من عام إلى عام فيها أخذت العرب أيامها ونفورها ، وكانت المنابر قديمة
يقول فيها حسان :

أولاء بنو ماء السماء (١) نوارثوا دمشق بملك كبرا بعد كبرا
يؤمنون ملك الشام حتى تمكنوا ملوكا بأرض الشام فوق المنابر (٢)

(١) ماء السماء لقب عامر بن حارثة الازدي أبو عمرو مزيقياء الذي خرج من
اليمن لما أحس بسيل العرم ، وسمى ماء السماء لأنه كان إذا أجذب قومه ما نهم - أى
كفاهم مؤونتهم - حتى بأنيهم الخصب فكانت خلفه من ماء السماء وقيل لولده بنو ماء
السماء وهم ملوك الشام ، والعرب يسمون أيضا بنى ماء السماء لأنهم يعيشون بماء السماء
قال الأزهرى : السهاوة ماء بالبادية وكان اسم أم المنذر ماء السماء فسمته العرب ابن
ماء السماء وهو المنذر بن امرئ القيس بن عمرو بن عدى وأمه ماء السماء وهى
امراة من الثر بن قاسط سميت بذلك لجمالها . ولما ملك كسرى قباذ بن فيروز
خرج في أيامه مزدك فدعا الناس إلى الزندقة وإباحة الحرم وأن لا يمنع
أحد أخاه ما يريد فدعا قباذ المنذر ليدخل في هذا المذهب فأقف وأبى المنذر هذا
الفعل فطرده قباذ من مملكته ونفاه عن الحيرة ودعا الحرث بن عمرو بن
حجر آكل المرار فأجابه وكان الحرث شديد الملك فشد له ملكه ، وكانت أم
أنوشروان بين يدى قباذ بما قد دخل عليه مزدك فلما رآها قال لقباذ ادفعها إلى لأقضى
حاجتى منها فقال له قباذ دونكها فوثب اليه أنوشروان فلم يزل يسأله أن يهب له أمه
حتى قبل رجله فتركها له فلما هلك قباذ وتولى أنوشروان جلس في مجلسه وأقبل
المنذر اليه وأذن للناس فدخل عليه مزدك ودخل عليه المنذر فقال أنوشروان
كنت أتمنى أمنيتين أرجو أن يكون الله تعالى قد جمعهما لى فقال مزدك : وما هما
أيها الملك ؟ قال تمنيت أن أملك فاستعمل هذا الرجل الشريف يعنى المنذر وأن أقتل
هؤلاء الزنادقة فقال له مزدك أو تستطيع أن تقتل الناس كلهم فقال إنك لهنأ وأمر
به فقتل وصاب وقتل في ضحوة واحدة من الزنادقة مائة ألف وصلبهم وطلب
الحرث فخرج هاربا بجميع ما معه وأخذ المنذر في طلبهم فأخذ من بنى آكل المرار
ثمانية وأربعين رجلا فضرب رقابهم ، وألح في طلب امرئ القيس فلحق بالسموأل
(٢) الأزمنة والامكنة ٢ ص ١٧٠

فيقف أشراف العرب يفخرون بمناقبهم ومناقب قومهم في عكاظ .
قام عمرو بن كلثوم خطيباً بسوق عكاظ وأنشد قصيدته المشهورة :

ألا هبى بصحنك فاصبحينا (١)

وكان الأعشى يوافي سوق عكاظ كل سنة ، وفيها أنشد هم قصيدته في مدح
المحلوق (٢) .

وكان الالبغة الذبياني تضرب له قبة آدم بسوق عكاظ يجتمع إليه فيها
الشعراء ، فيدخل إليه حسان بن ثابت وعنده الأعشى والجلساء فيلشدونه جميعاً
ويفاضل بينهم ونقد فيما زعموا قول حسان :

لنا الجننات الغريلمن في الضحى وأسيافنا يقطرن من نجد دما
قال لحسان : قلت العدد ولو قلت الجفان لكان أكثر ؛ وقلت يلعبن
بالضحى ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أبلغ في المديح لأن الضيف بالليل
أكثر طروفاً (٣) .

وفي عكاظ مدح دريد بن الصمة ابن جدعان بعد أن هجاه فقال : إليك
ابن جدعان أعملتها (٤) الخ . وخطب قس بن ساعدة الناس خطبته المشهورة
فذكروهم بالله والموت ورسول الله يسمع له (٥) وكانت الجلسة تشهد الموسم
بعكاظ وتعظم العرب بمصبيتها في أبيها عمرو بن الشريد وأخوها صخر
ومعاوية ، وتلشد في ذلك القصائد (٦) ، وعلى الجملة فكانوا في عكاظ يتبايعون
ويتماكظون ويتفاخرون ويتحاجون ؛ وتلشد الشعراء ما تجد لهم . فمن هذا
كله نرى كيف كانت عكاظ مركزاً لحركة أدبية ولغوية واسعة النطاق ،
كما كانت مركزاً لحركة اجتماعية واقتصادية .

-
- | | |
|--------------------------|---------------------------|
| (١) الأغاني ٩ ص ١٨٢ | (٢) الأغاني ٨ ص ٧٩ ، ٨٠ |
| (٣) المرجع ٨ : ١٩٤ و ١٩٥ | (٤) الأغاني ٩ ص ١٠ |
| (٥) أغاني ١٤ ص ٤١ و ٤٢ | (٦) حصة جزيرة العرب ص ٣٦٣ |

وكانت القبائل - كما أسلفنا - تنزل كل قبيلة منها في مكان خاص بها ، تتلاقى أفراد القبائل عند البيع والشراء أو في الحلقات المختلفة . فكان الناس يجتمعون على سرحة ، أو حول الخطيب يخطب على منبر ؛ أو في قباب من آدم تقام هنا وهناك ، ويمتثلط الرجال بالنساء في المجامع ، وقد يكون ذلك سببا في خطبة أو زواج أو تنادر (١) وكانت تحضر الأسواق - وخاصة سوق عكاظ - أشراف القبائل « وكان أشراف القبائل يتوافون بتلك الأسواق مع التجار من أجل أن الملوك كانت ترضخ للإشراف ، لكل شريف بسهم من الأرباح ، فكان شريف كل بلد يحضر سوق بلده ، إلا عكاظا فإنهم يتوافون بها . من كل أوب (٢)

وكان الأشراف يمشون في هذه الأسواق ملثمين ؛ مخافة أن يؤسروا يوما فيكبر فداؤهم فكان أول من رفع اللثام طريف العنبري ، لما رأيهم يطالعون في وجهه ويتفرون في شمالك قال : قبح من وطن نفسه إلا على شرفه ، وحسر عن وجهه وقال : « أوكلسا وردت عكاظ قبيلة ، إلى آخر الأبيات (٣) .

وكان على سوق عكاظ كلها رئيس إليه أمر الموسم وإليه القضاء بين المتخاصمين ، قال أبو المنذر : وتزعم مضر أن أمر الموسم وقضاء عكاظ كانت في بني تميم وكان ممن اجتمع له ذلك منهم عامر بن الظرب العدواني وسعد بن زيد بن مناة من تميم ، وقد نخر المخبل بذلك في شعره :

ليالي سعد في عكاظ يسوقها له كل شرق من عكاظ ومغرب

حتى جاء الإسلام فكان يقضى بعكاظ محمد بن سفيان بن بجاشع (٤) .

(١) أنظر الاغانى ج ١٠ ص ١٤٥ وما بعدها و ج ١٣ ص ١٤٠ وما بعدها

(٢) الاغانى ٤ ص ١٣٦ وما بعدها (٣) الازمنة والامكنة ٢ ص ١٦٦

(٤) انظر تعداد من ولي عكاظ في الازمنة والامكنة ٢ ص ١٦٧ .

ومن العسير جداً أن نحدد بدء عكاظ ، فلم نجد في ذلك خبراً يصبح التعويل عليه ، يقول الألوسي في بلوغ الأرب : « إنها اتخذت سوقاً بعد الفيل بخمس عشرة سنة » ، ولكن إذا بحثنا في الأحداث التي رويت في عكاظ وجدنا ذلك غير صحيح ، فهم يروون - كما قدمنا - أن عمرو بن كلثوم أنشد قصيدته في عكاظ ، وعمرو بن كلثوم كان قبل ذلك .

وقد عد المرزوقي في الأزمعة والأمكنة من رؤساء عكاظ قبل الإسلام عشرة ، أولهم : عامر بن الظرب العدواني . وهذا - من غير شك - يجعل تاريخ عكاظ أبعد مما يحكى الألوسي بزمان طويل

وظلت سوق عكاظ تقوم كل سنة ، وكانت فيها قبيل الإسلام حروب الفجار وهي حروب أربع ، وكان سبب الأولى المفاخرة في سوق عكاظ ، وسبب الثانية تعرض فتية من قريش لامرأة من بني عامر بن صعصعة بسوق عكاظ ، وسبب الثالثة مقاضاة دائن لمدينه مع إذلاله في سوق عكاظ ، وسبب الأخيرة أن عروة الرحال ضمن أن تصل تجارة النعمان بن المنذر إلى سوق عكاظ آمنة فقتله البراض في الطريق (١) .

فكلما تدور حول سوق عكاظ ، وهذه الحروب كانت قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بست وعشرين سنة ، وشهد بها النبي وهو ابن أربع عشرة سنة مع أعمامه ، وقال : كنت يوم الفجار أنبل على عمومي (٢) . واستمرت هذه الحروب نحو أربع سنوات .

واستمرت عكاظ في الإسلام ، وكان يعين فيها من يقضى بين الناس ، فعين محمد بن سفيان بن مجاشع قاضياً لعكاظ ، وكان أبوه يقضى بينهم في

(١) أنظر العقد الفريد ٣ ص ١٠٨ والأغاني

(٢) النهاية لابن الأثير مادة فجر

الجاهلية وصار ذلك ميراثاً لهم (١) :

ولكن يظهر أن هذه الأسواق ضعف شأنها بعد الفتوح فأصبحت البلاد المفتوحة أسواقاً للعرب خيراً من سوق عكاظ ، وصار العرب يغشون المدن الكبيرة لقضاء أغراضهم ، فضعفت أسواق العرب ومنها عكاظ ، ومع ذلك ظلت قائمة وكان آخر العهد بها قبيل سقوط الدولة الأموية . قال السكبي : « وكانت هذه الأسواق بعكاظ ومجنة وذى المجاز قائمة في الإسلام ، فأما عكاظ فانما تركت عام خرجت الحرورية بمكة مع أبي حمزة المختار ابن عوف الأزدي الأباضي في سنة تسع وعشرين ومائة ، خاف الناس أن ينهبوا ، وخافوا الفتنة فتركها حتى الآن ، ثم تركت مجنة وذو المجاز بعد ذلك ، واستغنوا بالأسواق بمكة وبمنى وبعرفة وآخر سوق خربت سنة ١٩٧ أشار فقهاء أهل مكة على داود بن عيسى بتخريبها فخرّبها وتركها إلى اليوم (٢) »

فعكاظ عاصرت العصر الجاهلي الذي كان فيه ما وصل إلينا من شعر وأدب ، وجرت فيها أحداث بحياة النبي صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ، ومهدت السبيل لقبيل الإسلام لتوحيد اللغة والأدب ، وعملت على إزالة الفوارق بين عقليات القبائل ، وقصدها النبي صلى الله عليه وسلم يبيت فيها دعوته ، وعاصرت الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين والعهد الأموي ولكن كانت حياتها في الإسلام أضعف من حياتها قبله ، وبدأ ضعفها من وقت الهجرة لما كان من غزوات وحروب بين مكة والمدينة وبين المؤمنين والمشركين ، فلما فتحت الفتوح رأى العرب في أسواق المدن المتحضرة في فارس والشام والعراق ومصر عوضاً عنها ، ثم كانت ثورة أبي حمزة

(١) الازمنة والامكنة ج ٢ ص ١٦٧ وما بعدها

(٢) أخبار مكة للأزرقي ص ١٢١ و ١٢٢

الخارجى بمكة فلم يأمن الناس على أموالهم فخربت السوق ، وختمت صحيفة الحياة حافلة ذات أثر سياسى واجتماعى وأدبى (١).

٢ - بحنة : موضع بمهر الظهران ، وكانوا ينتقلون إليها من عكاظ فيقيمون إلى ضاية ذى القعدة .

٣ - ذو المجاز : خلف عرفة وكانوا يقيمون فيها ثمانية أيام من ذى الحجة ثم يقيمون بعرفة في اليوم التاسع .

وبعد فقد كان لهذه الأسواق عملها اللغوى فى الفهم والنقد والإيثار والاختيار ، ثم فى التبادل اللغوى بين القبائل عامة ، مما كان له أثر كبير فى تهذيب اللغة .

ثم أنزل القرآن بلغة قریش فجمع العرب عليها وهذبها وجعلها أفصح اللغات ونشرها فى الدنيا وجعلها لغة عالمية بعد أن كانت لغة العرب وحدهم ، وبالقرآن الكريم تمت سيادة لغة قریش على لغات جميع القبائل العربية الأخرى ولهجاتهم .

اختلاف اللهجات العربية :

١ - كانت اللهجات كثيرة لأن العرب شعوب وقبائل وبطون وأنحاذ وعشائر وفصائل متشعبة ، وكان لكل قبيلة لهجة تميزها ، وبذلك كثرت اللهجات العربية وظهر الاختلاف بينها (٢) ، ولكنه كان فى الفروع واللهجات

(١) راجع عكاظ فى السالى ٣٢٧ : ٩ ، والعقد الفريد ٣٦٠ : ٣ ، ومعجم البلدان ٢٠٣ : ٦ .

(٢) واختلاف اللغات - أو اللهجات - يرجع إلى أمور ثلاثة :

١ - تباين اللهجات وتنوع المنطق كاختلافهم فى صيغة اللفظ أو كيفية النطق وهو المراد هنا .

لا في أصل اللغة ذاتها وكان أثراً للبيئة والمعيشة والحياة والجو . ولم تدون جميع هذه اللهجات (١) ، ولكن بقي ظلها في اللغة العربية .

ويقول أبو عمرو بن العلاء م ١٥٤ هـ : « ما لسان حمير وأقصى اليمن بلساننا ولا عريبتهم بعريبتنا » ، وكذلك يقول ابن خلدون في مقدمته : « ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر كما هي لغة للعرب لهندنا » .

وهذا طبعاً تصوير للخلاف الواسع بين العربية والحيوية على عهد ابن العلاء وعهد ابن خلدون ، وهما يقصدان إلى اختلاف اللهجات . وذلك بدى بما ذكرناه .

ب - ومن صور اختلاف اللهجات العربية ما يبدو لك (٢) من :

١ - الكشكشة في لهجة ربيعة ومضر ، وهي : زيادة شين بعد كاف المخاطبة المؤنثة في الوقف ، أو في الوقف والوصل جميعاً ، أو جمل الشين مكان هذه الكاف مع كسرها في الوصل وإسكانها وقفاً .

فيقولون في رأيتك : رأيتكش ، أو رأيتش .

٢ - الكسكسة في لهجة ربيعة ومضر أيضاً ، وهي : أن يجعلوا بعد الكاف أو مكانها في خطاب المذكر سينا فيقولون في عرفتك : عرفقس أو عرفتكس ونسبها الحريري لبكر لالريمة ومضر ، وجعلها مثل الكشكشة (زيادة شين بعد خطاب المؤنثة) ، ونسبها القاموس لتيم وفسرها بما فسر بها به الحريري .

٢ - اختلاف الدلالة للفظ الواحد باختلاف اللغات التي تنطق به ومن هذا النوع المترادف والأضداد .

٣ - ما يكون قد انفرد به عربي مع إطلاق العرب على النطق بخلافه وهذا يجوز أن يكون قد دفع لذلك الأعرابي من لغة قديمة طال عليها العهد وبادت آثارها . (١) وبقيت اللغة مسماة منسوبة إلى أصحابها من العرب عند الرواة والعلماء .

إلى آخر القرن الثالث (١٢٩ الشهاب الراصد)

(٢) راجع ص ٩٠ وما بعدها ج ١ من تاريخ آداب اللغة العربية لمحمد دهاپ

٣ - شذشنة العين ، وهى : إبدال الكاف شينا مطلقا ، فيقولون فى لييك : ليش ، وفى كئنى : شلمنى .

٤ - القُطعة فى لغة طىء ، وهى قطع اللفظ قبل تمامه فيقولون « يا أبا الحسكا ، فى « يا أبا الحسكم » .

٥ - الخندانية الشجر و عمان ، وهى حذف بعض الحروف اللينة فيقولون « مشا الله ، فى « ما شاء الله » .

٦ - طمطمانية حمير : والطمطمة أن يكون الكلام مشبها لكلام العجم . والطمطنانية هى : إبدال لام التعريف ميما ، ومن ذلك « ليس من أمبر أمصيام فى أسفر ، وفى اللغة : الطمطم والطمطنانى : الذى فى لسانه عجمة والعبي الذى لا يفصح .

٧ -- خفحفحة هذيل وهى قلب الحاء عينا مثل « عى ، فى « حتى » .

٨ - عجمجة قضاة (١) وهى قلب الياء المتطرفة بعد عين جيما مثل « الساعج ، فى « الساعى » .

٩ - غمغمة قضاة وهى إخفاء الحروف عند الكلام فلا تكاد تظهر

١٠ - عننة تميم وقيس وهى جعل الهمزة المبدوء بها عينا مثل « عننت كريم ، فى « أنت كريم » . والفرنج يكسون فيقلبون العين همزة فيقولون فى على « ألى » .

١١ - الاستنطاء فى لغة سعد والأزد وقيس والأنصار وهو قلب العين الساكنة نونا قبل الطاء نحو « أنطى ، فى أعطى .

١٢ - تلتلة بهراء من تميم وينسبها ابن فارس إلى أسد وغيرهم وهى كسر أحرف المضارعة ، وقيل كسر ناء تفعلون .

- ١٣ - وهم كلب وهو كسر هاء الغيبة إذا لم يكن قبلها ياء ساكنة ولا كسرة مثل منهم وعنهم .
- ١٤ - وكم ربيعة وهو كسر كاف الخطاب في الجمع قبل ياء أو كسرة مثل « عليكم » .

١٥ - وتم الين : وهو إبدال السين المهملة تاء مثل التات في الداس .

ج - على أن هناك اختلافات أخرى في اللهجات منها :

١ - إبدال التاء هاء وعكسه في الوقف عند طيء فيقول في فاطمة « فاطمت » وفي نعمت « نعمه » .

٢ - إبدال الياء ميماً وعكسه مثل « باسمك » مكان « ما اسمك » و« مكر » مكان « بكر » وهو لغة « مازن » ومنها آثار في لهجة أهل مديرية الدقهلية وبعض الغربية حديثاً في مصر .

٣ - وإبدال الحاء هاء مثل « مدهته » في : مدحته .

خصائص اللغة العربية :

تمتاز اللغة العربية بما يأتي :

١ - ثروتها اللغوية ، فقها أسماء لكل ما تقع عليه العين أو تسمعه الأذن أو يجول في الخاطر .

٢ - صيغ المشاركة ، كتناسلوا وتناجوا ، فهي خاصة باللغة العربية ولا توجد في اللغات الأخرى .

٣ - الإعراب ويشاركها فيه كما يقول جورجى زيدان الحبشية والألمانية وكادت الألمانية تتخلص منه ، ويلاحظ أن العربية العامية تخلصت من الإعراب .

٤ - الإيجاز فهو فيها أوضح .

م المجاز والاشتقاق وهما كذلك ظاهران في اللغة العربية .

٦ - الاشتراك وهو دلالة اللفظ الواحد على أكثر من معنى كالعين للماء والذهب والفضة وللبصر ، وهو خاص باللغة العربية . ومنشؤه على الأرجح تعدد القبائل فيكون اللفظ بمعنى عند قبيلة وهو بمعنى آخر عند قبيلة أخرى . وقرائن الكلام والأسلوب توضح المراد من اللفظ .

٧ - التضاد : وهو أن يدل اللفظ على معنيين متضادين كجلل للعظيم والحقير (١) . ومنشؤه كذلك تعدد القبائل ، فتضع قبيلة اللفظ لمعنى ؛ وتضع أخرى لخصمه .

والقرينة فيه أيضا هي التي ترشد إلى المراد .

عوامل نمو اللغة :

وأسابغ نمو اللغة كثيرة منها :

١ - الاشتقاق : وهو أخذ كلمة من أخرى مع تشابه في المعنى واتفاق في الأحرف الأصلية وفي ترتيبها . وذلك كأكرم بكرم الخ وهو قياسى . وأصل الاشتقاق المصدر أو الفعل على خلاف في ذلك ، ويشتق من أسماء الأجناس كتذاب الرجل واستأسد . وهذا النوع من الاشتقاق سماعى . والمراد بالاشتقاق هنا الاشتقاق الصغير طبعا .

(١) وكلفظ الجون للابيض والاسود ، ولفظ الوئب للعود في لغة حمير . ويروى في أصل المثل « من دخل ظفار حمير ، أن اعرايبا دخل على ملك من ملوك حمير فقال له الملك : « ئب » يريد : أقعد بلغة حمير ، فوئب الاعرابى ، فسأل الملك عن ذلك فقيل له إن الوئب بلغة العرب هكذا ، فقال أما إنه ليست عندنا عربية ، من دخل ظفار حمير ، أى تكلم بلغة حمير ، وهذا المثل صار يضرب لمن يدخل في القوم فيأخذ برأيهم .

٢ - المجاز ، وبه يتسع التعبير ، وتظهر البلاغة ، ويتنوع البيان .

٣ - التعريب ، وهو نقل اللفظ من العجمية إلى العربية (١) . وفي القرآن ألفاظ معربة كسجيل ومشكاة وأباريق واستبرق ويم وطور ، وأنكر ذلك أبو عبيدة . وجمع آخرون بين الرأيين بأن الألفاظ أعجمية بحسب الأصل ثم صارت عربية .

وقد نشأ التعريب في اللغة العربية بمجاورة العرب في الجاهلية لسواهم من الأمم كالفرس والروم ، وباختلاطهم بهم في التجارة والحروب والبعوث الدبلوماسية وغير ذلك .

٤ - النحت :

وهو أخذ كلمة من كلمتين فأكثر للدلالة بها على معنى ما نحتت منه « كحمدل ، في « الحمد لله » ، « وبسمل » ، في « بسم الله » و« بشمس » في « عبد شمس » وفائدته الاختصار وزيادة ثروة اللغة وسهولة النطق .

وهو غير قياسي إلا عند ابن فارس ، ومن الألفاظ المنحوتة المولدة : الفذلك

٥ - الترادف (٢) :

وهو توارد لفظين أو أكثر على معنى واحد كالبر والقمح والليث والأسد ، وينكر بعض الباحثين الترادف في اللغة العربية بدعوى أن كل لفظ من المترادفات يفيد مالا يفيدده الآخر والصحيح أنه ورد في اللغة . والترادف وسيلة للتعبير والإيضاح والبلاغة وهو ثروة في اللغة وسهولة في النطق .

وسبب الترادف قد يكون تعدد القبائل فتضع قبيلة اسما للشيء وتضع أخرى

(١) ص ٣ شفاء الغليل للخفاجي ط ١٢٨٢

(٢) راجع ٣٠٣ : ١ مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ط ١٩٣٥

اسماً آخر له ؛ وقد يكون اختلاف صفات الشيء ، ويرى ابن خنن أنه لا مانع من أن تضع القبيلة للمعنى الواحد ألفاظاً كثيرة . ويروى أن الرسول (ص) قال لأبي هريرة - وكان من قبيلة دوس - : ناولني السكين ، فلم يفهم أبو هريرة حتى أشار إليها الرسول (ص) فقال : ألمدية تريد ؟ فقيل له نعم فقال : أو تسمى عندكم سكيناً ؟ ثم قال : والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ .

٦ - الإبدال :

وهو جعل حرف مكان حرف يقرب منه مخرجا غالبا .
وهو عظيم الأثر في زيادة ثروة اللغة . كدح ومده .
وملشؤه تعدد اللغات ووضع القبائل ، أو تعدد الوضع من القبيلة الواحدة .
ومن أمثلته : لطم ولدم ، ولثم أنفسه ورثمه . فاللطم : الضرب بالكف مفتوحة ، واللدم : الضرب بشيء ثقیل يسمع صوته . ولثم أنفه : لكه .
ورثمه : كسره .

٧ - القلب :

وهو تقديم حرف أو تأخيره من حروف اللفظ الواحد مع المحافظة على معناه أو انحرافه قليلا عن أصله .
وهو الاشتقاق الكبير . ومثاله : سبك وسكب ، وجذب جبذ وهكذا .
وسببه التحريف أو اختلاف اللهجات أو استعمال القبيلة لها فيما لها مصدر واحد .

فالقلب وروده في اللغة مسلم ، وهو رأى اللغويين والكوفيين ، ويرى ابن درستويه أن مثل هذا لا يسمى قلباً لأن كل لفظ موضوع على حدة وذلك بسبب تعدد وضع القبائل .

ويرى آخرون أن ما كان له أصل واحد كان من القلب مثل أيس ويئس

وما كان له أصلان معروفان فهو من تعدد اللغات مثل جذب وجذب وهو مذهب البصريين .

فصاحة لغة قريش :

وبعد فاللغة العدنانية كما سادت على جميع لهجات العرب ، كذلك سادت لهجة قريش على جميع اللهجات العدنانية ، بما كانت تضيفه إلى لغتها دائماً من ثروة لغوية بفضل ما أفادته من ذوق لغوي في رحلاتها التجارية وفي مواسم الحج وفي الاجتماعات العربية في الأسواق وسواها .

ثم جاء القرآن الكريم بلغة قريش فتم لها السيادة على جميع لهجات العرب .

وقال معاوية يوماً لجلسائه : أي الناس أفصح ؟ فقال رجل من السباط يا أمير المؤمنين : قوم قد ارتفعوا عن رتبة العراق ، وتياسروا عن كسكسة بكر ، وتيامنوا عن قشقة شة تغلب ، ليس فيهم غنمة قضاة ، ولا طمعلمانية حمير . قال : من هم ؟ قال : قومك يا أمير المؤمنين قريش . قال : صدقت ، فمن أنت ؟ قال من جرم . قال الأصمعي : جرم فصحاء الناس . وبحق كانت قريش أفصح العرب كما يقول الجاحظ (١٢٧ / ٣ البيان والتبيين) .

وكانت قريش تسمى آل الله وجيران الله وسكان الله واكتسبوا منزلة ديلية وسياسية واجتماعية وأدبية كبيرة مما جعل في العصر الجاهلي للغتهم السيادة والغلبة والذوق .

ويقول عبد المطلب بن هاشم :

نحن آل الله في ذمته لم نزل فينا على عهد قدم

لم نزل لله فينا حرمة يدفع الله بها عنا النقم

ويقول عمر بن عتبة : « إن كلامنا كلام يقل لفظه ويكثر معناه ويكتفى

بأولاه ويستشفي بأخراه ، يتحدر تحدر الزلال على الكبد الحراء ، ولله قوم

أدركتهم كما بما خلقوا لتحسين ما قبحت الدنيا ، سهلت ألفاظهم كما سهلت عليهم أنفاسهم .

وقال أبو الحسن : أسرع الناس جواباً عند البدئية قریش ثم بقية العرب .

اللغة العربية ومنزلتها بعد نزول القرآن :

وقد انتشرت اللغة العربية بعد نزول القرآن والفتح الإسلامي في جميع أرجاء العالم ، وأصبح يلجج بها بعد قرن سكان سوريا ومصر وفلسطين وأفريقية الشمالية . وكان الاغريق قد سيطروا من قبل على الشرق الأدنى ، لكن سكانه ظلوا يتكلمون لغاتهم الأصلية منذ فتوح الاسكندر إلى الفتح العربي . ولم تعد اللغة اليونانية خلال عشرة قرون أن تكون لغة الطبقة المثقفة التي تبحث في السياسة والعلوم والآداب .

وحدث بعد مرور قرنين على الفتح العربي أن أعرضت كل هذه الشعوب عن لغاتها الوطنية واعتنقت العربية ، حتى إن المتكلمين بالعربية زاد عددهم عن عدد المتكلمين بالسريانية في القرن الثالث الهجري .

وقال الدكتور طه حسين في محاضرة له : إن اللغة العربية ميزة لا توجد في اللغة اليونانية ، وهي قوتها وجاذبيتها وقدرتها على زحزحة اللغات الوطنية والتركز محلياً ، وهي في العالم الشرقي تشبه اللاتينية في أوروبا الغربية . وقد فعلت في الشرق الأدنى وأفريقيا الشمالية وأسبانيا ما فعلته اللاتينية في أوروبا الغربية ، فللتين إذاً القوة نفسها والمهمة نفسها .

ثم قال . إن أثر الثقافة اليونانية يومئذ لم يكن عميقاً ، وأن أولى الخدمات التي أدتها اللغة العربية للمدنية العالمية ، ولعلمها أعظمها ، هي أنها سهلت للثقافة اليونانية الاتصال بمختلف طبقات الشعب في الشرق الأدنى . ولهذا التعمق في الثقافة اليونانية أهميته الخاصة نظراً إلى أثر هذه الثقافة في العالم . فاللغة العربية لغة عالمية عملت على التعاون بين الأمم والشعوب وهذه اللغة التي

تسكمت بها شعوب الشرق الأدنى في أقل من قرنين وانتشرت أيضا في إيران والهند والشرق الأقصى ، وهي وإن لم تتمكن من زحزحة لغات هذه البلاد إلا أنها تركت فيها الأثر البين وهي لغة السياسة كما أنها بصفة خاصة لغة الدين والعلوم والآداب .

وفي خلال ثلاثة قرون أعرض الإيرانيون عن أديهم الإيراني ونادبوا بالأدب العربي وكثيرون من كبار شعراء العربية هم من أصل إيراني أمثال بشار وأبو العتاهية وسولهما . وهكذا تمسكت العربية ، هذه اللغة البدوية ، في بعض الوقت ، من زحزحة لغة عريقة كالإيرانية التي صمدت في وجه اللغة اليونانية .

واللغة العربية لم تقتصر على الزحزحة والاحتلال ، بل إنها أخذت تغني الشعوب التي اعتنتها عن لغاتها الأصلية ، وقد فتحت صدرها للفلسفة اليونانية وللحكمة الهندية والإيرانية ، وللسياسة الإيرانية ولمدنية اليونان والهند وإيران ، وأصبحت العربية لغة تعاون بين الشعوب ، وخاصة بين الذين لم يتمكنوا بغير واسطتها من الاتصال والتفاهم . واللغة العربية هي الأولى في التاريخ التي أوجدت التعاون بين العالمين الشرقي والغربي ، وهذا عمل كبير وجليل .

وقد استطاعت العربية أن تحفظ مكانها بوصفها لغة مدنية حتى في عالم اليوم ، عالم القرن العشرين .

الأدب العربي ودراساته

- ١ -

أدب اللغة العربية ما نوره شعرها الجميل ونورها البليغ المؤثر في النفس المشير للعواطف ، وما يتصل به مما يعين على فهمه وتذوقه ونقده من لغة وأخبار وأيام وأنساب ونحو ذلك مما قد تيسر الحاجة إليه في فهم الأدب ، كالإلمام بأطراف من الفلسفة ومذاهبها والملك والعقائد والنحل ، فإن مثل هذه الألوان من المعارف تتردد كثيراً في النصوص الأدبية كما نجد في شعر أبي العلاء والمتنبي وغيرهما ، والأدب صورة الحياة ومرآتها . تتمثل فيه جوانب النهضة ، ومظاهر المدنية ، وأدوات الحضارة ، وألوان الثقافة ، ومرافق الحياة ، ونوازع النفوس . لكل أمة من الأمم في كل عصر من العصور ، ولهذا يقول ابن خلدون : « الأدب حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل فن بطرف (١) » . ويقول ابن قتيبة : من أراد أن يكون عالماً فليزِم فناً واحداً ومن أراد أن يكون أديباً فليتسع في العلوم .

وعلى هذا النحو تجد أهميات الكتب الأدبية كالآغانى والآمالى والكمال والعقد الفريد والبيان والتبيين .

- ٢ -

ولقد كان منهج المؤلفين من أدباء العربية في كتبهم ترجمة الأدباء والشعراء والعلماء ، ورواية آثارهم الأدبية ونقدها أو شرحها وتحليلها ، وقد يوازنون بينها وبين غيرها من الآثار ، مع الإلمام ببعض أصول الأدب والشعر ،

(١) المقدمة ٤٨٨ - ويلاحظ أن هذا ليس تعريفاً للأدب بمعنى هذه النصوص التي ندرسها وننشئها ، وإنما هو في الواقع تعريف لما يسمى التأديب أو تحصيل الثقافة العامة اللازمة لإنشاء الأدب وفهمه ونقده .

ونحو ذلك مما نجده مبشوراً مفرقاً في كتبهم الكثيرة ، أو مجتمعة قليلاً في بعض الكتب . وقد برزوا في هذه النواحي تبرزاً قوياً ظهر في كتبهم ، كوفيات الأعيان لابن خلكان ، وفوات الوفيات للكتبي ، وبقية الوعاة للسيوطي ، ومعجم الأدباء لياقوت ، والأغانى لأبي الفرج ، وبقية الدهر للشهابي ، وقلائد العقيان للفتح بن خاقان ، ونفح الطيب للمقري ، والعمدة لابن رشيق ، والمثل السائر لابن الأثير ، والمقدمة لابن خلدون ، والموازنة الآمدى وغيرها .

غير أن ما في هذه الكتب لا يمدو - في الجملة - أن يكون أخباراً مفردة غير مرتبطة ، لا تحدد عصرها من العصور . ولا تصور الحياة الأدبية قوة وضعفاً في زمن من الأزمنة ، ولا تظهر ما بين الشعراء أو الكتاب من علاقة في الصنعة والمذهب ، ولا تذكر ما عرا النثر والنظم من تحول وتقلب ، فهي أدب لا تاريخ أدب .

وجاء المستشرقون فجمعوا هذه المسائل المفرقة ، واستندوا منها أصولاً أعانهم على بحث تاريخ أدب العرب على ضوء بحوثهم في تاريخ أدبهم فقد بحثوا عصور الآداب العربية ، وردوا إلى كل عصر آثاره الأدبية ، وحلوا المؤثرات العامة التي أثرت في كل فترة قوة أو ضعفاً ، وعنوا بدراسة أعلام الأدب وبيان مذاهمهم ، وما يكون من تأثير القديم في المحدث ، وما يكون من المشابه والفروق التي تباعد بين الشعراء والكتاب أو تقرّبهم ، وغير ذلك من الدراسات التي لم يعهد لها أدباء العرب والتي نسميها نحن الآن « تاريخ الأدب العربي » .

فتاريخ أدب اللغة إذن علم يبحث عن أحوال اللغة وآدابها ، ويصور ما يختلف عليها من رقي وانحطاط في مختلف العصور والأطوار ، ويعنى بتاريخ النابهين من أهل الصناعتين ونقد مؤلفاتهم وتأثير بعضهم في بعض بالفكر والصناعة .

وهو إذن علم حديث النشأة ، ابتدعه الإيطاليون في القرن الثامن عشر ، وعنى به المستشرقون في القرن التاسع عشر ، وقد ظل مجهولا في الشرق حتى اشتد خلطه بالغرب ، فكان أول من نقله إليه المرحوم الأستاذ حسن توفيق العدل على أثر عودته من ألمانيا وقيامه بتدريسه في دار العلوم ،

ثم تنابح المؤلفون على هذا المنهج كالإسكندري في الوسيط وجورجي زيدان في (تاريخ آداب اللغة العربية) والرافعي في (تاريخ آداب العرب) والزيات في (تاريخ الأدب العربي) وغيرهم من أسانذة الجامعة والأزهر .

أما كتابا « الوسيلة الأدبية للمرصفي » و « المواهب الفتحية » لمحة فتح الله ، فهما على نهج الكتب القديمة ، وهى كما ذكرنا من كتب الأدب لا من كتب تاريخ الأدب . لأن الأدب كما رأينا هو نفس النصوص الشعرية والنثرية ، وتاريخه هو العلم الذى يبحث فى أحوال هذه النصوص وأطوارها والعوامل السياسية والاجتماعية والإقليمية التى أثرت فيها ،

وهكذا نرى تاريخ الأدب يتصل بالتاريخ العام من حيث حاجة كل منهما إلى الآخر ، فالتاريخ السياسى يحتاج إلى تاريخ الأدب فى استظهار بعض الصور الأدبية التى تتصل بالأخلاق بما يعينه على تعليل التقلبات السياسية ونحوها . والتاريخ الأدبى يحتاج إلى التاريخ السياسى فى استنباط الصورة الأدبية الصحيحة بما يعرضه الأخير من النظم السياسية والاجتماعية المؤثرة فى الأدب وفى حياة الأديب أو الشاعر ، فكلاهما متأثر بالآخر مؤثر فيه ،

هذا ومؤرخو الأدب يقسمون عصور تاريخ الأدب العربى إلى أقسام ، حسب الخصائص الفنية لكل مجموعة من الآثار الأدبية متأثرة بمؤثرات خاصة من النظم الاجتماعية والسياسية والدينية . وهذه الأقسام هى : العصر الجاهلى ويقدرونه بقرن ونصف قبل الإسلام ، وعصر صدر الإسلام من البعثة إلى سنة ٤١ هـ والعصر الأموى من ولاية معاوية سنة ٤١ هـ إلى سنة ١٣١ هـ

والعصر العباسي من سنة ١٣٢ هـ إلى سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، ثم عصر الدول المتتابعة حتى بدء حكم محمد علي سنة ١٢٢٠ ثم عصر النهضة الحديثة من محمد علي إلى اليوم .

وهذانى الواقع نقسيم تقريبي مبنى على مسامرة اللغة العربية للانقلابات السياسية والاجتماعية ، إذ الواقع أن هذه العصور متداخلة ، نظراً لأن هذه المسامرة تكون بطيئة ، وتأثر الأدب بهذه الانقلابات يكون تدريجياً ، بعد أن تنشعب نفوس الأدباء بالأحداث الجديدة .

- ٣ -

وينقسم الأدب إلى إنشائي ووصفي ، فالأدب الإنشائي هو ما تعبر به من شعر أو نثر عما تحس به من الخواج والعواطف والحواطر نحو الطبيعة سواء أكانت هذه الطبيعة داخلية تحسها في نفسك وتجدها في قلبك ؟ متمثلة في عواطفك وميولك وأهوائك ، أم خارجية تراها في الجبال والبحار والسماء والنجوم والرياض والأحداث المختلفة . فإذا هزك منظر من مناظر الطبيعة ، أو رافك مشهد من مشاهدنا ، أو اختلجت نفسك بعاطفة من عواطف الحب أو البغض أو الرثاء أو الازدراء ، وصورت ما أحسسته وشاهدته تصويراً ملائماً للموضوع ، فإن هذا التصوير الذى يتمثل في شعرك أو نثرك يسمى أدباً إنشائياً ، لأنك أنشأته بعد أن لم يكن ، وارتجلته مقلداً به الطبيعة التى يظهر ابتناؤها وغضبها مثلاً في عصف الريح وقصف الرعد واضطراب البحر ، ويتجلى ابتسامها ورضاها في ضوء الشمس وعرف الزهرة وتفريد الطائر . وإذن فموضوع الأدب الإنشائي الطبيعة داخلية أو خارجية .

أما الأدب الوصفي فهو ما يتناول القصيدة أو الرسالة من الأدب الإنشائي بالوصف والنقد والتقريض ، فيثنى عليها ويطنرها إن رضى عنها ،

وينقدها ويعيها إن يحفظ عليها . فهذا النقد أو التقريظ لا يصور الطبيعة تصويراً مباشراً ، ولا يصور تأثير صاحبه بها ، وإنما يصف الكلام الذى قيل فى تصوير الطبيعة ، فموضوعه إذن هو الكلام لا الطبيعة : القصيدة التى تصور البحر لا البحر نفسه .

فالادب الوصفى إذن هو الذى نسميه نقداً ، ولا شك أنه وجد بعد الادب الإنشائى ، وتستطيع أن تدخل فيه تاريخ الادب ، إذ كان مما يعالجه هذا التاريخ الموازنة والخصائص الفنية ونحوها .

وبهذا تستطيع أن تقسم الادب الوصفى إلى قسمين : أحدهما النقد الذى يبين ما يمتاز به الادب الإنشائى من المحاسن والعيوب ، والآخر تاريخ الادب ، وقد عرفت مهمته فى بيان أحوال الادب وأطواره .

— ٤ —

وينقسم الادب كذلك إلى ذاتى وموضوعى .

فالادب الذاتى هو الذى يعبر فيه الاديب عن خواطره ومشاعره وآرائه وأحاسيسه وتأملاته ، فالشعر الغنائى - وهو قسم التمثيلى والقصصى - من الادب الذاتى لأن الشاعر يتغنى فيه بهواطفه الذاتية وخوالجه النفسية وآماله وآلامه ، وليس معنى هذا أنه مجرد من الصبغة الموضوعية ، بل معناه أن الصبغة الذاتية هى الراجحة فيه .

والادب الموضوعى هو ما لا يعبر به الاديب عن عاطفته أو ميوله الخاصة ولا ينطق بلسان نفسه ، وإنما يعبر به عما يحول عما يحول بخواطر غيره فالادب التمثيلى والقصصى من الادب الموضوعى ، لأن الشاعر أو الكاتب إنما يعبر فيهما عما يحول بخواطر الاشخاص الذين يتحدث عنهم ويعبر عن آرائهم وينطق بلسانهم ، فهو كالمؤرخ يسرد الحادث التاريخى فى أسلوب بليغ دون أن يصنع عباراته بنزهاته وميوله وآرائه الخاصة .

الباب الثاني

النثر الجاهلي

معنى الجاهلية :

يسمى العهد الذي كان قبل بعثة الرسول صلوات الله عليه العصر الجاهلي .
وقد وردت نصوص إسلامية كثيرة فيها لفظ « الجاهلية » . من ذلك قول
عمر رضي الله عنه : إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة ، وقول عائشة
رضي الله عنها : كان النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء ، وقولهم : يا رسول الله
كننا في جاهلية وشر ، وقالوا : شاعر جاهلي ، وقال رسول الله صلوات الله عليه
أربعة في أمي من أمر الجاهلية . كل ذلك من الجهل ، ضد العلم والمعرفة ، أو بمعنى
السفه والطيش والإثم ، أو بمعناها جميعاً ، ثم قيل جاهل بهذا المعنى أو ذاك أو
ذلك ونسب إليه ، وأصبح ذلك علماً على العصر الذي كان في شبه الجزيرة
العربية قبل مبعث محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وهذا الاسم حدث في
الإسلام كما يقول ابن خالويه (١) .

وسنتحدث هنا عن الأدب العربي في العصر الجاهلي وما كان عليه شعراً
ونثراً ، وعن أعلام الأدب وحياتهم وأدبهم .

الشعر والنثر :

والأدب الجاهلي ، أرقل الأدب على الإطلاق قسماً : شعر ونثر :
فالشعر هو الكلام الموزون المقفى ، والنثر هو ما خلا من الوزن والتقفية

(١) راجع ص ١٥ من كتاب عادات العرب في جاهليتهم ط القاهرة ١٩٢٤
وراجع في هذا البحث الشباب الراصد ص ٤٩ ط ١٩٢٦ .

والشعر يعتمد على الخيال والعاطفة ، ويشير الشعور والوجدان ، والنثر غالباً ما يعتمد على الحقائق ويركن إلى صدق التعبير ، وقد يعتمد على الخيال ويعتمد إثارة العواطف ، ويصاغ في أساليب شبيهة بأساليب الشعر فيسمى شعراً منشوراً .

والنثر نوعان : أحدهما ما يدر في كلامنا المألوف إذا تحدث الناس بعضهم إلى بعض في حاجاتهم ومصالحهم فيرسلونه إرسالا على سجيتهم وعلى ما تدعو إليه الحاجة والمصلحة ، وهذا ما نسميه لغة التخاطب ، وهذا لا يعني به الأدب وليس قسما منه ، فليس شعراً ، وهو في الوقت نفسه ليس هو النثر الذي يحفظ ويروى ويتأدب به الذي هو أحد قسمي الأدب ، وإنما هو كلام عادي لم يقصد أصحابه فيه غالباً إلى الإجادة ولا إلى جمال فني وإنما أرادوا تأدية ما في نفوسهم من المعاني وتحقيق ما تقتضيه منافعهم من الأغراض .

والثاني هو ما يسمى نثراً فنياً وهو ما حوى أفكاراً منظّمة ، في عرض جميل جذاب وصياغة جيدة السبك فصيحة الأسلوب ، وهذا هو الذي يعد قسماً للشعر في باب الأدب ، وأهم أنواعه : الخطابة ، والكتابة الفنية . والكتابة عند الأوربيين : وصف أو قصص ، وعند العرب : رسائل وقصص ومناظرة وجدل وتاريخ . وسنتكلم على مظاهر الأدب في العصر الجاهلي بالتفصيل .

ولكن هل الشعر هو السابق في اللشأة الادبية أو النثر الفني ؟

يرى الدكتور طه حسين ومن اتبعه مقلدين في ذلك بعض المستشرقين كالمسيو مرسيه الفرنسي أن الشعر أسبق في الوجود من النثر الفني (١) . ويستدلون على ذلك بما يأتي (٢) :

(١) راجع ص ٢٣ : ١ : النثر الفني لذكى مبارك

(٢) ص ١٠ - ١٢ - ١٧٢ وما بعدها التوجيه الأدبي ط ١٩٤٠ - الباب السابع

(ا) الشعر في آداب الأمم الأوربية سابق على النثر فعند اليونان كانت قصائد هوميروس تلشد ويتغنى بها قبل أن يؤلف كتاب أو يظهر نثر فني ، وفي الأدب الإنكليزي ترى أن أقدم الآثار الأدبية عند الإنكليز القدماء القصائد التي تصف أعمال ديواف ، وهي ترجع إلى القرن السادس أو السابع الميلادي . فقد ظلت الأمم تتمتع بأدب الشعر قبل أن يثأ فيها أدب النثر .

(ب) كثرة الشعراء في العهد الأول لأدب أي أمة من الأمم وزيادتهم زيادة يينة على كتاب النثر .

(ح) ومن أقوى الأسباب التي قدمت نشأة الشعر على نشأة النثر في رأيهم أن الأدب المنشور يتطلب معرفة بالكتابة والكتابة متأخرة في تاريخ كل أمة فقصاصد هوميروس انتشرت وذاعت وتناقلها الناس قبل أن تذيع الكتابة وكذلك روى الرواة الشعر العربي القديم قبل أن تذيع الكتابة ، وماشيء الأدب المنشور لا بد له من تدوين ما يخطر له .

(د) الشعر يعتمد على الخيال في حين يعتمد النثر الفنى على المنطق والتفكير والخيال يسبق التفكير في حياة الافراد والجماعات (١)

(هـ) الجماعات الساذجة نجد عندها كلاما موزونا دون أن نجد عندها نثرا فنيا صحيحاً .

(و) الشعر متصل بالغناء فالناس يغنون شعراً قبل أن يغنوا نثراً لأنهم

= من كتاب أصول النقد الأدبي للشايب ، ٣٦٤ - ٣٦٨ من كتاب الأدب الجماهلي لطله حسين . وراجع في ذلك البحث : الطبع والصعقة الهياوى و ٣٧ : الحيوان للجاحظ .

(١) ويبدو لي أن نظرية سبق الشعر للنثر أخذها المستشرقون من كتاب الشعر لأرسطو ، ففي الشفاء - فن الشعر - ما نصه : التخيل أسبق في الزمن من التصديق فالناس أول ما يسمعون إنما يسمعون الامثال الشعرية التي فيها مشاكلة للاقويل التخيلية ثم يتدرجون إلى الخطابة ثم إلى البرهان (الشفاء فن الشعر)

يحددون في الشعر أوزاناً تلائم تقطيع الغناء وأنغامه (١)

أما الدليل الأول فلا يدل على شيء ، بل إن دل فإنما يدل على ضياع النثر لعدم تدوينه وبقاء الشعر لأنه يعلق بالحفاظة ويخلد بالرواية .

ومن أجل ذلك بقي الشعر وأخبار الشعراء معروفة لم يحذف عليها النسيان وهو السبب في كثرة الشعراء في العصور الأولى من عصور آداب الأمم كثرة كبيرة وفي زيادتهم على الكتاب ورجال النثر ، وبذلك نجد الدليل الثاني منهاراً .

ولعدم وجود الكتابة في العصور القديمة التي هي وسيلة لتخليد النثر الفني ضاع أغلب ما لدى الأمم من نثر فني ، فكيف إذا استدلون على سبق الشعر للنثر باحتياج الأدب المنشور للكتابة في تدوينه ، وبذلك تجد الدليل الثالث لا يكاد يسير نحو الهدف خطوة واحدة .

وزعمهم أن الشعر يعتمد على الخيال والنثر على المنطق والتفكير صحيح في الأول مبالغ فيه في الثاني ، فلم لا يكون النثر الفني في بدء نشأته قد اعتمد على الخيال أيضاً كالشعر ، ولم لا يكون هذا النثر قد اعتمد على المنطق والتفكير على حسب عقلية الأمة وثقافتها ومقدار تفكيرها في هذه العصور القديمة ، وبذلك نجد الدليل الرابع لا يؤدي إلى غاية .

وأما أن الأمم التي لم تصعد درجة في الحضارة لها شعر وليس لها نثر فني خطأ في الرأي ، فإن هذه الجماعات الساذجة يوجد بجانب ما لديها من شعر نثر ملائم لعقليتها ومظهره الأمثال والحكم والتجارب والنصائح ، وذلك

(٢) ويرى المستشرقون أن كلمة شعر مأخوذة من اللغة العبرية من كلمة « شير » بمعنى الترييلة أو التسييح القدسية ويرجعون ذلك بأنه لم يرد في العربية شعر بمعنى القصيدة وكل ما فيها : شعر أي قال الشعرو في اللغة الانجليزية كلمة Bezd معناها الشاعر المغنى وكان الأعشى صناجة العرب لأن شعره كان يتغنى به (٦٩) لجر الاسلام و٣٧٧ الزيات والتوجيه الأدبي)

يشاهد كثيرا في بيتتنا المصرية العامة التي يمثل بها هؤلاء تأييدا لرأيهم من سبق الشعر للنثر وبذلك لا يمكننا التعويل على الدليل الخامس .

وأما أن الشعر غنى به من قديم قبل أن يفتنوا نثرا فملشأ ذلك أن الشعر أصلح للغناء من النثر لموسيقاه وقافيته ، فكيف يتركونه ويفنون بنثر فنى لا يلائم الغناء .

والحق أن النثر وجد أولا ثم تحول إلى النثر الفنى ، ثم نشأ بعد ذلك الشعر ، ويؤيد هذا رأى إجماع كثير من المستشرقين على أن السجع كان المرحلة الأولى التي عبرها النثر إلى الشعر في الأدب العربى القديم .

ويؤيده أيضاً وجود الكتب الديلية السماوية من قديم الأجيال في الأمم التي أنزلت لها ، وذلك قبل أن نسمع بالشعر والشعراء . ولعل هذه الكتب هى التي أدت إلى نشأة النثر الفنى في المصور القديمة البعيدة قبل أن يوجد الشعر بزمان طويل .

ويؤيده أيضاً إجماع الباحثين أو شبه إجماعهم على أن النثر أسبق من الشعر (١)

* * *

وبعد فالنثر مرسل ومزدوج ومسجوع .

فالمسجوع كما في سورة الكوثر ، والسجع هو ما اتحدت فاصلته أو فواصله في الحرف الأخير مثل : من عاش مات ، ومن مات فات .

والمزدوج هو ما اتحدت فواصله في وزنها لافى الحرف الأخير منها - بما نسميه تقفية ، مثل قوله تعالى : ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة . ويسمى هذا الموازنة عند علماء البديع ، فإن اتحدت الفواصل وزناً وتقفية عد من السجع في الراجح وعده بعضهم من المزدوج .

والمرسل هو ما خلت فواصله من الاتحاد في الوزن والقافية معا مثل :

(١) راجع ١٧ تاريخ الأدب العربى للزيات وسواه .

« لإيلاف قريش ، لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت . الذي أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف ،

هـ هذا وينكر بعض المستشرقين ومن تابعهم وجود نثر في جاهلي لأن عينة العرب الأولين لم تكن توجد النثر الفنى لأنه لغة العقل ، على حين سمعت بالشعر لأنه لغة الخيال وال عاطفة ، وهذا رأى خطأ ، بدليل ما يأتى :
(أ) كان عند كثير من الأمم القديمة كالفرس والهنود وقدماء المصريين نثر فى قبل الميلاد بكثير فلم لا يكون للعرب نثر فى بعد الميلاد بخمسة قرون ؟
(ب) وجود الكتب يستدعى وجود نثر فى .

(ح) بقاء بعض من النثر الجاهلى فى مصادر الأدب العربى وأمهات كتبه كالأنفانى والأمالى وسواهما ، أما الكثير منه فقد ضاع لعدم تدوينه بالكتابة التى لم تكن معروفة فى الجاهلية إلا للقليل النادر من الناس (١)

* * *

هذا والنثر الجاهلى ينقسم إلى أمثال وحكم ووصايا ، وخطب ، ومنافرات ، ومفاخرات . ومحاورات ، ونثر الكهان .

وسنتكلم عن هذه الألوان الأدبية إن شاء الله تعالى (٢)

(١) هذا وينكر طه حسين كل ما يضاف إلى عرب الجنوب من نثر فى الجاهلية ، لأن النثر المروى لنا إنما جاء بلغة قريش التى لم يكن لهم بها علم ولأنه كان لهم لغة معروفة كتبوها وتركوا لنا فيها نصوصاً منثورة كشفها المستشرقون وهى لا توافق لغة قريش فى شىء فكل ما يضاف إلى اليمنيين عنده من نثر مرسل أو مسجوع أو خطابة فى الجاهلية منتحل . أما عرب الشمال فيرى رفض ما يضاف إلى ربيعة وغيرها من عرب العراق والبحرين والجزيرة من نثر ، ويتردد فيما ينسب إلى مصر وهذا هو موقفه بالنسبة للشعر الجاهلى أيضا

(٢) راجع ٣٦٤ - ٣٧٥ الأدب الجاهلى : طه حسين فى الكلام على النثر الجاهلى . وص ٨٦ - ١١٣ من كتاب الاسلوب للشايب فى الكلام على أساليب النثر . والباب السابع فى النثر من كتاب النقد الأدبى للشايب .

مميزات النثر الجاهلي

- ١ -

يمتاز النثر الجاهلي في معانيه بما يأتي :

- ١ - الصدق والسذاجة والبساطة وعدم المبالغة أو الغلو
- ٢ - عدم التعمق في المعاني أو تعقيدها أو التركيب والمزج بينها ، لأنهم كانوا في بدوأة تامة في حياتهم وتفكيرهم وكل شئون معيشتهم .
- ٣ - معانيهم مستمدة من بيئتهم وحياتهم ، ومنطلقة مع الحرية التي ألقيهم وألفوها ، وهي بدوية كلون حياتهم ، تنطلق عن فطرة البدوأة وتفكيرها وإحساسها .
- ٤ - كثرة الحكم والأمثال في نثرهم
- ٥ - تفكك المعاني وكثرة الانتقال بينها

- ٢ -

ويمتاز النثر الجاهلي في أغراضه بأنه كان يلقي في :

- ١ - الدعوة إلى الانتقام والاختد بالتأر وإشعال نار الحرب . أو الدعوة إلى الصلح والسلام .
- ٢ - المفاخرة والمنافرة والمحاوره والسكاهة ،
- ٣ - وصف مشاهد الحياة ومظاهرها في الصحراء .
- التوصية بفعل خير أو إسداء معروف أو سلوك نهج محمود أو بعد عن خطية مذمومة .
- ٥ - الوفاة على الأمراء والملوك إلى غير ذلك من شتى أغراض النثر

في العصر الجاهلي : كالتبشير بلبي جديد ، أو النهي عن الرذائل والآثام .

- ٣ -

أما ألفاظ النثر الجاهلي فيبدو عليها السذ والبداوة ، فأحيانا سهلة رقيقة . وأحيانا وحشية وغريبة ، ولم يكونوا يتأقنون في اختيار اللفظ ذي النغمة المتشابهة أو الجرس المتآلف ، ويندر استمعالهم للألفاظ الأعجمية في نثرهم إلا قليلا منهم من اتصلوا بالفرس وسواها من الأمم القديمة .

وأسلوب النثر الجاهلي يمتاز : بالخلو من الالحن والإيجاز ، وقلة المترادف ، وإيثار الكتابة القريبة على التصريح ، وبقصر الجمل غالبا ، وخاصة في الحكم والأمثال وسجع الكهان ، كما يمتاز بعدم التكليف في الصياغة والأسلوب ، وإهمال الربط بين الجمل وعدم قصد المحسنات البديعية أو تعمدتها ، وكلامهم يخلو منها إلا نادرا وعن غير عمد أو قصد . وفي أسلوبهم العجزالة والقوة وشدة الأسر ، والوضوح . والقرب إلى الذوق الأدبي المطبوع .

أمثلة للنثر الماثور في العصر الجاهلي

- ١ -

من النثر الفني في العصر الجاهلي هذه القطعة التي رواها القسالي عن ابن السكبي عن أبيه قال (١) :

كان قيل من أقيال حمير منع الولد دهرأ ، ثم ولدت له بنت ، فبنى لها قصرأ منيفأ بعيدأ من الناس ، ووكل بها نساء من بنات الأقيال يخدمنها ويؤدينها ، حتى بلغت مبلغ النساء ، فلشأت أحسن منشأ وآتمه في عقلها وكأها ، فلبسا مات أبوها ملكها أهل مخلافها (٢) . فاصطنعت النسوة اللواتي ربينها وأحسنن إليهن وكانت تشاورهن ولا تقطع أمرأ دونهن . فقلن لها يوما : يا بنت الكرام لو تزوجت لتم لك الملك ، فقالت : وما الزوج ؟ فقالت لإحداهن : الزوج عز في الشدائد ، وفي الخطوب مساعد ، إن غضبت عطف ، وإن مرضت لطف . قالت : نعم الشيء هذا . فقالت الثانية : الزوج شعاري حين أصرد (٣) ؛ ومتكئ حين أرقد ، وأنسى حين أفرد ، فقالت : إن هذا من كمال طيب العيش - إلى آخر هذه القطعة الطويلة الجميلة الساحرة .

- ٢ -

وعن أبي عبيدة قال (٤) :

كان قيس بن رفاعة يقد سنة إلى النعمان اللخمي بالعراق وسنة إلى الحارث ابن أبي شمر الغساني بالشام ، فقال له يوما وهو عنده : يا ابن رفاعة ، بلغني أنك تفضل النعمان على ، قال : وكيف أفضله عليك أيبت اللعن ؟ فوالله لقفاك أحسن من وجهه ، ولأملك أشرف من أبيه ، ولأبوك أشرف من قومه ، ولشالك أجود من يمينه ، ولحرمانك أنفع من نداء ؛ ولقليلك أكثر

(١) ١: ٨٠ الأماي (٢) المخلاف : الكورة (٣) أي أبرد (٤) ١: ٢٥٧ الأماي

من أجدر الناس بالصنيعة ؟ قال : من إذا أعطى شكر ، وإذا منع عذر ،
وإذا موطن صبر ، وإذا قدم اليهود ذكر ، قال : من أكرم الناس عشرة ؟
قال : من إن قرب منح ، وإن بعد مرج ، وإن ظلم صفح ، وإن ضويق سمح
قال : من أحكم الناس ؟ قال : من صمت فادكر ، ونظر فاعتبر ، ووعظ
فازدجر الخ .

وكان هوذة بن علي الحنفي يهجر لعامة كسرى في كل عام (و اللطيمة عير
تحمل الطيب والبز) فوفد على كسرى ، فسأله عن بليه ، فسمى له عددا . فقال :
أيهم أحب إليك ؟ قال : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يرجع . والمريض
حتى يفيق ، فقال له : ما غداؤك في بلدك ؟ قال الحنفي . فقال كسرى لجلسائه :
هذا عقل الحنفي ، فيفضله على عقول أهل البوادي الذين غداؤهم اللبن والتمر (١) .

ويروى (٢) أنه لما بلغ الحارث (٣) بن عمرو ملك كندة جمال ابنة عوف
ابن عُمَل الشيباني ، وكاملها وقوة عقلها ، دعا امرأة من بنى كندة يقال لها عصام
ذات عقل ولسان وأدب وبيان ، وقال لها : اذهبي حتى تعلمي لي علم
ابنة عوف .

فحضت حتى انتهت إلى أمها ، فأعلمتها ما قدمت له ، فأرسلت إلى ابنتها ،
وقالت : أي بلية ؛ هذه خالتك أتتك لتنظر إليك ، فلا تستري عنها شيئا
أرادت النظر إليه من وجهه وخلق ، وناطقها إن استنطقتك .

(١) ص ٩٧ مختار المقد الفريد ١٩١٠

(٢) مجمع الأمثال ص ١٩٢ ج ٢ ، المقد الفريد ص ٢٢٣ ج ٣ ، ٣٢٧ مختارات

المقد (٣) من أشرف العرب في الجاهلية ، كانت مطاعاً في قومه ، قوياً في
هيبته ، وكانت تضرب له قبة في عكاظ ، توفي نحو ٤٤٥ ق . هـ

فدخلت عصام إليها ، فنظرت إلى ما لم تر عينها مثله قط بهجة وحسناً
وجالاً ؛ فإذا هي أكمل الناس عقلاً ، وأفصحهم لساناً ، فخرجت من عندها
وهي تقول : ترك الخداع من كشف القناع .

ثم أقبلت إلى الحارث ، فقال لها : ما وراءك يا عصام ؟ قالت : صرح المنحصر
عن الزبد (١) . قال : أخبريني . قالت : أخبرك صدقاً وحقاً :

رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة ، يزينها شعر حالك كأذ ناب الخيل المصفورة ،
إن أرسلته خلته السلاسل ، وإن مشطته قلت عناقيد كرم جلالها الوابل (٢) ،
وحاجبين كأنهما خطا بقلم ، أو سودا بحمم (٣) ، قد تقوسا على عين الظبية
العبرة (٤) ، التي لم يرعها قانص ، ولم يذعرها قسورة (٥) ، بينهما أنف
كحد السيف المصفول ، لم يخلص (٦) به قصر ، ولم يمض به طول ، حفت به
وجنتان كالأرجوان (٧) في بياض محض كالجمان (٨) ، شق فيه فم كالخاتم ،
لذيذ المبتسم ، فيه ثنايا غر ، ذوات أشر (٩) ، وأسنان تبدو كالدرر ، يتقلب
فيه لسان فهو فصاحة وبيان ، يحركه عقل وافر ، وجواب حاضر (١٠) . . .
إلى أن قالت :

فأما ما سوى ذلك فتركت أن أصفه ، غير أنه أحسن ما وصفه وأصف بنظم
أو نثر ؛ فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها ، فزوجه إياها .

(١) غرض اللين : أخذ زبده ، والتصريح : التبيين . وهو مثل يضرب للامر
إذا انكشف وتبين .

(٢) الوابل : المطر الشديد (٣) الحمم : الفحم .

(٤) العبرة : الرقيقة البشرة الناصعة البياض (٥) القسورة : الرماة من

الصيدان (٦) خنس : تأخر ، والخنس تأخر الأتق عن الوجه مع ارتفاع قليل في
الأنفة (٧) الأرجوان : صبيغ أحمر (٨) الجمان : اللواؤ (٩) أشر الأسنان :
التحزيز الذي فيها .

(١٠) انظر بقية الوصف في مراجع القصة .

فلما حملت إلى زوجها ؛ قالت لها أمها - أمانة بنت الحارث :

أى بنية ؛ إن الوصية لو تركت لفضل أدب . تركت لذلك منك ، ولكنها
تذكرك للغافل ومعوونة للعاقل ؛ ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها ،
وشدة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء خلقن للرجال ،
ولهن خلق الرجال .

أى بنية ؛ إنك فارقت الجوالذى منه خرجت ، وخلفت العش الذى فيه
درجت ، إلى وكر لم تعرفه ، وقرين لم تألفه ، فأصبح بملكك عليك رقيباً
ومليكاً ، فكونى له أمة يكن لك عبداً وشيكاً (١) .

يا بنية ؛ احملى عنى عشر خصال تكن لك ذخراً وذكرأ : الصحبة
بالتقانة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ؛ والتعهد لموقع عينه ، والتفقد
لموضع أنفه ؛ فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم منك إلا أطيب ريح ،
والسكرحل أحسن الحسن ، والماء أطيب الطيب المفقود ، والتعهد لوقت طعامه ،
والهدو عنه عند منامه ؛ فإن حرارة الجوع ملهية ، وتغيبص النوم مقضبة ،
والاحتفاظ ببيتته وماله ، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله ؛ فإن الاحتفاظ
بالمال حسن التقدير ، والإرعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير ، ولا تنفى
له سرأ ، ولا تعصى له أمراً ؛ فإنك إن أفسدت سره لم تأمنى غدره ، وإن عصيت
أمره أوغرت صدره ؛ ثم اتقى مع ذلك الفرح إن كان ترحاً ، والاكتئاب عنده
إن كان فرحاً ، فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ؛ وكونى
أشد ما تكونين له إعظماً يكن أشد ما يكون لك إكراماً ، وأشد ما تكونين له
موافقة يكن أطول ما تكونين له مرافقة .

واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه
على هواك فيما أحببت وكرهت ، والله يخبر لك .

وذكروا أن هند بنت عتبة قالت لأبيها : لا تزوجني من أحد حتى
تعرض علي أمره وتبين لي خصاله ، فخطبها أبو سفيان وسهيل بن عمرو فدخل
عليها أبوها يقول :

أناك سهيل وابن حرب وفيهما رضا لك يا هند الهنود ومقنع
وما منهما إلا يواسي بفضله وما منهما إلا يضر وينفع
وما منهما إلا كريم مرزأ وما منهما إلا أغر سميدع
فدونك فاختاري فأنت بصيرة ولا تخدعي إن المخادع يخدع

قالت : يا أبت والله ما أصنع بهذا شيئاً ، ولكن فسر لي أمرهما ، وبين
لي خصالهما ، حتى أختار أشدهما موافقة لي ، فبدأ بذكر سهيل ، فقال : في
ثروة وسعة من العيش إن تابعته تابعك ، وإن مات عنه حط إليك ، تحكمين
عليه في أهله وماله . وأما الآخر : فوسع عليه ، منظور إليه في الحسب
الحسب ، والرأى الأريب . مدره أرومته ، وعز عشيرته ، شديد الغيرة ،
كبير الطهرة . فقالت : يا أبت الأول سيد مضياع للحره فاعست أن تلين
بعد إبانها ، وتضيع تحت جناحه ، إذا تابعها بعلمها فأشرفت ، وخافها أهلها
فأمنت ؛ فساء عند ذلك حالها ، وقبح دلالها ، فإن جاءت بولد أحقت ، وإن
أنجبت فمن خطأ ما أنجبت ، فاطو ذكر هذا عني ، ولا تسمه علي بعد . وأما
الآخر ففعل الفتاة الخريفة ، الحره العقيمة ، وإنى لأخلاق مثل هذا الموافقة :
فزوجنيه ؛ فزوجها من أبي سفيان (١) .

أقسام النثر الجاهلي

١- الحكم والأمثال ، ونماذج لهما :

١ - من حكماء العرب أكثم بن صيفي التيمي ، ومن حكمه :
رب عجلة تهب ريثا . رضا جميع الناس غاية لا تدرك آفة الرأي الهوى .
من يزر غبا يزدد حبا . من سأل فوق قدره استحق الحرمان ، لم يذهب من
مالك ما وعظك ويل للشجي من الخلى . مقتل الرجل بين فكيه . قبل الرماء
تملا الكنان (١) .

٢ - ومن حكمائهم : ذو الاصبع العدواني ، وعامر بن الطرب وقس بن
ساعة ، وحاجب بن زرارة ، وهاشم بن عبد مناف ، وعبد المطلب بن هاشم
وهند بنت الحنيس . وسواهم ، ولا داعي لذكر أمثلة لحكماتهم . ومن أقدم
حكمائهم لقمان المشهور (٢) ومن حكمه : رب أخ لك لم تلده أمك . الصمت
حكم وقليل فاعله ، آخر الدواء الكي .

وكان عمرو بن حمزة الدوسي أحد من تتحاكم العرب (٣) .

٣ - ومن حكمهم : العتاب قبل العقاب . كظم اللسان أنكى من كظم
السنان . أول الخزم المشورة . أنجز حر ما وعد . أترك الشر يتركك . رب
ملوم لا ذنب له . من مأمته يؤتى الخذر .

(١) راجع ص ٢١٦ معراج البيان . وراجع أمثال أكثم بن صيفي وبزرجهر

في العقد ص ٦٢ ٦٣

(٢) يتنازع العرب والحبشة والمصريون واليهود وراجع الحديث عنه في
الجزء الثاني من الشريشي ، وكتاب الذكر الحكيم في تفسير سورة لقمان ، ص ٧٨
و ٧٩ : ١ فجر الإسلام (٣) ٢ : ١٤٣ الأما

- ٤ - ومن أمثالهم :
- إن العوان لا تعلم الخمرة (١)
- إن البلاء موكل بالمنطق (٢)
- إن أخاك من أساك .
- سبق السيف العذل (٣)
- عينك عبرى والقواد في دد . والدد : اللهو (٤) .
- عند جبينه الخبز اليقين .
- ما يوم حليلة بسر (٥)
- أحشفاً وسوء كيلة - ويضرب لمن يجمع بين خصلتين مكروهتين .
- نفس عصام سودت عصاما (٦) .
- الصيف ضيعت اللبن .
- كالستجير من الرمضاء بالنار .
- رجع بخفي حنين .
- اليوم خمر وغدا أمر (٧)
- إلى غير ذلك (٨) .

٥ - وقد يتمثل بالأمثال على لسان طائر أو حيوان أو نبات أو جماد

- (١) العوان : النصف التي بلغت مبلغ النساء ، والخمرة : لبس الخمار . يضرب للعالم بالامر المجرب له .
- (٢) ينسب لأن بكر قاله حين أمر الرسول أن يعرض نفسه على القبائل ويضرب لمن يتورط بقوله فيما يؤذيه .
- (٣) يضرب في الخطأ بلام فاعله بعد وقوعه .
- (٤) يضرب لمن يظهر خلاف ما يبطن ،
- (٥) حليلة بنت ملك غسان . يضرب للامر المشهور الذي لا يكاد يحول .
- (٦) يضرب في سؤدد الرجل بنفسه
- (٧) يضرب في تقلب الايام
- (٨) راجع ٢٢٤ وما بعدها معراج البيان ، وراجع كتاب الامثال للسيداني

تسليية وفكاهة أو خوفا وحذارا من استبعاد مستبد أو استطرافا وروعة
أو وضعاً للحكمة في موضع الأمر المشهور المسلم به من كل شيء . ويمثل ذلك
كليلة ودمنة وفاكهة الخلفاء وسواهما .
ومن ذلك :

في بيته يؤتى الحسك (١) .
كيف أعادوك وهذا أرفأسك (٢)
إلى غير ذلك . . .

٦ - وفي النثر الجاهلي ألوان من القصص تتمثل في سير أيام العرب ، وفي
القصص المروية عن الفرس ، وفي أحاديث الهوى والشباب (٣) .
ماهى الحكمة :

والحكمة قول بليغ موجز صائب يصدر عن عقل وتجربة وخبرة
بالحياة ويتضمن حكماً مسلماً في أمر بخير أو نهى عن شر . وقد كثرت الحكم
والحكمة في الجاهلية (٤) وكان في كل قبيلة حكماء تفرع اليه في الشدائد
والمعضلات والمنافرات والخصومات .

والحسك من البلاغة بمكان كبير لإيجازها ووضوحها وفصاحتها ودقة
معناها وجلال هدفها .

(١) قالوا : إن الأرنب النقطت ثمرة فاختلسها الثعلب وأكلها فانطلقا يتخاضعان
إلى الضب فقالت الأرنب يا أبا الحسل . قال : سميعاً دعوت . قالت : أتيتك
لنختصم إليك . قال : عادلاً حكماً . قالت : فأخرج إلينا . قال : في بيته يؤتى
الحسك . قالت : إني وجدت ثمرة . قال : حلوة فكلها . قالت فاختلسها الثعلب
قال : لنفسه بغى الخير . قالت . فلطمته . قال : بحقك أخذت . قالت : فلطمني
قال : حر انتصر . قالت : فاقض بيننا . قال : قد قضيت . فذهبت أقواله كلها أمثالا
(٢) يضرب لمن لا يفي بالعهد . وهو مقول على لسان حية .

(٣) راجع ٨٢ - ٨٥ : ١ فجر الإسلام

(٤) وكانت هند بنت الحنن من حكميات العرب (راجع حديثها مع أبيها
في ص ١٠٧ ذيل الأمل)

وهي تسكسب الكلام سحرا وحلاوة ، وتجعله مقبولا في الذوق ، قريبا إلى القلب ، مسلما به من العقل والشعور والوجدان .

ولإذا اشتهرت الحكمة صارت مثلا .

ما هو المثل ؟ (١)

المثل مأخوذ من قولك هذا مثل الشيء ومثله أى شبهه ، ثم جعلت كل حكمة سائرة مثلا ، وفي العبرية كلمة مشمل بمعنى الحكمة السائرة والحكاية القصيرة ذات المعنى والأساطير .

والمثل يعرف بأنه قول سائر شبه مضر به بمورده ، أو قل شبه فيه حال المقول فيه ثانيا بحال المقول فيه أولا ، وهذا هو رأى المبرد . وقال المرزوقي : هو جملة من القول تنسم بالقبول وتشتهر بالتداول فتنتقل عما وردت منه إلى كل ما يصح قصده منها من غير تفسير يلحقها في لفظها وقد جمع هذا التعريف بين المثل والحكمة .

ويمتاز المثل بشهرته وإيجازه ودقة معناه وإصابة الغرض المنشود منه وصدق تمثيله للحياة العامة وأفكار الشعب على وجه الخصوص ، وهو يكسب الكلام سحرا وروعة وجمالا وبلاغة . وتقال الأمثال الفرضية للحد من استبداد المستبدن وطغيانهم ، وهي وسيلة للنقد والسخرية حقا .

والأمثال أصدق شيء يتحدث عن أخلاق الأمة وتفكيرها وعقليتها وتقاليدها وعاداتها ، ويصور المجتمع وحياته وشعوره أتم تصوير ، وهي مرآة للحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية .

والأمثال يصعب عليك تمييز الجاهل منها من الاسلامي ، لاختلاطهما ببعض عند الرواة والمؤلفين ولكن ما يشير إليه المثل من حادث أو قصة (١) جمع العسكري والميسداني الأمثال العربية في كتابيهما : جمهرة الأمثال العسكري ، وجمع الأمثال للميسداني ، وراجع ٧٤ - ٨٢ : ١ فجر الإسلام

أو خبر مما يتصل بالجاهلية قد يساعد على معرفة الجاهلي منها وتمييزه من الإسلامى .

والأمثال إما حقيقية أو فرضية ، فالحقيقية لها أصل وقائلها غالبا معروف . والفرضية ما كانت من تخيل أديب ووضعها على لسان حيوان أو جماد أو ماشاء كل ذلك .

والأمثال إما شعر وإما نثر ، ومثالها من الشعر :

تمتع من شميم عرار نجيد فما بعد العشية من عرار (١)
أن ترد الماء بماء أوفق لا ذنب لي قد قلت للقوم استقوا (٢)
لا تقطعن ذنب الأنهى وترسلها إن كنت شهما فأتبع رأسها الذنبا (٣)
كناسطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل (٤)
وكذلك الحكم : إما نثر أو شعر . وقد سبقتم أمثلة لها وللأمثال من النثر
أما الحكمة الشعرية فنمثلةها :

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه فليس على شىء سواه بخزان
ولست بمستبق أخا لا نلمه على شعث أى الرجال المهذب ؟
إذا المرء لم يذفن من اللوم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
ومن لم يذد عن عرضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

(١) للصمة بن عبد الله القشيري . ويضرب في التمتع بالزائل . والعرار :
نبت طيب الرائحة وهو الزرجس البحرى .

(٢) يضرب لمن لا يقبل الموعظة .

(٣) هو لأن أذينة اللخمى يحرص الأسود بن المنذر على قتلى بعض أسارى
غسان يضرب في التحريض على استئصال شأفة الشر

(٤) يضرب لمن يحاول مالا يستطيع فيتعيب نفسه دون فائدة

ب - الوصايا والنصائح ، ونماذج لها :

١ - ذو الأصبح العدواني حكيم شاعر وأحد المعمرين في الجاهلية . قال لما احتضر يوصي ابنه أسيدا :

يا بني إن أباك قد فني وهو حي ، وعاش حتى سئم العيش ، ولإني موصيك بما إن حفظته بلغت في قومك ما بلغت ، ألن جانبك لقومك محبوبك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك وأكرم صفارهم ، كما تكرم كبارهم ، يكرمك كبارهم ، ويكبر على مودتك صفارهم ، واسمع بمالك ، وأعزز جارك ، وأعن من استعان بك ، وأكرم ضيفك ، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئا ، فبذلك يتم سؤددك .

٢ - وفصح أوس بن حارثة ابنه مالك حين حضره الموت فقال (١) :
يا مالك المنية ولا الدنية ، والعتاب قبل العقاب ، والتجلد لا التبلد ، واعلم أن القبر خير من الفقر ، ومن كرم الكريم ، الدافع عن الحرم ، ومن قل ذل ، وخير الغنى القناعة ، وشر الفقر الضراعة الخ .

٣ - وأوصت أعرابية ولدها فقالت :

أى بنى إياك والنيمة ، فانها تزرع الضغينة ، وتفرق بين المحبين ، وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضا . وخلق الأيثار الغرض على كثرة السهام وقلبا اعترضت السهام غرضا إلا كلمته حتى يهى ما اشتد من قوته ، وإياك والجود بدينك والبخل بمالك ، وإذا هزنت فاهز زكريما يلدن لهزتك ، ولا تهز لثيما فان الصخرة لا ينفجر ماؤها .

٤ - وقرأ وصية زهير بن جناب السكبي لبنيه ، وإلى يقول منها :

يا بني قد كبرت سننى ، وبلغت حرسا (٢) من دهرى ، فأحكمتنى التجارب

(١) ١٠٢ : ١ الأمالى .

(٢) أى أمرا طويلا منه .

والأمور تجربة واختبارا ، فاحفظوا عني ما أقول وعوه ، إياكم والخور عند المصائب ، والتواكل عند التوائب ، فان ذلك داعية للغم ، وشماتة للعدو ، وسوء ظن بالرب الخ .

٥ - وأوصى النعمان بن ثواب العبدى ابنا له فقال :

يا بني إن الصارم يلبو ، والجواد يكبو ، والأثري يفو ، فإذا شهدت حربا فرأيت نارها تسمر ، وبطلها يخطر ، وبحرها يزخر ، وضعيفها ينصر ، وجبانها يحسر ، فأقلل المسكت والانتظار ، فإن الفرار غير عار ، إذا لم تكن طالب نار .

٦ - واقرا وصية امرأة عوف بن محم الشيباني لابنتها أم لباس ، وكان عمرو بن حمر جد امرئ القيس تزوجها ، ثم خرج بها من نادى قومها ، فأوصتها أمها قالت :

أى بنية إنك فارقت الجو الذى منه خرجت وخلفت العش الذى فيه درجت ، إلى وكر لم تعرفه ، وقرين لم تألفيه ، فاحملى عني عشر خصال تسكن لك ذخرا :

اصحبيه بالقناعة ، وعاشريه بحسن السمع والطاعة ، وتعهدى موقع عينه فلا تقع عينه منك على قبيح ، ثم اعرفى وقت طعامه ، واهدنى عند منامه ، فإن حرارة الجوع ملهية ، وتنقيص النوم مبغضة ، ثم اتقى مع ذلك الفرح أمامه إن كان ترحا ، والا ككتاب عنده إن كان إفرحا ، فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكونى أشد الناس له إعظاما ، يكن أشدهم لك إكراما ، واعلمى أنك لاتصلين إلى ماتحين حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببت أو كرهت . والله يخبرك .

٧ - وصية لأكرم بن صيفى :

تباروا فإن البر يبقى عليه العدد ، وكفوا ألسنتكم فإن مقتل الرجل بين فكليه ، إن قول الحق لم يدع لى صدقاً ، الصدق منجاة ، لا ينفع التوفى عما هو

واقع ، في طلب المعالي يكون العنا ، الاقتصاد في السعى أبقى للجمام ، أصبح عند رأس الأمر أحب إلى من أن أصبح عند ذنبه ، لم يهلك من مالك ما وعظك ويل لعالم أمر من جاهله ، يتشابه الأمر إذا أقبل ، وإذا أدبر عرفه السكيس والأحق ، البطر عند الرخاء حمق والعجز عند البلاء أمن ، لا تعذبوا من اليسير فإنه يجنى الكثير ، لا تجيبوا فيما لا تسألون عنه ، ولا تضحكوا بما لا يضحك منه ، حيلة من لا حيلة له الصبر ، إن تعش تر ما لم تره ، المكثار كحاطب ليل من أكثر أسقط ، لا تجعلوا سراً إلى أمة .

إلى ماسوى ذلك من بليغ وصاياهم ، وفصيح نصائحهم المأثورة .

ماهى الوصايا :

والوصايا جمع وصية ، والوصية ما توجهه إلى إنسان أثير لديك من ثمرة تجربة وحكمة وإرشاد وتوجيه ، وكذلك النصيحة ، فعنهما متقاربان أو متحدان .

والوصية لون من ألوان الخطابة قاصرة على الأهل والأقارب والأصدقاء ، والفرق بينهما أن الوصية تكون من الرجل لقومه أو أبنائه ، ومن الأم لابنتها ، والخطابة تكون فى المشاهد والمجامع والحروب والمعارك وفى المفاخرة والمحسورة والمنافرة وفى الوفادة على ملك أو أمير وفى المواسم والاجتماعات العامة .

والوصايا كثيرة فى النثر الجاهلى ، وتمتاز بجمالها وتناسب جملها وأساليبها ورقتها وما يشيع فيها من حكمة وصدق تعبير ونفاذ فكر وثقوب نظر .

جـ - الخطابة فى الجاهلية ونماذج لها :

١ - خطب هانىء بن قبيصة الشيباني فى قومه يوم ذى قار وهو

يحررهم ؛ قال :

يا معشر بكر ، هالك معذور خير من ناج فرور ، إن الحذر لا ينبجى من

القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنية ولا الدنية ، استقبال الموت خير من استبداره . الطعن في نعر النحور أكرم منه في الاعجاز والظهور : يا آل بكر قاتلوا فما للنيا من بد (١) .

٢ - خطبة المأمون الحارثي في نادى قومه :

قعد المأمون الحارثي في نادى قومه . فنظر إلى السماء والنجوم ، ثم فكر طويلا ، ثم قال :

أرعدوني أسماعكم ، وأصفوا إلى قلوبكم ، يبلغ الوعظ منكم حيث أريد . طمع (٢) بالآهواء الأشر (٣) ، وران (٤) على القلوب الكدر ، وطحنطخ (٥) الجهل النظر ، إن فيما نرى لمعتبرا لمن اعتبر ، أرض موضوعة ، وسما مرفوعة ، وشمس تطلع وتغرب ، ونجوم تسرى فتعزب ، وشباب مختضر (٦) ويفن (٧) قد غبر ، وراحلون لا يؤوبون ، وموقوفون لا يفرطون ، ومطر يرسل بقدر ، فيحيي البشر ، ويورق الشجر ، ويطلع الثمر ، وينبت الزهر ، إن في ذلك لأوضح الدلائل على المدبر المقدر ، البارئ المصور (٨) .

٣ - خطباء العرب يعززون قبلا من أقيال حمير في ابنه :

نشأ لسلامة ذى فائش ابن كأكمل أبناء المقاول (٩) ، وكان به مسرورا يرشحه لموضعه ، فركب ذات يوم فرسا صعبا ، فكسب به فوقه (١٠) ، فخرج عليه أبوه جزعا شديدا ، وامتنع عن الطعام ، واحتجب عن الناس ، واجتمعت وفود العرب يبابه ليعزوه ، فخرج إلى الناس ، فقام خطيباؤهم يؤسونه (١١) . فقام الملبب بن عوف الجمعي ، فقال :

(١) ١٦٩ : ١ الأمالى	(٢) ارتفع وعلا	(٣) البطر
(٤) غلب	(٥) أظلم	
(٦) أى مات حدثا صغيرا	(٧) الشيخ الكبير	
(٨) راجع ٢٧٣ : ١ الأمالى . والمأمون بالنون فى الأمالى ، وبالراء (المأمور)	(٩) من هم دون الملوك العظام	
(١٠) كسره	(١١) يعزونه	

أيها الملك ؛ إن الدنيا تجود لتسلب ، وتعطي لتأخذ ، وتجمع لتشتت ،
وتحلى لتمر ، وتزرع الأحزان في القلوب ، بما تفجأ به من استرداد الموهوب ،
وكل مصيبة تخطأتك (١) جلل (٢) ، ما لم تدن الأجل ، وتقطع الأمل ؛
وإن حادثاً ألم بك ، فاستبد (٣) بأفلك وصفح عن أ كثرك لمن أجل النعم
عليك . وقد تناهت إليك أنباء من رزى فصبر ، وأصيب فاغتر . فاستشعر
اليأس عما فات إذ كان ارتجاعه بمنتهى ، ومرامه مستصعباً . فلشى ما ضربت
الأسى (٤) ، وفرع أولو الألباب إلى حسن العزاء (٥) .

٤ - خطبة قس بن ساعدة الإيادي (٦) في عكاظ :

قدم وفد إياد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أيكم يعرف قس
ابن ساعدة الإيادي قالوا : كنا نعرفه ، قال فافعل ؟ قالوا : هلك ، قال : ما أنساه
بنسوق عكاظ في الشهر الحرام على جمل له أحمر وهو يخاطب الناس ويقول :
« اسمعوا ، وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، إن
في السماء لخبراً ، وإن في الأرض لعبيراً ، سحائب تمور ، ونجوم تغور . في
فلك يدور ، ويقسم قس قسماً إن الله ديننا هو أرضى من دينكم هذا ، ثم قال :
مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا بالإقامة فأقاموا أم تركوا
فناموا ؟ أيكم يروى من شعره ، فأنشأ بعضهم :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد الموت ليس لها مصادر
ورأيت قسوى نحوها تمضى الأكابر والأصاغر
لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقيين غابر

-
- (١) أخطأتك (٢) صغير (٣) استبد به : أى جعله نصيبه
(٤) جمع أسوة . وهى القدوة (٥) ٩٩ : ٢ الآمال
(٦) تجدها في البيان والتبيين ٢٠٣ : ١ ، وفي العقد ص ٣٨٥ ج ٢

أيقنت أنى لا محالة حيث صار القوم صائرا (١)

٥ - وراجع ما قبل من خطب في :

أ - وفود العرب على كسرى (٢) .

ب - وفود أبي سفيان على كسرى (٣) .

ج - « قریش على سيف بن ذى یزن (٤) .

د - « العرب على النعمان (٥) .

٦ - ومن خطبة مرثد الخير (٦) - وكان قبلا من أقيال اليمن - في سبيع ابن الحارث وميثم بن مثوب بن ذى رعين . حين تنازعا الشرف وتخاصما ، وخيف أن يقع بين حبيهما شر فيتفانى جذماهما (٧) :

« إن التخبیط (٨) ، وامتطاء الهجاج (٩) ، واستحقاب (١٠) الهجاج ، سيففكا على شفا هوة ، في توردها بوار (١١) الأصلية (١٢) ، وانقطاع الوسيلة ، فتلافيا أمر كما قبل انتكاث العهد ، وانحلال العقد ، وتشتت الآلفة ، وتباين السهمة (١٣) ، وأنتم في فسحة رافهة (١٤) وقدم واطدة (١٥) ، فقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب ، بمن عصى النصيح ، وخالف الرشيد ، وأصغى إلى التقاطع ، ورأيتم ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم ، وكيف كان صيور (١٦) أمورهم .

(١) ٢٦٩ و ٢٧٠ مختار العقد الفريد ط ١٩١٠ .

(٢) ١٦٦ : ١ العقد الفريد ط ١٩٢٨ (٣) ١٧٤ : ١ المرجع

(٤) ١٧٥ : ١ المرجع (٥) ٢٥٦ - ١ المرجع (٦) راجع ٩٢ : ١ الأمالى

(٧) الجذم الأصل (٨) ركوب الرجل رأسه في الشر خاصة

(٩) ركب الرجل هجاجة إذا لجأ أى ركب رأسه

(١٠) استعمال من الحقيبة وهى ما يجعل الرجل فيه متاعه . وهذا مثل يريد أنه

احتزم باللجاج أو جملة فى وعائه (١١) هلاك (١٢) الأصلية والأصل واحد

(١٣) القراية (١٤) ناعمة (١٥) ثابتة (١٦) الصيور : الأمر الذى يرجع إليه

٧ - وخطب أبو طالب حين تزوج النبي صلى الله عليه وسلم السيدة خديجة ، فقال :

« الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم ؛ وزرع اسماعيل ، وجعل لنا بلدا حراما ، وبيننا محجوجا . وجعلنا الحكام على الناس . ثم إن محمد بن عبد الله من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح عليه برا وفضلا ، وكرما وعقلا ، ومجدا ونبلا ، وإن كان فى المال قل ، فإنما المال ظل زائل ، وعارية مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصدقات فعلى . »

٨ - خطبة هاشم بن عبد مناف يحث قريشا على إكرام زوار بيت الله الحرام :

رووا أن هاشم بن عبد مناف كان يقوم أول نهار اليوم الأول من ذى الحجة ، فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها ، فيخطب قريشا ، فيقول :

« يا معشر قريش ، أنتم سادة العرب ، أحسنها وجوها ، وأعظمها أحلاما وأوسطها أنسابا ، وأقربها أرحاما . »

« يا معشر قريش ، أنتم جيران بيت الله . أكرمكم بولايته ، وخصكم بحواره دون بنى اسماعيل ، وحفظ منكم أحسن ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه ، وزوار بيته ، فإنهم يأتونكم شعنا غبرا من كل بلد . فو رب هذه البنية : لو كان لى مال يحمل ذلك الكفيتكموه ، ألا وإنى أخرج من طيب مالى وحلاله ، مالم يقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ بظلم ، ولم يدخل فيه حرام ، فواضعه ؛ فن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل ، وأسألكم بحرمه هذا البيت ألا يخرج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيت الله ومعونتهم إلا طيبا ، ولم يؤخذ ظلما ، ولم يقطع فيه رحم ، ولم يقتصب . »

٩ - خطبة هاشم بن عبد مناف فى قريش وخزاعة :

تنافرت قريش وخزاعة إلى هاشم بن عبد مناف ؛ فخطبهم بما أذن له

الفریقان بالطاعة ، فقال فى خطبته :

« أيها الناس ، نحن آل ابراهيم ، وذرية اسماعيل ، وبنو النضر بن كنانة ، وبنو قصي بن كلاب ، وأرباب مكة ، وسكان الحرم ، لنا ذروة الحسب ، ومعدن المجد ، ولكل فى كل حلف ، يجب عليه نصرته ، وإجابة دعوته ، إلا مادعا إلى عقوق عشيرة ، وقطع رحم .

يا بنى قصي ، أنتم كغصنى شجرة ، أيهما كسرا أو حش صاحبه ، والسيف لا يوصان إلا بغمده ، وراعى العشيرة يصبى به سهمه ، ومن أحكم اللجاج أخرجه إلى البغى .

أيها الناس ، الحلم شرف ، والصبر ظفر ، والمروءة كنز ، والجلود سواد ، والجهل سفه ، والأيام دول ، والذهب غير ، والمرء منسوب إلى فعله وما أخذ بعمله ، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد ، ودعوا الفضول تجانبكم السفهاء ، وأكرموا الجليس يعمر ناديتكم ، وحاموا الخليط يرغب فى جواركم ، وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم ، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة ، وإياكم والأخلاق البذرية ، فإنها تضع الشرف ، وتهدم المجد ، وإن نهضة الجاهل أهون من جريرته ، ورأس العشيرة يحمل أنقالها ، ومقام الخليم عظة لمن انتفع به .

فقال قريش : رضينا بك أبا نضلة اوهى كنيته .

١٠ - وراجع خطبة البرجى أمام حاتم الطائى فى وفادته عليه فى دماء حملها (١) .

ماهى الخطابة ؟ : (٢)

الخطابة فن من فنون النثر ، وهى فن مخاطبة الجمهور الذى يعتمد على

(١) ص ٢١ ذيل الأمل .

(٢) راجع : الخطابة لابن زهرة - جمهرة الخطابة لصفوت - ٢٣٥ و ١٩٩٩ =

الافتناع والاستمالة . أو هي كلام بليغ يلقي في جمع من الناس لإقناعهم بما فيه الخير لهم في دنياهم وآخرتهم .

والخطابة قديمة نشأت مع الإنسان ، وتروى للأمم القديمة نخطب كثيرة كقدماء المصريين واليونان والرومان .

والخطابة ضرورية للأمة في سلمها وحربها ، وهي أداة الدعوة إلى الرأي والعقيدة في شتى نواحي الحياة والمجتمع ، وهي وسيلة الدعاة والمصلحين ، والمهذبين والمرشدين ، وعماد القادة والزعماء ، وأداة الأحزاب السياسية ، والجمعيات الأدبية والاجتماعية ، وعليها الاعتماد في كثير من شئون الحياة ، في السياسة وفي التربية والتعليم ، والوعظ والإرشاد ، وفي محافل الأنس ، ومآتم الحزن .

والخطابة تقوى عند ما تكون الأمة متمتعة بقسط من الحرية ، شاعرة بما هي فيه ، طامحة إلى آمال واسعة في الحياة ، وحينما تتصارع الخصومات ، وتختلف الأفكار والمبادئ والمذاهب .

والخطابة إما سياسية أو اجتماعية أو دينية ، وفي العصر الحديث نشأت الخطابة القضائية والبرلمانية .

الخطابة عند العرب في العصر الجاهلي :

ويروى للعرب في جاهليتهم خطب كثيرة ، ونبغ فيهم خطباء مشهورون وكانت الخطابة لسان الأشراف والرؤساء والناهبين من القبائل ، يهزأونها على الشعر الذي غرض من قدره تكسب الشعراء به (١) ، ويعبرون بها عما

و ١٩ و ٢١ و ٢٦ و ٢٧ و ٣ و ٦ و ١٥ و ٦٦ و ٥٢ ج ٣ البيان والتبيين ، والعقد
الفريد - مواسم الأدب - بلاغات النساء لابن طيفور - بلوغ الأرب
(١) . اجمع ١٧٠ ج ١ و ٢٥٩ ج ٣ من البيان والتبيين .

يلجئ في صدورهم من أفكار وآراء ، ويصرفون بها ملكة البلاغة المتأصلة في أعماق نفوسهم وطوايا قلوبهم ، ويصورون بها جميع ما يطوف بمقوِّلهم في شئون السياسة والاجتماع .

وكانت الخطابة عندهم منتشرة ذائعة ، لما مكنتها في النفوس ، وسحرها في الألباب ، وأثرها في الشدائد والمشكلات ، وكان لكل قبيلة شاعر . وبالجملة فإن الخطابة في العصر الجاهلي كان لها حظ من القوة والنهضة والازدهار .

ويرجع ذلك إلى ابتذال الشعر بالتكسب به ، وإلى أن الخطابة كانت مهنة القادة والزعماء والحكماء ، وإلى أهميتها لاستعمالها في الدفاع عن القبيلة .

دواعي الخطابة في العصر الجاهلي :

وكانت دواعيها كثيرة متشعبة عندهم ، فأذواقهم الأدبية وتأصل ملكات البلاغة في نفوسهم وتملكهم زمام الفصاحة . ثم كثرة الحروب والخلافات بينهم ، ثم تفرقهم قبائل وأحياء مع أميتهم الغالبة عليهم والتي لجأتهم إلى الاستعانة باللسان دون الكتابة . ثم ضعف شأن الشعر ؛ ومكانته في نفوس أشرافهم بتكسب الشعراء به . ثم سعة مجال الخطابة فيهم ؛ وكثرة أسبابها لديهم .

كل ذلك كان داعياً لذيوع الخطابة فيهم ، وانتشارها بينهم .

أغراض الخطابة في العصر الجاهلي :

وأغراض الخطابة كثيرة عند العرب في العصر الجاهلي . من ذلك :

١ - التعريض على القتال أو الدعوة للسلام والوثام . وهذا كثير عند العرب في جاهليتهم لكثرة حروبهم ، وكثرة ما كان بينهم من خلافات وخصومات .

٢ - التبشير بدين جديد . وعجارية الفوضى والذائل والوثلية التي كانت سائدة في العصر الجاهلي . كما نرى في خطبة المأمون الحارثي في نادي قومه (١) . وخطبة أكرم بن صيفي التيمي في قومه (٢) ، بعد أن بعث الرسول وبعث أكرم ابنه حبيشا ليأتيه بخبره ، وكما في خطبة قس في سوق عكاظ .

٣ - التعزية في عظيم من عظمائهم أو رئيس من رؤسائهم :

٤ - الوفاة على الملوك والرؤساء للتهنئة أو الاستنجاح أو لتأمين سبيل أو إجازة تجارة أو التعزية أو سواها . والخطب المأثورة فيها الكثير من ذلك .
٥ - الدعوة إلى الصلح وفض الخصومات وجمع الكلمة كما في خطبة مرثد الخير .

٦ - الخطب في المحافل حين الإملاك (٣) أو الولادة أو ماشاكل ذلك .

٧ - المفاخرة والمنافرة والمباهاة بعز العشيرة وشرف المحتشد وجلال الأصل .

٨ - التوصية بفعل جميل أو أدب حميد .

وهكذا تعددت أغراض الخطابة وتشعبت مناحيها .

أسلوب الخطابة :

وأما أساليبها فقد كانت مركبة من جمل قوية ضعيفة الربط يغلب عليها

(١) ٢٧٣ : ١ الأماي

(٢) ٢٤٧ : ٢ أمثال العسكري ، وجمع الأمثال للبدياني الجزء الثاني . ومنها :
إن ابني شافه هذا الرجل مشافهة ، وأتاني بخبره وكتابه ، يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر ، وياخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى وخلع الأوثان وترك الحلف بالنيران ، وقد عرف ذوو الرأي منكم أن الفضل فيما يدعو إليه ، وأن الرأي ترك ما ينهى عنه ، إن الذي يدعو إليه محمد ، لو لم يكن ديننا كان في أخلاق الناس حسنا . أطيعوني واتبعوا أمري
(٣) الإملاك : التزويج .

الحكمة والسجع ، وفيها جمالة الجزالة والفصاحة .

المأثور من خطب الجاهليين :

والمأثور من خطب الجاهليين قليل ، أقل من الشعر المروى عنهم .
ذلك أن الخطابة يصعب حفظها لطولها وعدم تقييدها بوزن أو قافية ، وعدم
تدوينها إلا في القرن الثاني الهجري ، مما أدى إلى ضياع كثير منها لطول
المهد بها .

الخطابة والخطيب :

وكانوا يلزمون أنفسهم الوقوف في الخطبة إلا في خطب إملأكم^(١)
وكثيرا ما كانوا يؤثرون أن يخطبوا وهم واقفون على نشز من الأرض .
أو على شيء من تفسع : كظهر الراحلة وسواها . وذلك لظهور الخطيب
ولشدة تأثيره .

كما كانوا يقبضون بأيديهم على عصا أو رمح أو سيف أو قوس . ويعصب
الخطيب عمامته .

والخطيب يلتزم رباطة الجأش وجهارة الصوت^(٢) وبلاغة القول وقوة
الحجة . قليل الحركة . قليل الإشارة . ينطق بالصدق . ويتكلم بالحق . في
مظهر نبيل وزى جميل ، وهو غالباً رئيس قومه أو من أشرفهم .

هذا ويهون طه حسين من الخطابة الجاهلية : لفقدان الحضارة والتنازع
السياسي والديني ، وهذا غير صحيح لكثرة الخصومات والمعرفتهم بالكتابة ، ووجود
بعض ألوان من الحضارة . ولكثرة كلام الرواة عن الخطابة الجاهلية .

(١) الإملاءك : الترويج

(٢) ويشيرون بالعباس بن عبد المطلب في جهارة صوته (٩٥ هـ ١ البيان
والتبیین) كما أشادوا بجهارة الصوت (٩٤ هـ ١ المرجع ، ويقولون خطيب اشدق
أى بليغ . وهو من الشدق بفتح الدال وهو سعة في الشدق . (١١)

أشهر خطباء العرب في العصر الجاهلي

- ١ -

قس بن ساعدة الإيادي (١)

من إياد يضرب به المثل في الفصاحة والبلاغة والحكمة والخطابة .
وبعدونه خطيب العرب كافة .

اعتنق النصرانية فأمن بها . وكان يدعو في خطبه إلى التوحيد ونبذ
الأوثان والأصنام وعبادة الله . وكان أسقف نجران ، وكان يند على
قيصر ويحادثه .

وهو أول من قال : « أما بعد » ، والسابق إلى الانكاء على العصا والسيف
حين يخطب ، وهو القائل هذه الحكمة : « البيضة على من ادعى واليمين
على من أنكر » .

وكان الناس يتحاضرون إليه في خصوصاتهم . فيقضى بينهم بالحق والخير ،
وكان معدوداً من حكماء العرب وأعقلهم .

وكثيراً ما كان يقف في سوق عكاظ ، وقد سبقت خطبة له
ممنها النبي صلى الله عليه وسلم في عكاظ قبل البعثة .

عاش قس طويلاً نحو ثمانين ومائة سنة ، ومات قبل البعثة نحو عام ٦٠٠ م ،
ويعدّه الجاحظ من الخطباء والشعراء (٢) ورسول الله (ص) هو الذي روى
كلامه بعكاظ (٣) .

(١) راجع ٥١ و ٥٦ و ١: ٢٠٣ البيان والتبيين نشر السندوني ط ١٩٢٧ .
وراجع حديث قس بن ساعدة مع قيصر (١٧ ج ٢ الآمال) وراجع ٥١ و ٥٦ .
١: ٢٠٣ البيان والتبيين و ٣٨٥ - ٢٠ المقدم .

(٢) ٥١ ج ١ البيان والتبيين (٣) ٥٦ ج ١ المرجع .

وكان بليغ القول . سهل الأسلوب . متخير اللفظ . كثير الحكمة والمثل ،
مجمعه فتسير غالب على خطابته ، وكلامه على إيجازه بعيد عن اللغو والفضول
والخشو . مطبوع على الخطابة واللفظ الشريف ، والقول الرائع الحكيم .
وله شعر فيه جزالة مع رقة تعبير ودقة تصوير وقوة تأثير .

ومن حكمه : إذا نهيت عن الشيء فابدأ بنفسك . من عيرك شيئاً ففيه
مثله . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر .

ويقول فيه الأعشى :

وأفصح من قس وأجرى من الذى بذى العين من خفان أصبح خادرا

ولما قدم وفد بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم سأله عن رجل
كان فيهم فإزلا يقال له قس بن ساعدة الإيادى ، قالوا هلك ، فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : لقد رأيته يحفظ على نجل له أورك ، وهو
يقول : أيها الناس ، اجتمعوا واسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات
فات وكل ما هو آت آت ، ليل موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تغور ،
وبحر يمحور ، أما بعد : فإن في السماء خبيرا ، وإن في الأرض لعبرا ، ما لى أرى
الناس يموتون ولا يرجعون ، أرضوا بالإقامة فأقاموا ؟ أم تركوا كما هم فناموا ؟
أقسم بالله قس قسما حقا فما حدث ولا أثم ، إن لله ديناً هو أَرْضَى من ديننا هذا
الذى نحن عليه . ثم قال آياتاً ما أحفظها ، فقال رجل من الأنصار : أما شاهد
يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، قال فأنشدنا ، قال سمعته يقول :

فى الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد الموت ليس لها مصادر
ورأيت قوى نحومها تمضى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى ولا يبقى من الباقين غابر

أيقنت إني لا محالة حيث صار القوم صائر

وقال صاحب الأغاني فيه : هو قس بن ساعدة بن عمرو بن عدى بن مالك من إباد ، كان يفد على قيصر زائراً فيكرمه ويعظمه فقال له قيصر : ما أفضل العلم ؟ قال : معرفة الرجل بنفسه ، قال فما أفضل العقل ؟ قال : وقوف المرء عند علمه ، قال فما أفضل الأدب ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه ، قال فما أفضل المروءة ؟ قال قلة رغبة المرء في إخلاف وعده ، قال فما أفضل المال ؟ قال : ما قضى به الحق .

وفي الشريشي عن ابن عباس : وفد الجارود بن عبد الله في وفد عبد القيس ، وكان سيداً في قومه ، معظماً في عشيرته ، فآمن وآمن قومه ، فسر النبي صلى الله عليه وسلم بهم ، ثم قال : يا جارود هل في جماعة عبد القيس من يعرف لنا قساً ؟ قال كلنا نعرفه يارسول الله ، وأنا كنت من بينهم أقفوا أثره ، وأطلع خبره ، كان قس سبطاً من أسباط العرب ، صحيح النسب ، فصيحاً ذا شية حسنة ، عمر طويل ، يتقفر القفار ، ولا تسكنه دار ، ولا يقره قرار ، يتحسى في تقفره بعض الطعام ، ويأنس بالوحوش والهوام ، يلبس المسوح ويتبع السياح ، على منهج المسيح ، لا يغير الرهبانية ، مقر بالوحدانية ، تضرب بحكمته الأمثال ، وتكشف به الأحوال ، أدرك رأس الحواريين ، فهو أول من تأله من العرب ، وأعيد من تعبد في الحقب ، وآمن بالبعث والحساب ، وحذر سوء المنقلب والمآب ، ووعظ بذكر الموت ، وأمر بالعمل قبل الفوت ، الحسن الالفاظ ، الخاطب بسوق عكاظ ، العارف بشرق وغرب ، وبأس ورطب ، وأجاج وعذب ، كاتني أنظر إليه ، والعرب بين يديه ، يقسم بالرب ، ليبلقن الكتاب أجله ، وليوفين كل عامل عمله ، ثم أنشأ يقول :

هاج للقلب من هواه ادكار وليال خلاهرن نهار
ونجوم يحثها قمر الاله سل وشمس في كل يوم تدار
ضوءها يطمس العيون وإرعا د شديد في الخافقين مشار

وغلام وأشمت ورضيع كلهم في التراب يوما يزار
وقصور مشيدة حوت الخ ير وأخرى خوت فمن قهار
والذي قد ذكرت دل على الله نفوسا لها هدى واعتبار

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : على رسلك يا جارد فاست أنساء بسوق
عكاظ على جبل له أورق وهو يتسكك بسلام موق ما أظن أحفظه ، فهل فيكم
يا معشر المهاجرين والأنصار من يحفظ لنا منه شيئا ؟ فوثب أبو بكر قائما
وقال : يا رسول الله أنا أحفظه وكنت حاضرنا بعكاظ حين خطب فأطنب ،
ورهب ورغب ، وحذر وأتذر ، وقال في خطبته : أيها الناس ، اسمعوا وعوا ،
وإذا دعيتم فانتفعوا ، إنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت
آت ، مطر ونبات ، أرزاق وأقوات ، وآباء وأمهات ، وأحياء وأموات ،
وجمع وشتات ، وآيات بعد آيات ، إن في السماء لحبرا ، وإن في الأرض
لعبرا ، ليل داج ، وسما ذات أبراج ، وأرض ذات رتاج ، وبحار ذات أمواج .
مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا
هناك فناموا ؟ أقسم قس بالله ، قسما حقا لا آثما فيه ولا حاشا ، إن لله ديننا
هو أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه ، ونبينا قدحان حينه ، وأظلكم أوانه
وأدر كسكم إبانته ، فطوبى لمن آمن به فهداه ، وويل لمن خالفه وعصاه ، ثم
قال : تبأ لأرباب الغفلة ، من الأمم الخالية ، والقرون الماضية ، يا معشر إباد
أين الآباء والأجداد ، وأين المريض والعواد ، وأين الفراعنة الشداد ، أين من
بنى وشيد وزخرف ونجد ، وغره المال والولد ، أين من بقى وطفى ، وجمع
فأوعى ، وقال أنا ربكم الأعلى ؟ ألم يكونوا أكثر منكم أموالا ، وأطول
منكم آجالا ، طعنهم الثرى بكلكله ، ومزقهم بتطاولة ، فتلك عظامهم بالية
وبيوتهم خاوية ، عمرتها الذئاب العاوية ، كلا بل هو المعبود ، ليس بوالد
ولا مولود ، ثم أثنا يقول : فى الذاهبين الأولين - الآيات المتقدمة .

فقال رسول الله (ص) رحم الله قسا إني لأرجو أن يبعثه الله أمة وحده .

ويروى (١) عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال : حضرت مجلس المأمون ، فقلت يا أمير المؤمنين : ألا أحدثك عن الفضل بن يحيى ؟ قال : بلى ! فقلت : دخلت دار الرشيد ، وإذا الفضل بن يحيى وإسماعيل بن صبيح وعبد الملك بن صالح في بعض تلك الأروقة يتحدثون ، فلما بصرت الفضل أومأ إلى ، وقال : يا إسحاق ، انتظرناك منذ العداة ، لتساعد على ما نحن فيه من المذاكرة ! فقلت يا سيدي ، أنا السكيت (٢) إذا أجريت الجياد ، وفاز السابق والمصلي ! فقال عبد الملك : مدحت نفسك ، ولما تكذب .

ولما فرغ عبد الملك من حديثه قال الفضل : إن لقس (٣) حديثاً سمعته من الخليل بن أحمد ، فهل عند واحد منكم له ذكر ، فسكت القوم ، فقلت : يا سيدي ، ما نعرف له حديثاً إلا حديث خطبته بمكاظ ! قال : ذاك شيء قد فهمته العامة واغتيبرته الخاصة . ثم أطرق ساعة ، فقلنا : إن رأيت أن تحدثنا ؟ فقال :

حدثني الخليل بن أحمد : أن قيصر ملك الروم بعث إلى قس بن ساعدة أسقف نجران - وكان حكيماً طيباً بليغاً في منطقه - فلما دخل عليه ، ومثل بين يديه حمد الله وأثنى عليه ، فأمر بالجلوس ، فجلس ورحب به ، وأدنى مجلسه ، وقال : ما زلت مشتاقاً إليك لما سمعت من مناظرتك في العطب .

فكان أول ما سأله عن الشراب ، فقال : أي الأشرية أفضل عاقبة في البدن ؟ قال : ما عفا في العين ، واشتد على اللسان ، وطابت رائحته في الأنف من شراب الكرم . قال : فما تقول في مطبوخه ؟ قال : مرعى ولا

(١) المحاسن والمساوىء طبع لبيزج ص ٣٥١

(٢) السكيت : الذي يحيى في الخلبة آخر الخيل (٣) هو قس بن ساعدة خطيب العرب قاطبة ، كان يدين بالتوحيد ، ويؤمن بالبعث ، ويدعو إلى نبذ الأوثان ، في المحافل العامة ، ومواسم الأسواق وسمعه النبي قبل البعثة يخطب بمكاظ ، فمجب من حسن كلامه وأثنى عليه وعبر طويلاً ومات قبيل البعثة

كالسعدان (١) قال : فما تقول في نبيذ الزبيب ؟ قال : ميت أحبي ، وفيه بعض المتعة ، وما كاد يقوى شيء بعد الموت ! قال : فما تقول في نبيذ العسل قال : نعم شراب الشيخ للمعدة الفاسدة ! قال : فما تقول في أنبذة التمر ؟ قال أوساخ يطيب مذاقها في اللهاوت ، وتسوء عاقبتها في البدن ، وتولد الأرواح في البطن لرقبتها .

قال : فمن أى شيء يكون الثمل الذى يذهب الغم ويطيب النفس ؟ قال : زعموا أن العقل تصعده سورة الشراب إلى الدماغ ، فإذا صعدت السورة إلى الدماغ الذى هو أصله ، احتجب البصر بغير عى ، والسمع بغير صمم ، واللسان بغير خرس . فلا يزال العقل كذلك محتجباً حتى تفكك الطبيعة من لسان السكر ، لما بقوة فيعجل ، ولما بضعف فيبطىء .

قال . فمن أى شيء اختار (٢) من بعد صحو السكران ؟ قال : من لأمعاء الطبيعة من مجاهدة السورة في إفتكك العقل وتخلصه ، حتى يردّها النوم إلى هدوء وما أشبهه . قال : الصبر أفضل أم الممزوج ؟ قال : الصبر سلطان جائر والجائر مذموم . والممزوج سلطان عادل والعاذل محمود .

قال : فصف لى الأطعمة . قال الأطعمة كثيرة مختلفة . وجملة ما أمرك به الإمساك عن غاية الإكثار ، فإن ذلك من أفضل ما بلوناه من الأدوية ، ورأس ما نأمر به من الحمية . قال له : عمن حملت الحكمة ؟ قال : عن عدة من الملاسمة . قال : فما أفضل الحكمة ؟ قال : معرفة المرء بقدره . قال فما تقول فى الحلم ؟ قال : حفظ الإنسان ماء وجهه . قال : فما تقول فى المال وفضله ؟ قال : أفضل المال ما أعطى منه الحق . قال : فما أفضل العطية ؟ قال : أن تعطى قبل السؤال .

قال : فأخبرنى عما بلوت من الزمان وتصرفه ، ورأيت من أخلاق أهله ؟

(١) السعدان : نبت ذو شوك ، وهو من أنجع المرعى ، وهذا مثل يضرب للشيء يفضل على أقرانه وأشكاله (٢) الخمار : بقية السكر .

قال : بلونا الزمان فوجدناه صاحباً يخون صاحبه . ولا يعتب من عاتبه ،
ووجدنا الإنسان صورة من صور الحيوان ؛ يتفاضلون بالعقول ، ووجدنا
الأحساب ليست بالإباء والأمهات ، ولكنها في أخلاق مجودة ، وفي ذلك
أقول :

لقد جلبت الزمان أشطره ثم غصت (١) الصريح (٢) من جلب
فلم أر الفضل والمعالى في قول الفقى : إننى من العرب
حتى رى سامياً إلى خلق يذود مجوده عن السب
ما ينفع المرء فى فكاهته من عقل جد مضى وعقل أب
ما المرء إلا ابن نفسه فيها يعرف عند التحصيل للنوب
ووجدنا أبلغ العظات النظر إلى محل الأموات وأحمد البلاغة الصمت ،
ووجدنا لأهل الحزم حذاراً شديداً ، وبذلك نجوا من المكروه ، والكرم
حسن الاصطبار ، والعز سرعة الانتصار ، والتجربة طول الاعتبار .
قال : خبرنى هل نظرت فى النجوم ؟ قال : ما نظرت فيها إلا فيما أردت به
الهداية ، ولم أنظر فيها أردت به السكينة ، وقد قلت فى النجوم :

علم النجوم على العقول وبال وطلاب شئ لا ينال ضلال
ماذا طلابك علم شئ أغلقت من دونه الأفلاك ليس ينال
هيهات ما أحد بغامض قدره يدرى كم الأرزاق والآجال
إلا الذى فوق السماء مكانه فلوجه الإكرام والإجلال

قال : فهل نظرت فى زجر (٣) الطير ؟ قال : نحن معاشر العرب مولعون
بزجر الطير . قال فما أعجب ما رأيته منه ؟ قال : شخصت أنا وصاحب لى من
العرب إلى بعض الملوك ، فألفيناه يريد غزو قوم كانوا على دين النصرانية ،
فخرج حتى إذا كان على فراسخ من مدينته أمر بضرب فساطيطه وأروقته

(١) غصت اللابن : أخذ زبده (٢) الصريح : الخالص . (٣) الزجر :
ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالفيب عند سئوح طائر أو حيوان .

لتتوافق إليه جنوده ، وضرب له فسطاط على شاطئ نهر ، وأمر بجباة
فضرب لي ولصاحبي ، فبينما نحن كذلك إذ أقبل طائران : أسود وأبيض ، وأما
وصاحبي نرمقهما ، حتى إذا كانا على رأسه رفرفا ثم غابا ، ثم رجعا أيضاً ،
حتى إذا كانا قريباً منه طوياه . ثم أقبلنا نحونا فوقعا ، ثم رتما (١) ، فقال
صاحبي : ما رأيت كالיום طائرين أعجب منهما ، فأيهما أنت تختار ؟ فقلت :
الأسود . قال : الأبيض أضأعجبهما إلى ، فما تأولتهما ؟ قلت : الليل والنهار
يطويان هذا الرجل في سفره فيموت ، وتأولت اختبارك الأبيض أنك
تنصرف بيد بيضاء مخفقة من المال . فإذا هو قد غضب .

فلما جن الليل بعث إلينا الملك لئلا نسمعه ، فإذا صاحبي قد أخبره بالخبر
فسألني : فأخبرته وصدقته . فغضب ، وقال : هذه حية منك لأهل دينك !
فقلت : أما أنا فقد صدقتك : فأمر بحبسي ومضى لوجه ، فلم يتجاوز إلا
قليلاً حتى مات ! فأوصى لي بعشرين ناقة ، وقال : قاتل الله قسا ! لقد محضني
النصيحة . فانصرف من سفرى ذلك بعدة من الإبل ، وانصرف صاحبي
مخفقا من المال .

قال الملك : وما رأيت أيضاً من الزجر أعجب ؟ قلت . ما رأيت مرة
عند الملك الهام أبي قابوس ، وقد خرج عليه خارج من مضر يريد ملكه ،
وقد حشد له ، فبعث إلى بعض عماله في توجيه أربعمائة فارس ، ووجهني مع
الرسول ، وأمرنا بالشد على أيديهم في جمع الخيل والرجال . وكان الرسول
شاعراً . فبينما نحن نسير إذ سمعت لنا ظباء فيها تيس (٢) يقدمها ، وكان أبو
قابوس يواعد للقاءه في يوم كذا وكذا ، فنحن نقول : إن كان الملك خرج
في يوم كذا فهو اليوم في موضع كذا ، وقد أقبلنا ، ونحن نقود جيشاً
عمرماً ، فأشأ الرسول يقول :

ألا ليت شعري ما تقول السوانح أغاد أبو قابوس أم هو رانح

(١) الرتم : الأكل والشرب رغداً في الريف .

(٢) التيس : الذكر من الظباء والحمر والوعول .

قال : فنظرت إلى التيس عند فراغه من هذا البيت ، فوجدته قد دخل في مكبسه (١) حتى توارى فيه ، فدخلت من ذلك ما لم أقدر على أن أمسك نفسي ، حتى استرجعت ، فقال لي رفيق : مالك ؟ قلت : إن صدق الزوج فصاحبك قد توارى في التراب ، والتحفت عليه أطباق الأثرى ! قال : كيف ذلك ؟ قلت : وافق فراغك من البيت دخول التيس في مكبسه ، فأعرض عني ، فلما أصبحت في اليوم الذي واعدنا للقائه لم يواف ، ولم يكن بأوشك من أن أتانا الخبز بهلاكه وعود ابنه . فأكرمه قيصر وأحسن جائزته .

قلنا : أيد الله الوزير ! لقد بلغت ما بلغت باستحقاق ، ولقد حزت قسبة الرهان في كل منقبة ، فتبسم وقال : عز الشريف أدبه ، وإذا رسول الرشيد وافاه فتهض نحوه ، وتصعد المجلس وانصرفنا .

فلما مضى من الليل بعضه إذا أنا بطارق قد طرقي ، وبين يديه غلمان على أعناقهم البدر ، وإذا رسول الفضل وقد حمل إلى مائة ألف درهم ، وقال : الوزير يقرأ عليك السلام . ويقول : تنجرت باستماع الأحاديث ، وأوجبت على بذلك منة ، وهذا عطاء وتمح (٢) في جنب قدرك عندي ، فخذ ولا تعتد به .

فقلت : سبحان الله الذي خلق هذا الرجل ! وجبه على كرم بذبه من مضى ومن غير ، وإذا هو قد وجه إلى أصحابي الذين كانوا معي بمنى الذي وجه به إلى ، فصدوت إليه وأردت أن أشكره ، فقال : والله لئن ذهبت تكشف ما ستر الله لأجنونك ! فكأنما ألقى حجرا . واحتبسني عنده ، فطعمت وشربت ورحت وقد حملني على عدة أفراس بسروج ولجم مذهبة ، ووجه معي بعشرة نخوت ثياب وعشر بدر .

قال : فقال المؤمن : ويحك يا إسحاق ! ثواب حديثك ضعف ما أمرك به الفضل ، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم ، فقبضت ذلك وانصرفت !

(١) المكبس : موطئ الوحش من الظباء والبقر تستكن فيه من الحر .

(٢) وتمح : قليل .

أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِي التَّمِيمِي

هو حكيم العرب وقاضيا وخطيب من أشهر الخطباء ، أوفده النعمان بن المنذر إلى كسرى أنوشروان بالمداين ، ومعه رهط من أشرف سادات العرب (١) وخطبائها ، مثل : حاجب بن زرارة التميمي (٢) . وعمر بن الشريد السلمي (٣) ، وعامر بن الطفيل العامري (٤) ، وعلقمة بن علاثة العامري (٥) ، والحارث بن ظالم (٦) ، وعمر بن معد يكرب الزبيدي (٧) ، والحارث بن عبادة البكري (٨) ، وسواهم ، وأعجب به كسرى حتى قال له : لو لم يكن للعرب غيرك لكنتي . وقد أدرك بعثة الرسول وبعث ابنه حديشاً ليأتيه بخبره ، ودعا قومه إلى الإيمان بمحمد صلوات الله عليه .

وكان أكثم عارفاً بالأنساب ، كثير الحكم وضرب الأمثال في خطابه ، مصيب الرأي قوى الحججة ملهما بالصواب وسداد القول ، كما كان عظيم المنزلة عند بني تميم قومه وعند العرب أجمعين ، وجعله الجاحظ من الخطباء البلقاء والحكام الرؤسا (٩) ، وكان في خطبه كثير الإيجاز وضرب الأمثال لا يلتزم السجع ولا يقصده ؛ عميق الفكر ، دقيق النظر ، قوى الحججة ، كثير الاقتناع . جميل الأسلوب حلوا الألفاظ .

(١) راجع ١٦٦ و ١٧٤ ج ١ المقطع ١٩٢٨ ، وبشك كثير في صدق الرواية التي رواها صاحب العقد .

(٢) سيد من سادات تميم ، وخطيب من أبلغ خطباء العرب .

(٣) أبو الخنساء الشاعرة وكان شجاعاً شاعراً خطيباً .

(٤) ابن عم لبيد الشاعر ، فارس شجاع وشاعر .

(٥) خطيب بليغ اشتهر بالعقل الراجح والأخلاق الكريمة

(٦) من مرة ، شجاع شاعر خطيب (٧) فارس شاعر توفي عام ٢١ هـ

(٨) خطيب مؤثر وشاعر بليغ (٩) ١: ٢٣١ من البيان والتبيين

ومن خطبه تعزيتة لعمر بن هند ملك العرب في أخيه ، قال :

أيها الملك إن أهل هذه الدار سفر ، لا يحملون عقد الترحال إلا في غيرها ،
وقد أتاك ما ليس بمردود عنك ، وارتحل عنك ما ليس براجع إليك ، وأقام
معك من سيظهن عنك ويدعك . إن في الدنيا ثلاثة أيام : فأمس عظة وشاهد
عدل ، فجعلك بنفسه وأبقى لك وعليك حكمه ، واليوم غنيمة وصديق أتاك
ولم تأته ، طالت عليك غيبته ، وستمرع عنك رحلته ، وغدا لا تدري من أهله ،
وسأيتك إن وجدك . فما أحسن الشكر المنعم ، والتسليم للقادر . وقد مضت
لنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء الفروع بعد أصولها . واعلم أن أعظم من
المهنية سوء الخلف منها ، وخير من الخير معطيه ، وشر من الشر فاعله .

-- ٣ --

عمر بن معد يكرب الزبيدي (١)

١ - قحطاني يمني ، وفارس شجاع ، وخطيب مطبوع ، عاش في الجاهلية ،
وأسلم سنة تسع من الهجرة هو وقومه ، ثم ارتد بعد إسلامه بعد وفاة الرسول ،
ثم عاد من جديد إلى الإسلام عقيدة الحق والتوحيد والخير ، وأبلى في القادسية
بلايا عظيما وكان عمره فيها عشراً ومائة سنة ، وتوفي في أواخر خلافة عمر بن
الخطاب عام ٥٢١ هـ - ٦٤٣ . وفيه يقول أبو تمام :

إقدام عمرو ، في سماحة حاتم في حلم أخنف ، في ذكاء إياس

٢ - كان عمرو شجاعا فارسا وخطيباً شاعراً ؛ شعره صورة لشجاعته
وبطولته وفروسيته ؟ وحديث عن مواقفه وانتصاراته في غزواته ، وعن نفسه
واقترامها الأهوال ومغامراتها وقت الطعن والنضال ، ويعد في الطبقة الثانية
من الشعراء المخضرمين ، وخطابته تنم عن شخصيته واعتداده ببطولته ونفسه ،
فيها وضوح وقوة وتدفق ومنطق . مع إشراف بيان ، وسهولة عبارة ،

(١) راجع في ص ١٥٠ ذيل الأمل وما بعدها حديث عمرو بن معد يكرب مع امرأه

وقصر فقر ، وقلة سجع ، وكثرة حكمة ومثل :

٣ - قال عمرو أمام كسرى :

إنما المرء بأصغريه . قلبه ولسانه ، فبلاغ المنطق الدار ، وملاك النجعة
الارتياذ ، وعفو الراى خير من استكراه الفكرة ، وتوقيف الخبرة خير
من اعتساف الحيرة ، فاجتهد طاعتنا بلفظك ، واكتظم بادرتنا بحملك ،
والن لنا كنفك يلمن لك قيادنا .

وروى له صاحب الحماسة عدة قصائد :

١ - منها قصيدته : (١)

ولما رأيت الخيل زوراً كأنها جدول زرع أرسلت فاسبطرت
لجاشت إلى النفس أول مرة فردت على مكروها فاستقرت
ومن شعره قصيدته :

تمناني ليلقاني أبى وددت وأيما مى ودادى
أريد حياته ويريد أتملى عذيرك من خليلك من مراد
ومن شعره :

ليس الجمال بمثور فاعلم وإن رديت بردا
إن الجمال معادن ومناقب أورثن مجدا
كم من أخ لى صالح بواته يبدى لحدا
ما إن جزعت ولا هلمت ولا يرد بكأى رشدا
ذهب الذين أحبههم وبقيت مثل السيف فردا (٢)

(١) ص ٤٣ : ١ مختصر الحماسة ط ١٩٢٧ الطبعة الثالثة

(٢) ومن شعره أيضا قصيدته :

أمن ريحانة الداعى السميع يؤرقنى وأصحابى هجوع

- ٤ -

ومن خطباء العرب : حاجب بن زرارة التيمي ، وهو سيد من سادات تميم ، وفد على كسرى حين منح تميمًا من ريف العراق فاشتد بهم القحط فأعجب به وببلاغته . ومنحه ما أراد وتعهد له بحسن الجوار ورهنه قوسه على ذلك .

وهاني بن قبيصة الشيباني (١) ، ومرثد الخير الحيري ، والمأمون الحارثي ومن خطبائهم عامر بن نظرب العدواني : وهو أحد حكماء العرب المشهورين ، وخطيب بليغ وشاعر مجيد .
ويقول الجاحظ فيه : وهو من الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء (٢) ، وهو حكم العرب في الجاهلية (٣) .

وخطب إليه صعصعة بن معاوية ابتله فقال : يا صعصعة إنك أتيتني تشتري مني كبدي ، أبغيتك (٤) أو رددتك . النكاح خير من الأيمة (٥) .
والحسيب كف الحسيب ، والزوج الصالح أب بعد أب ، وقد أنكحتك خشية ألا أجد مثلك ، أفر من السر إلى العلانية ، أنصح ابنا وأودع ضعيفاً قويا . يامعشر عدوان أخرجت من بين أظهركم كريمتكم ، من غير رغبة عنكم ، ولكن من خط له شيء جاءه ، رب زارع لنفسه ، ما حصده غيره ، ولولا قسم الخطوط ما ترك الأول الآخر ما يعيش به .

- ٥ -

ومن خطبائهم قبيصة بن نعيم ، وكان من رجالات بني أسد ، وخطب أمام امرئ القيس بعد مقتل أبيه قال :

(١) راجع ١٢٩ ج ٢ الأغاني ١٢٠ ج ٢ منه ، ١٣٢ ج ٣ .

(٢) ٢٣٣ ج ١ البيان (٣) ٢٠ ج ٣ البيان

(٤) أعطاه بقيته (٥) العزوبة

إنك في المحل والقدر ، والمعرفة بتصرف الدهر ، وما تحدثه أيامه ، وتنتقل به أحواله ، بحيث لا تحتاج إلى تبصير واعظ ، ولا تذكرة مجرب ، ولك من سؤدد منسبك ، وشرف أعراقك ، وكرم أصلك في العرب ، محند يحتمل ما حمل عليه من إقالة العثرة ، والرجوع عن الهفوة ، وقد كان الذي كان من الخطب الجليل عمت رزقته نزارا واليمن ، ولم تخصص به كندة دوننا ، للشرف البارع الذي كان لحرر : التاج والعمدة فوق الجبين الكريم ، وإخاء الحمد وطيب الشيم ، ولو كان يفدى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كرامتنا على مثله ببذل ذلك ولقد يناله منه ، ولكن مضي به سبيل لا ترجع أولاه على أخراه ، ولا يلحق أقصاه أدناه ، فأحد الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال ثلاث : إما أن اخترت من بنى أسد أشرفها بيتا ، وأعلاها في بناء المكرمات صونا ، فقد ناله اليك بلسعة ، تذهب مع شفرات حسامك بياق قصرته ، أو فداء بما يروح على بنى أسد من نعمها ، فهي ألوف تجاوز الحسبة ، وإما أن توادعنا حتى تضع الحوامل ، ففسدل الأزر ، ونعقد الخمر فوق الرايات .

فبكي امرؤ القيس وقال : قد علمت العرب أن لا كفء لحجير في دم ، وأنى إن اعتاض به ناقة أو جملا فأكتسب بذلك سبة الأبد وقت المضد ، وأما النظرة فقد أوجبها الأجنة في بطون أمهاتها وإن أكون لعلها سبيبا ، وسنمرفون طلائع كندة من بعد ، تحمل في القلوب حنفا ، وفوق الأسنة علما :

إذا جالت الخيل في مآزق تصافح فيه المنايا النفوسا

-- ٦ --

ومن خطباء العرب : كعب بن لؤي (١) .

(١) الروض الأنف - صبح الاعشى ٢١١ ج ١ - ٢٢٦ ج ١ البيان والتبيين للجاحظ . قال الجاحظ : وكان يخطب العرب عامة ويحضر كئانة خاصة على البر

وأوى بن غالب (١) ، وهاشم بن عبد مناف (٢) ، وأبو طالب (٣) .
وعمر بن كلثوم (٤) ، وضمرة بن ضمرة (٥) ، وعمر بن عمار الطائي (٦) ،
ويقول الجاحظ في البيان والتبيين : ومن خطباء العرب في الجاهلية :
خويلد بن عمرو خطيب يوم الفجار (٧) . . ومن الخطباء الهلغاء والحكام
الرؤساء : ربيعة بن حذار وليد وهرم بن قطبة (٨) . . ومن القدماء في الحكمة
والخطابة والرياسة : عبيد بن شربة الجرهمي وأسقف نجران وأكيدر صاحب
دومة الجندل ، وجذيمة الأبرش (٩) .

-- ٧ --

ومن خطبائهم من نخصهم بالذكر : هاشم بن عبد مناف ، وهو سيد
قريش وإمامها ، وداعيا إلى الخير والشرف والوحدة ، وحامي البيت والذائد
عنه . خطب في قريش وخزاعة حين تنافرا إليه فقال :
يا بني قهص ، أنتم كفصتي شجرة ، أيهما كسر أو حش صاحبها ، والسيف
لا يصان إلا بقمده ، وراى العشيرة يهديه سهمه .

قلما مات أكبروا موته فلم تزل كناية تؤرخ به ، وانه إلى عام الفيل (٢٢٦) ج ١ البيان

(١) الروض الأنف و ٢٢٣ ج ١ البيان والتبيين :

(٢) د د و ٤٥٨ ج ٢ ابن أبي الحديد و بلوغ الأرب ٢٢١ ج ١

(٣) د د و ٢١٢ ج ١ صبح الأعشى و ج ٣ من ابن أبي الحديد

(٤) ١٠٤٩ البيان والتبيين

(٥) ٢٥ ج ١ : الأغانى و ١٦٨ ج ١ البيان و ١٨٦ ج ١ الميداني و ١٦٨

و ١٢٨ و ١١٨ ج ٢ .

(٦) ١٥٩ و ٢٢٥ ج ١ البيان ، ٢٣٦ المؤلف ويقول فيه الجاحظ : كان خطيب

مندرج كلها وحمله الثمان على منادته ثم قتله (٢٢٥ ج ١ البيان)

(٧) ٢٢٦ ج ١ : البيان (٨) ٢٣٣ ج ١ : المرجع (٩) ٢٢٢ - ١ : المرجع

يا بني قصي ، أنتم كفصني شجرة ، أيهما كسر أو حش صاحبه ، والسيف
لا يصان إلا بعمده ، وراى العشيرة يهديه سهمه

أيها الناس : الحلم شرف . والصبر ظفر ، والمعروف كنز ، والجود سؤدد
والجهل سقمه ، والآيام دول ، والدهر غدير ، والمرء منسوب إلى فعله ،
وما خوذ بعمله ؛ فاصنعوا المعروف ، تكسبوا الحمد ، ودعوا الفضول ،
وتجانبوا السفهاء ، وأكرموا الجليس بعمر ناديتكم ، وحاموا عن الخليط
يرغب في جواركم ، وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم ، وعليكم بمكارم الأخلاق
فإنها رفعة ، وإياكم والأخلاق الدنية فإنها تضع الشرف وتهدم المجد .

ولعمري إن هذه لمنحة نبوية ، وحكمة من شريف ملهم ، وسيد مطاع .

-- ٨ --

ومن خطبائهم عبد المطلب بن هاشم ، خطب يهنى سيف بن ذى يزن
بظفره على الحيشة (١) ، فقال :

إن الله أحلك أيها الملك محلاً رفيعاً ، شامخاً باذخاً ، وأنتك نبتا طابت
أرومته ، وعزت جرثومته (٢) ، وثبت أصله ، وبسق (٣) فرعاه ، في أكرم
موطن ، وأطيب معدن ، وأنت - أبيت اللعن - ملك العرب ، وريمها الذى
تخصب به ، وأنت أيها الملك رأس العرب الذى إليه تنقاد ، وعمودها الذى
عليه العباد ، ومعقلها الذى تلجأ إليه العباد . سلفك خير سلف ، وأنت لنا
منهم خير خلف ، فلن يخمل ذكر من أنت سلفه ؛ وإن يهلك من أنت
خلفه ، ونحن أيها الملك أهل حرم الله ، وسنة بيته ، أشخصنا إليك
الذى أبهجنا بكشف الكرب الذى فدحنا ، فنحن وفد النهضة لا وفد
المرزقة (٤) .

(١) راجع أديان العرب في الجاهلية (٢) الأصل

(٣) علا (٤) الرزء والمصيبة (١٢)

د- المحاورات - وصور لها:

١- مفاخرة طريف بن العاصي والحارث بن ذبيان عند بعض
مقاول حمير (١)

قال الملك للحارث : يا حارث ألا تخبرني بالسبب الذي أخرجكم عن
قومكم حتى لحقتم بالنمر بن عثمان ؟

قال الحارث : خرج هجينان منا يرعيان غنما لهما ، فتشاولا (٢) بسيفيهما
فأصاب صاحبهم عقب صاحبتنا فمات ، فسألونا أخذ دية صاحبتنا : دية
الهجين (٣) ، وهي نصف دية الصريح (٤) ، فأبى قومي إلا دية الصريح وأبو
الإلاديه الهجين ، فتفاقم الأمر بين الحيين فتظاهروا علينا حسداً ، فأجمع ذو
الحجنا منا أن نلحق بأمنع بطن من الأزدي ، فلاحقنا بالنمر بن عثمان ، فوالله
ماقت في أعضادنا ، فنأينا عنهم ولقد أثارنا (٥) صاحبتنا وهم راغمون .

فوب طريف من مجلسه ، فجلس بإزاء الحارث فقال : والله ، ما سمعت
قولاً أبعد من صواب ، ولا أقرب من خطل ، من قول هذا . والله أيها
الملك ماقتلوا بهجينهم بذجا (٦) ، ولا رقوابه درجاً ، ولقد أخرجهم الخوف
عن أصلهم ، وأجلهم عن محلهم .

فقال الحارث : أسمع يا طريف ؟ إنى والله ما إخالك كافاً غرب لسانك
ولا منها شرة نزواتك ، حتى أسطو بك سطوة تكف طماحك
وترد جمالك .

فقال طريف : مهلاً يا حارث ، لا تعرض لنزب (٧) سناني ، وغرب
سبابي .

(١) ٧٢ ج ١ الأماي (٢) تضاربا (٣) هو الذي أبوه عربي وأمه غير عربي
(٤) الخاص (٥) أثارنا : أخذنا بثأره (٦) الخروف
(٧) النزب : الحدة

فقال الحارث : إياي تخاطب بمثل هذا القول . فقال طريف : أما والأصنام المحجوبة ، والأنصاب المنصوبة ، لنن لم تقف عند قدرك ، لأدعن حزنك سهلاً ، وصفاك وحلاً .

فقال الحارث : أما والله لو رمت ذلك لمرغت بالحضيض (١) وأغصصت بالجريض ، وضائق عليك الرحاب ، وتقطعت بك الأسباب .

فقال طريف : دون ما ناجت بك به نفسك مقارعة أبطال ، وحياض أهوال .

فقال الملك : أيها عنكما :

٢ - وراجع حديث النسوة اللواتي أشرن على بنت الملك بالتزوج ، ووعفهن لها بحاسن الزوج (٢) وقد سبق ذكره وراجع حديث أوس بن حارثة وضميخته لأبنته مالك (٣) ، وحديث بعض مقاول حمير مع بلتيه وما دار بينهما وبينهما من الحوار ، حين كبرت سنه ، وهو حديث طريف تمتع (٤) . وما وقع بين عمرو بن بركة الهمداني وحرث المرادي من الأغار وما قال عمرو في ذلك (٥) ، واجتماع عامر بن الظرب وحممة بن رافع عند ملك من ملوك حمير ، وتماورهما أمامه (٦) ، وحديث ابنة الخس مع أبيها (٧) ، وما وقع لحاتم مع زوجته ماوية (٨)

٣ - وكان قس يقد على قيصر ويؤوره فقال له قيصر يوماً :

ما أفضل العقل ؟

قال : معرفة المرء بنفسه .

قال : فما أفضل العلم ؟

(١) هو القرار إذا اتصل بالجبل (٢) ٨٠ : ١ الآمال
(٣) ١٠٢ : ١ الآمال (٤) ١٥٢ : ١ الآمال (٥) ١٢٦ : ٢ الآمال
(٦) ٢٧٦ : ٢ الآمال (٧) ١٠٧ : ١ الآمال (٨) ١٥٢ : ١ الآمال

قال : وقوف المرء عند علمه

قال : فما أفضل المروءة ؟

قال : استبقاء الرجل ماء وجهه

قال : فما أفضل المال ؟

قال : ما قضى به الحقوق .

٤ - ومن أمثلة المفارقة ما وقع من بعض سادات العرب أمام كسرى وقد قال لهم : ليتكلم كل رجل منكم بما أثر قومه ، وليصدق .

فأخذ : حذيفة بن بدر والأشعث بن قيس ، وبسطام بن قيس ، وحاجب ابن زرارة التميمي ، وقيس بن عاصم ، يعدد كل منهم ما أثر قومه ومفاخر أحسابه
٥ - منافرة خالد والقعقاع التميميين :

نافر خالد القعقاع . إلى ربيعة بن حذار الأسدي فقال : هاتيا مكارمكما . فقال خالد : أعطيت من سأل ، وأطعمت من أكل ، ونصبت قدوري حين وضعت السمك ذيوها ، وطعنت يوم شوا حظ (١) فارسا فجعلت نخذه بفارسه . فقال : يا قعقاع ما عندك ؟

فأخرج قوس حاجب ، وقال : هذه قوس عمى رهنها عن العرب ، وهاتان فعلا جدى قسم فيها أربعين مربعا ، وهذه زريبة (٢) زرارة لم ير باره خائف إلا أمن ، ولم يمسك بطنب (٣) فسطاسه أسير إلا فك .

فنادى ربيعة بن حذار : ان السماحة واللاه (٤) والمرباع والشرف الأسبخ للقعقاع ، ألا إني نفرت من كان أبوه معبدا وعمه حاجبا ، وجده زرارة (٥)

٦ - ومن أمثلة المنافرات منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين . وهي أشهر المنافرات في الجاهلية .

(١) من أيام العرب وكان لبني محارب على بنى عامر

(٢) البساط (٣) جبل طويل يشد به السرداق

(٤) جمع لهوة وهي : العطية (٥) هو القعقاع بن معبد بن زرارة التميمي

قيل لما (١) أسن أبو برا عامر بن مالك ، تنازع في الرياسة عامر بن (٢) الطفيل ، وعلقمة (٣) بن علاثة بن عوف بن الأحوص . فقال علقمة : كانت لجدى الأحوص ، وإنما صارت لعمك بسببه ، وقد قعد عمك عنها ، وأنا أسترجعها ، فأنا أولى بها منك ؛ فشري (٤) الشر بينهما ، وسارا إلى المتافرة ، فقال علقمة : إن شئت نافرتك ، فقال عامر : قد شئت ، والله إنى لأكرمك منك حسباً ، وأثبت منك نسباً ، وأطول منك قصباً (٥) .

فقال علقمة : والله لأناخير منك ليلا ونهاراً ، فقال عامر : والله لأنا أنحر منك للقاح (٦) ، وخير منك في الصباح ، وأطعم منك في السنة الشياح (٧) .
فقال علقمة : أناخير منك أثراً ، وأحد منك بصراً ، وأعز منك نفراً ، وأشرف منك ذكراً .

فقال عامر : ليس لبني الأحوص فضل على بني مالك في العدد ، وبصري ناقص ، وبصرك صحيح ، ولكنى أنا فرك ؛ إنى أسمى منك سمّة (٨) ، وأطول منك قّة ، وأحسن منك لمة (٩) وأجعد منك جمة (١٠) . وأسرع منك رحمة ، وأبعد منك همة .

فقال علقمة : أنت رجل جسيم ، وأنا رجل قضييف (١١) ، وأنت جميل ،

(١) راجع هذه القصة الادبية في كتاب الاغانى ص ٥٠ ج ١٥ ، مهذب الاغانى

ص ٩٨ ج ٢ ، نهاية الارب ص ٢٧٢ ج ٣ ، بلوغ الارب ص ٢٨٦ ج ١

(٢) من بنى عامر بن صعصعة : فارس قومه ، وأحد فتاك العرب وشعرائهم ولد ونشأ بنجد ، كريماً شجاعاً وفد على رسول الله يريد الغدر به ولم يسلم ، فأت في طريقه قبل أن يبلغ قومه سنة ١١ هـ (٣) علقمة بن علاثة : كان في الجاهلية من أشرف قومه ، أسلم ، وارتد في أيام أبي بكر فأنصرف إلى الشام ، ثم عاد إلى الإسلام وتوفي نحو سنة ٢٠ هـ (٤) شري : استطار (٥) يريد طول القامة

(٦) اللقاح : الإبل (٧) الشياح : القحط (٨) السمّة : القرابة

(٩) الامة : الشعر المجاوز لجمّة الاذن (١٠) الجمة : مجتمع شعر الرأس

(١١) قضييف : نحيف

وأنا قبيح ، ولكنى أنا فرك بآبائى وأعمامى .

فقال عامر : آباؤك أعمامى ، ولم أكن لأنا فرك بهم ، لكنى أنا فرك ؛ أنا خير منك عقبا ، وأطعم منك جدباً .

فقال علقمة : قد علمت أن لك عقبا ، وقد أطعمت طيبا ، ولكنى أنا فرك ، إني خير منك ، وأولى بالخيرات منك .

فخرجت أم عامر - وكانت تسمع كلامهما ، فقالت : يا عامر نافرأه أيكما أولى بالخيرات .

قال عامر : والله إني لأركب منك فى الحماة ، وأقتل منك للكمة (١) ، وخير منك للبولى والمولاة .

فقال له علقمة : والله إني لبر ، وإنك لفاجر ، وإني لولود وإنك عاقر (٢) ، وإني لعف ، وإنك لعاهر ، وإني لوفى ، وإنك لغادر ، فقيم تفاخرنى يا عامر ؟ فقال عامر : والله إني لأنزل منك للقفرة (٣) ، وأنحر منك للبكرة (٤) ، وأطعم منك للهبرة (٥) ، وأطعم منك للثفرة .

فقال علقمة : والله إنك لكليل البصر ، نكد النظر .

فقال بنو خالد بن جعفر - وكانوا يدا مع بنى الأحوص على بنى مالك بن جعفر : لن تطيق عامراً ، ولكن قل له : أنا فرك بخيرنا وأقربنا إلى الخيرات . فقال له علقمة هذا القول ؛ فقال عامر : غير وتيس (٦) ، وتيس وعز ، نعم على مائة من الإبل إلى مائة من الإبل يعطاها الحكم ، أيتنا نفر عليه صاحبه

(١) الكمة : جمع كى ، وهو الشجاع (٢) رجل عاقر : لم يولد له ولد

(٣) القفرة : الخلاء من الأرض (٤) البكرة : الفتية من الإبل

(٥) الهبرة : القطعة المجتمة من اللحم

(٦) العير : الحمار ، وغلب على الوحش ، وهو أقوى من التيس ، أى مثلى وإياك

كالعير والتيس ، وأعلى الأقل كالتيس والعنز إذ التيس أقوى على النطاح من العنز .

أخرجها ؛ ففعلوا ذلك ، ووضعوا بها رهناً من أبنائهم على يدى رجل يقال له خزيمية بن عمرو ؛ فسمى الغنمين .

وخرج علقمة ومن معه من بنى خالد ، وخرج عامر فيمن معه من بنى مالك ، وجعلا منافرتهم إلى أبى سفيان بن حرب بن أمية ، فلم يقل بينهما شيئاً ، وكره ذلك لحالهما ، وحال عشيرتهما ، وقال : أنتما كركبتى البعير الأدرم (١) . قالوا : فأينا اليمين ؟ قال : كلاكما يمين ، وأبى أن يقضى بينهما . فانطلقا إلى أبى جهل بن هشام ؛ فأبى أن يحكم بينهما ، وقد كانت العرب تحاكم إلى قريش ؛ فأتيا عيينة بن حصن بن حذيفة ؛ فأبى أن يقول بينهما شيئاً ؛ فأتيا غيلان بن سليبة الثقفى ، فردهما إلى حرملة بن الأشعر المارى ، فأبى أن يقول شيئاً . ثم تداعيا إلى هرم بن قطبة ليحكم بينهما ، فرحلا إليه ، ومع كل واحد منهما ثلاثمائة من الإبل : مائة يطعمها من تبعه ، ومائة يعطيها للحاكم ، ومائة تعقر إذا حكم ؛ فأبى هرم بن قطبة أن يحكم بينهما مخافة الشر ، وأبى أن يرتحلا ؛ فقال هرم : لعمري لأحكم بينكما ، ثم لأفصلن ، فأعطيانى موثقاً أطعمن إليه أن ترضيا بما أقول ، وتسليماً لما قضيت بينكما ، وأمرهما بالانصراف ووعدهما يوماً ، فانصرفا حتى إذا بلغ الأجل خرجا إليه ، وأقام القوم عنده أياماً .

فخلا هرم بعلقمة ، وقال له : أترجو أن ينفرك رجل من العرب على عامر فارس مضرب ؛ أئدى الناس كفا ، وأشجعهم لقاء ، لسان ربيع عامر أذكر فى العرب من الأحوص ، وعنه ملاعب الأسته .

فقال له علقمة : أنشدك الله والرحم أن لا تنفر على عامرا ، اجز ناصيتى ، واحتكم فى مالى ، وإن كنت لابد أن تفعل فسو بينى وبينه ، فقال : انصرف ، فسوف أرى رأيي ؛ فخرج وهو لا يشك أنه سيفضل عليه عامرا . ثم خلا بعامر فقال له : أعلى علقمة تفخر ؟ أنت تناوئها أعلى ابن

(١) درم العظم : وراه اللحم حتى لم يبين له حجم .

عوف بن الأحوص ! أعف بنى عامر ، وأيمنهم نقيبة وأحلبهم وأسودهم ، وأنت أعور عافر مشتوم ! أما كان لك رأى يزكك عن هذا ! أكنت تظن أن أحدا من العرب ينفرك عليه ؟ فقال عامر : نشدتك الله والرحم أن لا تفضل على علقمة فوالله إن فعلت لا أُلح بعدها أبدا ، هذه ناصيتي فأجزها ، واحتكم فى مالى ، فإن كنت لا بد فاعلا فسو بينى وبينه . قال : انصرف فسوف أرى رأىي ؛ فخرج عامر ، وهو لا يشك أنه ينفره عليه .

ثم إن هرما أرسل إلى بليه وبنى أبيه : إني قاتل غدا بين هذين الرجلين مقالة ؛ فإذا فعلت فليطرد بعضكم عشر جزائر (١) ، فلينحرها عن علقمة . ويطارد بعضكم عشر جزائر ينحرها عن عامر ، وفرقوا بين الناس لا تكون لهم جماعة ، فلما اجتمعوا وحضر الناس للقضاء قام هرم ، وقال : يا بنى جعفر قد تمأكتما عندي . وأنتما كركبتى البعير الأدرم ، تقعان إلى الأرض معا ، وليس فيكما أحد إلا وفيه ماليس فى صاحبه ، وكلاكما سيد كريم .

وعمد بنو هرم وبنو أخيه إلى تلك الجزر فنحروها حيث أمرهم هرم ، وفرقوا الناس ، ولم يفضل هرم أحدا منهما على صاحبه ، وكره أن يفعل - وهما ابنا عم - فيجلب بذلك عداوة ، ويوقع بين الحيين شرا .

فارتحلوا عن هرم لما أعيام نحو عكاظ ، فلقبهم الأعشى منجدرا من اليمن - وكان لما أرادها قال لعلقمة : اعقدلى جبلا ، فقال : أعقد لك من بنى عامر ! قال : لا يغنى عنى . قال : فنقيس ! قال : لا . قال : فما أنا برائدك ، فأتى عامر بن الطفيل فأجاره من أهل السماء والأرض ؛ فقال له : كيف تجير من أهل السماء ؟ قال : إن مات وديته - فقال الأعشى لعامر : أظهر أنكما حكمتما ، ففعل ؛ فقام الأعشى ، ورفع عقيرته (٢) فى الناس فقال :

(١) جزائر : جمع جزور .

(٢) عقيرته : صوته .

حكمتوه ففضى بينكم أبلج مثل اقمر الزاهر
لا يأخذ الرشوة في حكمه ولا يبالي خسر الحاسر
علمكم لا ، لست إلى عامر النفاقض الأوتار والواتر
واللابس الخيل بخيل إذا ثار عجاج السكبة (١) الثائر
إن تسد الخوص فلم تعدم وعامر ساد بني عامر
ساد وألني رهطه سادة وكابرا سادوك عن كابر

وشد القوم في أعراض الإبل المائة ففقروها ، وقالوا : نفر عامر
وذهبت بها الغوغاء ، وجهد علقمة أن يردها فلم يقدر على ذلك ؛ فجعل
يتهدد الأعشى فقال :

أتاني وعيد الخوص من آل عامر فيا عبد عمرو لو نيت الأحواصا
فما ذنبنا إن جاش بحر ابن عمكم وبحرك ساج (٢) لا يوارى الدعامصا (٣)
كلا أبو يكم كان فرعاً دعامة ولكنهم زادوا وأصبحت ناقصا
تديتوني في المشتى ملأ بطونكم وجاراتكم غرث (٤) بيتن خمائصا (٥)
يراقبن من جوع خلال مخافة نجوم العشاء العاتمات القوامصا (٦)
رمى بك في أخراهم تركك الندى وفضل أقواما عليك مراهمصا (٧)
فعض حديد الأرض إن كنت ساخطا بفيك وأحجار الكلاب الرواهمصا (٨)

(١) السكبة : الدفعة في القتال والحيلة في الحرب

(٢) سجي : سكن (٣) الدعموص : دوية أو دودة سوداء تكون في القدران

(٤) غرث : جاع (٥) الخائص : جمع خيصة ، ضامرة البطن أي

من شدة الجوع (٦) الفميصاء : إحدى الشعرين ، قال في القاموس : من
أحاديثهم : إن الشعرى العبور قطعت المجرة فسميت عبوراً وبكت الأخرى على
أثرها حتى غمضت ويقال لها الفموص أيضا (٧) راهص غريمه : راصده ،
قال في القاموس : والمراهص لم يسمع بواحد لها (٨) الكلاب : موضع ،

والرواهص من الحجارة : التي تنكب الدواب ، والصخور الثابتة

فبكي علقمة لما بلغه هذا الشعر وكان بكاؤه زيادة عليه في العار (١).
هذا والمحاورة : هي التماور والتراجع في الكلام والحديث . وهي من
ضرورات المجتمع والحياة .

والعرب كثير المحاورة لكثرة خصوماتهم ومفاخراتهم وتنازعهم على
الشرف وسواه .

وتشمل المحاورات : المنافسة والمفاخرة ، وسواهما من المحاورة العامة .

(أ) فالمناقرة : المحاكمة في المفاخرة ، وأصلها من قولهم : أينما أعز نفرا :
فهو التحاكم إلى الأشراف من حكام العرب ، ليفصلوا بينهما ، ويقضوا
بالشرف لأحدهما .

(ب) والمفاخرة : مصدر فخر ، وهي تفاخر القوم بعضهم على بعض ، وكانوا
يفخرون بالحسب والشرف والأخلاق الكريمة والعز والثروة
والكثرة والعدد .

(ج) والمحاورة العامة في شئون الحياة عما لا يتصل بمفاخرة أو منافرة وهي
كثيرة ، كثرة مطالب الحياة وشئوننا ودواعي اتصال الإنسان
بسواه من المجتمع .

هـ - سجع الكهان وصور منه :

١ - حديث زبراء الكاهنة مع بني رثام :

كان ثلاثة بطون من قضاة متجاورين بين الشحر وحضرموت وهم :
بنو ناعب ، وبنو داهن ، وبنو رثام ، وكان بنو ناعب وبنو داهن متظاهرين

(١) راجع حديث هرم بن قطبة مع عمر بن الخطاب حول هذه المنافسة في
البيان والتبيين (١ : ١٦٨)

على بنى رثام ، وكانت بنو رثام أقلهم عدداً وأشجعهم لقاء ، وكان لهم مجوز تسمى خويلة ، كان يدخل عليها أربعون رجلاً كلهم لها محرم : بنو إخوة ، وبنو أخوات ، وكانت خويلة عقيماً ، وكان لها أمة من مولدات العرب تسمى زبراء ، وكانت زبراء كاهنة .

فقال زبراء لخويلة : انطلقى بنا إلى قومك أنذرهم ، فأقبلت خويلة تتوكأ على زبراء ، فقاموا لإجلالها .

فقال : يا ثمر الأكباد ، وشجاء الحساد ، هذه زبراء ، تخبركم عن أنباء ، قبل انحسار الظلماء ، بالزوبد (١) الشنماء ؛ فاسمعوا ما تقول ، قالوا : وما تقولين يا زبراء ؟ قالت :

واللوح الخافق ، والليل الفاسق ، والصباح الشارق ، والنجم الطارق ، إن شجر الوادي ليأدو (٢) ختلاً ، ويحرق أنياباً عسلاً (٣) ، وإن صخر الطود لينذر ثكلاً ، لا يجدون عنه معلاً (٤) .

وانصرف عنهم ، فانصرف منهم أربعون رجلاً ، وبقي ثلاثون ، فرقدوا في مشربهم ، وطرقتهم بنو راهن وبنو ناعب فقتلهم أجمعين . وأقبلت خويلة عند الصباح ، فوقفت على مصارعهم ، ثم عمدت إلى خناصرهم فقطعتها ، وانتظمت منها قلادة وألقتها في عنقها (٥) .

٢ - وراجع حديث مصاد بن مذعور وخروجه في طلب الذود ، وما أخبره به الجوارى الأربع الطوارق بالخصا (٦) .

وحديث الرواد الذين أرسلتهم مذحج ووصفهم الأرض لقومهم بعد رجوعهم (٧) .

(١) الداهية والامر العظيم (٢) أى يختل

(٣) حرق أنيابه : حك بعضها ببعض . والعسل : المعوجة

(٤) أى منجى (٥) راجع ١٢٦ ج ١ الامالى

(٦) ١٤٢ ج ١ الامالى (٧) ١٨٠ ج ١ الامالى

واقرا حديث سواد بن قارب وكهاتيه (١) ، وحديث ابنة الخس
مع أبيها (٢)

وفود عبد المسيح - رسول كسرى - على سطيج الكاهن (٣) .

٣ - وكانت هند بنت عتبة زوجا للفاكه بن المغيرة المخزومي ، وكانت
داره ناديا لقومه فاتهمها الفاكه برجل واستلمحها بأبيها ، فخرج بها والدها
إلى بعض الكهان يستخبره عن أمرها ، وأخرج معها نسوة من قومها ، وأقبل
معه الفاكه في رجال من قومه . فلما شارفوا ديار الكاهن رأى عتبة من
ابنته انكسارا وتغيرا ، فقال لها : يا بنية لا تكتميني من أمرك شيئا ، فإن
كان مابك لريبة نرجع ولا بأس عليك ، فقالت هند : لا والله يا أبت ،
ما ذاك لريبة ولا فاحشة ، ولكنكم تقدمون على بشر يخطئ ويصيب ، وأخشى
أن يسمي بسمة ، تبقى على وصمة عار آخر الدهر ، قال : سأبلوه لك ، ثم
خبأ خبيثا ، وأقبلوا حتى أتوا الكاهن ، فأخبرهم بخبيثهم ، ثم أقبل على هند
فقال : انهن في غير رسحاء ولا زانية . وستلدين ملكا اسمه معاوية .

ماهي الكهانة؟

والكهانة قد سبق الحديث عنها وهي تعرف الغيب من الأمور
المستقبلية أو الماضية .

وكان في العرب كهان يتلبأون بالحوادث ، وللعرب اعتقاد كبير فيهم ،
فهم ملاذ المريض ، وطماينة الحائر ، والحكم في الخصومة .

ومن أشهر هؤلاء الكهان : شق وسطيج الذئبي (٤) ، وطريقة الخير امرأة
عمرو بن عامر الحيرية وكانت باليمن وهي التي تلبأت بخراب سد مأرب ،

(١) ٢٨٩ ج ٢ الأمالى (٢) ١٠٧ ذيل الأمالى (٣) ١٧٨ ج ١ العقد ط ١٩٢٨

(٤) كانوا متعاصرين في زمن كسرى أنو شروان وولدا معا

ومنهم: فاطمة الخنعمية وكانت بمكة، ولها قصة مع والد الرسول صلوات الله عليه وسلم عبد الله بن عبد المطلب قبل أن يتزوج بأمنة بنت وهب، ومنهم زبراء، وسواد بن قارب وغير هؤلاء كثيرون.

ويتحدث الرواة بأعاجيب كثيرة لأرائك السكمان وبمعجزاتهم في الإخبار بالغيب ومعرفة الحوادث.

وكانت السكمانية منتشرة في الجاهلية قبل البعثة. وتدور غالباً حول: التبشير بذبي يبعث، وتفسير الرؤى، ومعرفة ما خفي عنهم من الحوادث. وهي نوع من الفراسة والإلهام وصدق الحدس وصفاء الروح والقدرة على التحليق في جو سماوي مجرد عن حدود المادة، وكثيراً ما تصدق النبوءات في مثل هذه الأحوال.

ويقول الجاحظ في البيان والتبيين:

(١) كان كهان العرب يتحاكم لإيهم أكثر أهل الجاهلية، وكانوا يدعون السكمانية وأن مع كل واحد منهم رئيساً من الجن، مثل حازي جهينة، وشقي، وسطيح، وتزى سلبة. وأشباههم؛ وكانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع. وكان ضمرة بن ضمرة وهرم بن قطبة والآخرع بن حابس ونفيل بن عبد العزى يحكمون وينفرون بالأسجاع وكذلك ربيعة بن حذار (١)

(ب) ومن أهل الدماء والنكرام ومن أهل اللسن واللقن، والكلام الصحيح، والأمثال السائرة. والمخارج العجيبة: «هند بنت الحس»، وهي الزرقاء. «وخمة بنت حابس». وهما داهيتا نساء العرب كما يقول أبو عمرو ابن العلاء (٢). ويذكر حوارا لابنة الحس مع أبيها (٣)

(ج) ويذكر أسماء السكمان والحكام والخطباء والعلماء من قحطان (٤)

(١) ١٩٥ ج١ البيان والتبيين: (٢) ٢٠٥ ج١ المرجع

(٣) ٢١٢ ج١ المرجع (٤) ٢٣٠ ج١ المرجع

ومنهـم - كما يقول - فى الجاهلية . عبید بن شربة ، وشق بن الصعب ،
وربيع بن ربيعة السطیح الذئبى ، والمأمور الحارثى ، والديان الحارثى الشريـفان
الـكاهنان (١) .

صور من القصص الجاهلى

إشار ابن مامة الإيادى (٢) :

خرج كعب (٣) بن مامة الإيادى فى قنـسل ، معهم رجل من بنى النمر
ابن قاسط ، وكان ذلك فى حر الصيف ؛ فـضـلوا وشحـ مأوهم ، فكانوا
يتـصافنون (٤) الماء - وذلك أن يطرح فى القعب (٥) حصاة ، ثم يهب فيه
من الماء بقدر ما يـغمر الحصاة ؛ فيشرب كل واحد منهم قدر
ما يشرب الآخر .

ولما نزلوا للشرب ، ودار القعب بينهم ، حتى انتهى إلى كعب ، رأى الرجل
النمرى يـحمد النظر إليه ؛ فأثره بمائه على نفسه . وقال للساقى : اسق أخاك النمرى ،
فشرب النمرى فعـيب كعب من الماء ذلك اليوم !

ثم نزلوا من القـد منزلهم الآخر ، فتصافنوا بقية مائهم ؛ فنظر إليه كـنظـره
أمس ، وقال كعب كقوله أمس ، وارتحل أقوم ، وقالوا : يا كعب ؛ ارتحل
فلم يكن له قوة للـنـوض ، وكانوا قد قربوا من الماء ، فقالوا له . رد يا كعب
لأنك وارد ، فـعـجز عن الجواب ، ولما أيسوا منه خيموا عليه بثوب يمنعه من
السبح أن يأكله ، وتركوه مكانه ؛ فمات ونجا رفيقه !

(١) ٢٣١ ج ١ المرجع (٢) بلوغ الأرب ص ٨١ ج ١ ، المحاسن والمساوىء
٢٠٥ طبعة ليبـزج ، الأمثال ص ١٦٧ ج ١ (٣) هو كعب بن مامة بن هـر بن
ثعلبة الإيادى ، الذى يضرب المثل بـجوده ، وكان أبوه ملك إياد
(٤) تصافنوا الماء : اقتسموه بالـحصص (٥) القعب : القـدح يروى الرجل

وفاء السموأل :

لما أراد امرؤ القيس المضى إلى قيصر ملك الروم ، أودع عند السموأل (١) دروعا وسلاحا وأمتعة ، تساوى جملة كثيرة ؛ فلما مات امرؤ القيس ، أرسل ملك كندة يطلب الدروع والأسلحة المودعة عند السموأل ؛ فقال السموأل : لا أدفعها إلا إلى مستحقها ، وأبى أن يدفع اليه منها شيئا ، فعادوه ، فأبى ، وقال : لا أعذر بدمتي ، ولا أخون أمانتي ، ولا أترك الوفاء والواجب على .

فقصده ذلك الملك من كندة بمسكركه ، فدخل السموأل في حصنه (٢) ، وامتنع به ، فحاصره ذلك الملك . وكان ولد السموأل خارج الحصن ؛ فظفر به الملك ، وأخذه أسيرا ، ثم طاف حول الحصن ، وصاح بالسموأل ، فأشرف عليه من أعلى الحصن ؛ فلما رآه قال له : إن ولدك قد أمرته ، وهاهو ذا معي ، فإن سلمت إلى الدروع والسلاح ، رحلت عنك ، وسلمت إليك ولدك ؛ وإن امتنعت من ذلك ذبحت ولدك وأنت تنظر ! فاختار أيهما شئت .

فقال له السموأل : ما كنت لأخفر ذمامي ، وأبطل وفائي ؛ فاصنع ما شئت !

(١) راجع المستطرف ص ٢٠١ ج ١ ، انفر ص ١٩ ، بلوغ الأرب ص ١٣٦ ج ١ ، والسموأل : هو السموأل بن غريص بن عادياء شاعر جاهلي حكيم أشهر شعره لاميته التي مطلعها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
ويضرب المثل بوفائه . توفي نحو سنة ٦٥ ق . هـ

(٢) هذا الحصن يسمى الأبلق الفرد ، وقد بناء أبوه يتما وفيه يقول السموأل :

لنا جبل يحمله من نجيره منيع يرد الطرف وهو كليل
هو الأبلق الفرد الذي شاع ذكره يعز على من رامه ويطول
رسا أصله تحت الثرى وسما به إلى النجم فرع لا ينال طويل

فذهب ولده ، وهو ينظر . ثم لما عجز عن الحصن رجع خائباً ، واحتسب السهم والذبح ولده ، وصبر محافظة على وفاته ؛ فلما جاء الموسم ، وحضر ورثة امرئ القيس ، سلم اليهم الدروع والسلاح ، ورأى حفظ ذمائه ، ورعاية وفاته أحب اليه من حياة ولده وبقائه ؛ وقال في ذلك :

وفيت بأدراع الكندي إني إذا ما خان أقوام وفيت

لاحر بوادي عوف (١) :

لما مات ليث بن مالك أخذت بنو عيس فرسه وسلبه (٢) ، ثم مالوا إلى خبياته فأخذوا أهله ، وسلبوا امرأته خماعة بنت عوف بن محم ، وكان الذي أصابها عمرو بن قارب وذؤاب بن أسامة ؛ نسألهما مروان (٣) القرظ بن زباع من أنت ؟ فقالت : أأخماعة بنت عوف بن محم ، فانتزعها من عمرو وذؤاب ، لأنه كان رئيس القوم ، وقال لها : غطى وجهك ، والله لا ينظر اليه عربي حتى أردك إلى أبيك ، وضمها إلى أهله ؛ حتى إذا دخل الشهر الحرام أحسن كسوتها وأخدمها وأكرمها وحملها إلى عكاظ .

فلما انتهى بها إلى منازل بني شيبان قال لها : هل تعرفين منازل قومك ومزل أبيك ؟ قالت : هذه منازل قومي ، وهذه قبة أبي قال : فانطلقى إلى أبيك ، فانطلقت فخرت بصنيع مروان .

ثم إن مروان غزا بكر بن وائل فقصوا أثر جيشه ، فأمره رجل منهم ، وهو لا يعرفه ؟ فأتى به أمه ؛ فلما دخل عليها قالت له أمه : إنك لتختال بأسيرك كأنك جئت بمروان القرظ ؛ فقال لها : وماترتحين من مروان ؟ قالت : عظم

(١) راجع الأمثال ص ٢٩٩ ج ٢ ، بلوغ الأرب ص ١٢٥ ج ١

(٢) السلب : ما يأخذه أحد القرنين في الحرب من قرنه مما يكون معه وعليه من سلاح ودابة (٣) سمي مروان القرظ . لأنه كان يغزوالين وهي منابت القرظ ، ويضرب به المثل في العز ، فيقال : أعز من مروان القرظ .

فدائه . قال : وكم ترتجبن من فدائه ؟ قالت : مائة بعير ! قال مروان : ذلك لك على أن تؤديني إلى خמاعة بنت عوف بن محم !

فمضت به إلى عوف (١) بن محم ، فبعث إليه عمرو بن هند أن يأتيه به . وكان عمرو وجد علي مروان في أمر ، فألى ألا يعفو عنه حتى يضع يده في يده . فقال عوف - حين جاءه الرسول : قد أجارته ابنتي ! وليس إليه سبيل ، فقال عمرو بن هند : قد آليت ألا أعفو عنه أو يضع يده في يدي . قال عوف : يضع يده في يدك على أن تكون يدي بينهما ! فأجابه عمرو بن هند إلى ذلك .

فجاء عوف بمروان فأدخله عليه ، فوضع يده في يده ، ووضع يده بينهما فعفا عنه . وقال عمرو : لآخر بوادي (٢) عوف .

مصرع الزباء :

كان جذيمة (٣) قد ملك على شاطئ الفرات . وكانت الزباء ملكة الجزيرة ، وكان جذيمة قد وترها بقتل أبيها ، فلما استجمع أمرها ، وانتظم شمل ملكها ، أحبت أن تغزو جذيمة ، ثم رأت أن تكتب إليه : أنها لم تجد ملك النساء إلا قبحاً في السماع ، وضعفا في السلطان ، وإنها لم تجد الملك موضعاً ، ولا لنفسها كفناً غيرك ، فأقبل إلى لأجمع ملكي إلى ملكك ، وأصل بلادى ببلادك ، وتقلد أمرى مع أمرك .

فلما أتى كتابها جذيمة ، وقدم عليه رسلها استخفه مادعته إليه ، ورغب

(١) من أشراف العرب في الجاهلية ، كان معلماً في قومه ، قويا في عصبية ، وكانت تضرب له قبة في عكاظ توفي نحو سنة ٤٥ ق . هـ

(٢) أى لا سيد به يناوئه .

(٣) بجمع الأمثال ص ٢١٣ ج ١ ، جمهرة الأمثال ص ٦٢

فيما أطعمته فيه ؛ فجمع أهل الحجا والرأى من ثقاته - وهو يومئذ بيقظة من شاطيء الفرات - وعرض عليهم مادعته اليه وعرضت عليه ، فاجتمع رأيهم على أن يسير إليها فيستولى على ملكها .

وكان فيهم قصير - وكان أريبا حازما أنيرا عند جذيمة - فخالفهم فيما أشاروا به ، وقال : رأى فاتر ، وغدر حاضر (١) . ثم قال لجذيمة : الرأى أن تكتب إليها ، فإن كانت صادقة في قولها فلتقبل اليك ، وإلا لم تمكنها من نفسك ، ولم تقع في حبالتها ، وقد وترتها وقتلت أباهما . فلم يوافق جذيمة وقال له : رأيك في السكن لا في الصَّح (٢) .

ودعا جذيمة عمرو بن عدى ابن أخته فاستشاره ، فشجعه على المسير وقال : إن قوى مع الزباء ولو رأوك صاروا معك ؛ فأحب جذيمة ما قاله ، وعصا قصيرا ، فقال قصير : لا يطاع لقصير أمر (٣) .

واستخلف جذيمة عمرو بن عدى على ملكه وسلطانه ، وسار في وجوه أصحابه ، فأخذ على شاطيء الفرات من الجانب الغربي ؛ فلما نزل دعا قصيرا فقال : ما الرأى يا قصير ؟ فقال قصير : بيقة خلفت الرأى (٤) . قال : وما ظنك بالزباء ؟ قال : القول رداف ، والحرم عثراته تخاف (٥) .

واستقبلته رسل الزباء بالهدايا والألطف ، فقال : يا قصير كيف ترى ؟ قال : خطب يسير في خطب كبير (٦) . وستلقاك الجيوش ، فإن سارت أمامك فالمرأة صادقة ، وإن أخذت جنبتيك ، وأحاطت بك من خلفك فالقوم غادرون بك ، فاركب العصا (٧) فإنها لا يشق غبارها - وكانت العصا فرسا لجذيمة لانجاري - وإنى راكبها ومسارك عليها .

فلقيته الخيول والكتائب ، فحالت بينه وبين العصا ؛ فركبها قصير ، ونظر

(١) ذهب مثلا (٢) الضح : الشمس وضوءها ، والكن : وقاء كل شيء -
وستره ، ذهب مثلا .

إليه جذيمة على متن العصا مولياً ، فقال : ويل أمه حزماً على متن العصا (١) .
وجرت به إلى غروب الشمس ثم نفقت ، وقد قطعت أرضاً بعيدة .

وسار جذيمة وقد أحاطت به الخيل حتى دخل على الزباء . فلما رآته قالت :
أشوار (٢) عروس ترى ؟ فقال : أمر غدر أرى . ثم دعت بالسيف والنطع ،
وقالت : إن دماء الملوك شفاء من الكلب ، فأمرت بطست من ذهب قد أعدته
له ، وسقته الخمر حتى سكر ، وأخذت منه الخمر مأخذها ، فأمرت
براهشيه (٣) فقطعاً ، وقدمت إليه الطست - وقد قيل لها : إن قطر من دمه
شىء في غير الطست طلب بدمه - فلما ضعفت يداه سقطتا فقطر من دمه في غير
الطست ؛ فقالت : لا تضيعوا دم الملك . فقال جذيمة : دعوا دماً ضيعه
أهله (٤) ؛ فهلك جذيمة .

وخرج قصير من الحى الذى هلكت العصا بين أظهرهم ، حتى قدم
على عمرو بن عدى - وهو بالخير - فقال له قصير : أفاثر أنت ؟ قال : بل
فاثر سائر (٤) .

ووافق قصير الناس وقد اختلفوا ، فأصلح بينهم ، ثم قال لعمرو بن عدى :
تمبأ واستعد ، ولا تطلن (٥) دم خالك . قال : وكيف لى بها وهى أمتع من
عقاب الجو (٤) ؟

وكانت الزباء سألت كاهنة لها عن هلاكها ؛ فقالت : أرى هلاكك بسبب
غلام مهين غير أمين ، وهو عمرو بن عدى ، وإن تموتى بيده ، ولكن حتفك
بيدك ، ومن قبله ما يكون من ذلك .

فحذرت عمراً ، واتخذت لها نفقا من مجلسها الذى كانت تجلس فيه إلى
حصن لها فى داخل مدينتها ، وقالت : إن فاجأنى أمر دخات النفق إلى

(١) ذهب أمثالا (٢) الشوار : الهيئة والزينة .

(٣) الراهشان : عرقان فى باطن الذراعين (٤) ذهب أمثالا

(٥) طل دمه : هدر أو ألا يثار به .

حصنى ؛ ودعت رجلا مصورا من أجود أهل بلاده تصويراً ، وأحسنهم عملاً ، فجهزته وأحسنت إليه ، وقالت : سر حتى تقدم على عمرو بن عدى متسكراً ، فتخلو بعشمه فتتنضم إليهم ، وتخالطهم وتعلمهم ما عندك من العلم بالصور ، ثم أثبت لى عمرو بن عدى معرفة ؛ فصوره جالسا وقائما وراكبا ومتفضلا ومتسلحا بهيئته ولبسته ولونه ، فإذا أحسكت ذلك فأقبل إلى .

فانطلق المصور حتى قدم على عمرو بن عدى ، وصنع الذى أمرته به الزباء وبلغ من ذلك ما أوصته به ، ثم رجع إلى الزباء بعلم ما وجهته له من الصورة على ما وصفت وأرادت أن تعرف عمرو بن عدى ، فلا تراه على حال إلا عرفته وحذرتة ، وعلبت عليه .

وقال قصير لعمر بن عدى : اجدع أنفى ، واضرب ظهري ، ودعنى وإياها ، فقال عمرو : ما أنا بفاعل ، وما أنت لذلك مستحقا عندى . فقال قصير : خل عني إذن وخلاك ذم (١) . فقال له عمرو : فأنت أبصر . فجذع أنفه وأثر آثاراً بظهره ؛ فقالت العرب : لأمر ما جدع قصير أنفه (١) .

ثم خرج قصير كأنه هارب ، وأظهر أن عمرا فعل ذلك به ، وأنه زعم أنه مكر بخاله جذيمة وغره ؛ فسار حتى قدم على الزباء ، فقبل لها : إن قصيرا بالباب . فأمرت به فأدخل ، فإذا أنفه قد جدع ، وظهره قد ضرب ؛ فقالت ما الذى أرى بك يا قصير ؟ قال : زعم عمرو أنى قد غررت خاله ، وزينت له المصير إليك وغششته وما لآتاك ؛ ففعل بى ما ترى . فأقبلت إليك ؛ فأكرمتها وأصابته عنده من الحزم والراى ما أرادت .

فلما عرف أنها استرسلت إليه ، ووثقت به قال : إن لى بالعراق أموالا كثيرة وطرائف وثيابا وعطرا فابعثينى إلى العراق ؛ لأحمل مالى وأحمل إليك

من بزها (١) وطرانفها وثيابها وطيبها ، لتصيب من ذلك أرباحا عظيمة ، وبعض ما لا غنى لله ساوك عنه ؛ وكان أكثر ما يطرّفها من الصرفان (٢) ، وكان يعجبها ، فلم يزل يزين ذلك حتى أذنت له ، ودفعت إليه أموالا ، وجهزت معه عبدا .

فسار قصير بما دفعت إليه حتى قدم العراق ، وآتى الحيرة متنكرا ، فدخل على عمرو بن عدى ، فأخبره الخبر ، وقال : جهزنى بصنوف البز والأمتعة لعل الله يمكن من الزباء ؛ فتصيب ثأرك ، وتقتل عدوك . فأعطاه حاجته .

فرجع بذلك إلى الزباء . فأعجبها ما رأت وسرها ، وازدادت به ثقة ، وجهزته ثانية . فسار حتى قدم على عمرو . فجهزه وعاد إليها .

ثم عاد الثالثة وقال لعمرو : اجمع لى ثقات أصحابك ، وهى الغرائر واحل كل رجلين على بعير فى غرار تين ، فإذا دخلوا مدينة الزباء أقمتك على باب نفقها ، وخرجت الرجال من الغرائر فصاحوا بأهل المدينة ، فنقاتلهم قتلوه ، وإن أقبلت الزباء تريد النفق جلاتها بالسيف .

ف فعل عمرو ذلك ، وحمل الرجال فى الغرائر بالسلاح ، وسار يكتن النهار ويسرى بالليل ، فلما صار قريبا من مدينتها تقدم قصير فبشرها ، وأعلمها بما جاء به من المتاع والطرائف ، وقال لها : آخر البز على القلوص (٣) . وسألها أن تخرج فتتظر إلى ما جاء به وقال لها : جئت بما صاء وصمت (٤) .

ثم خرجت الزباء فأبصرت الإبل تكاد قوائمها تسوخ فى الأرض من ثقل أحمالها ، فقالت يا قصير :

-
- (١) البز : الثياب (٢) الصرفان : تمر وزين صلب
(٣) ذهب مثل ، والبز : الثياب ، والقلوص : الأثني من الإبل الشابة
(٤) صاء : أراد بما صاء الشاء والإبل . وبما صمت : الذهب والفضة ، وهو يريد أنه جاء بكل شيء ، وقد ذهب مثلا

ما للجمال مشيها وتيدا أجنحلا يحملن أم حديدا
أم صرفانا تارزا (١) شديدا

فقال قصير في نفسه : بل الرجال قبضا قعودا .

فدخلت الإبل المدينة حتى كان آخرها بعيرا مر على بواب المدينة وكانت
بيده منخسة . فنهض الغرارة ، فأصابته خاصرة الرجل الذي فيها فسمع له
صوتا . فقال : شر في الجراق (٢) .

فلما توسطت الإبل المدينة أنيخت ، ودل قصير عمرا على باب النفق الذي
كانت الزباء تدخله ، وأرته إياه قبل ذلك ، وخرج الرجال من الغرارة ،
فصاحوا بأهل المدينة ، ووضعوا فيهم السلاح ، وقام عمرو على باب النفق
وأقبلت الزباء تريده ، فأبصرت عمرا فعرفته بالهجرة التي صورت لها .
فصت خاتمها - وكان فيه السم - وقالت : يدي لا بيد عمرو (٣) . وتلقاها
عمرو فجلبها بالسيف وقتلها ، وأصاب ما أصاب من المدينة وأهلها وانكفأ
راجعاً إلى العراق .

شاس بن زهير :

ورد شاس بن زهير (٣) من عند النعمان بن المنذر ، وقد حباه أفضل
الحبوة : مسكا وكسا وقطفا (٤) وطنافس ، فأناخ ناقته في يوم شمال وقر (٥)
على ردة (٦) في جبل رياح بن الأسك الغنوي ، وليس على الردة غير بيته
بالجبل ، فألقى ثيابه بفنائه ، ثم قعد بهريق عليه الماء ، وامرأة رياح قرية منه

(١) التارز : اليابس . (٢) ذهب أمثالا .

(٣) راجع الاغانى ص ١٠ ج ٨ ، وابن الاثير ص ٣٣٧ ج ١ ، مذهب الاغانى
ص ٨ ج ٢ (٤) الطليقة : دنار نخل ، جمعه قطف (بضمين) (٥) الشمال :
الريح التي تهب بين مطلع الشمس وبنات نعش ، ويكون اسما وصفة ، والفقر البرد
(٦) الردة . الثقرة يجتمع فيها ماء السماء

وإذا هو مثل الثور الأبيض . فقال رياح لامرأته : أعطيني قوسى ، فمدت اليه قوسه وسهما ، وانتزعت المرأة نصله لئلا يقتله ، فأهوى تتجلان اليه ووضع السهم فى مستدق الصلب ، بين فقارتين (١) ففصلهما وخر ساقطا ، وحقر له حفرا ، فهدمه عليه ونحمر جملة وأكله ، وأدخل متاعه فى بيته .

وفقد شاس وقص أثره ونشد ، وركبوا الى الملك ، فسألوه عن حاله ، فقال لهم : حبوته وسرحته ، فقالوا : وما تمتعت (٢) به ؟ قال : مسك ونطوع وقطف ، فأقبلوا يقصون أثره ، فلم تتضح لهم سبيله ؛ فكثروا كذلك ما شاء الله ، حتى انقطع ذكره .

قال الراوى : ثم إن الناس أصابهم جائحة وجوع ، فنحز زهير (٣) بن جذيمة - أبوشاس - ناقتة ، فأعطى امرأة من شحمها وسنامها ، وقال اشترى لى الهدب والطيب ، فخرجت بذلك الشحم والسنام ببيعته حتى دفعت إلى امرأة رياح . فقالت : إن معى شحما أبيعته فى الهدب والطيب ، فاشتريت المرأة منها ، ثم أتت المرأة زهيرا بذلك ، فعرف الهدب ، وذهب إلى غنى ، فقالوا نعم ، قتله رياح بن الأسك ونحن برآء منه ، وقد لحق بخاله من بنى الطلاح .

ولما تبين لزهير أن رياحا ناره قال يرثى شاسا :

بكيت لشاس حين خبرت أنه بماء غنى آخر الليل يسلب
لقد كان مأناه الرداة (٤) لحتفه وما كان لولا غرة الليل يغلب
قتيل غنى ليس شىء ككشكاه كذلك لعمرى الحين (٥) للبرء يجلب
سأبكى عليه إن بكيت بعبرة وحق لشاس عبرة حين تسكب

(١) الفقرة والفقارة : ما انتضد من عظام الصاب (٢) متع الرجل جاد .

(٣) هو زهير بن جذيمة بن رواحة العبسى ، أمير عبس ، وأحد سادات العرب

المعدودين فى الجاهلية ، قتله خالد بن جعفر العامرى نحو سنة ٥٠ ق . هـ

(٤) الرداة : الصخرة (٥) الحين : الهلاك

وحزن عليه ماحيت وعولة على مثل ضوء البدر أو هو أعجب
إذا سم ضيا كان للضم منكرأ وكان لدى الهيجاء (١) يخشى ويرهب
وإن صوت الداعي إلى الخير مرة أجا ب لما يدعو له حين يكرب
ففرج عنه ثم كان وليه فقلبي عليه لو بدا القلب مله

ثم انصرف إلى قومه من بني عبس ، فكان لا يقدر على غنوى إلا قتله ،
وتجهز بنو عبس لغزو غنى قبل أن يطلبوا قودا أو دية ، وتولى رياستهم
الحصين بن زهير أخو شاس ، والحصين بن أسيد بن جذيمة ابن أخى زهير ؛
فقبل ذلك لغى ، فقالت لرياح : انج لعنا نصلح على شيء أو نرضيهم
بديّة وفداء .

تخرج رياح رديفاً لرجل من بني كلاب ، فبينما هما سائران إذا هما بالقوم
أدنى ظلام (٢) ، وقد كانا يظنان أنهما خالفاً وجهة القوم ، قال صاحبه لرياح :
اذهب فإنى آتى القوم أشاغلم عنك ، وأحدثهم حتى تعجزهم ، ثم أناهض إن
تركوني ، فانهدر رياح عن عجز الجمل فأخذ أدارجه ، وعدا إثر الرحلة حتى
أتى مضفة ، فاحتفر تحتها مثل مكان الأرنب فوجل فيه ، ثم أخذ نعليه ، فجعل
إحداهما على سرته ، والأخرى على صفته (٣) ، ثم شد عليهما العمامة ، ومضى
صاحبه حتى لقي القوم فسألوه ، فحدثهم وقال : هذه غنى كاملة ، وقد دنوت
منهم ، فصدقوه وخلوا سربه ، فلما ولى رأوا مركب الرجل خلفه ، فقالوا :
من هذا الذى كان خلفك ؟ قال : لا مكذبة ذلك رياح فى الأول من السمرات ،
فقال الحصينان لمن معهما : قفوا علينا حتى نعلم عليه ، فقد أمكننا الله من ثأرنا
ولم يريد أن يشر كهما فيه أحد ، ففضيا ووقف القوم عنهما ، فلما رآهما رياح
رمى الأول منهما فبتر صلبه ، وطعنه الآخر قبل أن يرميه ، وأراد السرة
فأصاب الريلة (٤) ومر الفرس بهوى به ، فاستدبره رياح بسهم ، رشق به صلبه

(١) الهيجاء : الحرب . (٢) أدنى ظلام : أدنى شيء .

(٣) الصفن : وعاء الخسبة (٤) الريلة : أصول الأنثاء

فانفقر منحني الأوصال ، وندت فرساهما فلدحتا بالقوم . وانطلق رياح حتى
ورد ردهة ، عليها بيت أنمار بن بغيض ، وفيه امرأة ولها ابنان قريبان منها ،
وجمل لها راتع في الجبل ، وقد مات رياح عطشاً ، فلما رأته يستدعى طمعت
فيه ، ورجت أن يأتيها ابنها فقالت له : استأسر ، فقال لها : دعيني ويحك
أشرب ! فأبت ، فأخذ حديدة فجذم بها رواهشها (١) ، وعب في الماء حتى نزل
ثم قال فيها وفي الحصينين :

قالت لي استأسر لتكفني (٢) حيناً ويعلو قولها قولي
ولانت أجرة من أسامة أو منى غداة وقفت للخيل
إذ الحصين لدى الحصين كما عدل الرجاجة (٣) جانب الميل

خالد بن جعفر بن كلاب :

لما (٤) قتل خالد بن جعفر بن كلاب زهير بن جذيمة العبسي ضاقت به
الأرض ، وعلم أن غطفان غير تاركيه ؛ فخرج حتى أتى النعمان فاستجار به
فأجاره ، ومعه أخوه عتبة بن جعفر .

ونهض قيس بن زهير فتياً لمحاربة بني عامر ، وهجم الشتاء ؛ فقال الحارث
ابن ظالم : يا قيس أتم أعلم وحر بكم ، وأنا راحل إلى خالد حتى أقتله ! قال قيس :
قد أجاره النعمان ! قال الحارث : لأقتلنه ولو كان في حجره !

وكان النعمان قد ضرب على خالد وأخيه قبة ، وأمرهما بمحضور طعامه
ومداده (٥) .

(١) جذم : قطع ، الرواهش : عروق ظاهر الكف (٢) كنفه : أحاط به وآواه
(٣) الرجاجة : شئ . يكون مع المرأة في هودجها فإذا مال أحد الجانبين وضعت
في الناحية الأخرى ليعتدل .

(٤) الأمثال ص ٢٣٤ ج ٢ ، عيون الأخبار ص ١٨٣ ج ١

(٥) المدام : الخمر .

فأقبل الحارث ومعه تابع له من بنى محارب فأتى باب النعمان ، فاستأذن فأذن له النعمان وفرح به . فدخل الحارث ، وكان من أحسن الناس وجهاً وحديثاً ، وأعلم الناس بأيام العرب ؛ فأقبل النعمان عليه بوجهه يمد يده ، وبين أيديهم تمر يأكلونه .

فلما رأى خالد إقبال النعمان على الحارث غاظه ذلك ، فقال : يا أبا ليلى ؛ ألا تشكرنى ؟ قال علام ؟ قال : قتلت زهيراً فصرت بعده سيد غطفان - وفي يد الحارث تمرات ، فاضطربت يده ، وجعل يردد ويقول : أنت قتلتني ! ! والتمر يسقط من يده .

ونظر النعمان إلى ما به من الزمعة (١) ، فنخس خالداً بهصاه وقال : هذا يقتلك ، فقال : أبيت اللعن ! فوالله لو كنت نائماً ما أيقظني ! واقترق القوم ، وبقي الحارث عند النعمان ، وأشرح (٢) خالد قبحه عليه وعلى أخيه وناما .

وانصرف الحارث إلى رحله ، فلما هدأت العيون خرج بسيفه حتى أتى قبة خالد فهتك شرجها (٣) بسيفه . ودخل فرأى خالدًا نائماً وأخوه إلى جنبه ، فأيقظ خالدًا ، فاستوى قائماً ، فقال له الحارث : يا خالد أظننت أن دم زهير كان سائغاً لك ؟ وعلاه بسيفه حتى قتله ، وانقبه عتبة فقال له الحارث : لئن نبست (٤) لألحقنك به !

وانصرف الحارث ، وركب فرسه ومضى على وجهه ، وخرج عتبة صابراً حتى أتى باب النعمان فنادى : يا سوء جواره ! فأجيب : لا روع عليه ! فقال : دخل الحارث على خالد فقتله ، وأخفر (٥) الملك .

فوجه النعمان فوارس في طلبه فلحقوه سحراً فمطاف عليهم ، فقتل جماعة منهم وكثروا عليه ، فجعل لا يقصد لجماعة إلا فرقها ، ولا لفارس إلا قتله .

(١) هو شبه الرعدة تأخذ الإنسان (٢) أشرح الخيمة : أدخل بعض عراها في بعض بين أشراجها (٣) الشرج : عرا الخيمة (٤) نبس : أقل الكلام (٥) أخفر الملك : نقض عهده وغدره .

فارتدع القوم عنه ، وانصرفوا إلى النعمان . فقال عمرو بن الإطناية :

عللاني وعللا صاحبيا واسقياني من المروقي ريا
إن فينا القيان يمزفن بالضر ب لفتياننا وعيشاً رصيا
يقناهين في النعيم ويضربون خلال القرون مسكاذ كيا
أباها الحارث بن ظالم الرء (١) ديد والناذر النذور مليا :
إنما تقتل النيام ولا تقة تل يقظان ذا سلاح كيا (٢)

وكان عمرو قد آلى ألا يدعوه رجل بليل إلا أجابه ، ولم يسأله عن اسمه
فأتاه الحارث ليلا فتهتف به ، فخرج إليه ؛ فقال : ما تريد ؟ قال : أعنى على إبل
لبنى فلان ، وهى منك غير بعيد ؛ فإنها غنيمة باردة !

فدعا عمرو بفرسه ، وأراد أن يركب حاسرا ؛ فقال له : البس عليك
سلاحك ؛ فإنى لا آمن امتناع القوم ؛ فاستلام وخرج معه ، حتى إذا رزا
قال له الحارث : أنا أبو ليلى فخذ حذرك يا عمرو ، فقال له : امنن على . فجز
ناصيته ؛ وقال :

عللاني بلذتي قيتيبيا قبل أن تبكى العيون عليا
قبل أن تذكر العواذل أنى كنت قدما لأمرهن عصيا
ما أبالى إذا اصطبحت ثلاثاً أرشيدا دعوتنى أم غويا
غير ألا أمر الله إثميا فى حياتى ولا أخون صفيا
بلقتنى مقالة المراء عمرو بلقتنى وكان ذاك بديا
فخرجنا لموعد فالتقينا فوجدناه ذا سلاح كيا
غير ما ناتم يروع بالليل معدا بكفه مشرفيا
فرجعنا بالمن منا عليه بعد ما كان منه منا بديا
وهذه القصص كلها مع أنها بأسلوب الرواة فيها ملامح جاهلية وشبه
بأسلوب الجاهليين فى النثر .

(١) الرعديد : الجبان (٢) السكى : الشجاع ،

الباب الثالث

الشعر الجاهلي

-- ١ --

تمهيد : ماهو الشعر ؟

عرفه أرسطو بأنه كلام مخيل مؤلف من أقوال موزونة متساوية والمخيل هو الكلام الذي يتفعل له الإنسان انفعالا نفسانيا غير فكري (١). وعرفه قدامة وابن رشيق بأنه كلام موزون مقفى يدل على معنى (٢). ويقول المعري : الشعر كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط إن زاد أو نقص أبانه الحس (٣). ويقول ابن خلدون : الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارات والأوصاف المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده الجاري على أساليب العرب المخصوصة (٤)، والشاعر من شعر يشعر وإنما سمي شاعرا لأنه يشعر من معاني القول وإصابة الوصف بما لا يشعر به غيره، فكل من كان خارجا عن هذا الوصف فليس بشاعر وإن أتى بكلام موزون (٥) فإذا لم يكن عند الشاعر تأكيد معنى ولا اختراعه أو استظراف النظر وابتداعه كان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة ولم يكن له إلا فضل الوزن (٦). ويعرفه المحدثون بأنه الكلام المنظوم الذي يعتمد فيه صاحبه على الخيال

(١) راجع الفن التاسع - الشعر - من الشفاء لابن سينا

(٢) ١٣ نقد الشعر ، ١ : ٩٩ العمدة (٣) رسالة الغفران للمعري

(٤) ٥٧٣ مقدمة ابن خلدون (٥) ٧٧ نقد النثر (٦) ٩٦ : ١ العمدة

ويقصد فيه إلى الجمال الفنى (١) ، وبأنه الكلام الموزون المقفى الذى يهور
العاطفة (٢) ويعرفه الرصافى بأنه مرآة من الشعور تنعكس فيها صور
الطبيعة بواسطة الألفاظ انعكاسا يؤثر فى النفوس (٣) ، ويقول آخر : هو
الحياة باكية وضاحكة عاطفة وصامتة (٤) ، ويقول أرتولد : هو كمال اللغة
البشرية فيه يقرب الإنسان من الحق ويجسر على أن يفوه به (٥) ويقول
كارليل : الشعر الحقيقى هو الموسيقى الأزلية التى يسمعها الشاعر من وراء
الوجود (٦) ، ويقول غيره : هو المحاولة الخالدة للتعبير عن روح الأشياء (٧)

وبعد فالشعر إلهام يفيض على القلب من عالم الروح ويلبس ثوبا من
الخيال الساحر وينطق بلغة العاطفة الشاعرة ويحدث آثارا بعيدة فى المشاعر
والوجدان ويستشف معانى الحياة فى كل شىء نفسه فىه وتحس به فى هذا
الوجود ، والشاعر ملك يعنى على قيئارة الفن الخالدة ليعبث معانى الطفولة
السامية والصوفية المنبثلة فى الحياة وليشرق بفته مع الفجر روحية وطهرا
ومع الصبح نورا وسحرا ومع الضحى قوة وحرارة ومع الأصيل هدوءا
وجمالا ومع الليل رهبة وروعة ، وهو منذ الأزل يعنى وسيعيش فى سرحة
الفن يملأ الوجود شذوا وغناء ، فى سبيل أداء الرسالة التى حملها والتى نيط
بها بعث الجمال وإيقاظ الشعور وتجديد الأخلاق والسمو بالعواطف ليصل
حيوان الأرض الناطق إلى مستوى ملك السماء الطاهر العظيم.

(١) ٣٢٧ الأدب الجاهلى

(٢) أصول النقد الأدبى للشايب ، ويقول وردزورث : الشعر هو الحقيقة
الرائمة التى تصل إلى القلب بواسطة العاطفة ، ويقول رسكن : هو عرض البواعث
النبيلة للمواطن النبيلة بواسطة الخيال (٩٩ مملكة الجمال لمحمود قراعة ط ١٩٣٧)

(٣) ٨٥ ج ١ سحر الشعر (٤) ١٦٩ ج ١ المرجع

(٥) ١٦٧ ج ١ المرجع (٦) ٢١ ج ١ المرجع

(٧) ٩٦ مملكة الجمال

آراء في الشعر :

١ - الشعر عند بعض الأدباء الكلام البليغ المؤثر ، الذى يصور
الشعور والإحساس والعاطفة ، وينطق عن حسن تخيل ودقة معان وجمال
إلهام ، فهو على هذا لا يجب أن يكون موزوناً ، فالتنثر قد يكون شعراً إذا
اشتمل على لطف التخيل وروعة الشعور ، ولقد قال حسان لابنه عند ما
وصف له ذنبورا لسعه فأحسن الوصف وسماه به إلى درجة جميلة من جمال
الخيال والتخيل ، قال : قد قلت الشعر ورب الكعبة يا بنى ، وىروى عن
الأصمعى أنه قال : قلت لىشار بن برد إني رأيت رجال الرأى يتمتعجون من
أبياتك فى المشورة فقال : أنا علمت أن المشاور بين إحدى الحسينين بين
صواب يفوز بشمرته ، أو خطأ يشارك فى مكروهه ، فقلت له : والله أنت
فى كلامك هذا أشعر منك فى أبياتك ، فقد جعل الأصمعى وناهيك به من
إمام فى الأدب كلام بشار شعراً ، إذ قال له « أنت فى هذا الكلام أشعر » ،
واسم التفضيل يقتضى المشاركة والزيادة ؛ فهذا أيضاً يدل على أنهم لا ينجحون
الشعر بالمنظوم وأن الشعر قد يكون منشوراً . ولم يسم المنظوم شعراً لكونه
ذا وزن وقافية ، بل لكونه فى الغالب يتضمن المعانى الشعرية . أو لأن
العرب فى الغالب لا تنظم الكلام إلا شعراً . ويؤيد ذلك أن العرب عدوا
القرآن شعراً لسعره وروعة تهويره وبليغ أثره .

٢ - وجمهور الأدباء على اشتراط الوزن فى الشعر . ويقتصر بعضهم
على الوزن مع الخيال والعاطفة والشعور والإحساس والإلهام الفنى الخاص ،
وهؤلاء لا يشترطون فى الشعر أن يكون مقفى بل هم يزدرون القافية
ويدعون إلى اطراحها لأنها وإن تعددت فى القصيدة الواحدة - بجمل كل
قسم من أقسامها على قافية - هى قيد للشاعر وعيب ثقيل عليه إذ لا تدع الشاعر
حرراً فى إظهار ما يريد من معنى أو شعور ، وهى عند السبب الأكبر فى تأخر

الشعر العربي عن الشعر في الآداب الغربية ، ويرون أنها « عضو أثرى قد بقي من كلمات كان يكررها في آخر كل بيت النادب في المناحات والمتحمسن في الحرب والصدام ، يوم تولد الشعر في عصور الجاهلية الأولى ، ولا بد من زواله بالتام لعدم فائدته اليوم ولتقييده الشعر فلا يتقدم حراً كبقية الفنون ، فإذا حرر الشعر من قيد القافية انصرف الشعراء إلى المعاني التي يريدونها لا إلى الألفاظ ، وإلى إظهار الشعور الحقيقي الذي تجيش به نفوسهم لا إلى الشعور الكاذب الذي تضطرمهم إلى تصنعه ضرورة القافية وضرورة كونها على صورة خاصة من صور الأعراب في آخر كل بيت (١) ، .

ويرى الآخرون تعدد القوافي ، ويقولون : إنه إذا اتسعت القوافي لشتى المعاني والمقاصد ، وانفرج مجال القول بزغت المواهب الشعرية على اختلافها ، ورأينا بيننا شعراء الرواية وشعراء الوصف وشعراء التمثيل . وما كانت العرب تنسك القافية المرسلة فقد كان شعراؤهم يتساهلون في التزام القافية (٢) كما في قول الشاعر :

ألا هل ترى إن لم تكن أو مالك بملك يدي أن الكفاء قليل
رأى من رقيقه جفاء وغلظة إذا قام يبتاع القلوص ذميم
فقال أقلا واتركا الرجل انى بمهلك والعاقبات تدور
فبيناه بشرى رحله قال قائل لمن جمل رخو الملاط نجيب
وكقول غيره :

بنات وطاء على خد الليل لا يشكين عملا ما أنفين

(١) من مقال للشاعر جميل صدق الزهاوى نشره في السياسة الأسبوعية

عدد ٣ - ٩ - ١٩٢٧

(٢) قد يكون ما ذكره من ذلك ليس إلا بقايا من آثار التطور الفني في الشعر العربي في عصور نشأته الأولى . كما أن اختلاط الوزن في قصيدة عبيد بن الأبرص كان أثرا من آثار التطور الفني في الشعر العربي في عصور نشأته الغابرة .

وقول الآخر :

جارية من ضبة بن أد كأنها في درعها المنعط
فعندهم القافية ليست من الشعر لأن الشعر بالوزن وحده فهو الموسيقى
التي تميزه من النثر . وما الحرص على بقاء القافية المشتركة في القصيدة إلا
نتيجة الإلف والعادة فإذا ألقت الأسماع الشعر المرسل استهجنتم القوافي
كما تستهجن الأذواق اليوم السجع في النثر .

ويرى هؤلاء أنه ليس في الأوزان القديمة كبير ضرر وهي في الأغلب
أرقى من الأوزان العربية لأن أكثر البحور مركب من تفاعيل مختلفة
بمخلاف ما تألف من مقاطع متشابهة ؛ والتركيب دليل الرقي . نعم قد
لا يوافق في رأيهم أكثر هذه الأوزان ضروب الغناء العصري والذنب في ذلك
كما يقولون على العربية نفسها فهي لا تلائم الأغاني الحديثة .

وهؤلاء لا يتقيدون بأوزان الخليل المأثورة ، فعندهم الأوزان العربية
ليست ستة عشر وزناً كما هو الشائع بل هي مع تفرعاتها قد تزيد على الخمسين
ومن الميسر لكثائر هذا العدد .

ويدعو بعضهم إلى التجديد في أوزان الشعر الحديث وفق ما يقتضيه
الذوق وروح العصر ؛

٣ - والجمهور على جعل القافية شرطاً أساسياً في الشعر ، ولا مانع
عند بعضهم من تسهيل صعوبات القافية بتعدد القوافي في القصيدة الواحدة
حسب أغراضها أو على نهج الخمسات والمربعات والموشحات والأراجيز
وما شاكل ذلك ؛

٤ - ولكن هل الشعر لفظ ووزن وقافية فحسب ، يرى النقاد أنه
لا يكفي فيه ذلك وأنه لا بد أن يشتمل على معنى لطيف أو حكمة بارعة أو
تشبيه جميل أو خيال بارع ، فالمعنى عنصر من أهم عناصره

وهذا حق وصدق، فالشعر لابد أن يحتوى مع الوزن والقافية على إلهام
فنى رائع وشعور بالجمال مرهف وإحساس بالكون والطبيعة والبيئة دقيق .
لابد فيه من المعنى والخيال والعاطفة والشعور بالجمال وروعة التصوير له
وعمق النفوذ إلى أسرار المشاعر الإنسانية العامة ، ليكون شعرا وليكون له
أثره ومكانته فى الشعر .

ولو كان الشعر هذه الألفاظ الموزونة المقفاة فحسب لكان لغوا من
الكلام والشعور والإحساس .

يقول الإمام محمد عبده : « لو سألوا الحقيقة أن تختار لها مكانا تشرف
منه على الكون لما اختارت غير بيت من الشعر ، وقد بما قال كعب الأحبار :
الشعراء أنا جيلهم فى صدورهم تنطق ألسنتهم بالحكمة » .

نشأة الشعر

-- ١ --

الشعر الجاهلى لا يعقل أن يكون قد بدأ كما وصل إلينا فى هذه
القصائد الطويلة المهدية التى يظهر فيها أثر الفن والجمال، بل لابد أن يكون قد
قطع مراحل كثيرة خلال الأجيال ، حتى وصل إلينا على هذه الصورة
الفنية المكاملة .

وليس من المعقول أن يكون امرؤ القيس أو مهلهل هو أول من ابتكر
الشعر ونظمه وقلده فيه الشعراء ، أليس هو الذى يقول :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن خنزام

وابن خنزام هذا شاعر جاهلى قديم ، قبل امرئ القيس طبعا ، ولا تعرف
عنه ولا من أخباره شيئا (١) .

ويقول زهير :

ما أرانا نقول إلا معسارا أو معادا من قولنا مكرورا

ويقول عنتره :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

إننا لانعرف شيئا عن نشأة الشعر ، ومن غير شك أنه سار في مرا-
كثيرة حتى صار فناً مستقلاً مقصوداً وانفصل عن الغناء ، ثم أولاه الشعر
عناية فنية كبيرة ، وقالوا في أغراض الحياة الجديدة التي لم يقولوا فيها من قبل
ويهمنا أن نبهت عن التدرج الفني في نشأة الشعر ، ثم نعرض الآن
في تاريخ نشأته ، ثم نعرض لذكر قدامى الشعراء الجاهليين .

- ٢ -

ولوصف التدرج الفني في نشأة الشعر نقول :

مر على كلام العرب ثلاثة أدوار انتقل فيها به الزمان من طور إلى طور
فأولها دور البساطة وهو الدور الذي كان الكلام فيه بسيطاً ساذجاً خالياً
كل تفنن في أسلوبه وتصنع في ألفاظه .

ثم ارتقى مع الزمان بالتدريج حتى وجدت فيه القافية فانتقل بها إلى دور
الثاني وهو دور السجع . والسجع هو الكلام المقفى أو موالاته الكلام على ر
واحد . ولا شك أن هذا السجع إنما وجد بادية بدء في كلام بعض الأفر
وربما كان وجوده بطريق المصادفة إذ قد يتفق المتكلم أن يأتي في كلام
بجملتين متفتحتين في الآخر في حرف واحد من غير قصد ، وسواء كان وجو
أول سجع في كلام العرب ناتجاً عن قصد أو غير قصد فلا بد أنها قد أعجب
السامعين ، وكان لها وقع في نفوسهم لكونها شيئاً جديداً في الكلام لم تطر
أسماعهم من قبل . ولا عجباً بهم بها صاروا يقلدون قائلها ويأرونها في النها
بما يماثلها حتى كثر السجع وفشا في كلامهم .

كان السجع فاشياً في كلام العرب الأولين من أهل الجاهلية ؛ وكانو

يلتزمون السجع في أكثر كلامهم ، لاسيما في خطبهم ومنافراتهم
ومداخلاتهم سواء في ذلك رجالهم ونساؤهم حتى ولدانهم وجواريتهم الصغار ؛
وكتب الأدب مشحونة بأسجاعهم فإذا رجعت اليها وتدبرتها علمت أن العرب
مارسوا السجع من أولوه في أزمنة طويلة حتى طبعوا عليه ، فأصبح لهم طبيعة
تنتقل فيهم بالإرث الطبيعي من الآباء إلى الأبناء .

ثم إن الكلام بعد أن دخل في دور السجع أى القافية واستمر فيه قروناً
عديدة انتهى إلى دوره الثالث وهو دور الوزن . وما لا يستراب فيه أن
الوزن في الكلام قد تولد من السجع .

ومن الجائز أن يكون الكلام قد أتى موزوناً من غير قصد كما نراه واقعاً
في كلام الناس ومحاوراتهم كل يوم ، وقد وقع ذلك في القرآن أيضاً ، فتأتى
قريبتان من الكلام المسجع متطابقتين في الحركات والسكنات ، وذلك
هو الوزن .

وساعد على الوصول إلى الوزن : الغناء ، والسجع فالمسافة بين الكلام
والوزن قد قصرت بالسجع وازدادت قصراً باقتران السجع بالغناء فاقتران
السجع بالغناء يزيد احتمال وقوع الوزن فيه بطريق الاتفاق والمصادفة ، كما
ساعد على ذلك الرقص ، واحتمال وقوع الوزن في الكلام بطريق
المصادفة يختلف قوة وضعفا باختلاف الأوزان الشعرية ببساطة وتركيبها
فما كان من الأوزان أبسط كان ذلك الاحتمال فيه أكثر وأقوى والعكس بالعكس ،
ونعني ببساطة الوزن هنا سهولته على القريحة وخفته على الطبع وقرب مأخذه
من الكلام المنشور ، بحيث يكون انطلاق اللسان به سهلاً وجري الطبع
عليه هيناً .

وإذا نظرنا في أوزان الشعر وجدنا أبسطها الرجز لإذهو أسهلها على القريحة
وأخفها على الطبع وأقربها إلى النثر ، وما الفرق بينه وبين الكلام المسجوع
سوى وزن قريب المأخذ سهل التناول ، حتى يصح أن يقال إن كل شاعر

تبدأ شاعريته بالرجز ، وما ذلك إلا لسهولة وقرب مأخذه .
ويؤيد كون الرجز أول ما ظهر من الشعر ما ذكره من أن الرجز
أقدم الشعر .

وقد كان الشعر كله عندهم اسمان : الرجز والقصيد . فكل ما لم يكن رجزاً
سموه قصيداً من أى بحر كان ، ويدل على ذلك قول الأغلب الراجز العجلى لما
استنشدته المغيرة بن شعبه وهو على الكوفة :

أرجزا تريد أم قصيدا لقد سألت هينا موجودا

فالشعر عندهم إما رجز وإما قصيد ولا ثالث لهما . والقصيد اسم جلس
جمعى واحده قصيدة . وإذا كان الرجز أقدم من القصيد لزم أن يكون هو
أول وزن تولد من الكلام المسجع وذلك ما نؤيده .

والخلاصة أن السجع حلقة اتصال بين النثر والنظم وإن الوزن متولد
من السجع وإن أول ما وجد من أوزان الشعر هو الرجز وإن الشعر نشأ عن
المصادفة وساعد على ظهوره الغناء والرقص .

يقول الرصافي : الرجز مأخوذ من توقيع سير الجمال فى الصحراء بحجة
أنه أول ما استعمله العرب لسوق الجمال فى الحداة هكذا قال كثير ، ومن
القريب أن صاحب هذا رأى قد ادعى أن تقطيع الرجز يوافق وقع خطى
الجمال مع أن فى تقطيعه من سرعة الانحدار والتسرد وتدارك المقاطع مليناً فى
كل المنافاة وقع خطى الجمال ، لما فى تلك الخطى من التؤدة والرزانة بسبب
انفساح مواقعها وطول القوائم المرتمية من تحت تلك الجثة العالية الضخمة .
ولو سلمنا أن تقطيع الرجز يوافق وقع خطى الإبل لما سلمنا أنه يلزم
من ذلك كون الرجز مأخوذاً من وقع تلك الخطى إذ لو لزم منه ذلك
للزم أن يكون وزن الكامل ولا سيما مجزؤه مأخوذاً أيضاً من وقع
خطى الجمال بطريق الأولى لأنه يوافق وقع تلك الخطى أكثر من الرجز
وبطابقها تمام المطابقة ، حتى إنك لو امتطيت جملاً وجعلت وهو سائر بك

سيراً وتبدأ الملشد عليه شعراً من الكامل أو مجزوءه لرأيت عند تمام كل جزء من تفاعيله وقع يد من يدى جملك كما هو ظاهر للتأمل .

فألفاظ الشاعر كانت سجعاً ثم صارت رجزاً ثم صارت شعراً ، والآنقص من الأشعار والآنقصر هي المتقدمة في النشأة لأن الطباع أسهل وقوعاً عليها . ومن ذلك النوع القصير : الأبيات السائرة والأمثال والحكم القهيرة .

يقول الأستاذ لطفي جعنة (١) : إن العربي سمع أصوات النواير (٢) وحفيف أوراق الأشجار وخرير الماء وبكاء الحائم ، ولذلك صوت تلك الطبيعة المترنمة ، ولذلك أن يبكي ليكائها وأن يكون صدادها الحاكي لنفاتها ، فإذا هو ينظم الشعر من حيث لا يفهم أنه خيال قريحته ولا يدرك من أوزانه وضروبه إلا أنها صورة من حركات نافته .

وقال كليمان هيوار - المشرق الفرنسي ١٨٥٤ - ١٩٢٧ م - : إن الأسفار الطويلة على ظهور الإبل حببت إلى العربي نشيد الألحان يتلمى بها ويشفى ما يصيبه من أوصاب ، ثم أدرك العربي الملشد أو الحادى أنه كلما سارع في الإنشاد رفعت الناقة رأسها وأوسعت خطاها كأن بين خطاها وأوزان الشعر ارتباطاً فظهرت تلك الضروب عفواً لأنها ثمرة طبيعية من ثمار العبقرية البدوية .

- ٣ -

ومن الناحية التاريخية لنشأة الشعر الجاهلى نقول :

كتب مؤرخ يونانى هو «سوزومين» ٢٣٥ - ٤٠٠ م قبيل مطلع القرن الخامس الميلادى يقول : إنه فى الربيع الأخير من القرن الرابع للمسيح تغلبت ملكة العرب مافيا على جيوش الرومان وهزمتها فى فلسطين وفيليبيا ؛ فنظم شعراء العرب الأناشيد والأغاني وحفظوها ورددوها وتغنوا بها تخليداً للانتصار .

(١) الشهاب الراصد ص ٢٧٧

(٢) هذا غريب من القول فأين النواير وخرير الماء فى الصحراء والبادية؟

وأثبت سانت نيلوس أحد حكام القسطنطينية وقد هرب في آخر القرن الرابع الميلادي أنه سمع أناشيد العرب الجميلة من صحراء سيناء (١) ، والشعر العربي المحكي قديم يرجع عهده إلى القرن الرابع للميلاد .

ويقول ابن سلام (٢) : « ولم يكن لأوائل العرب من الشعراء إلا الأبيات يقولها الرجل في الحاجة تعرض له كقول دويد بن زيد حين حضره الموت وهو جاعلى قديم :

اليوم يبنى لدويد بيتسه لو كان للدهر بلى أبليته
أو كان قرنى واحداً كفيته

ولأنما قصدت القصائد على عهد عبد المطلب أو هاشم بن عبد مناف ، وكان أول بادىء لهذه النهضة الشعرية وسائر في اتجاهها المهمل بن ربيعة . ثم جاء امرؤ القيس ، فرقع اللواء . فكان أول من وقف واستوقف وبكى واستبكى ووصف النساء بالطباء والمها والبيض ، وشبه الخيل بالعقباز والعصى وفرق بين القصيد وما سواه من الشعر ، وقرب مأخذ الكلام وقيد أوايده وأجاد الاستعارة والتشبيه والكتابة ، ورقق الأسلوب وجعله عذبا جزلا . وأول من يروى له قصيدة تبلغ ثلاثين بيتا من الشعر : مهمل (٣) ، ويقال : بل ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم ، ثم ضمرة الكنانى ، وكان بين هؤلاء وبين

(١) الشهاب الراصد .

(٢) ٢٩٤ ج ٢ المزه ، ١٧ طبقات الشعراء لابن سلام

(٣) هو مهمل بن ربيعة ، ومهمل لقب له سمي به لأنه أول من أرق المرائى ، واسمه عدى ، وقيل سمي مهمل لقوله : « هلمت أنار جابرا أو صنبلا ، (راجع ١٢٩ ج ٢ الأمالي) وفيه يقول الفرزدق : « ومهمل الشعر ذك الأول . » ويقول ابن سلام في طبقات الشعراء : وأول من قصد القصائد وذكر الوقائع : المهمل بن ربيعة التغلبي (٢١ طبقات الشعراء ، ٢٩٥ ج ٢ المزه للسيوطي)

الإسلام أربعمائة سنة . وجاء امرؤ القيس بعد هؤلاء بمائتين وخمسين سنة تقريبا .

-- ٤ --

وبعد فإن الباحثين يختلفون في أول من أحدث هذه النهضة الفنية في الشعر فذهب أطال فيه ، وأسماء مهلهل وامرؤ القيس والأفوه الأودى والقيط بن يعمر الإيادى وعمر بن قيس تتردد في هذا المجال . ويقول السيوطى في مزهره نقلا عن عمر بن شبة م ٢٦٢ هـ : « للشعر والشعراء أول لا يوقف عليه وقد اختلف في ذلك العلماء وادعت كل قبيلة لشاعرها أنه الأول ولم يدعوا ذلك لقائل البيتين والثلاثة لأنهم لا يسمون ذلك شعرا ، فادعت النماية لامرؤ القيس ، وبنو أسد لعبيد بن الأبرص ، وتغلب لمهلهل ، وبكر لعمر بن قيس والمرقش الأكبر ، وإياد لأبي دؤاد ، وزعم بعضهم أن الأفوه الأودى أقدم من هؤلاء ، وأنه أول من قصد القصيد ، هؤلاء نفر متقاربون ، وأهل أقدمهم لا يسبق الهجرة بمائة سنة أو نحوها (١) » . وقد ضاع من الشعر الجاهلى الكثير « ولم يحفظ من الموزون عشرة (٢) » . « ولا يحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب كما يقول ابن سلام (٣) » . « وكان عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته فصار ذلك إلى بنى مروان (٣) » . « ويرى أن الأمير الاموى خالد بن يزيد بن معاوية هو أول من جمع شعر العرب الجاهليين . ويقول أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى إليكم ما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاكم وافرا لجاكم علم وشعر كثير (٤) » .

(١) ٢٩٦ ج ٢ المزهرة طبع صبيح (٢) ٢٩٢ ج ٢ المرجع
(٣) ٢٩٣ ج ٢ المرجع ٢ و ص ١٦ طبقات الشعراء لابن سلام طبع
المطبعة المحمودية .
(٤) ١٦ طبقات الشعراء .

الشعر في الجاهلية

- ١ -

تمهيد :

كان الشعر في الجاهلية ديوان العرب ، والمصور لآمالهم وآلامهم وحياتهم ومشاهد الوجود بينهم ، أودعوه وقائعهم ومفاخرهم وأحسابهم وأنسابهم وأيامهم وأثارهم وذكرياتهم وأوصاف بيئتهم .

وكان له سحره وروعة تأثيره في نفوسهم ، إذ كان صوت القبيلة ، ولسان القوم ، والذائد الحامى الذمار ، والمدافع عن الأحساب والأنساب والشرف ، والناطق بالحجة ، والداعى إلى الخير . وكان الشعراء ذوى مكانة كبيرة بينهم فهم الذين ينطقون بمجد القبيلة ، ويفخرون بجلائها وماضى أيامها ؛ وحسبك من مكانة الشعر عند العرب أنه لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن المعجز نظمه المحكم تأليفه وأعجب قريشاً ما سمعوا منه قالوا : ما هذا إلا سحر ، وقالوا فى النبي : شاعر أتريص به ريب المنون . ويقول الأصمعي : « الشعر جزل من كلام العرب ، تقام به المجالس ، وتستنتج به الحوائج ، وتشفى به السمخائم » .

ونبغ فى الشعر كثير من الشعراء والشاعرات ، من خلدت ذكركم كتب الأدب والشعر ومصادرهما الأولى .

ولا تزال مصادر الأدب والشعر الجاهلى صورة ناطقة . يلاغتهم وسحرهم وشدة تأثيرهم وقوة بلاغتهم وجلال أثرهم فى حياة العرب فى جزيرتهم طول هذا العصر الجاهلى القابر .

ومن قدر الشعر عندهم أن كانت القبيلة إذا نبغ فيها الشاعر أتت القبائل

فهنأنها بذلك ووضعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمازهر كما يصنعن في الأعراس ، وكانوا لا يهتثون إلا بغلام يولد أو شاعر يلبخ أو فرس تلتج . وكانت البنات ينفقن إذا شبت بهن الشعراء .

ولم يترك العرب شيئاً مما وقعت عليه أعينهم أو وقع إلى آذانهم أو اعتقدوه في أنفسهم إلا نظموه في سبط من الشعر حتى إنك ترى في مجموع أشعارهم ديواناً فيه من عوائدهم وأخلاقهم وآدابهم وأيامهم وما يستحسنون ويستجنون ، ولذلك قالوا : كان الشعر ديوان العرب ومعدن حكمتها وكنز أدبها .

وقال دعبيل : « كان امرؤ القيس من أدباء الملوك ، وكان من أهل بيته وبنى أبيه أكثر من ثلاثين ملكاً فبادوا وماذ ذكروهم وبقي ذكره إلى يوم القيامة ، وإنما أمسك ذكره شعره » .

- ٢ -

تأثير الشعر في النفوس :

كان الشعر في الجاهلية هو المقيد لأيامها ، والشاهد على أخبارها والناطق بمجدها والمصور لمفاخرها . وكان لكل قبيلة شاعرها الذي يذود عنها ويناضل عن شرفها ويساجل خصومها وينازلهم في كل مجال . وكانت العرب أممة يسحرها البيان وتروعها البلاغة ويستبدد بإعجابها الشعر الجيد البليغ .

كان الشعر قوة فعالة في الحياة الجاهلية ، وكان له تأثيره في نفوس العرب وسلطاته في حياتهم وقدره وخطره فيما بينهم ؛ يرفع الخامل ويضع الفذ العظيم ، وينوء بشأن القبيلة ، ويزرى بأعدائها وخصومها ، ويمدح ظله الاس و يروونه ويلشدونه في كل مكان .

وقصة المحلق الكلابي مع الأعشى حيث استضافه وأكرمه وكان

فقيرا معلقا وكانت له بنات عوانس ، فمدحه الأعشى بقصيدته :
أرقت وما هذا السهاد المؤرق ؟ وما بي من سقم وما بي نعش
يقول فيها :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق
فسارت القصيدة في كل مكان ، وخطب بنات المحلق الكثير من
سادات العرب .

وذهب الأعشى قاصدا رسولا ليمدحه ويعلمن إسلامه وكان قد
نظم قصيدته :

ألم تغمض عينك ليلة أرمدا وبت كما بات السليم مسهدا
فتصدت له قريش وحالت بينه وبين ذلك خوفا من تأثير شعره وأهدت
له هدية سنية فرجع .

والذين هجوا فوضعوا من قدر من هجوه ، ومدحوا فرفعوا من قدر
من مدحوه ، كثيرون مشهورون في الجاهلية وبعدها (١) .

منزلة الشاعر :

كان للشاعر في الجاهلية منزلة كبيرة وشأن خطير لأنه هو الذي
ينطق بمجد القبيلة ويشيد بآثرها ومفاخرها وأحسابها وأبطالها ، ويرد على
خصومها ويدود عنها أعداءها ، وكانت القبيلة في الجاهلية تفرح إذا نبغ فيها
شاعر فرحا عظيما ، قال ابن رشيق :

وكانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك

(١) راجع من رفعه الشعر ووضعه الهجاء ١٤ ج ٣ العقد

وصنعت الأطعمة واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأفراح
وتتباشر الرجال والولدان لأنه حماية لأعراضهم وذب عن أحسابهم وتخليد
لمآثرهم وإشادة بذكورهم وكانوا يمتأون بسلام يولد أو شاعر يلبس أو
فرس تلتج

وكان للشاعر مكانته الكبيرة في الحياة الاجتماعية في الجاهلية فهو
لسان القبيلة وحكمها ، فلا يعارض ، ويستشفع فيشفع ، ويقول فينهى
لقوله ، وبشير فلا يرد له رأى .

وكان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب فلما كثر الشعراء وكثر
الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر (١) ويقول أبو عمرو بن العلاء :
كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي
يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر
مكسبة ورحلوا إلى السوق وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب
عندهم فوق الشاعر (٢) .

- { -

التكسب بالشعر :

ولما كانت الشعر في الجاهلية وعظمة شأن الشاعر كان الشعراء يأفون أن
يمدحوا إنساناً إلا لأغراض شريفة ومقاصد نبيلة . حتى وجدت طبقة من
الشعراء قصدت بشعرها الملوك والأمراء وانتجعت الرؤساء والاشراف
وأزيت بالشعر ومكانته والشاعر ومنزلته إزراء شديداً . ومن هؤلاء
الشعراء الذين تكسبوا بالشعر :

(١) السابعة الذبياني ، فقد قصد بشعره ملوك الحيرة وغسان يمدحهم

(١) ٣/٢٥٩ البيان والنبين للجاحظ

(٢) ١٧٠ ج ١ المرجع

ويثنى عليهم ويشيد بأعمالهم فأغدقوا عليه المال وكانواؤه على ذلك مكافأة كبيرة ، ولكنه مع ذلك كان يعتز بنفسه كثيراً ، فيقول عن ملوك بني غسان يخاطب النعمان بن المنذر ويعتذر إليه :

ملوك وإنخوان لماذا ما أتيتهم أحكم في أهوالهم وأقرب
(ب) وزهير ، فقد مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف ؛ وأشاد
بهرم إشادة البليغ الشاعر الساهر .
(ج) وكذلك أمية بن أبي الصلت ، وهو القائل يمدح عبدالله بن جدعان
وكان سيداً جواداً مضيافاً :

كريم لا يغيره صباح عن الخلق الجليل ولا مساء
يبارى الریح مكرمة ومجدا إذا ما الكلب أجحره الشتاء
فهل تخفى السماء على بصير وهل بالشمس طالعة خفاء ؟
(د) وكذلك الأعشى فقد جاب البلاد ومدح الرؤساء وسواهم وتكسب
بشعره تكسباً شديداً ، وقالوا لأنه أول من سأل بشعره (١) :
(هـ) ثم جاء بعد هؤلاء الخطيئة فاتخذ الشعر تجارة ومكسباً وحرفة
بين الناس . وذلك بما غرض بالشعر . وأزرى به عند الخاصة .

شاعرية العرب

الشعر الجاهلي كثير كنزة هائلة ، والشعراء المعروفون بالشعر في قبائلهم وعشائرتهم في الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم باحث ، أو يقف على عددهم واقف . ولو أقتى عمره في التنقيب عنهم ، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال ، ولا أحسب أحداً من علمائنا استفرق شعر قبيلة

(١) ٢٩ طبقات الشعراء لابن سلام ، ويروى أن المرقش الأكبر هو أول من أطال المدح ٢٩٩ ج ٢ المزهر ،

حتى لم يفته منها شاعر إلا عرفه . ولا قصيدة إلا رواها (١) ، ويذكر ابن قتيبة أن أبا ضمضم أنشد شعرا لمائة شاعر كلهم اسمهم عمرو (١) .
فما السر في هذه الشعارية التي لم تعرف لأمة من الأمم من قبل ولا من بعد ؟

١ - أول أسباب شعارية العرب هو الصحراء وجوها الذي يوحى بالشعر ويلهم الخيال ويذكى العاطفة ويشير الشهور .

٢ - : تآنيها هو حياة العرب أنفسهم في الجاهلية ، هذه الحياة الحماسية التي دفعتهم إليها عواطفهم النائرة ، ووجدتهم في قلب هذه الصحراء الواسعة المترامية الأطراف ، ويتضاف إلى ذلك رجوع العربي إلى عاطفته أكثر مما يرجع إلى عقله ، وتمتله في بطن الصحراء على جملة أو فرسه وسط الرمال والجبال والتماهات ، وحاجته إلى الغناء في هذه الوحدة الشاملة ليسلى هموم نفسه وأحزانها وآلامها .

٣ - هذا عدا الاستعداد الفطري للشعر في نفس كل عربي وعربية بما كان يذكيه الخيال ، ويولده التأمل وتلك الحياة الشبيهة بالحياة الصوفية المتنبلة .

٤ - ونجد كذلك ظروف الحياة الاجتماعية في الصحراء وكثرة حروبهم وغاراتهم وحاجتهم إلى الترنم بمفاخرهم ومآثرهم وأحسابهم وأنسابهم ، بما لا بد فيه من نوع جميل من الأدب يخلده ويرويه ويزدجعه بين الداس ، وليس هذا النوع سوى الشعر .

٥ - قوة حافظته العرب وأنهم أمة أمية تعتمد على الذاكرة لا على التدوين ، والشعر أسهل في الحافظة رواية وأبقى تعلقا بالخطاير .

٦ - يضاف إلى ذلك اللغة العربية نفسها فإنها بإقرار الباحثين في أصول اللغات لغة شعرية برنين مفرداتها وأسايلها وروحها ومعانيها .

٧ - إلى غير ذلك من الأسباب الكثيرة ، التي من أهمها هذا الفراغ

الكثير الذى كان يتمتع به العربى لعدم اشتغاله بصناعة أو تدبير ملك وسياسة أو لإدارة مرافق دولة .

وبعد فقد كان العرب شعراء بالفطرة ، نظم الشعر كل عربى وعربية ، كما نظمته الملوك والأمراء والسادة والحكام والفرسان والصالحين (١) والعبيد وسواهم من شتى الطبقات مما بلغ حد الكثرة الهائلة لولا أن ضاع أغلبه على مر الأجيال حتى قال أبو عمرو بن العلاء : « ما انتهى اليكم : ما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافرا لجاؤكم علم كثير وشعر كثير (٢) » .

لون الشعر العربى الجاهلى

ينقسم الشعر عند الإفرنج إلى : غنائى وقصصى وتمثيلى ، وقد ظهرت هذه الأنواع فى الشعر اليونانى ، الذى قلده الرومانيون بالنظم فى شتى هذه الألوان ، كما بنى الشعر الأوروبى الحديث على الأصول اليونانية اللاتينية من حيث الأقسام الثلاثة المعروفة .

أما الشعر القصصى : فهو الذى يصور الوقائع والعادات وأحوال الشعوب ويصف الاجتماع وسير الأبطال ، ويستوحى الآلهة والأساطير .

وأما الشعر التمثيلى : فيعتمد على الحوار وتمثيل الحوادث والأشخاص وإظهار حركاتهم وما فى خواطرهم من مشاعر ونزعات .

وأما الشعر الوجدانى أو الغنائى فيصور العواطف الإنسانية ومشاعر الشعراء وأفكاره ونزعاته ويتحدث عن الجمال والطبيعة حديث المتأمل المفكر فهو يعبر عن الشاعر وخواطره وآماله وآلامه وأحلامه وتأملاته ومشاعره تعبيراً صادقا واضحا قويا مؤثرا .

(١) منهم تأبط شرا وعروة بن الورد وسواهم .

(٢) ٢٩٤ ج ٢ الزهر .

والشعر العربي أو الجاهلي بصفة خاصة شعر غنائى لا أثر للون القصصى أو التمثيلى فيه ، فهو يمثل عواطف الشاعر وشاعره ، ويلبس من العطرة والوجدان والخيال والحياة العامة .

لم يكن الشاعر الجاهلي قاصا ؛ فلم ينظم الشعر القصصى ، وإنما كان ينطق بما يمليه عليه شعوره ، ووجدانه ويتحدث عن نفسه ومجتمعه ويثبته . ذلكم أن الشعر القصصى يحتاج إلى نفس طويل وفراغ كثير ، وروح فنية متحضرة أو هو لون من ألوان الحضارة لأنه تدوين وتاريخ قصة من قصص الأبطال أو فترة من تاريخ الأمة وحياتها ، والعربى لم يكن يعرف أسباب الحضارة ولا مسائلها من الكتابة والتدوين والتاريخ . وإن كان بعض الشعراء الجاهلين قد أجاد فى القصص الشعرى الصغير ، كقول امرئ القيس :

سموت إليها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال
وقالت سبائك الله إنك فاضحى ألفت ترى السمار والناس أحوالى
فقلت يمين الله أبرح قاعدا ولو قطعوا راسى لديق وأوصالى
وقول الأسود بن يعفر :

ماذا أؤمل بعد آل محرق تركوا منازلهم وبعد إباد
جرت الرياح على محل ديارهم فكأنهم كانوا على ميماد
فأرى النعم وكل ما يملهى به يوما يصير إلى بلى ونفاد

إلى غير ذلك من الكثير من ألوان هذا القصص الشعرى الصغير (١) ،
ولكن مهما كان فلا نجد فى الشعر الجاهلى شعرا قصصيا بلمنى المعروف ، إذ

(١) يقول الدكتور طه حسين : لست وانفقا كل الثقة من أن الأدب العربى ينحدر من القصص ، فالذين يقرأون الشعر الجاهلى والشعر الأموى كشعر جرير والفرزدق والأخطل يلاحظون أن مزايا كثيرة من خصائص الشعر القصصى موجودة فى الشعر العربى (١٥١٤) من حديث الشعر والنثر .

لأنجد قصائد تصور حياة الأبطال مثلاً في عدة آلاف من الأبيات ، ونفس العربي لا يساعده على هذا الطول ، فوق قيود الوزن والقافية ؛ فضلاً عن أن شدة تعلق العربي بالحرية ونزوعه إليها وإلى الاستقلال بذاته عن عداه ، دعت به إلى أن يوجه همته إلى وصف عواطفه وتحليل مشاعره وذكر ما يعيش فيه من سلام وحرب وشوق وحنين ، إلى مأسوى ذلك من شتى ألوان شعوره ، مما عنب شعره بصبغة غنائية وجدانية خالصة ، وإن كان لا ينفي ذلك أن الشعر الجاهلي أشد ما يكون تمثيلاً للبيئة الجاهلية والحياة العربية فيها ، لأن كل ذلك كان وثيق الصلة بنفس الشاعر ووجدانه .

كذلك لم ينظم الشاعر الجاهلي شعراً تمثيلاً ، لأن هذا لون من الشعر يحتاج إلى لون من ألوان المعيشة المتحضرة وإلى قبس من روح الفلسفة والتفكير العميق والنظرات البعيدة للأشياء والحياة ، وذلك مالم يكن له وجود عند العرب في جاهليتهم .

وإن كان بعض الشعراء الجاهليين قد أكثر من الحوار العادي الساذج القصير في شعره ، مما نجده في بعض القصائد الجاهلية (١) ، فإن هذا اللون ليس هو مانع به بالشعر التمثيلي .

وهذا لا يعيب الشعر الجاهلي ولا ينقص من قيمته ، فهو وإن كان شعراً غنائياً جال في كل ميدان وتحدث في كل ناحية ، ووصف مشاهد البيئة ومناظر الطبيعة ومشاعر النفس البشرية وإحساساتها ، مما لا يزال شاهداً صدق ومؤرخ حق للحياة في الجاهلية وما كان فيها من أحداث وما كان يختلج بنفس الشاعر فيها من عواطف وآمال .

(١) مثل قول الأعشى :

كن كالسموأل إذ طاف المهام به في جحفل ، كمزيم الليل ، جرار
لذسامه خطى خسف ، فقال له قل ما تشاء ، فاني سامع ، حار
إلى آخر هذه الأبيات .

تنقل الشعر في القبائل

تتباين النظريات بين القدامى والمحدثين حول هذا الموضوع اختلافاً كثيراً ونعرض هنا الآراء المختلفة ، ونناقشها مناقشة هادئة منهضة .

١ - يقول ابن سلام :

« كان شعر الجاهلية في ربيعة ، وأولهم : المهلهل ، والمرقشان ، وسعد ابن مالك ، وطرفة . وعمر بن قتيبة ، والحارث بن حلزة ، والمتلمس ، وأرعشى ، والمسيد بن علس .

ثم تقول في قيس ، فمنهم : الباقعة الذبياني ، وزهير ، وابنه كعب ، وأبيد ، والجدى ، والحطيئة ، والشماخ ومزرد ، وخدش بن زهير .

ثم آل إلى تميم . فم يزل فيهم إلى اليوم (١) . . .

وخلال سنة ذلك أن الشعر كان في اليمن ثم انتقل إلى ربيعة فظهر في قبائلها وعلى السنة شعرائها ، ثم انتقل إلى قيس من مضر ، ثم استقر في تميم ومنهم أوس بن حجر ، (٢) .

٢ - ويذهب طه حسين في الأدب الجاهلي كما سيأتي إلى عكس ذلك ، فيرى أن الشعر كان في مضر ثم انتقل إلى ربيعة فالين ثم إلى شعراء الموالى (٣) وهذا بناء على نظريته في انتقال الشعر وسيأتي تفصيل ذلك .

ورأي طه حسين لا سند له من الواقع والتاريخ ، ويرد عليه الأستاذ محمد لطفى جمعة في كتابه « الشهاب الراصد » (٤) .

(١) ٢٢٢ و ٢٢١ طبقات الشعراء لابن سلام طبع المطبعة المحمودية ، ٢٢٩٥ و ٢٢٩٦

المزهر للسيوطي (٢) وكان زهير راويته ٢٩٦ ج ٢ المزهر ،

(٣) ٢٠٦ الأدب الجاهلي (٤) راجع ٢٩٦ وما بعدها من الشهاب الراصد

٣ - والواقع أن الشعر كان في القبائل اليمنية ، ومنهم : امرؤ القيس (١) وسواه.. ثم انتقل إلى ربيعة (وهي قبائل كثيرة منها بكر وتغلب وعبد القيس والنمر بن قاسط ويشكر وشيبان وذهل وسدوس) ، وكانوا قديما يقيمون في اليمن ثم رحلوا إلى نجد ، وهذا يفسر مروراتهم الشعر عن اليمن ، وظهر منهم في نجد شعراء كثيرون : ومنهم المهلهل ، والمرقشان ، وطرفة ، والمتلبس ، وعمرو بن قيس ، وسعد بن مالك ، والمسلب ، والأعشى ، والحارث بن حنظلة ، وعمرو بن كلثوم . ثم تحول الشعر في قيس من مضر ، (وأنيس بطون كثيرة منها : عبس وذبيان وخطافان وسليم وهو ازن وعدوان وثقيف وعامر بن صعصعة وعقيل وقشير وجعدة ونمير) ، وكانت مساكن هذه القبائل في نجد وأعلى الحجاز ، وظهر منهم كثير من الشعراء : كالنابغة ، وزهير ، وابنة كعب ، ولبيد ، والحطيئة ، والشمخ ، ومزدد ، وعنترة . ثم استقر الشعر في تميم وهي من كبرى قبائل مضر ، (ولها بطون كثيرة منها : مازن ودارم ويزيد وجرهم وجماعة) ، وكانت تميم تقيم في تهامة ونزحت إلى بادية العراق وما يليها جنوبا قبل الإسلام بنحو خمسين ومائة سنة ، ومن شعرائها أوس . ثم ظهر الشعر في بطون مدركة بعد ذلك : من هذيل وأسد وكنانة وقريش والدئل .

أما المدن فشعراؤها قليل ومن أشهرهم : حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلوات الله عليه .

شياطين الشعراء

١ - كان العقل البشري في العصر الجاهلي لم يستحكم فزوجه التفكير والاجتماعي ، وكان الناس كثيرا ما يعيشون على الأوهام . وللعرب أوهام

(١) والمهلهل خال امرئ القيس . وكان امرؤ القيس وطرفة وعبيد وعمرو ابن قيس والمتلبس في عصر واحد ، ٢٢ طبقات الشعراء لابن سلام ،

كثيرة نزلات عندهم منزلة الحقائق .

فقد كانوا يعتقدون به جود الغول وأنها تتشكل وتتلون في ضروب
الشيء ، والعنبر ، يقول تأبط شرا :

ألا من مبلّغ فتیان فهم بما لا قیت عند رسی طان

أأن قد لقیت الغول تلوی بمرت كالصحيفة صحه جان

إلى آخر هذه الذبيات .

وكانوا يلبسون إلى الجن أساطير وخرافات (١) ، ويذكرون أن من
مدنهم دجبر ، التي يلبسون إليها كل فائق الصفه من الأشياء وكل غريب
الشكل من الناس بل كل ما أراؤا تميزه عن أنواعه من المماني ، قال أعرابي :
« ظلمني والله ظلمًا عبقريًا » ، والرسول (ص) في عمر : « فلم أر شبقريًا يفري
لربه » ، وأكثر جعل الياسك العرب من التحدث عن الجن : كعمرو بن براق ،
والشعري والسيدي بن السلكة وتأبط شرا وسواهم .

ويروي أبو اسحاق النظام - كما - واه الجاحظ في الحيوان - أن أصل ذلك كله
هو الأوهام الناشئة عن الحياة في أرض مقفرة بعيدة عن العمران قليلة المسالك
والعالم بما يحدث للسائر فيها ألوانا من الخوف النفسى ، ويقول عبيد بن أيوب
وكان جوابًا في جاهل الأرض يشرح أسباب الخوف وما يلبس من الهم :

لله در الغول أى ربيعة له صاحب قفر خائف متنظر

وقد كثر في الشعر الجاهلي ذكر الجن والغيلان والسما إلى وسوى ذلك .

٢ وأدى ذلك إلى أن جعل العرب للشياطين شعراء يلهونهم الشعر
والخيال ، وسوم بأسماء ، واقتصر كل شاعر بشيئانه ، ولا شك أن كل ذلك
ناشئ عن تصورهم للجن ، لحين رأوا الشاعر إنسانًا يختلف في أطواره عن
مشابهة وينزل بفكره إلى أودية لم يعتادوا الخوض فيها ؛ وحين رأوا لكلامه

(١) راجع حديث سواد بن قارب لعمر بن الخطاب حول كلام جنى لسواد

في صدق الرسول صلوات الله عليه د ٢٥ و ٢٦ الجمرة ،

فهل الخمر وتأثير السحر وأنه إذا أراد قبح الحسن وحسن القبيح فأدخل على النفوس الوهم بقبحه أو حسنه فيبان رائقا ممجيا وجميلا فاتنا ، وأنه إذا شاء أو غر الصدور ، ثم إذا شاء أطفأ هذه النار التي ألهبها ، وأتأم هذه الفتنة التي أيقظها ، وأنه هو الذي جمع في قلب واحد بين الفتنك والمسك والهمر والظلم ، فمكأن عابدا متخشعا ثم طامعا متطلعا وقائعا متعقفا ثم جبارا متعسفا ، وأنه هو رب الحكمة يرسلها نور هدى ، والكلمة الفاجرة يجعلها شرك عمياء وغواية ، وأنه القادر على ما شاء من برهان وبهتان . لما كان هذا شأن الشاعر وكاد فيه إنسانا كشيطان توهموا أن روح ذلك الشيطان لا يسته فنطق بهواها وأدى فخرها .

ومن شياطين الشعراء الشيصبان ، ولا نط شيطان امرئ القيس ، وهبيد شيطان عبيد ، وهاذر صاحب النابغة ، ومسحل صاحب الأعشى ، إلى ما سوى ذلك من شياطين الشعراء .

٣- وصور الجاهليون عقيدتهم حول شياطين الشعراء ، في شعرهم فقال شاعر:

فان شيطاني أمير الجن يذهب بي في الشعر كل فن
وقال حسان :

ولي صاحب من بنى الشيصبان فطورا أقول وطورا هو
وقال الأعشى في شيطانه مسحل :

دعوت خليلي مسحلا ودعوا له جهنم ، جسدعا للهجين المذم
وجهنم : شيطان عمرو بن قطن .

ويقول أيضا : إذا مسحل يسدى لي القول أعلق . وراجع أسطورة عن هبيد صاحب غبيد في الجهرة (١) وفي الجهرة : د شعراء العرب شياطين تنطق به على ألسنتها (٢) .

ومن أسماء شياطين الشعراء : هباب ، وهاذر صاحب النابغة ، ولا نط صاحب امرئ القيس (٣) ، وسوى ذلك.

(١) ص ٢٠ و ٢١ الجهرة ط ١٩٢٦ (٢) ص ٢٢ المرجع (٣) راجع ٢٣ و ٢٤ من المرجع

٤ - ويرد ابن حزم (١) عقيدة العرب في شياطين الشعراء إلى ما ألقى في روعهم من أن الجن غلاة القوّة والتفوق على الإنس فلبسوا اليهم كل عظيم يعجز عنه البشر .

طبقات الشعراء الجاهليين

- ١ -

الطبقة كل جماعة عاشوا متقاربين في الزمان وجرت عليهم أحكام واحدة من تأثير البيئة وإن لم يتحدوا في المنزع أو يدخلوا في مناقضة أو يتزاحوا على باب ملك (٢) ومعنى الطبقة أسم نظراء (٣) وأنهم قرييون من بعض في ميزانهم الأدبية العامة وإن اختلفوا في اتجاهاتهم الفنية وإنتاجهم الفني .

والشعراء أربع طبقات : جاهليون ومخضرمون وإسلاميون ومولدون وهم الذين فسدت فيهم ملكة اللسان فعاالجوها بالصناعة وهم شعراء بني العباس (٤) . ويشيف اليهم الشهاب الخفاجي : المحدثون ثم المتأخرون والعصريون (٥) . والمخضرمون هم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام وقالوا فيه اشعر كالجمدى والحطينة وحسان ، أما لبيد الجاهلي لأنه حرم الشعر على نفسه بعد إسلامه ولم يقل إلا بيتين فيه (٦) .

(١) ٢٢٢ ج ٥ الملل والنحل (٢) ١٠١ ج ٤ الأدب المباسي لمحمود مصطفي (٣) ٨٤ تاريخ النقد الأدبي عند العرب (٤) ٤٥ تاريخ الأدب العربي للزيات ، و ٣١٠ الريحانة للشهاب الخفاجي (٥) ٣١٠ و ٣١١ الريحانة للشهاب الخفاجي . (٦) يقول ابن سلام : كان لبيد فارسا شاعرا شجاعا وكان عذب المنطق رقيق حواشي الكلام وكتب عمر إلى عامله أن سل لبيدا والأغلب ما أحدثا من الشعر في الإسلام ، فقال الأغلب :

أرجوا سألت أم قصيدا فقد سألت هينا موجودا

وقال لبيد : قد أبداني الله سورة البقرة وآل عمران فزاد عمر في عطائه . وكان في الجاهلية خير شاعر لقومه يمدحهم ويرثيهم ويعدد أيامهم ورقائهم وفرسانهم (٨) طبقات الشعراء

أما الإسلاميون فهم الذين نشأوا في الإسلام إلى آخر عهد الدولة الأموية والمحدثون بعد ذلك وهم العباسيون ، وقال ابن رشيقي : « طبقات الشعراء أربع جاهلي ومخضرم وإسلامي ومحدث ، ثم صار المحدثون طبقات أولى وثانية على التدرج إلى وقتنا » - ٣٠٤ ج ٢ م زهر .

- ٢ -

ويقسم ابن سلام في كتابه « طبقات الشعراء » شعراء الجاهلية إلى عشر طبقات ، وهي :

- ١ - الطبقة الأولى : امرؤ القيس ، والنابغة ، وزهير ، والأعشى .
- ٢ - الثانية : كعب والحطيئة .
- ٣ - الثالثة : الجعدى وأبو ذؤيب والتميم ، وليبيد .
- ٤ - الرابعة : طرفة وعبيد وعلقمة وعدى .
- ٥ - الخامسة : خدش ، والأسود بن يعفر ، والمخبل ، وتميم بن أبي بن مقبل .
- ٦ - والطبقة السادسة : عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة ، وعنترة ، وسويد بن أبي كاهل .
- ٧ - والطبقة السابعة : سلامة بن جندل ، والحسين بن الحارث المري ، والمتلمس ، والمسيب .
- ٨ - والطبقة الثامنة : عمرو بن قيس ، والنمر بن تولب ، وأوس بن عفراء ، وعوف بن عطية .
- ٩ - والطبقة التاسعة : ضابئ بن الحارث ، وسويد بن كراع بن الحويدرة ، وسهيم .
- ١٠ - والطبقة العاشرة : ابن الأسكر وابن مخضرم وعمرو بن شاس .
- ١١ - ويضيف إليهم أصحاب المرائي وهم : متمم والخنساء وأعشى باهلة وكعب بن سعد ، ثم شعراء القرى العربية وهي :

(أ) المدينة وشعراؤها حسان وكعب بن مالك وابن رواحة وقيس بن الخطيم وابن الأسلت ، ويهودها الشعراء : السموأل والربيع بن أبي الحقيق وكعب بن الأشرف وشريح بن عمران وشعبة بن غريفة وأبو قيس بن رفاعة وأبو الذيال ودهم بن زيد .

(ب) مكة وشعراؤها : ابن حذافة وهيب بن الزبير وأبو طالب وأبو سفيان ومساير وضرار بن الخطاب وأبو عزة الجهمي .

(ح) الطائف وشعراؤها : أبو الهيثم ، وأميرة بن أبي الهيثم ، وغيلان وكنانة بن عبد الله بن ليل ،

(د) البحرين وشعراؤها : المثنى والمزق العبدى والمفضل .
ولا حظ أنه يفتخ الشعراء المخضرمين مع الجاهليين ، لأنهم أدركوا جانباً من الجاهلية .

وقال أبو عبيدة :

أشعر الناس أهل الوبر خاصة وهم :

(أ) اسرؤ القيس ، وزهير ، والناطقة

(ب) وفي الطبقة الثانية : الأعشى ، ولييد ، وطرفة .

(ح) وفي الطبقة الثالثة : المرقش ، وكعب بن زهير ، والخطيئة ، وخدش ، ودريد بن الصمة ، وعنترة ، وعروة بن الورد ، والنمر بن تولب والشماخ ، وعمر بن أحر .

قال صاحب الجهرة : والقول عندنا ما قال أبو عبيدة :

اسرؤ القيس ثم زهير والناطقة والأعشى ولييد وعمر وطرفة (١)

(١) { الجهرة . ولا حظ أن فيمن عددهم أبو عبيدة في الطبقة الثالثة شعراء .

وأما أشعر الشعراء الجاهليين فقد اختلفوا فيه ، قال عمر بن شبة في «طبقات الشعراء» : وادعت كل قبيلة لشاعرها أنه الأول ، فادعت اليمانية لامرئ القيس ، وبنو أسد لعبيد بن الأبرص وتغلب لمهلل وبكر لعمر و ابن قيس والمرقس الأكبر ، وإباد لأبي دؤاد (١) ،

وحكى الأصمعي عن ابن أبي طرفة : كفاك من الشعراء أربعة ؛ زهير إذا رغب والنابعة إذا رهب والأعشى إذا طرب وعنترة إذا كاب ، وقيل لـ كثير أو لنصيب : من أشعر العرب ؟ فقال امرؤ القيس إذا ركب وزدير إذا رغب والنابعة إذا رهب والأعشى إذا شرب (٢) .

وقال أبو عمر : أشعر الناس : امرؤ القيس والنابعة وطرفة ومهلل .

وروى عن رسول الله (ص) في امرئ القيس : أنه أشعر الشعراء وقادهم إلى النار ، وقال العباس بن عبد المطلب عن امرئ القيس هو سابق الشعراء (٣) ؛ وقدمه كذلك الفرزدق (٤) وقتيبة بن مسلم (٥) ومروان بن أبي حفصة (٣٨١ ج ٣ العقد) .

وقدم خلف الأعشى ، وكذلك سوى خلف من العلماء (٣٠٠ ج ٢ المزهري) وكذلك الأخطل (٤٥ الجهرة)

مخضرمون ، والمخضرمون مشتق من الخضرمة وهي القطع يقال بعير مخضرم إذا قطع طرف أذنه فسمى الشاعر مخضرمًا لا تقطاعه عن الجاهلية إلى الإسلام أو لأن رتبة المخضرمين في الشعر قد نقصت في الإسلام ، وقيل هو من الخضرمة بالحاء وهي الحنطة لأنه خلط الجاهلية والإسلام (٣٠٤ و ٣٠٥ : ٢ المزهري)

(١) ٢٩٦ : ٢ المزهري .

(٢) ٢٩٧ : ٢ المزهري (٣) ٢٩٦ : ٢ المزهري (٤) ٢٩٧ : ٢ المزهري . وكان

الفرزدق أدوى الناس لأخبار امرئ القيس وأشعاره (٣٥٣ : ٤ العقد) ،

وراجع يوم دارة جليل فيه (٣٤٢ : ٤)

(٥) ٢٩٨ : ٣ المرجع

وقدم جرير زهيراً ، وكذلك قدمه ابن أحر (١) ، ويروى أن جريراً
 قدمه على الشعراء (١) .
 وكان علماء البصرة يقدمون امرأ القيس وأهل الكوفة يقدمون الأعشى
 أهل الحجاز والبادية يقدمون زهيراً والناطقة وكان أهل العالية لا يعدلون
 الناطقة أحداً وأهل الحجاز لا يعدلون بزهير أحداً (١)
 والخلاف في تقديم شاعر من هؤلاء الشعراء على الآخرين كثير ولا
 أعنى للإضافة فيه (٢) .
 والذين يقدمون امرأ القيس يقدمونه لكثرة ما ابتكر من معان
 خلق من أساليب في الغزل وسواه (٣) .
 والذين يقدمون الناطقة يقولون هو أوضحهم معنى وأبعدهم غاية
 رأ أكثرهم فائدة (٤) .
 والذين يقدمون الأعشى يقولون هو أمدحهم للملوك وأوصفهم للخمر
 وأعزهم شعراً وأحسنهم قريضاً (٥) .
 والذين قدموا لبيداً قالوا هو أفضلهم في الجاهلية والإسلام وأقلهم
 لغواً في شعره (٥) .
 والذين قدموا عمر بن كاثوم قالوا هو من قدماء الشعراء وأعزهم نفساً
 وأكبرهم امتناعاً وأجودهم واحدة (٦) .
 والذين قدموا طرفة قالوا هو أشعرهم إذ بلغ بمعداته سنه ما بلغ القوم
 في طول أعمارهم ، نخب وركض معهم (٧) .

(١) ٢: ٢٩٩ المرجع (٢) راجع في ذلك ٣١ - ٤٦ من الجهرة
 (٣) راجع ٢: ٢٩٧ المزهر وراجع ٣١ الجهرة و ٣٤ الشعر والشعراء
 (٤) ٢٣ الجهرة وما بعدها
 (٥) ٣٨ الجهرة وكانت عائشة رضي الله عنها تروى ألف بيت للبيد
 (٦) ٤٠ الجهرة (٧) ٤١ المرجع (٢: ٣٨٢ المقدم)

ويقسمون الشعراء إلى أربعة : شاعر خنذيذ وهو الذى يجمع إلى جودة الشعر رواية الجيد من شعر غيره ، وشاعر مفلق وهو الذى لا رواية له إلا أنه مجيد كالخنذيذ فى شعره ، وشاعر فقط وهو فوق الردى بدرجة ؛ وشعور وهو لا شئ له . قال بعض الشعراء :

يا رابع الشعراء كيف هجوتنى وزعت أنى مفهم لا أنطق
وقيل هم : شاعر مفلق وشاعر مطبق وشويعر وشعور (١)

رواية الشعر

لم تكن العرب تدون شعرها فى الجاهلية فى ديوان أو سفر وإنما كان محفوظاً فى الصدور تبعه حافظتهم وقلوبهم وأذواقهم وملكاتهم الأدبية الفطرية .

وقد تعجب مما تقرأ من رواية العرب بعد الإسلام وكثرة ما كانوا يحفظون ؛ ولكن لا عجب ؛ فملكات الذكاء والحفظ قوية عند العرب وكانت تعينهم على تخليد الشعر العربى حتى لا يضيع ؟

ولقد كان الأصمى يقول : ما بلغت الحلم حتى رويت اثنتى عشرة ألف أرجوزة ، وكان خلف أروى الناس للشعر وأعلمهم بمجيدته ، وكان خائف مع روايته وحفظه ، يقول الشعر فيحسن وينحله الشعراء ويقال إن القصيدة :

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيل دمه ما يطل

لخلف الأحمر نحلها ابن أخت تأبط شرا . وكذا كان يفعل حماد يحقق الشعر القديم ويقول : ما من شاعر إلا قد حقت فى شعره أبيتاً فجارت عنه

(١) ٢:٣٠٥ المزمع ، وراجع ٢:٢٢٤ البيان والتبيين للجاحظ

لا أعشى بكر فإن لم أزد في شعره غير بيت (١) . ويقول المفعل : سلط على الشعر من حماد ما أفسده .

ورغم هذه الرواية والحاذقة القوية فقد ضاع الكثير من الشعر العربي الجاهلي وغيره ، حتى قال أبو عمرو بن العلاء : وما انتهى إليكم ما قالت العرب لا أقله ولو جاءكم وأفرا اجأ . ثم علم وشعر كثير (٢) .

وأصيب الشعر العربي من الضياع بالافتراء والاختلاق عليه من بعض رواة لأسباب كثيرة منها العصبية أو الرغبة في تفادى الاحراج أو موى ذلك .

ولكن النقاد اهتموا بتعميم الصحيح من المنحول ونهبوا على الكثير من المختلق ، وألفوا كتباً كثيرة جمعوا فيها ما صح من الشعر الجاهلي والآثار لأدبية الأخرى .

وكان لكل شاعر رواية يحفظ شعره وينشده ويأخذ من الشاعر فـ شعر ومذهبه في القريض :

فكان امرؤ القيس راوية أبي داود الأيادي . وزهير راوية أوس بن حجر ، والأعشى راوية المسيب ؛ كما كان الخطيبه راوية زهير .

رواة الشعر الجاهلي (٣)

١ - أبو عمرو بن العلاء البصري م ١٥٤ . له روايات ولم يترك مؤلفات (٤)

٢ - حماد الراوية (٧٥ - ١٥٦ هـ) ، كوفي وليس له مؤلفات (٥)

(١) راجع ٤٠٢ : ٢ العقد (٢) ٢٩٤ : ٢ المزهري

(٣) راجع : بغية الوعاة - طبقات الأدباء لابن الأنباري - معجم الأدباء لياقوت - وفيات الأعيان - فوات الوفيات - الأغاني - الفهرست .

(٤) ٤٢ فهرست (٥) ١٣٤ فهرست . ويقول ابن سلام فيه : وكان أول

٣- الخليل بن أحمد بصرى (١٠٠ - ١٧٤ هـ) وهو مخترع علم العروض.
٤- خلف الآخر بصرى (م ٨٠ هـ) وليس له مؤلفات ، ونقل عن
السيوطى أنه ألف كتاب ، الجبال وما فيها من شعر ، ؛ وله ديوان خاص ،
وقيل إنه صاحب لامية العرب (١) المنسوبة للشنفرى .

٥ - يونس بن حبيب البصرى م ١٨٢ هـ .

٦ - المفضل الضبي م ١٨٩ هـ ؛ كوفى ، وهو أقدم من جمع المختار من شعر
العرب فى كتاب (المفضليات) . وأول من فسر الشعر بيتا بيتا ، ويقال إنه
أول من جمع أشعار الجاهليين .

٧- أبو عبيدة بصرى م ٢٠٩ هـ . وله مؤلفات فى اللغة ، وبجاز
القرآن ، والنقائض .

٨- الأصمعى البصرى م ٢١٦ هـ ، وله مؤلفات فى اللغة ، وكتاب
الأصمىات طبع أوربا وكتاب فى الكروم والنخيل .

٩- محمد بن سلام الجحى م ٢٣١ هـ له طبقات الشعراء ، وغريب
القرآن (٢) .

١٠ - النضر بن شميل م ٢٠٤ هـ

١١ - مؤرج السدوسى م ١٩٥ هـ

١٢ - ابن الكلبى هشام بن محمد م ٢٠٤ هـ

١٣ الهيثم بن عدى كوفى رواية أديب وله مؤلفات وتوفى سنة ٢٠٦ هـ

١٤ - أبو زيد الأنصارى م ٢١٦ هـ ، ثقة وله مؤلفات .

١٥ - أبو عبيد بن القاسم م ٢٢٣ هـ .

١٦ - ابن الأعرابى م ٢٣١ ؛ كوفى ثقة ، وله مؤلفات .

من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الرواية وكان غير موثوق به ،

ويقال إن خالد بن يزيد بن معاوية هو أول من جمع شعر العرب

(١) فى الصناعتين (٢) ١٦٥ فهرست

الشعر الجاهلي بين التجديد والتقليد

-- ١ --

لم يعرض النقاد لبحث الشعر الجاهلي ومظاهر التجديد والتقليد فيه ، ولا يسلم القدماء منهم خاصة بمحدث التقليد في الشعر الجاهلي ، لأنه كله عندهم جديد بكر ، ومظاهر التشابه الفني بين القصائد الجاهلية لا يصح أن يعرض لها أو يتحدث عنها حتى لا نسلم بالتقليد في شعر كله جديد وكله روعة وجمال ، وإذا أخذ الشاعر الجاهلي من شاعر قبله بيتاً أو أبياتاً فلنقل إن ذلك من توارد الخواطر وانفاق الشعاعية ، أولئك ذهب إلى ما ذهب إليه ابن رشيق في عمدته : من أن ذلك « استلحاق » ، والاستلحاق عنده أخذ الشاعر بيتاً من شاعر سبقه على جهة المثل ، وكان أبو عمرو بن العلاء وغيره لا يرون ذلك عيباً وقد يصنع المحذثون مثل هذا . وقد يسلم المنصفون من النقاد القدامى بأن الشاعر الجاهلي يخطئ كما يخطئ غيره ، ولكنهم لا يسلمون بأنه يلسج قصيدته على نهج قصيدة أخرى لشاعر سبقه ، ولم يبحث أحد منهم مذاهب الشعراء الفنية ، وأثر كل طبقة في شعر الطبقة التي تليها . ونحن نعلم أن ابن سلام قسم الشعراء الجاهليين عشر طبقات ، وأضاف إليهم شعراء المراثي وشعراء المدن العربية ، وجعل في الطبقة الأولى امرأ القيس وزهيرا والأعشى والنابعة ، وأن أبا عبيدة قسم الجاهليين ثلاث طبقات ، ووضع في الأولى امرأ القيس وزهيرا والنابعة ، وفي الثانية الأعشى وطرفة وليدة . ووافق على ذلك صاحب الجهرة أبو زيد الأنصاري ، ولكنك تعلم أن شعراء كل طبقة لم يجد منهم عصر واحد ، مما يؤدي إلى أن يكون في كل طبقة شعراء تأثر بهم إخوانهم في الطبقة نفسها ، ومع ذلك كله فإن النقاد لم يبحثوا الصلات الفنية بين الشعراء الجاهليين ، ولا بين طبقاتهم المختلفة ، بل إن قصيدتين مثل قصيدة علقمة الفحل م ٥٦١ والتي مطلعها :
ذهبت من الهجران في غير مذهب ، ، وقصيدة امرئ القيس :

خايل مرا بن علي أم جندب انقضى حاجات الفؤاد المذهب

رغم تشابههما في شتى مظاهر الشاعرية والخيال ، ورغم أن علاقة متأثر
بامرئ القيس في قصيدته وناسج على دنواهما ؛ لا يذكّر النقاد شيئاً عن مظاهر
التشابه الفني بين القصيدتين وهناك قصيدتان أخريان هما : معلة عمرو بن
كثوم : « ألا هي بصحنك فاصبحينا » ، ومجبرة أمية بن أبي الصامت :
« عرفت الدار قد أقوت سلمي » ، والتي نسيج فيها أمية على منوال قصيدة عمرو
واحتذاء فيها ؛ ومع ذلك فإن النقاد لا يتحدثون عن شيء ، ولا يبدون بمحدث
هذا التقليد الفني الغريب ؛ وهناك الكثير من أبيات الشعر تجددها نفسها مكرورة
في شعر كثير من الشعراء ، وقد لا نستطيع أن نشك في روايتها ، ومع ذلك
فالرأى السائد عندهم أن ذلك أثر لاتفاق الشاعرية .

وعلماء الأدب يعرفون أن الشعر كان في اليمن ثم انتقل إلى ربيعة ثم تحول
في قيس من مضر ثم صار إلى تبهم ، ولا يخالف في ذلك إلا الدكتور طه حسين
الذي رأى أن الشعر كان في مضر ثم انتقل إلى ربيعة فاليمن
فالحوالي ؛ ومع ذلك فعلماء الأدب القدماء لم يبالوا يبحث آثار هذه الوراثة
الشعرية المختلفة .

ويقولون : إنه كان لكل شاعر في الجاهلية راوية يروي له ويأخذ عنه
نهجه في الشعر ويتلبس عليه ويتأثر بشعره ، فكان امرؤ القيس راوية
أبي دؤاد الأيادي ، وطرفة راوية المنلس ، والأعشى راوية المسيب بن
علس ، وزهير راوية أوس وطفيل الغنوي معاً ، والحطيئة راوية زهير ،
كما كان الفرزدق وهذبة راويتان للحطيئة ، وأبو حية النميري راوية
للفرزدق ، وجميل راوية لهذبة ، وكثير راوية لجميل ، في العصر الإسلامي .
ومع ذلك كله فلا تزال هذه الأستاذية في الشعر في حاجة إلى بحث كثير
للكشف عن مظاهرها وآثارها الفنية . ولا نرى لذلك أثرًا يذكر في بحوث
النقاد القدماء .

ومدرسة ، المصنفين ، من الشعراء الجاهليين كزهير ونلامة ،
وكالاهلثة وأبي ، طائيل الغنوي والبر بن تواب . لا تزال في حاجة ملحّة
إلى الكشف الدقيق عن خصائص مذهبهم الفني ونشأته وأثره في الشعر
العربي ، وإن كان الدكتور طه حسين قد ألم بجوانب من هذا البحث في
« الأدب الجاهلي » ،

، إذا كان المقاد المقدماء قد قسموا الشعراء الجاهليين إلى طبقات ،
وأغفلوا أثر الرئائيات الشعرية بين هذه الطبقات . ولم يذكروا شيئا عن
مظاهر الأساذية والليونة بين هؤلاء الشعراء ، تخالف بنا أن نقسمهم من
جديد تفصيلا أدبيا إلى طبقات متفاوتة ، بحيث نستطيع أن نحكم على
عمل كل طبقة ومدى أثرها بين قبلها وأثرها في الطبقة التي تليها ، ليستطيع
الباحث أن يفهم الشعر الجاهلي فهمًا جيدًا على أسس جديدة ، كما يفهم
كل ما يتصل بطبقة بشار وطبقة أبي نواس وطبقة أبي تمام والبحتري مثلا
من الشعراء المحدثين ، وكما يفهم مذهب البسارودي ومذهب شوقي ومذهب
غيرهما في الشعر الحديث .

- ٢ -

وبعد فنحن لا نحمد بدا من أن نقسم الشعراء الجاهليين إلى هذه الطبقات
الأدبية :

١ - طبقة مهمل م ٥٣١ ؛ ومن شعرائها : الشنفرى م ٥١٠ ، ونابط
شرام م ٥٣ ، وأبو دؤاد الأيادي م ٥٤٠ ، وسواهم . وزعيم هذه الطبقة
مهمل ، وهو أول من نقل الشعر العربي من طور النثر الجبزي والمقطعات الصغيرة
إلى « رحلة القصيد » فهو أول من قصد القصائد وقال فيها القول ، وأول من
هملل نسج الشعر وخاصة الرثاء أي رقفه وهذبه ، وشعره من أعلى طبقات
شعر المتقدمين كما يقول ابن نباتة ، وهو من شعراء نجد ، وله رثاء كثير في أخيه
كليب زعيم ربيعة والعرب بعد مقتله عام ٤٩٤ م . وقصيدته الغافية : « جارت

بنو بكر ولم يعدلوا ، إحدى القصائد السبع « المنتقيات » ، وكانت العرب تسميها « الداهية » .

ولا شك أن هذه الطبقة هي التي مهدت سبيل التجديد في الشعر أمام امرئ القيس ، كما أنها جددت ولا شك فيه بنقله إلى هذه النهضة الفنية الكبيرة .

٢ - والطبقة الثانية طبقة امرئ القيس م ٥٦٠ ؛ ومن شعرائها :
علقمة م ٥٦١ ، والمرقس الأكبر م ٥٥٢ وهو أول من أطاح المدح ،
والمرقس الأصغر م ٥٦٠ ، وعبيد م ٥٥٥ ، والأفوه الأودي م ٥٧٠ ،
والمثلث م ٥٨٠ ، والمثقب العبدى م ٥٨٧ والحارث بن حلزة م ٥٨٠ ،
وطرفة م ٥٦٥ .

وزعيم هذه الطبقة هو ولا شك امرؤ القيس ، وقد تلمذ في الشعر على
أبي ذؤاد الإيادي وعلى خاله الماهل ، وهو أول من وقف واستوقف وبكى
واستبكى ووصف النساء بالظباء والمها والبيض وشبه الخيل بالعقبان والعصى
وقرب مأخذ الكلام وقيد أوايده ، وأجاد الاستعارة والتشبيه والكناية
ورقق الأسلوب وجعله عذبا في جزالة وجهها ، وأول من شرع للناس مذهب
هذا الغزل القصصي الخلو ، وهذا الطرد الجميل القوي ، ولا تزال كلماته
« قيد الأوابد » ، « ونؤوم الضحى » وسواهما ذات رنين بعيد ، والذي في
شعر امرئ القيس - كما يقول الأمدى في الموازنة - : من رقيق المعاني
وبديع الوصف ولطيف التشبيه ، وبديع الحكمة فوق ما استعار سائر الشعراء
في الجاهلية والإسلام ؛ وهذه الطبقة على أي حال ورثت الشعر عن الطبقة
التي سبقتها وأثرت في الطبقة التي تليها .

٣ والطبقة الثالثة طبقة النابغة م ٦٠٤ ، وزهير م ٦٢ ، والأدشى م
٦٢٩ وهو أول من تكسب بشعره ؛ وعنترة م ٦١٥ وحاتم م ٦٠٥ وعمر
ابن كثوم م ٦٠٠ ؛ ولييد م ٦٦٢ ؛ وأمية بن أبي الصلت م ٦٢٤ .

وزعيم هذه الطبقة هو النابغة ولا شك ، فهو أستاذهم وحكمهم في سوق

عكاظ ، والذي تأثر به الكثير من الشعراء كحسان وسواه .

وزهير من أعلام هذه الطبقة وهو زعيم طبقة « المصنعين » وأستاذ الخطيئة وسواه من الشعراء .

٤ - والطبقة الأخيرة هي طبقة حسان وقيس بن الخطيم وسواهما من الشعراء الذين عاشوا في الجاهلية وشاهدوا زمن النبوة ، وهم الذين يسميهم النقاد « المخضرمين » .

ولا غنى لنا بعد ذلك من أن نقول إنه كان لكل طبقة من هذه الطبقات مذهب فني خاص ، وكانت هذه المذاهب أثراً لوراثات كثيرة وعوامل سياسية واجتماعية أخرى ، كما يبدو فيها أثر التقليد والتجديد جميعاً .

ولا شك أن قيام الأسواق الأدبية ، وحكومة النقاد بين الشعراء ، وتقرب الشعراء بشعرهم إلى الملوك والأمراء واتخاذهم وسيلة للثراء ، وأداة للقبول وإسائناً لإذاعة مفاخر القبيلة ومحامداً وهجاء خصومها ، وهذه النهضة الفنية الكبيرة التي بلغها الشعر في نجد حيث المهجرات العربية والحروب المستمرة ؛ كل هذه الأمور وسواها كانت تدفع بالشعر الجاهلي دائماً إلى الأمام ، وتدعو إلى تجديده وتهذيبه والتجديد فيه .

وقد تتاح لنا فرصة أخرى للحديث عن هذه المذاهب الفنية المختلفة ، وأثرها في الشعر الجاهلي خاصة والعربي عامة .

الشعر الجاهلي بين الطبع والصنعة

١ - المطبوع من الشعراء كما يقول ابن قتيبة من سمح بالشعر واقتدر على القوافي وأراك في صدر البيت عجزه وفي فاتحته قافيته وتبدلت على شعره رونق الطبع ووشى الغزيرة (١) . والمصنوع هو المنقح المثقف من الشعر الذي قومه

صاحبه بالثقاف ونقحه بطول التفتيش ولم يذهب فيه مذهب المطبوعين (١) ،
يظهر للنقاد مهما كان محكما (٢) وتجد البيت فيه مقرونا بغير جاره ومضموما إلى
غير لفظه (٣) ، على أن أئمة الصنعة في الشعر العربي كانوا يحملون قصائدهم
نمطا واحدا بما يحملها مستوية الشاعرية الخطيئة وسواه ، ولذلك قال
الأصمعي : الخطيئة عبد لشعره . قال الجاحظ : غاب شعره حين وجده كاه
متخيرا مستويا لمكان الصنعة والتكاف والقيام عليه (٤) ، وقال الأصمعي
أيضا : زهير والخطيئة وأشباههما عبيد الشعر وكذلك كل من يجود في جميع
شعره ويقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر حتى تخرج أبيات القهيدة كما
مستوية في الجودة (٥) ، قال ابن رشيق : يريد الأصمعي أنهما يتكفان لإصلاحه
ويشغلان به حواسهما وخواطرها (٦) ، وكان الأصمعي يقول : وإنما الشعر
المحمود كشعر الجعدي ورؤية ولذلك قالوا في شعره : مطرف بآلاف وخمار
بواف (٧) ، وكان الأصمعي يفضل من أجل ذلك (٨) ، قال الجاحظ : وكان
يخالف في ذلك جميع الرواة والشعراء (٩) ، وأرى أنه مسجوق بذلك الرأي .

(١) ١٦ المرجع (٢) ٢٢ المرجع

(٣) ٢٣ المرجع ولذلك أخذ النقاد القدماء كالصاحب والثعالبي والبدعي على
المتنى كثرة التفاوت في شعره .

(٤) ٢٥ ج ١ البيان والتبيين .

(٥) ٢٥ ج ٢ المرجع وتروى كلمة الأصمعي برواية أخرى هي : زهير والناطقة
وكان النقاد يعدون الناطقة من المصنمين ويروى عن أبي عبيدة قال سمعت أبا عمرو
يقول : زهير والخطيئة عبيد الشعر لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب
المطبويعين (١٠٥ إعجاز القرآن)

(٦) ١١٢ ج ١ البيان والتبيين .

(٧) ٢٥ : ٢ البيان .

(٨) ١٥٠ ج ١ البيان

(٩) ٢٦ ج ٢ البيان . وكان الأصمعي مع كراهته للصنعة يستحسن التفاوت
في الشاعرية لأنه مظهر الطبع وخلو الشعر من آثار الصناعة .

فقد روى أنه قيل الرماح : لو أصلحت شعرك لذكرت به ، فقال : إنما الشعر كنبيل في جفرك ترمى به الغرض فظالغ وواقع وقاصد (١) ، ورد بشار على من عابه بالتفاوت في شعره بأن الشاعر المطبوع كالبحر يقذف مرة صدفة ويقذف طوراً خريزة (٢) . وعلى هذا الرأي يسير بعض المحدثين ممن يرى أن التفاوت في شعر الشاعر دليل على عبقريته وطبعه وهو الآية الناطقة على شاعرية المتنبي عنده (٣) . وإذا كان الشاعر مصنّعاً بار جيده من سائر شعره كآبى تمام وإذا كان الطبع غالباً عليه لم يبن جيده كل البيئونة وكان قريباً من قريب كالبحرئى ومن شا كله (٤) .

ويرى بعض المحدثين أن الشعر إذا كان صادراً عن ذات نفس الشاعر كان هو شعر الطبع أو شعر الفطرة (٥) فأبنا وجدت النفس المتأثرة بما يزحمها من بواعث الشعور فقد وجدت هنالك شعر الفطرة (٦) ، ويذهب إلى ذلك العقاد حيث يرى أن شعور الشاعر بنفسه حد بين الطبع والتمكف فإذا كان الشعر صادقا مؤثراً فهو من شعر الطبع وإلا فهو متمكف (٧) ، ويرى أن الأديب المطبوع من كان غير مقلد في معناه أو في لفظه وأن يكون صاحب همة في نفسه وعقله لافى لسانه فقط (٨) وكذلك ذهب صاحب « تاريخ النقد الأدبي عند العرب » الذى ذكر رأى ابن قتيبة وحلله بأنه يريد من الطبع فى الشعر معنى الارتجال لا الطبع والشعور والملكة الشعرية الموهوبة ثم بنى على ذلك نقده لابن قتيبة ورأيه (٩) .

ورأى المحدثين إصلاح جديد فى الطبع والصنعة ومعناهما ، وهو لا ينقض رأى الأول الذى ذهب إليه القدماء . بل لعل القدماء قد لاحظوه واكتفوا

-
- | | | |
|---------------------|--------------------------------------|------------------------|
| (١) ٢٨٨ ج ٢ الأغاني | (٢) ٢٧٥ ج ١ زهر | (٣) ٢٧٦ مطالعات العقاد |
| (٤) ١١١ ج ١ العمدة | (٥) ص ٧ الطبع والصنعة فى الشعر | |
| (٦) ١٦ المرجع | (٧) ٢٧٧ مطالعات | |
| (٨) ٢٢٦ مطالعات | (٩) ١٣١ تاريخ النقد الأدبي عند العرب | |

في تعريفهم للطبع والصنعة بآثارهما الفنية في الأدب والشعر .

ونحن نرى أن الأولى في تحديد معنى الطبع والصنعة أن نجتمع بين الرأيين ، فالطبع هو الملكة القادرة في نفس الشاعر والأديب التي توحى إليه بفنّه وأدبه وحي الفطرة والطبيعة واستجابة لعواطفه ومشاعره دون تكلف ودون تب في الصوغ أو استجداء لترف الأسلوب والصناعة ، فإذا جاء شيء من آثار هذا التكلف الفني في شعر المطبوعين من الشعراء فأنما يحسّ عفواً وعن غير قصد إليه وتعمد له وإنما طلبه الذوق واستدعاء المعنى ، ونطقت به الشاعرية دون قصد ودون عناء ودون أن يطنى شيء على نفس الشاعر وشعوره وخلجات قلبه ونزعات عقله وإحساسه . والصنعة هي : إحساس الشاعر أو الأديب بآثار الجمال الفني وترف الأداء ، وزخرف الأسلوب ، وحبه لهذا الجمال والترف والزخرف ، وهيامه الفني بها وقصده إليها وتعمره لها في شعره وأدبه ، حتى يطلب الفن للفن ، ويستلهم الجمال للجمال ، ويستوحي الشعر من ملكاته الفنية التي غلبت عليها هذه النزعة واستبد بها هذا الأسلوب ، وكادت تكون فناً خالصاً يطنى على نفس الشاعر وشعوره وعواطفه وإحساسه بالحياة ، ويستبد بالظهور والغلبة عليها في الفن ، أو يشاركها في تراث الشاعر والأديب الفني فيقلل من ظهور نزعاته ووجداناته فيه ، ولذلك عاب القدماء من النقاد الصنعة والتصنيع ، وكرهوا الصانعين والمصنعين ، وراوا مذهبهم يخالف مذهب القدماء من الشعراء في الجاهلية والإسلام .

٢ - ولقد كان الشعر العربي أثراً للفطرة والقرينة ، واستجابة لمشاعر الشاعر وشعوره بالحياة في الجاهلية ، وكان أكثره ارتجالاً أو ما يشبه الارتجال ، يتناغم الشاعر على البديهة ويأتى به عفو الخاطر ، ترد إلى ذهنه المعاني وتتابع فتشال عليه الألفاظ انشياً ، وتأتيه الأساليب شعراً وشعوراً وسحراً وجمالاً ، كل ذلك في سهولة وتدفق وفطرة ودون تثقيب وتهذيب وتنقيح ، وقد يتقن الشاعر منهم في شعره من آثار الصنعة التي لم يقصدها البيت

والبيتان في القصيدة ، « وربما قرئت » ، من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع ، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادراً . ويزداد حظوة بين الكلام المرسل (١) ، وليس متكافئ تكليف أشعار المولدين ، وإنما وقع لهم عن غير قصد ولا تعمل لكن بطباع القوم عفوا . فلم تكن العرب تنظر في أعطاف شعرها بأن تجلس أو تطابق أو تقابل فتترك لفظة لللفظة أو معنى للمعنى كما يفعل المحدثون ، ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالة وبسط المعنى وإبرازه ، وإتقان بنية الشعر وإحكام عقد القوافي وتلاحم الكلام ببعضه ببعض (٢) ، فكل شئ للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه الهام ، وليس هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى جملة المذهب والعمود الذي إليه يقصد فتأتيه المعاني إرسالا وتلثال عليه الألفاظ انثيالاً (٣) .

وفي العصر الجاهلي بدأ لون جديد من ألوان التشويق والصنعة في الشعر على يد أوس وزهير وتلاميذهما ، كان أوس من أصحاب التنقيح ، وكان يسمى محباً لحسن شعره (٤) وتتلذذ عليه زهير (٥) وكان طفيل كذلك وقد قيل إن زهير روى له (٦) وتتلذذ عليه ، وكذلك كان النمر بن تواب من أصحاب التشويق والتعذيب وكان أبو عمرو بن العلاء يسميه الكيس (٧) ، ومن أبرز رجال هذه المدرسة زهير ، وكان زهير يصنع الحوليات على وجه التشويق والتنقيح ، يصنع القصيدة ثم يسكر نظره فيها خوفاً من التعقب ، بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أو ليلة ، وربما رصد أوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك (٨) ، وكان يعمل القصيدة في ستة أشهر ويهذبها في ستة أشهر ثم يظهرها فتسمى الحوليات (٩) ، وعمل سبع قصائد في سبع سنين

(١) البديع (٢) ١٠٨ ج ١ العمدة (٣) ١٥ ج ٢ البيان

(٤) ١١٢ ج ١ العمدة (٥) ١٧٢ ج ١ المرجع

(٦) ١١٢ و ١٧٤ و ١٧٥ ج ١ العمدة (٧) ١١٢ ج ١ العمدة

(٨) ١٠٨ ج ١ العمدة (٩) ١٢٤ صناعتين

وكان يسميها الحوليات (١) ، وقيل كان ينظمها في شهر ثم لا يزال يهذبها حتى يمر عليها الحول (٢) . قال الجاحظ : ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كرينا (٣) ، وزمنا طويلا يردد فيها نظره ويقلب فيها رأيه اتها ما لعقله وتقبها على نفسه وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمنقحات والمحركات والمقلدات (٤) ، وقال : وكان زهير وهو أحد الثلاثة المتقدمين يسمى كبار قصائده الحوليات (٥) ، وأهل رأى النقاد في أنه كان يدع القصيدة عنده حولا يهذبها ويقوم ثقافتها ويصبغها بصبغة من الصنعة والتنقيح ، بالغة في إطالة نظره فيها وصنعتة لها . وقد احتج أصحاب مذهب الجذمة بأن امرأ القيس كان يشقف شعره ويعمد فيه نظره ويسقط رديته ويثبت جيده (٦) وكان امرؤ القيس راوية أبي داؤاد الأيادي مع قوة غريزة . وكان يلوذ به في شعره ويتوكأ عليه كثيرا (٧) ، وقد سار تلامذة زهير على نهج أستاذهم فكان الحطيمية صانعا حاذقا يقوم على شعره وينقحه (٨) ، وكان يعمل القصيدة في شهر وينظر فيها ثلاثة أشهر ثم يبرزها (٩) ، وكان يقول خير الشعر الحولى المنقح (١٠) أو المحكك (١١) ، ويشبهون طريقة الحطيمية في الشعر بطريقة زهير (١٢) وكان الأحمسي يمييه من أجل (١٢) صنعته ، وكان الحطيمية رواية زهير (١٤) ، وكان الفرزدق يروى للحطيمية كثيرا وكان أبو حمية النخعي وهو من أحسن

-
- | | |
|--|----------------------------|
| (١) ٢٦٦ سر الفصاحة | (٢) ٣٨ ج ٣ الرافعي |
| (٣) أي كاملا | (٤) ٢٢١ ج ٢ البيان والنبين |
| (٥) ١٤٩ ج ١ و ٢٤٠ ج ٢ البيان و ١٠٥ إعجاز القرآن | |
| (٦) ١٨٤ ج ١ العمدة | (٧) ١١٢ ج ١ العمدة |
| (٨) ٦٠ من التصحيف والتحريف للمسكوي | |
| (٩) ١٣٥ صناعتين | (١٠) ١٤٩ ج ١ البيان |
| (١١) ٢٥ ج ٢ ، ١٧٥ ج ١ العمدة ، ويروى ذلك عن زهير (٦٦ سر الفصاحة) | |
| (١٢) ٢٦٧ سر الفصاحة | |
| (١٣) ١٥٠ ج ١ و ٢٥٠ ج ٢ البيان | (١٤) ٧٨ ج ٧ الأغاني |

الناس شهراراً لظهورهم كلاماً مؤتماً بالفرزدق آخذاً عنه كثير التمسب له والرواية عنه (١)، كما كان هدية بن الخشرم رواية الخطبة وجميل رواية هدية وكثير رواية جميل (٢).

وهكذا استمر هذا المذهب، مذهب التثقيف وطول التهذيب منهجاً فنياً يسير عليه بعض الشعراء حتى بعد العصر الجاهلي، وكان أساساً لمذهب البديع الذي نشأ على يد مسلم وأبي تمام من المحدثين.

بين القدامى والمحدثين من النقاد خلاف كبير في تحديد معنى الطبع والصنعة: يرى الأولون أن التهذيب الفني للأسلوب هو الصنعة، فالصنوع هو المثقف المتهذب من الشعر؛ أما الطبع فهو خلو الأثر الأدبي من آثار التجويد والتثقيف، ويرى الآخرون أن شعور الشاعر بنفسه حد بين الطبع والصنعة، فإذا كان الشعر صادقاً مؤثراً فهو من شعر الطبع، وإلا فهو مصنوع متكلف، والأديب المطبوع عندهم من كان غير مقلد في معناه أو في لفظه، وكان صاحب موهبة في نفسه وعقله لا في لسانه فقط.

ورأي المحدثين المعاصرين من النقاد اصطلاح جديد في معنى الطبع والصنعة. وأرى أن الأولى في تحديد معنهما أن نجتمع بين الرأيين اللذين يتلاقيان ولا يتناقضان، فالطبع هو الملكة القادرة في نفس الشاعر والأديب التي توحى إليه بفنه وأدبه وحي الفطرة والطبيعة واستجابة له واطفه ومشاعره

(١) ١٧٢ و ١٧٣ ج ١ العمدة، ٢٩٩ الشعر والشعر

(٢) ٤٨ ج ٣ الرافعي، ٣٠٠ الأدب الجاهلي، ١٧٢ ج ١ العمدة وكان

كثير رواية جميل ومفضلاً له (١٦ ج ١ العقد)

دون تكلف وتعبد في الصوغ أو استجداء لترف الأسلوب والصناعة، أما الصناعة فهي إحساس الشاعر أو الأديب بآثار الجمال الفني وترف الأداء وزخرف الأسلوب وحببه لهذا الجمال والترف والزخرف، وهما به الفنى بها، وقصده إليها، وتعبد لها في شعره، حتى يطلب الفن للفن ويستسلم الجمال للجمال، ويستوحى الشعر من مكانته الفنية التي استبدت بها هذه النزعة، بما يطغى على نفس الشاعر وشعوره وعواطفه وإحساسه بالحياة.

ويجمع جمهور النقاد في القديم والحديث على عيب الصناعة والتعبد، وسموا المصنعين من الشعراء في العصر الجاهلي : عبيد الشعر، وعابوا شعرهم، قال الأصمعي الأديب الراوية الناقد م ٢١٦ هـ : زهير والناطقة وأشباههما عبيد الشعر، وقال . الخطيب - وهو شاعر إسلامي مشهور - عبد لشعره، قال الجاحظ إمام الأدباء والنقاد ٢٥٥ هـ : عاب الأصمعي شعره حين وجده كله متخيراً مستويًا لما كان الصناعة والتكلف والقيام عليه، وكان الأصمعي يستحسن التفاوت في الشاعرية لأنه مظهر الطبع وخلو الشعر من آثار الصناعة، وعلى هذا الرأي يسير بعض المحدثين ممن يرى أن التفاوت في شعر الشاعر دليل على عبقريته وطبعه، ويعده النقاد الآية الناطقة على شاعرية المتنبي وعظيم مكانته في الشعر.

ولقد كان للشعر العربي أثرًا للفطرة والبديهة واستجابة لمشاعر الشاعر وشعوره بالحياة في الجاهلية وكان أكثره ارتجالاً أو ما يشبه الارتجال، ينظمه الشاعر على البديهة، ويأتي به عفو الخاطر، ترد إلى ذهنه المعاني وتتابع، فتتشال عليه الألفاظ وتأتيه الأساليب شعراً وشعوراً وسحراً وجمالاً، كل ذلك في سهولة وتدفق وفطرة دون تثقيف وتهذيب وتثقيف، حتى قال الجاحظ : وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام،

وليس هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجابة فكرة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى جملة المذاهب والعمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالا ، وتتشال عليه الألفاظ انثيالاً .

وفي العصر الجاهلي بدأ لون جديد من ألوان التهذيب والصنعة في الشعر على يد أوس وزهير وتلاميذهما .

كان أوس بن حجر من أصحاب التثقيب ، وكان يسمى محبوا الحسن شعره ، وتتلذذ عليه زهير ، وكان طفيف النضوى كذلك ، وكان النمر بن توبل أصحاب التثقيب والتهذيب ، وكان أبو عمرو بن العلاء الناقد الراوية م ١٥٤ هـ يسميه الكيس لحذقه بالشعر ، والنقاد يعدون النابغة الذبياني أيضاً من المصنعين ، ويقول أنصار الصنعة إن امرأ القيس أيضاً كان يشقف شعره ويميد النظر فيه فيسقط رديته ويثبت جيده ، وكان امرؤ القيس راوية أبي دؤاد الأيادي ؛ وكان يلوذه في شعره ويتوكأ على معانيه كثيراً ، ولكن امرؤ القيس ينفي عنه الصنعة والتصنيع ؛ وفرق بين أن يجيء عفواً في شعره بعض آثار الصناعة الفنية وأن يكون مصنعا ينحت فنه كما ينحت الفنانون تماثيلهم .

وأبرز رجال هذه المدرسة على أي حال هو زهير ، قال بعض النقاد : عمل سبع قصائد في سبع سنين كان يسميات الحوليات . وكان زهير يصنع الحوليات على وجه التثقيب والتهذيب ، يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها - خوفاً من النقد والنقاد - بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أوليلة ، وقيل كان ينظم القصيدة في شهر ثم لا يزال يهذبها حتى يمر عليها الحول ، وقيل : بل كان يعمل القصيدة في ستة أشهر ويهذبها في ستة أشهر ، وقال الجاحظ : كان زهير يسمى كبار قصائده الحوليات . وقد سارت تلامذة زهير على نهج أستاذهم كالخطيئة الشاعر الإسلامي وسواه .

وكان هذا المذهب الفني في الشعر الجاهلي - مذهب الصنعة والتصنيع -

أثراً للتنافس بين الشعراء وقيام الأسواق الأدبية كمعكاف وسواه بالحكومة الأدبية بينهم وكان النابغة تقام له قبة في عكاظ ويتعالم إليه الشعراء ، كما كان أثراً للتكسب بالشعر واتخاذ وسيلة للثراء وعكوف الشعراء المصنعين على تجويد مدائحهم ليستخرجوا بها سني الهدايا والأطاف من مدوحهم ، وكان ارتباط الشعر الجاهلي بالغناء ورغبة بعض الشعراء في التجويد والتجديد في المعاني من أسباب نشأة هذا المذهب الفني أيضاً .

وإذا نظرنا إلى الشعر الجاهلي نفسه وجدنا الفرق كبيراً بين آثار أصحاب الطبع والبديهة كطرفه وامرى القيس ومهلل وآثار الشعراء المصنعين .

والمعلقات السبع وهي من أشهر القصائد الجاهلية في البلاغة الأدبية وأحفلها بمواهب الشاعرية والفن والخيال وخصب المملكات ، كلها من آثار الطبع الأدبي الموهوب ، وليس فيها شيء من مظاهر الصناعة الفنية : فعلقة امريء القيس أروع صورة لحياة الشاعر وترفه ولطوه ، ومعلقة عمرو بن كلثوم ملحمة تاريخية تصور التاريخ القومي والحربي والسياسي لقبيلة الشاعر « تغلب » ، ومعلقة عنتره حديث عذب جميل بين الحب والحرب والبطولة ؛ ومعلقة زهير دعوة للسلام ووصف لأهوال الحرب وقسوتها على الناس والبشرية ، ويكاد يكون زهير فيها أشبه شيء بالمطبوع ، ويكاد أسلوبه فيها يبعد عن الصناعة وآثارها الفنية .

وشتان بين معلقة زهير هذه وبين قصيدة النابغة :

كليني لهم يا أمية ناصب وليل أفاقيه بطيء الكواكب
أو قصيدة أخرى لزهير نفسه هي :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعرى أفراس الصبا ورواحله
لبعد ما بين الأثر المطبوع والآثر المصنوع .

دفاع عن الشعر الجاهلي

- ١ -

كثرت في العصر الحديث مقالات الأدباء والنقاد في الزرابة بالشعر الجاهلي ، وتنقصه ، ورميه بالقدم والجمود ، والدعوة إلى تركه والانصراف عنه ، وعيبه حينما يخلوه من الشعر التمثيلي والقصصي ، وحينما يتفككه وعدم وجود وحدة للقصيدة في آثاره الفنية الباقية ، وباضطراب معانيه وعدم تمثيلها إلا للبيئة البدوية الجاهلية وحدها ، وحينما آخر يرمونه من ناحية الصياغة واللفظ والنظم بأكثر مما يعاب به شعر قديم أو حديث .

وقد حمل لواء هذه الدعوات أدباء كان نصيبهم من دراسة الأدب العربي أو الأدب الجاهلي وحده محدوداً ضئيلاً ، وآخرون قرأوا الأدب الجاهلي فلم يطربوا له ولم يرتاحوا إليه ، ولم يفهموه حق الفهم ، وفريق آخر تدفعه إلى ذلك الشعبية الحديثة التي ترى مظهرها بادياً في تنقص كل ما هو عربي أو قديم والتعصب لكل ما هو غربي أو حديث .

ولا شك أن في أكثر آرائهم جوراً في الحكومة الأدبية وإسرافاً ومغالاة كثيرين ، فلكل شعر جيد - كما يقول الدكتور طه حسين في الأدب الجاهلي - ناحيتان مختلفتان ، فهو من ناحية مظهر من مظاهر الجمال الفني المطلق ، وهو من هذه الناحية موجه إلى الناس جميعاً مؤثر فيهم ، ولما كان بشرط أن يعدوا لفهمه وتذوقه ، وهو من ناحية أخرى مرآة يمثل في قوة أو ضعف شخصية الشاعر وبمئته وعصره ، وهو من هذه الناحية متصل بزمانه ومكانه ، فازدراء الشعر الجاهلي غلو ليس أقل إمعاناً في الخطأ من ازدراء الشعر الأجنبي ،

إننا لا ننكر أنه تحول دون فهم الشعر الجاهلي وتذوقه صعوبات كثيرة

أهمها : ضعوبة لغته وأسلوبه ، وبعد الأمد بصور البيئة العربية القديمة والوان الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي ، ومشاهد الطبيعة والوجود إبان ذلك العهد البعيد ، ولكن ذلك لا يمكن ألا يصح أن يصرفنا عن هذا الجمال الفني الرائع الذي نجده في الشعر الجاهلي ، فضلا عما فيه من تخليد لأثار الحياة العربية الأولى وأحداثها ومظاهر التفكير فيها . ومع ذلك كله فإن الشعر الجاهلي أقوى دعامة للعربية وحفظها وخلودها بعد القرآن الكريم .

فهو من حيث إنه صورة من صور الفن والخيال والجمال ، ومن حيث إنه أساس الثقافة الأدبية والعربية ؛ لا يمكن لذلك ولغيره أيضاً الاستغناء عن هذا الشعر القديم ونبذه ورائنا ظهرياً .

في الشعر الجاهلي جمال ، وهو أيضاً لا يخلو من هنات ؛ وفيه روعة ، وإن كنا لا نبرئه من العيب ، ومع ذلك فإننا نستطيع أن ندرس المذهب الفني الذي يمثلها الشعر الجاهلي ، وأن نتعرف خصائصه وعناصره لنرى إلى أي حد يصح أن نجاري هؤلاء وهؤلاء من النقاد والمتعصبين على الشعر الجاهلي القديم ، وإلى أي مدى يصح أن نسير في الدفاع عنه ؛ فذلك أقرب إلى العدالة الأدبية في البحث والمناقشة .

— ٢ —

١ - أول ما نعرفه من خصائص الشعر الجاهلي : البساطة والصدق والوضوح وعدم التكلف أو الإغراق في الأداء . وهذا شيء يسلمه النقاد للشعر الجاهلي تسليماً ، ويجزمون به ؛ وهو ما يدفعنا إلى الإعجاب به واللذة الفنية حين نقرأه ونستمع إليه ، ولا يمكن أن يكون في ذلك ما يدعو إلى التهور من شأته ، فالجمال أو أحد أسبابه لا يدعو إلا إلى الإعجاب والحب والمتعة . بل إن هذه الميزة الواضحة في الشعر الجاهلي هي نفس ما يدعو إليه نقادنا المحدثون ودعاة التجديد في الأدب العربي الحديث : « بعد أن أبعد المحدثون الشعر عن البساطة والإخلاص ، وهما الصفاتان اللتان كانتا حسناً

له ، كما يقول الدكتور ضيف (١) .

٢ - ويمتاز الشعر الجاهلي أيضا بالزهد في المحسنات وألوان التزيين الفني ؛ وهذه سمة غالبية علمية . وأدباؤنا المحدثون لا يزالون يدعون إلى هذا المذهب . ولقد كان الشعر المصري الحديث في أول نهضته مثقلا بقيود الزخرف البديعي الذي ورثه عن العصر التركي والعثماني وأواخر العصر العباسي إلى أن ثار النقاد على ذلك النهج ودعوا إلى الخلاص من آثاره ، حتى برى الشعر الحديث من عاهته وسار طليقا إلى غاياته . وقد ظهرت في الآداب الأوروبية أيضا صبغة الزخرف الفني في العصور الوسطى ؛ كما حدث في الأدب الإنجليزي بعد عصر اليصابات ، وفي فرنسا بعد عهد لويس الرابع عشر ؛ أفنقول بعد ذلك إن الشعر الجاهلي يعاب لهذه الحسنة الظاهرة ؟ ويزدري لذلك الفضل الظاهر ؟ .

٣ - ومن خصائص الشعر الجاهلي : متانة الأسلوب وقوته وجزالة أمره ، وللبينة البدوية أثر بعيد في ذلك ؛ وقد سار المحدثون في العصر العباسي على هذا النهج حيناً ، وحيناً آخر أغرقوا في العذوبة والسلاسة والسهولة التي ورثوا بعضها عن العصر الأموي ومدرسة العذريين التي شاعت فيه . وقد دافع بعض النقاد عن الجزالة والقوة ، كدافع آخرون عن العذوبة والركة ، ووقف آخرون بمدد مواقف هذه ومواقف تلك كآبن الأثير في المثل السائر وسواه ، ولكن العصور الأخيرة كانت تعد العذوبة ضعفا في الشاعر وميلامنه إلى العامة ، وبهذه النظرة كانوا يحكمون على شعر البهاء زهير الشاعر المصري المشهور . . ولكننا نقول للناشئين : ربوا ذوقكم الأدبي ، وأرهفوا مشاعركم الفنية ، وتأثروا في حياتكم ومذاهبكم الأدبية بالحياة والحضارة التي تعيشون فيها ، وستدركون بأنفسكم الحقيقة الأدبية في هذه المسألة الفنية ، ولا شك أن عذوبة الأسلوب وسلامته يجب أن تبرز في إنتاج الشاعر وفنه ، لأثر

الحياة والحضارة في نفسه ؛ ومع ذلك فهذه العذوبة والرفقة يجب ألا تنقلباً
ضعفاً وعامية ، وأن توشى بألوان من الجزالة في مواقف خاصة تستدعيها
حياة الشاعر ونفسيته قبل كل شيء ؛ كما يجب ألا تنقلب الجزالة حوشية وإغراباً
وتمقيساً عند الشعراء الذين يحافظون على الجزالة . وأحسب أن شعراءنا
المعاصرين الذين يتكلمون الالفاظ اللغوية الكثيرة البعيدة في قصائدهم إنما
يفعلون ذلك تقليداً فحسب وفي مطلع حياتهم الفنية التي يكثر فيها الماشيون من
التقليد ؛ ونحن على أى حال لا يمكن أن نغيب الشعر الجاهلى لجزالة ، فقد رأيت
موقف النقد من الجزالة وإعجاب الكثير منهم بها ودفاعهم عنها ؛ فوق أنها أثر
من آثار البيئة في الشعر الجاهلى .

٤ - ومن خصائص الشعر الجاهلى أيضاً القصد إلى المعنى في إيجاز ويسر
وقلة إطناب ولاشك أن المصور الأدبية التي تلت العصر الجاهلى وتعددت
فيها ألوان الثقافات ومظاهر الحضارات قد أبدت الشعر عن هذا الاتجاه ،
ودفعت إلى الإطناب وشتى ألوان التصوير ؛ ووقف النقد حيال ذلك طواقف ؛
طائفة تدعو إلى الإيجاز وتراه البلاغة والبيان ، وطائفة تشيد بالإطناب وترى
فيه جمال الفصاحة ورعة التصوير ، وأخرى تحدد للأطباء مواضع والإيجاز
مواضع ؛ كقدامة في نقد النثر وابن سنان في سر الفصاحة . ونحن لا نقول للشاعر
المعاصر : أثر الإيجاز أو اعتمد إلى الإطناب ، وإنما نقول له : إن أساس
الجودة الفنية أن تؤدى معانيك في رفق ويسر وقلة فضول . وفي الآداب
الغربية الآن مذاهب تدعو إلى القصد في التصوير البياني والاكتفاء بشرح
الأفكار الجديدة وترك ما عداها .

٥ - ولاشك أن أهم طابع للشعر الجاهلى بعد الذى ذكرناه سابقاً هو هذا
الطابع البدوى الواضح الذى ينفجؤك في شتى القصائد الجاهلية ، مما هو أثر
للبيئة والحياة الجاهلية . ونحن ندعو كما يدعوا كل منصف إلى ترك هذا
الاتجاه في الأداء والتصوير فقد أصبح لا يلائم منهج الحياة في القرن العشرين
كما أن إبراز هذا الطابع البدوى في شعر الشاعر المعاصر يكون تقليداً سخيفاً

لأمبرر له ، وبحول دون ظهور نزعاته الفنية ومواهبه الخاصة المستقلة في شعره ، وهذا ضرر بعيد .

ومن آثار هذا الطابع في الشعر الجاهلي :

١ - شدة تمثيله للبيئة البدوية ، وقد سار بعض الشعراء المحدثين على هذا النهج ، فملأوا شعرهم بصور الحياة البدوية ، من وصف الناقة والجمال والظلم والمدن والديار القديمة ، مما سخر به بعض النقاد والشعراء ودعوا إلى التحرر منه فقال مطيع بن إياس :

لأحسن من يبد تحاربها القطا ومن جبلى طى ووصفكما سلما
تلاحظ عبي ناشقين كلاهما له مقلدة في وجه صاحبه ترعى

وهذه دعوة جديرة بالاعتناء ، خليقة بالإيثار وقد دعا المجددون في الأدب الحديث . وأكثروا من الدعوة إلى أن يكون الشعر صورة لحياة الشاعر ونفسيته وبيئته وعصره ، وإلى أن يخلو من آثار التقليد للقدامى في أغراض الشعر وفنونه وموضوعاته ، وهذا اتجاه جليل قد سار به الشعر العربي الحديث خطوات واسعة نحو التجديد والجمال والروعة ، فالشاعر هو الذى يكون خير مقلد في معناه أو في لفظه . ويكون صاحب هبة فنية في نفسه وعقله ، ويتأثر ببيئته ويؤثر فيها ، ويمثلها في جدها ولهوها وفرحها وحزنها وسلامها وحربها وألمها وأملها أتم تمثيل .

ب - ومن آثار هذا الطابع البدوى في الشعر الجاهلي أيضا بدء أغلب القصائد الجاهلية بذكر الأطلال ، ووصف الديار . وهذا مذهب أغلبية الجاهليين ، لا يشذ عن ذلك إلا القليل ، كعمرو بن كاثوم في معلقته التي بدأها بذكر الراح ، وكتابط شرا في قصيدته اللامية المشهورة :

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيلا دمه ما بطل

والتي يسميها بعض المستشرقين نشيد الانتقام . . ويدافع ابن فتيمة في أوائل كتابه « الشعر والشعراء » عن نهج الجاهليين دفاعا حارا ، فقد صور

نهج العرب في وحدة القصيدة وما كانوا يبدأونها به من ذكر الديار والأنهار
ووصلهم ذلك بالنسيب والشكوى وألم الوجد وفرط الصبابة ثم ذكر الرحلة
إلى الممدوح تخلصاً إلى مدحه واستجلاباً لرضائه وسنى ألقائه ، وقال :
والشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام (١) .
وقد سار الكثير من المخضرمين والإسلاميين على هذا النهج أيضاً ، فأكثروا
من بدء قصائدهم بوصف الأطلال والديار ؛ كما أكثر الكثير منهم من
بدءها بالفزل ولم يشذ عن ذلك إلا أبو نواس الذي دعا إلى بدء القصيدة
بذكر الراح . قال :

وصف الطلول بلاغة القدم فاجمل صفاتك لابنة الكرم
وتبعه ابن المعتز فقال :

أف من وصف منزل بهكاظ الخومل
غير الريح رسمه بمنزوب وشمال

وكان أبو نواس شعوبياً في مذهبه ، أليس هو الذي يقول :

تبكى على طلل الماضين من أسد ثمكنت أملك قل لي من بنو أسد
ومن ثميم ومن قيس ومن يمن ؟ ليس الأعراب عند الله من أحد

ولكن ابن المعتز كان ناقداً يبحث عن الصلة بين الأدب والحياة
ويحاول أن يلائم بينهما وينادى بتحضّر الشعر وترك البداوة فيه وتمثله
الحياة الشاعر وآرائه في الحياة .. وقد ثار ابن رشيق على منهج الجاهليين في
القصيدة ، ورأى - مع من رأوا - أنه لا معنى لذكر الحضرة الديار (٢) وأنه ليس
بالمحدث من الحاجة إلى وصف الإبل والقفار لرغبة الناس في عصره عن تلك
الصفات وعلمهم بأن الشاعر إنما يتكلفها ، وأن الأولى وصف الخمر والقيان (٣) ..

(١) ١٤ و ١٥ من الشعر والشعراء .

(٢) ١٩٩ : ١ العمدة

(٣) ١٧٩ : ٢ المرجع

وقد تكفلت الحياة نفسها بصرف الشعراء المعاصرين عن هذا المنهج .
الفنى فى القصيدة ، فليس منهم والحمد لله من يبدأ قصيدته بذكر الإبل
والقفار والديار والآثار ، بل إن ذلك لو فعله أحد الآن لرمى بالجنون ؛ ولكن
ليس معنى ذلك ألا يصف الشاعر المعاصر معاهد أهله وأحبابه فى شعره أبداً ،
أو ألا يبدأ قصيدة من قصائده بذكرها ، ولكننا نقول إن المعيب هو التزام
بدء القصيدة بوصف الاطلال القديمة تقليداً للجاهليين ، وإذا التزم شاعر
معاصر بدء قصائده بذكر معاهد حياته وأحبابه ولم يتخل عن هذا المنهج ، لم
نحاسبه على ذلك ، إلا إذا قيد هذا من حريته الفنية أو حبس مواهبه وملكانته
الأدبية ، فإنه يجب بحق ألا يقيد الشاعر نفسه بأى قيد لا يلزمه به نفسه ومواهبه
وملكاته الفنية وحدها ، وإلا كان مقلداً لا نصيب له من الشعور بالحياة
والإحساس بها والتمتع النفسى العميق بمشاهدها وصورها وألوانها .

ج - وهناك فى الشعر الجاهلى ظاهرة أخرى نشأت عن الطابع البدوى
الموروث ، وهى كثرة الغريب والوعشى ، ولا شك أن ذلك مذهب العرب
القدامى ، حدهم لأثر البيئة البدوية الجافة الخشنة فى عقولهم ونفوسهم .
وما أروع ما يقول صفي الدين الحلى الشاعر المتوفى عام ٧٥٠هـ :

إنما الحيزبون والدرديس والطنخا والنقاخ والعطليس
لغة تنفر المسامع منها حين تروى وتشمئز النفوس
وقبيح أن يذكر النافر الوحش شئ منها ويترك المأنوس
أين قولى : هذا كئيب قديم ومقالى : عتقل قدموس
إنما هذه القلوب حديد ولذيذ الألفاظ مغناطيس

وليس هناك الآن والحمد لله أحد يدعو إلى استعمال هذه الألفاظ ، أو
رتاح قلبه حين سماعها ، فهى ألفاظ تاريخية يجب أن نفهمها بحسب .

بقيت بعد ذلك صور البيان الأدبى نفسه . أنه و غ أسلوبنا على الصور
(١٧)

القديمة التي يمثلها الشعر الجاهلي ؛ أم نستمد صورته من ألوان حياتنا وبيئتنا وثقافتنا . ولنضرب مثالا واحداً لذلك : لا شك أن الجبل كان عماد الحياة في العصر الجاهلي ، وفي أساليب البيان صور كثيرة استمدت منه ، فقد قالت العرب : ألقى الحبل على الغارب ، واقتعد غارب المجد وسنامه ، ووطنه بمسمة وخرسه بأنياه ، وألقى عليه جرانه ، وناء وأماخ عليه بكسكه ، وقالوا لا ناقة لي فيها ولا جمل ، وأخذ بزمام الأسر ،

وقد حاول النقاد والبلاغيون في العصور القديمة أن يدعوا إلى توليد صور البيان وتنميتها من مشاهد الحياة والبيئة التي تنجد دائماً .

فهل نأخذ صور البيان القديمة في أساليبنا لنرضى العرب القدامى . أو نولد فيها لنرضى عبد القاهر والقاضي الجرجاني وسواهما ؟

لست أدعو إلى الأول ولا أحبه ، وإن كنت لا أرى في الرأي الثاني ضيراً أو ضرراً ، وأوثر أن يضيف الأديب إلى الصور التي يولدها صوراً جديدة يستمدّها خياله من حياتنا وبيئتنا وألوان الحضارة التي نعيش فيها ، والاختراعات التي تجمد دائماً بيننا والتي نبعث اللغة عنها ونحاول ألا نستمدّ بها صورنا الأدبية .

وبعد فهذه سمات الشعر الجاهلي والصلة الفنية بين حياتنا الفنية الحاضرة وما يصح وما لا يصح أن نقلده فيه .

صلة الشعر العربي بالتاريخ

تمهيد :

الشعر العربي الجاهلي كما يقول ابن فارس : « ديوان العرب وبه حفظت الأنساب وعرفت المناثر ، ومنه تعلمت اللغة ، وهو حجة فيها أشكال من غريب كتاب الله وغريب حديث رسوله صلوات الله عليه (١) » ، وهو

كما يقول ابن سلام : د ديوان علمهم ومنتهى حكمتهم به يأخذون وإليه يصيرون (١) .

وبحق ان الشعر الجاهلي وثيق الصلة بحياة الجاهليين وعاداتهم وأخلاقهم ومعارفهم لأنه يمثلها أصدق تمثيل ، مما يجعله سجلا لتاريخ العرب قبل الإسلام . وإذا كان العرب في الجاهلية لم يستطيعوا تلميد حياتهم وتاريخهم في كتاب أو على الآثار ، فقد خلدها على صفحات شعرهم الذي ضمنوه أخبارهم وحياتهم وأسماء بلادهم وحيواتهم ونباتهم ، وأودعوه عاداتهم وتقاليدهم ومعارفهم وحروبهم وجمتمعاتهم ، حتى كان الشعر الجاهلي أكبر مصدر تاريخي لحياة العرب في الجاهلية ؛ وفيه أسماء محبوباتهم وأبطالهم وشعوبهم وقبائلهم وأيامهم ووقائعهم وأسماء منازلهم ومياهم وعتاق خيولهم وأوصاف سيوفهم وملاعب ولدانهم إلى ما سوى مما سبق الإلمام به .

الشعر الجاهلي صورة لأخلاق العرب في الجاهلية :

وأهم أخلاق العربي قبل الإسلام : الشجاعة والكرم والوفاء والأنفة والإباء والحمية والعفة وحب الاستقامة والأخذ بالآثار

يمثل شجاعتهم قول عمرو بن معد يكرب :

هم يـنـذرن دمي وأنـذر إن لقيت بأن أشدا
- كم من أخ لي صالح بوأته ييـدى لحداء
ما إن جزعت ولا هلمت ولا يرد بكاي زندا
ألبسته أنوابه وخلقت يوم خلقت جلدا

وقول الحصين بن الحمام المري :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما

فلمسنا على الأعقاب تدمى كلونا ولكن على أقدامنا تقطر الدما
وقول ودّك :

إذا استنجدوا لم يسألوهم من دعاهم لاية حرب أم بأى مكان
ويمثل كريمهم قول عتبة بن بجير :

فقالوا غريب طارق طوحت به متون الفيافي والخطوب الطوانح
فقت ولم أجثم مكانى ولم تقم مع النفس علات البخیل الفواضح
وناديت شبلا فاستجاب وربما ضمنا قرى عشر لمن لا نصافح
فقام أبو ضيف كريم كأنه وقد جد من فرط الفكاهة مازح
إلى جذم مال قد نهكنا سوامه وأعراضنا فيه بواق صحاح
جعلناه دون الذم حتى كأنه إذا عد مال المسكرين المنائح (١)
لنا حمد أرباب المثين ولا يرى إلى يبتنا مال مع الليل رائع
ويمثل عفتهم قول النابغة :

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيدون بالريحان يوم السباب
وقول ابن الاطنابة :

المانعين من الخنا جاراتهم والهاشدين على طعام النازل
وقول شقران متهكما :

أولئك قومی بارك الله فيهم على كل حال ما أتعف وأكرما
وقول حجر بن حية العبسى :

لا أحرّم الجارة الدنيا إذا اقتربت ولا أقوم بها فى الحى أخزيتها
إلى غير ذلك بما يمثل شتى أخلاقهم تمام التصوير .

(١) جمع منيحة وهى الناقة أو الشاة تدفع إلى الجار لينتفع بابنتها مادام فيها لبن

الشعر الجاهلي سجل لعقائد العرب :

ورغم ما ضاع من الشعر الوثني للعرب في جاهليتهم فقد بقي منه الكثير مما يعطيك صورة واضحة لحياة العرب الدينية .

(١) يقول عبد العزى المزني يحلف بمناة :

لاني حلفت يمين صدق برة بمناة عند محل آل الخزرج

ويقول أوس بن حجر يحلف باللات والعزى :

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله إن الله منهن أكبر

ويقول عبيد في «اليعسوب» وهو صنم لجديلة طىء وكان لهم صنم أخذته منهم بنو أسد فتبدلوا «اليعسوب» بعده :

فتبدلوا «اليعسوب» بعده لإلههم صنما فقروا يا جديلا وأعذبوا
إلى غير ذلك مما قيل في الأصنام والأوثان .

(ب) وكان من العرب دهريون ، ويقول شاعر منهم :

منع البقاء تقلب الشمس وطلوعها من حيث لا تسمى
وطلوعها حمراء صافية وغروبها صفراء كالورس
تجرى على كبد السماء كما يجرى حمام الموت في النفس
اليوم أعلم ما يحى به ومضى بفصل قضائه أمس

(ج) وكان منهم الثائرون على الوثنية المتطلعون لدين من التوحيد ،

قال زيد بن عمرو بن نفيل :

أربأ واحدا أم ألف رب أدين إذا تقسمت الأمور
عجبت وفي الليالي معجبات وفي الأيام يعرفها البصير
بأن الله قد أفنى رجالا كثيرا كان شأنهم الفجور

ويقول أمية بن أبي الصلت :

الحمد لله مسانا ومصبيحنا بالخير صبيحنا ربى ومسانا
رب الخنيفة لم تنفذ خزائنه مملوءة طبق الآفاق أشطانا
وقال النابغة :

مجلتهم ذات الإله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب
وقال الأعشى :

استأثر الله بالوفاء وبالعد ل ، وولى الملامة الرجال
وقال أبو قيس صرمة من بنى النجار :

سبحوا الله شرق كل صباح طلعت شمسه وكل هلال
يا بنى الأرحام لا تقطعوها وصلوها قصيرة من طوال
يا بنى النجوم لا تظلموها إن ظلم النجوم داء عضال
ولكثير من الشعراء الجاهليين حتى امرئ القيس أشعار تدل على
عقيدتهم الدينية ، أليس هو الذى ينسب إليه :

الله أنجح ما طلبت به والبر خير حقيبة الرجل
ويقول : ومن الطريقة جائر وهدى قصد السبيل ومنه ذو دخل (١)

معارف العرب فى الشعر الجاهلى :

والشعر الجاهلى يصور لك معارف العرب فى جاهليتهم بوضوح ودقة ،
لحول العطب ومعرفة بهم الكثير من الآيات التى تدل بصورة واضحة
على هذا اللون من معارفهم ، قال الشاعر :

فهل لكم فيها إلى فانى خير بما أعيانطاسى خديما ؟
وفى العرافة جاء قول الشاعر :

جعلت أعراف النيامة حكمه وعراف تهد إن هما شفياني
ويدل على معرفتهم بالكتابة قول لبيد :

(١) وناسب لا مرى القيس بن عابس

وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجدد متونها أقلامها
وقول المرقش : « كما رقص في ظهر الأديم قلم »

وفي معرفتهم بالملاحاة قول عمرو بن كلثوم :
ملأنا البر حتى ضاق عنا ونحن البحر نملؤه سفينا
وقول طرفة :

كأن حدوج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دد
عدولية أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاح طور أو يهتدى
يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم التراب المفايل باليد
وفي الزجر قول الشاعر :

خبير بنو لهب فلا تك ملغيا مقالة لهي إذا الطير مرت
إلى غير ذلك من شتى أشعارهم التي تدل على معارفهم .

الشعر الجاهلي والحياة الاجتماعية عند العرب :

والشعر الجاهلي يصور لنا الحياة الاجتماعية في الجاهلية وعادات العرب
فيها أدق تصوير .

- ١ - فقد كانوا يطلقون نساءهم ، قال الأعشى :
أيا جارتا بيني فأنك طالقة كذاك أمور الناس غاد وطارقة
وكانوا يتزوجون نساء آبائهم بعد وفاتهم ، قال عمرو بن معد يكرب :
فلولا إخوتي وبنيّ منها ملأت لها بذي شعلب يميني
- ٢ - وكانوا يشربون الخمر ، قال عنتره :

فإذا سكرت فإني مستهلك مالي وعرضي وأفرم يكلم
وإذا صحت فأنصر عن ندى وكما علمت شمائل وتكرمي
وقال عمرو بن كلثوم :

ألا هي بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمر الاندريشا
وكان بعضهم يحرمها على نفسه ، قال قيس بن عاصم :
لعمرك إن الخمر مادت شاربا لسالة مالى ومذهبة عقلى
٣ - وكانوا يعنون بالخيل أتم عناية ، وحفظ الشعر الجاهلى أسماء الكثير
منها ، قال الحارث بن عباد :

قربا مربوط النمامة منى لقحت حرب وائل عن حبال (١)
ويقول بشر بن أبى خازم فى الفخر :

وبكل أجرد ساج ذى ميعة متماحل فى آل أعوج يلتقى
وكانوا يحضرون الحلبة (٢) ويشتركون فى السياق ، قال عنتره :
فله عينا من رأى مثل مالك عقيرة قوم إذ جرى فرسان
فليتهما لم يجرى قيد خطوة وليتهما لم ير سلا لرهان
وفى سباق داحس والغبراء وقعت هذه الحرب المشهورة .

٤ - وكانوا يعقرون نوقهم وأفراسهم على قبور العظاماء ، من ذلك
قول الشاعر :

فإذا مررت بقبره فانضح به كوم الجلاذ وكل طرف ساج
وانضح جوانب قبره بدمائها فليقد يكون أخادم وذبانح
٥ - والميسر والقهار عندهم شائع . قال لبيد :
وجزورأيسار دعوت لحتفها بمغالق متشابه أجسامها
وقال امرؤ القيس :

(١) أى عقم

(٢) هى الدفعة من الخيل فى الرهان وخيل يجتمع للسباق من كل أوب ،
وتطلق على مكان السباق تجوزا .

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل

٦ - وكانوا يستقسمون بالأزلام ، فإذا أرادوا عمل شيء ، جاءوا إلى هبل وهو أعظم صنم لقريش بمكة في الكعبة وهم مائة درهم فأعطوها صاحب القداح أجراً له حتى يحيل القداح لهم ؛ وهي سبعة محفوفة عند خازن الكعبة . اثنتان للبضى في الأمور المهمة أو للتريث فيها كتب على أحدهما « أمرني ربي » وعلى الآخر « نهاني ربي » ، وثلاثة لمعرفة النسب على أحدهما « منكم » وعلى الثاني « من غيركم » وعلى الثالث « ملصق » ، واثنتان لمعرفة القاتل ، على أحدهما « عقل » واثنتان « غفل » ، وكانوا يستقسمون عند ذي الخلصة أيضاً ، واستقسم عنده امرؤ القيس حين عزم على الأخذ بثأر أبيه فنهاه فقال :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا لم تنه عن قتل العداة زورا
٧ - ومن عاداتهم تعليق الحلى والخلاخل على اللديغ ليفيق ، قال النابغة :

فبت كاهني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع
يسهد من ليل التمام سليمها لحلى النساء في يديه قعاقع
٨ - ومن عاداتهم تحريم الخمر على أنفسهم في مدة طلب الثأر ، قال تأبط شراً :

فادر كذا الثأر فيهم ولما ينتجم الحيين إلا الأقل
حلت الخمر وكانت حلالا وبلاى ما ألت تحمل
٩ - وكانوا يتدون بناتهم وكان ذلك في بعض القبائل ، خوف الفقر أو العار وذلك مشهور لاداعى للكلام فيه . ويفتخر الفرزدق بمجده في الجاهلية لأنه أجاز البنات حتى لا يؤأدن فيقول :

أجاز بنات الوائدين ومن يجر من الموت فاعلم أنه غير مخفر

١٠ - وكانوا إذا أوردوا البقر فلم ترد ضربوا الثور ليقحم البقر بعده
قال الشاعر :

لاني وقتلى سليكا ثم أعقله كالثور يضرب لما عافت البقر
وإذا أصاب الجرب الإبل كوا العصيح ليرأ السقيم ، قال النابغة :
وكلفتني ذب امرئ وتركنه كذى العريكوى غيره وهو رانع
١١ - وإذا قتل منهم قتيل لم يؤخذ بثأره قالوا : إنه يخرج من رأسه هامة
فتنادى على قبره : اسقونى فىنى صدية ، قال ذو الإصبع العدواني :
يا عمرو إلا تدع شتمى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة اسقونى
وكانوا يؤخرون البكاء على القتيل ويحرمون الخمر عليهم حتى يؤخذ بثأره
١٢ - وكان الرجل البغيض إذا نزل ضيفاً عندهم أكرموه فإذا رحل
كسروا شيئاً من الأواني وراه حتى لا يعود ، قال الشاعر :
كسرنا القدر بعد أبى سواح فعاد وقدرنا ذهب ضياء
وقال آخر :

ولانكسر الكيزان فى إثر ضيفنا ولكننا نقضيه زادا ايرجعا
١٣ - وكانوا يعتقدون أن المرأة إذا شقت رداء الرجل وشق الرجل
برقعها صلح حبهما ودام . قال سحيم :
وكم شققنا من رداء محبر ومن برقع عن طعنه غير عابس
نروم بهذا الفعل بقيا على الهوى وإفساد الهوى يغرى بهذى الوسواس
وكانت النساء إذا غاب عنهن من يحببنه أخذن تراباً من موضع قدمه
ويزعن أن ذلك أسرع فى رجوعه ، قالت امرأة :

أخذت تراباً من مواطىء رجله غداة غد ، كيما يؤوب مسلماتها
١٤ - وكانوا يحبون الملوك بالريحان فى الأعياد ، قال النابغة : يحبون
بالريحان يوم السياسة .

١٥ - ومن عاداتهم السيئة وهو تأخير حرمة القتال في المحرم إلى صفر، وكانت كمانة هي التي يلجأ إليها في ذلك ، قال عمرو بن قيس الكنانى الشاعر الجاهلى :

ألسنا الناسئين على معد شهر الحبل نجعلها حراما

١٦ - وكان الرجل منهم إذا أراد سفرا عمد إلى شجرة وشد غصنين منها ، فإن رجع ووجدتهما على غير حالهما علم أن أهله خاتته . ويسمون ذلك عقد الرتم وهو ضرب من الشجر واحدته رتمة ، والرتمة والرثمة خيط يشد على الإصبع تستدكر به الحاجة ، قال شاعر :

خاتته لما رأت شيئا بمفرقه وغره حلفها ، والعقد للرتم

١٧ - ومنها ذهاب خدر الرجل بذكر الحبيب ، يقول الشاعر :

وأنت لعيني قرة حين نلتقى وذكرك يشفينى إذا خدرت رجلى

١٨ - وكانوا يستشفون من عضة الكلب بدم الرؤساء وشرب قطرة منه مخلوطة بالماء . قال الشاعر :

بناة مكارم وأساءة كلم دماؤهم من الكلب الشفاء

١٩ - وكانت العرب تؤرخ بالنجوم ، ثم أرخوا بالحوادث المشهورة فأرخوا بعام الفيل ، وأرخت قريش بهوت هشام بن المغيرة المخزومي لجلالته فيهم .

إلى غير ذلك من شتى عاداتهم التى يمثلها الشعر الجاهلى أدق تمثيل .

ويقول نيكلسون : « إن الشعر الجاهلى وصف نقدى لحياة الجاهلية وأفكارها ، ومعظم الشعر الذى قيده أبو تمام خاص بشجاعة العرب فى الحروب وصبرهم على الشدائد » ، ورأى نيكلسون أن شعر الحماسة يعد صورة لحياة الجاهلية ووصفا لأحلاقهم .

المحلفات ومنزلتها من الشعر الجاهلي

سبب تسميتها المحلفات :

- ١ -

١ - قال المفضل - في امرئ القيس م سنة ٥٦٠ ، وزهير م سنة ٦٣٥ ،
والنابغة سنة ٦٠٤ ، والأعشى سنة ٦١٢ ، ولييد م سنة ٦٤٥ ، وعمر بن كاثوم ،
وطرفة م سنة ٥٦٥ م - : هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسميها العرب
« السموط » ، وقد أدركنا أكثر أهل العلم يقولون إن بعدهن سبعا ما هن
بدونهن ولقد تلا أصحابنا أصحاب الأوائل فاقصروا ، وهن « الجمهرات » ،
لهيود وعنترة م سنة ٦٠٠ وعدى م سنة ٥٨٠ ، وبشر بن أبي خازم وأميرة بن أبي
الصلت وخداش بن زهير والنمر بن تواب ، وأما منتقيات العرب فهن للمسئب
والمرقش والمتلس وعروة بن الورد ومهلل ودريد بن الصمة والمتنخل ،
وأما المذهبات فللأوس والخزرج خاصة ، وهن لحسان وابن رواحة ومالك
ابن العجلان وقيس بن الخطيم وأحيحة بن الجلاح وأبي قيس بن الأسلت
وعمر بن امرئ القيس ، « وعيون المراني سبع » ، لأبي ذؤيب وعلقمة بن
ذى جندن (م ٥٤٠) وكعب بن سعد الغنوي والأعشى الباهلي وأبي زيد الطائي
ومالك بن الربيع وتميم بن نويرة ، وأما « مشوبات العرب » وهن اللاتي
شابهن الكفر والإسلام فللجمدي وكعب بن زهير والقطامي والحطيئة
والشماخ وعمر بن أحمروا بن مقبل ، وأما الملحمات السبع ، فهن للفرزدق
وجرير والأخطل والراعي وذو الرمة والكميت والطرماس . قال المفضل :
فهذه التسع والأربعون قصيدة عيون أشعار العرب في الجاهلية والإسلام (١) .
ونحن في هذا النص نجد تقسيما جديدا لا إلف لنا به للقصائد الشعرية
في الجاهلية والإسلام ، حيث يقسمها المفضل م ١٨٩ هـ إلى سبعة أنواع ويمدها .

(ب) والظاهر أن صاحب الجهرة وهو أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي كان يتنلذذ على المفضل وتأثر به وبرأيه هذا فرتب الجهرة وقصائدها وفق هذا التقسيم . كما نلاحظ أنه بدلا من أن يقول « السموط » سماها « المعلقات » وعرضها واحدة بعد واحدة بعد أن قدمها بوصف المعلقات ولكنه زاد عليها واحدة هي قصيدة عنتره ، فهي عند أبي زيد ثمان ، وهي :

١ - معلقة امرئ القيس : قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل

٢ - « زهير : أمن أم أو في دمنة لم تكلم

٣ - « النابغة ومطلعا :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نوى وأحجار ؟

٤ - معلقة الأعشى ومطلعا :

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي وما ترد سؤالي

٥ - معلقة لبيد : عفت الديار محلها فقامها

٦ - معلقة عمرو بن كلثوم : ألا هي بصحنك فاصبحينا

٧ - « طرفة : لخولة أطلال بركة شهد

٨ - « عنتره : هل غادر الشعراء من متردم ؟

وبذلك نجد أنفسنا أمام اسم « المعلقات » ، وهي قصائد سبع أو ثمان

لأشهر شعراء الجاهلية (١) .

(١) قال حماد طرواية : كانت العرب تعرض أشعارها على قريش فاقبلوا منه

كان مقبولا وماردوا منه كان مردودا فقدم عليهم علقمة الفحل فأنشدهم قصيدته

التي أولها :

هل ماعلت وما استودعت مكتوم أم جلبها إذ نأتك اليوم مصروم

فقالوا : هذه سمط الدهر ثم عاد إليهم العام المقبل فأنشدهم قصيدته التي أولها :

« طحباك قلب » ، فقالوا : ما نان سمط الدهر

كما يروى أن حمادا لما رأى زهد الناس في الشعر جمع لهم هذه القصائد - السبع

(ح) ويروى أن زهيراً كان يسمى كبار قصائده الحواريات (١).
ويقول الجاحظ : « ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة عنده
حولاً كريماً (٢) وزمناً طويلاً يردد فيها نظره ، وكانوا يسمون تلك القصائد
« الحواريات » ، و « المقلدات » ، و « المنقحات » ، و « المحكمات » ، ليصير قائلها ،
فخلاً خنذيذاً وشاعراً مفلقاً (٣) .

ونجد في هذه النصوص أسماء جديدة للقصائد الجاهلية ، ولكن الذي
يهمنا من كل هذه الأسماء هو « المعلقات » ،

(د) ويقول ابن قتيبة في قصيدة عبيد بن الأبرص « أفقر من أهل
ملحوب » : « وهذه القصيدة أجود شعره وهي « إحدى السبع (٤) » ،
فكانه يمدّها من السبع الطوال أو السبع المعلقات . ويقول في قصيدة
عنترة : « هل غادر الشعراء من متردم ؟ » : وكانت العرب تسميها

وقال : هذه هي المشهورات ، فسميت « القصائد المشهورة » ، وعلى هامش شرح
الروزني للمعلقات ما نصه : « إنما سميت المعلقات لأن العرب في الجاهلية كان الرجل
منهم يقول الشعر في أقصى الأرض فلا يعبا به ولا ينشده أحد حتى يأتي مكة
فيعرضه على أندية قريش فإن استحسّنه روى وكان فخراً لقائله وإن لم يستحسنوه
طرح ولم يعبا به ، قال أبو عمرو بن العلاء : وكانت العرب تجتمع في كل عام بمكة
وكانت تعرض أشعارها على هذا الحى من قريش ، قال ابن السكيت : فأول شعر
أمرئ القيس علق على ركن من أركان الكعبة أيام الموسم حتى نظر إليه فعلق
الشعراء بعده وكان ذلك فخراً للعرب في الجاهلية وعدد من علق شعره سبعة إلا
أن عبد الملك طرح شعر أربعة منهم وأثبت مكانهم أربعة ، وروى آخرون إن
بعض أمراء بني أمية أمر من اختار له سبعة أشعار فسيماها المعلقات الثواني ، وبذلك
نجد أول تفسير لتسمية القصائد بالمعلقات وهي تعليقها على الكعبة وأول من
قال بذلك ابن السكيت .

(١) الشعر والشعراء ، ١٤٩ ج ١ البيان والتبيين

(٢) أي كاملاً (٣) ٢١ ج ٢ البيان والتبيين (٤) ص ٨٥ الشعر والشعراء

الذهبية ، (١) . ويقول في قصيدة عمرو بن كاثوم : « ألا هي بصحنك الخ » .
« وهي من جيد شعر العرب وإحدى السبع المعلقة » ، (٢) .

(هـ) ويقول ابن عبد ربه في العقد :

وقد بلغ من كلف العرب وتفضيلها للشعر أن عمدت إلى سبع قصائد من
الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطى المدرجة وعلقتها في أستار
الكعبة ، فنه يقال مذهب امرئ القيس ، ومذهب زهير ، والمذاهب سبع
وقد يقال لها المعلقة (٣) .

ونجد أنفسنا في هذا النص أمام تفسير للمعلقة وبيان لشئ تسميه هذه
القصائد بهذا الاسم (٤) ، وهو مقتبس من من رأى ابن السكبي .

(و) وفي المزهري للسيوطي مأخوذ عن العمدة لابن رشيقي :
وكانت المعلقة تسمى المذاهب وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت
في القباطى بماء الذهب وعلقت على الكعبة ، وقيل بل كان الملك إذا
استمجدت قصيدة يقول : علقوا لنا هذه لتكون في خزائنه ، (٥) .

فمراه يذكر - رواية عن غيره - سبباً آخر لتسمية هذه القصائد بالمعلقة (٦)

(١) ٧٦ المرجع (٢) ٦٧ المرجع

(٣) ٣٧٩ ج ٣ العقد ، ٣٠٩ تهذيب العقد الفريد

(٤) ويسير على ذلك الرأي البغدادي في خزائن الأدب ، وابن خلدون في المقدمة

(٥) ٢٩٨ ج ٢ المزهري ، ويقول ابن رشيقي . وكانت المعلقة تسمى المذاهب

وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر القديم فكتب في القباطى بماء الذهب
وعلقت على الكعبة فلذلك يقال مذهب فلان إذا كانت أجود شعره وذكر ذلك
غير واحد من العلماء .

(٦) وهذا الرأي هو رأى أبي جعفر النحاس م سنة ٣٣٨ م

قال أبو جعفر النحاس في شرحه للمعلقة : « وقيل إن العرب كانوا

يختصمون بمكاظ فيتناشدون الأسماء فإذا استحسن الملك - لعلمه النعمان بن المنذر -
قصيدة قال : علقوا لنا هذه وأثبتوها في خزائني . فأما قول من قال إنها علفت في

وقريب من هذا ما ذكره الاسكندري تفسيراً لتسميتها بالمعلقات ، وهو أن العرب لم تكن تكتب في دقاف وإنما كانوا يكتبون في رقاع مستطيلة من الحرير أو الجلد يوصل بعضها ببعض ثم تطوى على عود أو خشبة وتعلق في جدار الرواق أو الخيمة .

ويقول الألوسي صاحب بلوغ الأرب في الجزء الأول منه : وفيها - أى في سوق عكاظ - علقت القصائد السبع الشهيرة افتخاراً بفصاحتها على من يحضر الموسم من شعراء القبائل .

هذا ولكن المستشرقين ينكرون تعليق القصائد بأى حال .

- ٢ -

وبعد فذبحنا أمام رأيين في سر تسمية هذه القصائد الجاهلية المشهورة بالمعلقات ، وهما :

الرأى الأول : أنها علقت على الكعبة ، ويذهب إليه ابن عبد ربه في العقد ، وابن خلدون في المقدمة والبغدادى في خزنة الأدب (١) وتابعهم كثيرون . وقيل : التعليق كان في سوق عكاظ وهو رأى الألوسي ؛ وقيل إن التعليق كان في الرواق أو الخيمة وهو رأى الاسكندري ، وقيل إن التعليق كان في خزنة الملك وهو رأى أبى جعفر النحاس العالم اللغوى الأديب م ٣٢٨ هـ ولعله يريد بالملك النعمان بن المنذر الذى كان عنده ديوان مكتوب

الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة ، وأصح ما قيل إن حمادا الراوية لما رأى زهد الناس في الشعر جمع هذه السبع وحضرهم عليها وقال لهم هذه المشهورات فسميت القصائد المشهورة لهذا ، وقال أبو جعفر في شرحه على تلك المعلقة : « واختلفوا في جمع القصائد السبع ، وقيل : إن العرب كانوا يجتمعون بعسكاز فيتنشرون الأشمار فإذا استحسن الملك قصيدة قال : علقوا لنا هذه وأنتبوها في خزانتى ،

وأما قول من قال إنها علقت بالكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة

(١) وأول من قال بتعليقها على الكعبة وتسميتها بالمعلقات من أجل ذلك

هو - كما في كتاب الآداب العربية للرافعى - هشام بن الكلبي الراوية م ٢٠٤ هـ

جمع فيه أشعار الفحول ، ويتكر أبو جعفر تعليقها على الكعبة ذا كراً أن ذلك لا يعرفه أحد من الرواة . وبعض الباحثين كلبن رشيق والسيوطي يذكر الرأيين « أنها علقت على الكعبة أو في خزانة الملك »

أما الرأي الثاني : فينكر مسألة تعليقها بأي شكل من الأشكال ولون من الألوان ، ومن أصحاب هذا الرأي المستشرق الألماني نولكه الذي كتب بحثاً في هذا الموضوع ، ورجح (١) أن المعلقات معناها المنتخبات وأنها سميت بذلك تشبيهاً لها بالقلائد التي تعلق في النحور ، واستدل على ذلك بأن من أسمائها السموط والقلائد . وقد أيد رأيه الأستاذ كليمان هيوار الفرنسي الذي ألف باللفة لفرنسية كتاباً في الأدب العربي ، فرأى أن المعلقات جمع معلقة بمعنى القلادة بدليل أنهم يسمونها أيضاً السموط بمعنى العقود واللالى . وأيد هذا الرأي « اسكندر أغا ايكناريوس » في كتابه « تزيين نهاية العرب في أنباء العرب » حيث قال : إن العلماء من المتقدمين قد انتخبوا من نفائس أشعار القدماء القصائد المسبغات التي هي سبعة أسابيع ورواها صاحب الجهرة وأولها المعلقات ، ويرجح نيكلسون المستشرق الإنجليزى المشهور أن كلمة معلقة قد اشتقت من قولهم « علق » وهو الشيء النفيس الثمين العالى المستوى ، وذلك لأن الإنسان يتعلق بها تعلقاً شديداً ثم قال : وقد ظهرت خرافة تزعم أن تسمية المعلقات بهذا الاسم راجعة لتعليقها بأستار الكعبة تقدير الفضلها الذى قضى لها به المحكمون فى عكاظ على مقربة من مكة حيث يجتمع الثمراء متنافسين فى إنشاء أروع ما دبحته قرائعهم وأنها كانت تكتب بماء

(١) ونص كلام نولكه - كما ورد فى الفصل الذى كتبه عن المعلقات فى دائرة المعارف البريطانية - هو : « إن قصة القول بأن هذه القصائد كتبت بالذهب ترجع إلى تسميتها بالقصائد المذهبات وهى تسمية مجازية للدلالة على عظم أمرها وكذلك يجب أن تؤول تسميتها بالمعلقات على هذا الأساس نفسه فمن المحتمل جداً أن تعنى هذه التسمية أن هذه القصائد قد سمت إلى درجة خاصة ، وهناك اشتقاق آخر من المادة نفسها وهو كلمة علق بمعنى النفيس » (١٨)

الذهب على القباطى الواردة من مصر قبل تعليقها على السكبة (١).
وعن استبعاد تعليقها على السكبة الأستاذ حامد مصطفى وأيد رأيه بعدة أدلة (٢)، وذهب إلى أنها سميت بالمعلقات لتعلقها وحفظها فى الرأس أو فى الدفاتر عناية بها لتعاستها.

وبرد أصحاب الرأى الأول على من ينكرون تعليقها على السكبة بأن تعليق الصحف الخطيرة على السكبة كان سنة فى الجاهلية والإسلام، كتعليق قریش الصحيفة التى وكدوا فيها على أنفسهم مقاطعة بنى هاشم والمطلب، وتعليق هرون الرشيد لعهدہ بالخلافة من بعده إلى ابنه الأمين والمأمون، فأى مانع يمنع أن تكون هذه القصائد لخطرها وبعد أثرها قد علقت فى السكبة؟ ولذلك مثيل فى الأدب الإغريقى القديم. فإن القصيدة التى نظمها زعيم الشعر القتائى بنى تار فى المدح قد كتبها الإغريق بالذهب على جدران معبد أثينا فى لمنوس. هكذا يقول التبريزى: وذهب فريق إلى أن وجهه تسميتها بالمعلقات علوقها بأذهان صفارهم وكبارهم ومروسيهم ورؤسائهم وذلك لشدة اعتنائهم بها.

وبعد: فالمعلقات كانت مشار إعجاب الرواة والأدباء والنقاد وتقديرهم وحبرهم، علقت بأذهان الجميع، وحفظوها ورددوها.
فليس يبعد أن يكون رأى التبريزى هو أرجح الآراء فى هذه التسمية لتلك القصائد الرائعة.

(١) أما أن بعض هذه المعلقات قد أنشد فى عسكا ط فسلم وأما أنها سميت بالمذهبات لكتابتها فى القباطى بماء الذهب فغير مسلم، إذ ربما كانت تسميتها بالمذهبات لجليل قيمتها الأدبية وعظيم خطرها الفنى.

(٢) ١٨٨ تاريخ أدب اللغة العربية فى العصر الجاهلى ط ١٣٦ هـ ومن هذه الأدلة: ما فى بعض المعلقات من خبر ما يبعد تعليقها على السكبة، واختلاف الرواة فى عددها وأصحابها، وعدم ورود شىء لنا عنها فى عصر الرسول. ولأن أول من ذكر تعليقها على السكبة هو ابن السكبي م ٤٢٤ هـ وهو راوية غير موثوق به.

عدد المعلقات :

وعدد هذه القصائد وأصحابها مختلف فيه :

١ - فقد سبق أن ذكرنا نقلاً عن المفضل وسواه أنها سبع لأمريء القيس والنابعة وزهير والاعشى وطرفة ولبيد وعمرو بن كلثوم .

٢ - ويجعلها صاحب الجمهرة ثمانية بإضافة عنيزة ومعلقة الميمية إلى ما سبق .

٣ - ويجعلها الزوزني تسعة : لأمريء القيس والنابعة والاعشى وزهير وطرفة ولبيد وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعنيزة ، بزيادة الحارث بن حلزة .

٤ - ويجعلها النعماني الحلبي شارح المعلقات في كتابه نهاية الأرب من شرح معلقات العرب ، الذي ألفه سنة ١٣٢٤ هـ - عشرة وذلك بإضافة قصيدة عبيد بن الأبرص :

ليس (١) رسم على الدفين بيالى فـلوى ذروة فجنى ذبال
ولكنه يجعل معلقة الأعشى هي :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمداء وببت كابات السليم مسهدا (٢)
ومعلقة النابعة هي :

يادارمة بالعلباء فالسند أقوت وطال علمها سالف الأمد

٥ - وأكثر الرواة على أنها سبع لأمريء القيس وزهير وطرفة ولبيد

(١) الدفين : قرب مكة . اللوى : متقطع الرمل . ذروة : واد لبني فزارة
ذبال : رملة تواجه ذروة

(٢) وذلك بدلا من قصيدته : ما بكاه الكبير بالاطلال . وبعض الرواة
يذكرون أن معلقة الأعشى هي :

ودع هريرة إن الركب مر نحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل

وعذوة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة .

شرح المعلقات :

وقد شرح هذه المعلقات كثيرون منهم . أبو جعفر النحاس م ٣٣٨ هـ .
والزوزنى م ١٧٥ هـ ، ومحمد بدر الدين أبو فراس النعماني الحلبي في القرن
الرابع عشر الهجري ، كما شرحها كثيرون عن عداهم .

وطبعت المعلقات طبعت كثيرة باللغة العربية في الشرق والغرب وطبعها
سير شارلز ليبيل سنة ١٨٩٤ بكالكتا ، كما ترجم نولدكه خمس معلقات ؛ مسقطا
معلقة امرئ القيس وطرفة وأرفق بها شرحا بالألمانية وهي أمتع ترجمة كما
ترجمها إلى الإنجليزية شعراً مع شيء من التصريف مستر وفرد بلنت ولادى
آن بلنت ، ومن أشهر طبعتها طبعة ليبسيا بعناية العلامة أرنولد سنة ١٨٥٠ م

منزلة المعلقات في الشعر الجاهلي :

وللمعلقات منزلة عظيمة في الشعر الجاهلي ، فهي أعلى قصائده طمقة في
البلاغة وبعد الأثر وجلال التأثير والسحر ؛ وهي لشعراء عمازين في منزلتهم
في هذه الجربة المقفرة البدوية ، فوق أنها هي الناطقة بتجدد العرب ومخادهم
وأخبارهم ، شاعد صدق على أخلاقهم وطبائعهم وعاداتهم ولون تفكيرهم ،
وتمتاز بطولها وزخاتها وذهبها وروعتها وبجمال معانيها وسحر أساليبها وجزالتها
وشدة أمرها . فوق تنوع فنونها وأغراضها ، وما فيها من تشبيه ساذج
واستعارة نادرة وكناية طريفة . وهي مع ذلك ثروة لغوية كبيرة لا غنى
عنها للباحثين والمتعلمين .

واهتمام الرواة والعلماء والأدباء والنقاد والشارحين والناسخين بهادليل
على ما لها من مكانة في الأدب العربي قديم والحديث على السواء (١) .

وسنعمل هذه المعلقات الآن واحدة واحدة فنقول :

(١) راجع في تفسير كلمة المعلقات ٣٧٩ : ٣ العقد الفريد ، ٥٨١ ، مقدمة ابن خلدون .

معلقة طرفة

١ - طرفة بن العبد البكرى شاعر جاهلي مشهور ؛ نشأ يتيما في كفالة أعمامه ، يؤثر اللهو والدعة والبطالة ويدمن الخمر ، ويهجو الناس حتى الملك عمرو بن هند الذي أضمر له الشر وأرسله لئامله بالبحرين فقتله ، ولم يتجاوز السادسة والعشرين ، وتقول أخته الخرنق في رثائه .

عددتنا له ستا وعشرين حجة فلما توفى استوى سيدا غيا

وكان طرفة ملتهب المشاعر والمواطف ، حاد التفكير والالسان ، متأرجح الشعارية ، نظم الشعر يصور فيه حياته وآماله وبطائنه ، وكان يصف فيجيد الوصف ويأتى بالحكمة العالية والفكرة الرائعة ، وهو أجود الجاهليين طويلا كما يقول ابن قتيبة (١) وشعره قليل بأيدي الرواة (٢) .

٢ - ومطلع هذه المعلقة الرائعة :

لخولة أطلال ببرقة شمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد (٣)

وقد عد بها الشاعر من فحول الشعراء الجاهليين ومشهورهم ، واستحق من أجلها أن يضعه أبو عبيدة في الطبقة الثانية منهم وابن سلام في الطبقة الرابعة وأن يذهب بعض الشعراء والنقاد إلى أنه أشعر الجاهليين . وهي أطول المعلقات ، أبياتها خمسة ومائة بيت ، وتمتاز بكثرة معانيها وجزالة أسلوبها . نظمها طرفة بعد عودته إلى أرض قومه إثر تنقله في الأحياء حين كان مغاضبا لقومه وعشيرته ، وقبل أن يتصل بملوك الحيرة وينادهم .

ويبدو من روح المعلقة ولهجها أن الشاعر نظمها عتابا لابن عمه ، ويبدو أيضا أن السبب في عتابه له أن أخاه دعبدا ، كان له ليل يرعاها هو وأخوه

(١) ٤٩ الشعر والشعراء (٢) ٤٩ الشعر والشعراء ، و ٤٩ طبقات الشعراء

(٣) خولة : اسم محبوبته . شمد : أكمة في بلاد شميم تلوح : تظهر

طرفه ، فأغلبها طرفه في المرعى حتى دخلت مرعى ابن عمه فحجزها الام معبد
أخاه ، وألقى عليه عبـ طلبها واسترداها من ابن عمه . فذهب طرقة إليه
فلم يجد كلامه معه ، وعاد ثائراً غاضباً ، وطعم قصيدته يهاتب فيها عبد عمرو
عتاباً شديداً قاسياً بما تقرأه في المعلقة في قوله :

فألى أرائي وابن عمي مالـكا متى أدن منه ينأ عني ويبعد
وأيأسني من كل خير طلبته كأننا وضعناه على راس المجد
على غير شيء قلته غير أني نشدت فلم أعفل جمولة معبد
وإن أدع للجلى أكن من حماها وإن تأتلك الأعداء بالجهد أجهد
فلو كان مولاي امرأ هو غيره لفرج كربى أو لأنظرني شدي
ولكن مولاي امرؤ هو خانتى على الشكر والتسأل أو أنا مفقيد
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند
فلو شاء ربى كنت قيس بن خالد ولو شاء ربى كنت عمرو بن مرثد (١)
فأصبحت ذا مال كثير وعادنى بنون كرام سادة لمسود

ولما سمع عبد عمرو بن مرثد معلقة طرفه أرسل إليه ، فقال له : أما الولد
فأله يعطيك ، وأما المال فلا تبرح حتى تكون من أوسطنا فيه ، وأمر سبعة
من أبنائه وثلاثة من بنى أبنائه أن يعطوه عشرة عشرة من الإبل ففعلوا .

ويذكر بعض الباحثين من المستشرقين أن المعلقة لم توضع مرة
واحدة ، كقوله :

إذا مت فاعمينى بما أنا أهله وشقى على الجيب يا ابنة معبد

وما يليه من أبيات قالها وهو في سجن البحرين قبيل موته وهذا خطأ في
البحث ، فلم يقل طرفه هذه الأبيات وهو في سجن البحرين ، بل نظمها ونظم

(١) قيس بن خالد ذو الجدين من عظماء سادة الشيبانين ، وعمرو بن مرثد هو
ابن عم الشاعر .

القصيدة كلها مرة واحدة وهو صحيح مقيم في أرض قومه ، والقصيدة قطعة واحدة من الشعر الحى والتصوير الرائع والديباجة الساحرة ، والوصف الصادق .

٣ - وتمتاز المعلقة بوفرة معانيها وتنوع أغراضها وجمعها بين السهولة والغرابة في اللفظ ، وبين الرقة والمتانة في الأسلوب ، وبين الحكمة واللهو والجد والهزل في النهج والحياة .

وتصور الشاعر وحياته وأمانيه ومطامحه ولذاته ولحموه وبيئته والحياة فيها تصويراً جميلاً رائعاً بالغاً حد الدقة والإحكام والجمال .

٤ - وحدة القصيدة وفنونها :

ونحن نقف أمامها معجبين بجمالها وانسجامها وقوة شاعريتها وتأجج عواطف الشاعر فيها ، وهذه الوحدة التامة الظاهرة على أغراضها وفنون القول فيها :

١ - بدأها الشاعر بالغزل : فذكر أطلال خولة محبوبته ووقف عليها وبكائها :

لخولة أطلال بيرة همد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد
وقوفاً بها صحبى على مطيهم يقولون لاتهلك أمدى ونجلد
ثم يذكر قباب خولة وهى طاعنة ، ويشبهها بالسفينة تشبيهاً جميلاً
قوياف يقول :

كأن حدوج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دد
عدواية أو من سفين ابن يامن يحور بها الملاح طوراً ويهتدى
يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليد (١)

(١) الحدوج : القباب . المالكية : هى خولة . الخلايا : جمع خلية وهى السفينة الكبيرة . النواصف : المجاري الماء إلى البحر . دد أرض معروفة ، وعدواية :

وهو في هذا الوصف يرسم صورة جميلة للسفن الكبيرة التي كان يراها
ويشاهدها تسير في الماء على شواطئ البحرين وسواها .

ثم يصف جمال محبوبته وينعتها جميلاً قويا مؤثراً عذبا يدل على امتلاء
نفسه بالحب وعلى خضوعه لأسر الجمال :

وفي الحى أحوى ينفض المرد شادن

مظاهر سمطى لؤلؤ وزبرجد (١)

وتبسم عن ألمى كان منوراً تحلل حر الرمل دعص له ندى (٢)

ووجه كان الشمس حلت رداها عليه ، نقي اللون لم يتخذ (٣)

ب - ثم يأخذ الشاعر في وصف ناقتة التي يسير عليها ليسل عن نفسه
الهموم والأحزان ، ووصفه لها طويل في خمسة وثلاثين بيتاً ، ويحكي به في

أى قديمة ، أو هي الكبيرة من السفن ، وتنسب إلى موضع يقال له عدولى . ابن
يامن : ملاح قديم من أهل البحرين . يحور : يضل . يهتدى : أى يعرف طريق
السير .

حباب الماء : طرائقه وما ارتفع منه . الحيزوم : الصدر . المغايل : الذى
يجمع تراباً ويحيط فيه شيئاً مثل الحلقة ويقسم التراب نصفين ويطلبه في أحدهما فإن
أصاب ظفر وإن أخطأ قر

(١) أحوى : فى لونه حوة وهي السواد . والمرد : شجر الأراك . الشادن :
ولد الظبية إذا قوى . سمطى : خيطى . مظاهر : يضع واحداً على آخر . اللؤلؤ
والزبرجد : جوهران معروفان

(٢) تبسم : يفتقر ثغرها . اللعى : سواد فى الشفة . المنور : الأقرحوان . تخلله
توسطه ودخل فيه . حر الرمل : النقي منه . الدعص : الكشيب الصغير . من
الرمل . الندى : من صفة الأقرحوان يصفه بالتداوة

(٣) حلت : ألفت . رداها : بهاها . يتخذ : يضطرب حتى تهير فيه
شقوق .

لفظ غامض غريب لا تكاد تفهمه إلا بصووة وعسر ودشقة ومراجعة وطول عتا .

قال طرفة فيما قال في وصف ناقته :

وإنى لأمضى الهم عند احتضاره بهوجاء مرقال تروح وتفتدى (١)
أمون كالواح الأران نسأتها على لاحب كأنه ظهر برجد (٢)
إلى أن يقول :

وإن شئت لم ترقل وإن شئت أرقأت مخافة ملوى من القد محصد (٣)
على مثلها أمضى إذا قال صاحبي ألا ليتنى أفديك منها وأفتدى (٤)
وجاشت إليه الذنفس خورفاً وخاله مصابا ولو أمسى على غير مرصد (٥)
جـ - ثم يفتخر الشاعر بنفسه ويفرغ لها ويصف فتوته وكرمه ولذاته
ومجده ولهوه بشرب الراح ، في وضوح وسهولة فيقول :
إذا القوم قالوا : من فتى ؟ خلت أنى
عنيت ، فلم أكسل ولم أتبلد (٦)

-
- (١) الهوجاء : الخفيفة الفؤاد ، ويروى بهوجاء وهى الممزولة . مرقال صفة للناقة ، أى كثيرة الأرقال ، وهو شدة السير
(٢) الأمون : المأمونة العثار . الأران : التابوت الذى تحمل فيه الموتى . نسأتها : زجرتها . اللاحب : الطريق الواضح . البرجد : كساء من أكسية العرب شبه استقامة الطريق بخط أبيض يكون فى الكساء من قطن
(٣) الإرقال : ضرب من السير . القد : السوط . المحصد : المحكم الغتل
(٤) الضمير فى « منها » للمغازة والبرية
(٥) جاشت : علت . خاله : ظن نفسه . وإن أمسى الخ : أى وإن أمسى لا يرصد ولا يخاف
(٦) أتبلد : أنعيم . الكسل : المعجز

ولست محلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد (١)
 وإن تأتني في حلقة القوم تلقى وإن تقتضى في الحوائث تصطد (٢)
 وإن يلتق الحى اجميع تلاقى إلى ذروة البيت الرفيع المصمد (٣)
 ندماى بيض كالنجوم وقينسة تروح علينا بين برد ومجسد (٤)
 ثم يذكر أثر لوه وشربه الخمر في حياته وبين قبيلته ، ويتحدث عن لذاته
 في الحياة ويصفها ، ويلوم من يعدله في اللهو والإسراف ويفند رأيهم ويقول
 إن الكرم المسرف والبخيل المقتدر ما لهما واحد إلى القبر :

وما زال تشرابى الخمر ولذتى وبيعى وإنفاقى طربى ومتلدى (٥)
 إلى أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت لإفراد البعير المعبد (٦)
 رأيت بنى غبراء لا ينكرونى ولا أهل هذاك الأطراف الممدد (٧)
 ألا أيها اللاتى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مغلدى
 فإن كنت لا تسطيع دفع منيتى فدعنى أبادرها بما ملكت يدي
 ويعتد بلذاته اعتدادا كبيرا ويذكرها :

(١) التلاع : الأرض المرتفعة والمنخفضة ، والمراد هنا المعنى الثانى لأن
 البخيل يحل في الأماكن المنخفضة ، لئلا يراه أحد ، وأرى أنه يجوز أن يحل
 في الأماكن المرتفعة حتى لا يصل إليه أحد

(٢) حلقة القوم : مجالس أشرفهم . الحوائث : بيوت الخمارين

(٣) الذروة : أعلى النى ، المصمد : الذى يصمد إليه أى يقصد

(٤) الندامى : الأصحاب على الخمر . القينة الجارية ، البرد : الثوب الأبيض .

المجسد : المصبوغ بالجساد وهو الزعفران

(٥) الطريف : المكتسب . التليد أو المولد : الموروث

(٦) تحامتني : اجتمعتني . العشيرة : بنو العجم ، أفردت : أبعدت ، المعبد :

المذلل المطلى بالقطران

(٧) بنو غبراء : الأصوص ، الأطراف : بيت من جلد . يريد أنه لا ينكره

صموك ولا غنى

فلولا ثلاث هن من عيشة الفقى وجدك لم أحغل متى قام عودى
 فمنهن سبق العاذلات بشربة كبيت متى ما تعل بالماء تزيد (١)
 وكرى إذا نادى المصاف بجنبا كسيد اغضا نبيته المتورد (٢)
 وتقصير يرم الدجن والدجن معجب بهم سكة تحت الطراف الممدد (٣)
 أى شرب الراح وركوب الخيل ، والله مع امرأة جميلة :
 أرى قـبر نعام بحيل بماله كقبر غوى فى البطالة مفسد (٤)
 أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد (٥)
 أرى الدهر كثر ما قصا كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينزد
 لعمرك إن الموت ما أخطأ الفقى لك الطول المارخى ونياه باليد (٦)
 د - ثم يلتقل إلى عتاب ابن عمه مالك وقد سبق أن ذكرناه فى
 أول المعلقة .

هـ - يعود إلى التحدث عن نفسه ووصفها بالذكاء والشجاعة ، ويتنبا
 بموته ويطلب من ابنة أخيه معبد أن تبكيه إذا مات :

إذا مت فابعينى بما أنا أهله وشقى على الجيب يا ابنة معبد
 ولا تجعلينى كأمرى ، ليس همى كهمنى ولا يغنى غنائى ومشهدى

-
- (١) كبيت : خمرة تضرب إلى السواد ، تعل : أى يصب الماء عليها
 (٢) كرى : عطفى ، المضاف : الذى أضافته الهموم ، المنجب : الفرس
 المعوجة الساقين ، السيد : الذئب ، الغضا : شجر
 (٣) الدجن : المطر الخفيف ، معجب أى يعجب من رآه ، اليهكة : التامة
 الخلق أو الحسناء
 (٤) النحام : يريد البخيل ، الغوى : الذى يتبع هواه ولذته ، البطالة : اتباع
 الهوى والجهل
 (٥) يعتام : يختار ، الكرام : الخيار الأماج ، يصطفى : ينتخب ، عقيلة
 كل شئ : خيرته . الفاحش : القبيح السىء الخلق : المتشدد : كثير البخل
 (٦) الطول : الحبل ، نياه : طرفاه

وهو في هذا البيت يعرض بان عمه .

و - ثم ينتقل إلى الحكمة ، فيأتى منها بحكم رائعة وأمثال بليغة رويت على مر الزمان :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود
لعمرك ما الأيام إلا معارة فما استطعت من معروفها فتزود
عن المرء لا نسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى
لعمرك ما أدرى وإنى لواجل أفى اليوم إقدام المنية أو غد
إذا أنت لم تنفع بؤدك أهله ولم تنك (١) بالبؤسى عدوك فابعد

معلقة امرئ القيس (٢)

-- ١ --

هنا نرى من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فأومل
مطلع معلقة امرئ القيس الرائعة الذائعة الشهرة ؛ التي تدل على شخصية صاحبها المرحمة ، وروحه الموهوب ، ومجونه الماثور .
أسلوب القصيدة أسلوب جزل فيه أمر وقوة في عذوبة حيناً ، مع الجمال والصدق والتنقل الخيال ، ومع سحر المطلع ونخامته .
ومعانيها قريية ، لاتعقيد فيها ، أتسكى على الحس والمشاهدات ، فم حين يتحدث عن الحب يصف جمال المرأة ومحاسنها ، وحين يصف الفرس يتحدث عن ساقه ومنتنه وشعره ، وحين يتحدث عن المطر يصف كثرتة وأنه ألقى مياهه على جبل كذا وكذا ففرغت العصم وهدمت البيوت وسقطت جذوع

(١) نسكى عدوه ؛ ألحق به العطب والضرر

(٢) درس الباقلائي في كناية ؛ اعجاز القرآن ، المعلقة دراسة نقد وموازنة وهي دراسة رائعة جديدة ،

النخيل ، دون أن يتحدث الشاعر عما وراء هذه الأوصاف الحسية في الخيل والمطر أو عن عواطفه الإنسانية في حبه وغزله .

وتمتاز المعلقة بأنها مظهر للبلاغة العربية بما فيها من أساليب البيان ؛ ومناهج الأداء ، وصور التعبير ، وألوان الرسم والخيال والتفكير ؛ وبها تشبيهات جميلة كثيرة ، واستعارات بالغة حدّ الجلال وكنايات أنيقة ساحرة ، وسوى ذلك من أدوات التعبير والبيان .

- ٢ -

ولتمصيل ذلك كله نقول :

١ - للمعلقة مطلعها الساحر القوي ، وأسلوبها الجزل ، وخيالها البدوي المزهوب ، وتشبيهاتها الحسية الساذجة المكرورة أحيانا ، وفيها فوق ذلك ورغم الكثير من العاطف البدوية الجافة رقة اللسب ودقة الوصف وتنوع الأعراض وبراعة التصوير والبيان ، وفيها جل ما ابتكره أسرؤ القيس من المعاني الشعرية التي فضل بها على غيره من الشعراء وعديها أميرهم وقائدهم ، فنيها بكاء الديار ، واستيقاف للصحب ، وتجويد في اللسب ، وتصوير لاستهتاره ومجونه ، وقص لذكرياته وأيامه ، وإبداع في وصف الليل وطوله ، والفرس ومحاسنه ، والبرق ، والمطر وآثاره .

٢ - وفي المعلقة الكثير من التشبيهات الجميلة : كتشبيهه موقفه حين رحيل أحبائه بموقف ناقف الحنظل في غزارة ما ينهمر منهما من دموع ، كتشبيهه عبق الرائحة من حبيبته بعبق رائحة الميم وقد جاء برياً القرنفل ، وتشبيهه شحم نافته بهذاب الدمقس المقتل ؛ والشعر بالأقحوان المنور ، وتعرض الثريا في السماء بتعرض أثناء الوشاح المفصل ، وتشبيهه ترائب المرأة بالمرآة المجدوة ، وجيدها بجيد الظباء ، وبنائها بأساريع اللطبي ، وجهالها المشرق بمنارة الراهب المتبتل ، وتشبيهه الليل بموج البحر ، واهتزام الفرس بغلى المارجل ، وأنه أخذ الحسن من جميع الحيوانات ، أخذ من الظبي خاصرته ومن النعامة ساقها ، ومن الذئب والشعلب مشيهما ، فهو جواد وباله من جواد ، ضاني

الذيل مستقيم العنق (١). لماع الظهر كما تلعب صلاية الخنظل بما يعلق بها من
الدهن اللامع أو صلاية عروس تدق فيها العطر والطيب ، وكانت دماء
هوادى فريساته في نحره المختوب عصارة حناء في شيب مسرح .

٣ - وتمتاز المعلقة بكناياتها الساحرة ، كثرة الوصف الضحى في وصف المرأة
بالترف والنعمة ، وقوله « لم تنطق عن تفضل » في وصفها بأنها عريضة منعمة
لم تعز بعد ذلك ولم تنعم بعد شقاء ، وقوله « إذا ما اسبكرت بين درع ومجول »
يريد إذا بلغت سن الشباب لأن الدرع هو قبض المرأة والمجول ثوب تلبسه
الفتاة وتجول فيه قبل أن تتحد ، وقوله « قيد الأوابد » في وصف انفرس
بسرعة العدو ، وقوله « ولم ينضح بماء فيفسل » في وصفه بالشطاط . وفيها
كثير من المجازات الجميلة والاستعارات المبدعة ، كقوله « فسل ثيابي من ثيابك
تنسلي » يريد بالثياب القلب أو الصداقة ، وقوله « وبيضة خدر » يريد
امرأة كريهة محدرة ، وقوله في وصف الليل بالطول « فقلت له لنا تمطى
بصلحه » . وقوله « وتقي بناظرة من وحش وجرة » وكذلك قوله : « له أيعلا
ظي وساقا نعامة » من أساليب التجريد أو التشبيه .

٤ - وقد نجد في المعلقة تنقلا في الخيال وفي رسم الصور الشعرية ولكن
لا ضير في ذلك : لأن الشعر فن ، والفنون تأبى أن تخضع لقيود المنطق
والفلسفة ، وحريتها في التعبير والتصوير هو سر جمالها وخلودها ، وفوق ذلك
فإن الشعر صورة للحياة العربية ، في سذاجتها وبساطتها فضلا عن أثر
الارتجال والبديهة في نظم الشعر وإنشاده وخاصة في العصر الجاهلي .

٥ - وفي المعلقة وصف لما يحبه العربي من مظاهر الجمال في المرأة وفي
الفرس ، وفيها بيان مفصل لزينة المرأة وترفها .

وفيها نواف للقصاص الشعري وخاصة في الغزل ، مما نهج نهجه عمر بن

أبي ربيعة ، ثم بشار ، وأبو نواس .

وليس فيها أثر للمدح ، لأن شخصية امرئ القيس العظيمة أرفع من المدح ، ولأن المعلقة لم تنظم إلا لوصف ذكرياته ولهوه وترفه ومجونه ، بما يرجح أنها نظمت في أيام صباه وشبابه قبل أن يحمل عبء الأخذ بثأر والده ، حيث تجدها خالية من ذكر الأحداث التي أطافت به بعد ذلك .

وتعدد الأغراض والفنون في القصيدة يتفق ونهج العربي والشعراء الجاهليين في صياغة قصائدهم ، حيث كانوا يروحون عن أنفسهم وسامعهم بهذا الاستطراد الخليل ، وبتعدد نواحي القصيدة ومراميها ، حتى تكون أشد أثراً وسحراً .

٦ - وروح الشاعرية في المعلقة متحدة متناسقة إلا في أبيات يضيفها بعض الرواة إليها وهي :

وقربة أقوام جعلت عصامها على كامل منى ذلول مرحل

وما بعده من أبيات بما تخالف روحها روح المعلقة . والصحيح أن هذه الأبيات لتأبط شراً وأنكرها الكثير من الرواة ، وقيل هي لامرئ القيس في عصر مشيبه وكهولته وأضيفت إلى المعلقة إضافة فهي لا تمثل روحه في فترة شبابه اللاهية الماجنة التي تراها في معلقته .

٧ - وتمثل هذه المعلقة الحياة العربية في كثير من نواحيها المختلفة ، كما تصور حياة امرئ القيس وترفه وروحه اللاهية المسرفة في العبث والمجون أتم التصوير . فهي صورة جميلة واضحة لحياة الشاعر وقومه . وأثر أدبي كبير نستطيع أن نفهم منه الكثير من عادات العرب وأخلاقهم .

-- ٣ --

وقد نشأ امرئ القيس في بيت سرود ومجد ونعمة ، نخب في سبل الامور وذاق أفاويق الجمال والحب . وقضى أيام شبابه في مغازلة القيد الحسان ، فكانت له معهن أيام وذكريات قص الكثير منها في هذه المعلقة ، وما برح في لهوه ومجونه حتى ضاق به والده ذرعاً فأبعده عنه ، فأقام مع أمثاله من أهل البطالة

واللهو ، حتى قتل أبوه ، فذهبت سكرته ، وطالت حسرته ، وهب للأخف
بشاره ، حتى قضى عليه أخيرا إسرافه في الانتقام .

ذلك هو امرؤ القيس قائد الشعراء في الجاهلية ، وحامل لواء الشعر في
ذلك العصر البعيد ، والمزمن في أبواب الشعر وأغراضه . والمجلى في بيان أسرار
الجمال واللهو ، وفي رقة الأسلوب وسحره ، وفي جزالة اللفظ وأسره ، وفي
روائع التشبيه وبدائع الخيال ، وفي ابتداع الكثير من المعاني الشعرية الطريفة
التي قلده فيها سواه من الشعراء .

وتتناول المعلقة كثيرا من فنون الشعر ، وتحوى الكثير من الأفكار
المنوعة ، ففيها بكاء لديار أحبابه في ثلاثة أبيات وتصور لخيرته وذوله يوم
رحيلهن واستيقاف لأصحابه ليحملوا معه عبء الحزن والشجى في بيتين ،
وفيها شرح للهوى وعبثه وقص لذكرياته وأشجائه مع محبوباته ووصف للجمال
العربي وزينة المرأة في الجاهلية ولأثر الجمال وسحره في النفوس وذلك في
عشرين بيتا ، وفيها مناجاة لليل وذكر لطوله وآلامه فيه في خمسة أبيات ؛
ووصف دقيق لفرسه في ثمانية عشر بيتا وللبرق والمطر ونشوة الطبيعة في
عشرة أبيات ، فأبياتها تبلغ الستين أو تزيد . وهي كلها في درجة من الإحسان
ليس بعدها من مزيد . ويقول الزوزني في سبب إنشاد هذه القصيدة :

« السبب في إنشادها هو قصة غدير دارة جملجل حيث كان امرؤ القيس
يحب ابنة عمه عنيزة فتركها تستحم في هذا الغدير مع أتراب لها وجمع ملبسهن
ثم لم يعطها لمن إلا بعد مرورهن أمامه عاريات ، ثم ذبح لمن ناقته ، وقسم
متاعه عليهن يحملن ، وركب مع عنيزة في هودجها » .

فما نبك من ذكر حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول نحو مل (١)
وهو مطلع جميل ساحر . ثم يستمر في وصف الديار وآثارها حتى
يقول :

وقفا بها صحبي على مطيهم يقولون لا تملك أمي وتجمل
وان شفائي عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول ؟ (٢)
٢ - ثم يصف ذكريات لهوه وعيشه فيقول فيما يقول :

ويوم عقرت العذارى مطيقي فيا عجبا من كورها المتحمل (٣)
فظل العذارى يرتدين بلحمها وشحم كهداب الدمقس المقتل (٤)
ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت لك الويلات إنك مرجلي (٥)
تقول (٦) وقد مال النبيط بنا معا عقرت بعيري يا امرأ البقيس فانزل
فقلت (٧) لها سيري وأرنخي زمامه ولا تبعدين من جنالك المهمل
فذلك (٨) حبل قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذي تمام محول
ثم يستمر في غزله :

(١) اللوى : ما التوى من الرمل . سقط اللوى : منتهاه . الدخول وحومل
و توضح والمقراة : أسماء أما كن يقع بينها سقط اللوى وفيه منزل الحبيب .
(٢) مهراقة : مراقبة مسكوبة . المعول . المستعان به
(٣) المطية هنا : الناقة . العذارى : الابكار . الكور الرجل . المتحمل المحمول
(٤) هداب الدمقس : أطراف الحرير . المقتل : المفتول .
(٥) الخدر : الهودج وهو في الاصل السر . عنيزة اسم محبوبته . مرجلي .
فاضحي بين رجال .

(٦) النبيط : الرجل . عقرت بعيري : أدميت ظهره لثقله .

(٧) الجنى : الثمر . المهمل : الذي جنى مرة بعد مرة

(٨) محول : مضى عليه جول

أفاطم مهلاً بعض هذا التذلل وإن كنت قد أزمعت صرعى فأجمل (١)
وأنت قسمت الفؤاد فنصفه قتيل ونصف بالحديد مكبل (٢)
فإن تك قد ساءت لك مني خليقة فسلي ثيابي من ثيابك تسلي (٣)
وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل (٤)
إلى أن يقول :

تضيء الظلام بالعشاء كأنها منارة ممسى راهب متبتل
تسلت عمايات الرجال عن الصبا وليس فؤادي عن هواك بمسلي (٥)
أغرك مني أن حبك قاتلي وأنت مهما تأمرى القلب يفعل

٢ - ثم يصف الليل وطوله فيقول :

ولبل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلي (٦)
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناه بكـ كل (٧)
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فذاك من ليل كان نجومه بكل مغار الفتل شدت يذبل (٨)

٤ - ثم يصف فرسه فيقول :

(١) أزمع الأمر : ثبت عزمه على أمضائه ، الصرم : الهجر . الإجمال : الرفق
(٢) مكبل : مقيد ، من الكبك وهو القيد
(٣) الخليقة السجية : الثياب هنا : القلب . تسلي : تسقط
(٤) ذرفت دمعته : سال . السهمان هنا هما العينان . الأعشار : أجزاء الجزور
الذي ينحر في الميسر يأخذ منه السهم المعلى مسبعة والرقب ثلاثة . مقتل :
أهلكه المشق .

(٥) تسلت : تكشفوا وانزاحت . عمايات : ضلالات وغوايات مفسل سال
(٦) السدول : الستور ، يبتلى ، يختبر
(٧) الصلب : الظهر ، الأعجاز : المآخير ، الكلكل : الصدر : ناه : نهض
(٨) مغار : محكم شديد . يذبل : اسم جميل ، يصف نجوم الليل بالثبات

وقد أعتدى والطير في وكناتها بمنجرد قييد الأوابد هيكل (١)
مكر مفر مقبل مدير معا كجلود صخر حطه السيل من عل (٢)
ثم يذكّر الصيد الذي صاده وطهى الطهاة له وسط الصحراء :
فظل طهاة اللحم ما بين منضج صفيف شواء أو قدیر معجل (٣)
هـ — ثم يصف البرق والمطر في عذوبة وسحر وجمال ، بما لا داعي
لذكره في هذه العجالة السريعة ، فليرجع إليه القارئ في مجموعات
المعلقات المطبوعة .

معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي

١ — عمرو بن كلثوم شاعر قديم ، قتل عمرو بن هند الملك . أمه ليلى
بنت مهلهل بن ربيعة وعمها كليب أعز العرب ، ووالده كلثوم بن عتاب
فارس العرب ، وكان عمرو سيداً في قومه من بني تغلب ، وتوفي في أواخر
القرن السادس الميلادي .

وعمر وشاعر قوى الشاعرية مجيد ، ومعلقته « ألا هي بصحنك فاصبحينا ،
مشهورة ، « وهى من جيد شعر العرب وإحدى السبع المعلقةات » ، وكان
قام بها خطيباً فيما كان بينه وبين عمرو بن هند (٤)

يمتاز عمرو في شعره بالبديهة والارتجال ؛ وبأسلوبه الرائق ، وأغراضه
العالية . وهو مقل لم ينظم في فنون الشعر جميعها . وكل ما روى عنه معلقته

(١) وكنات جمع وكنة وهى العش . منجرد : قضير الشعر رقيقه ، الأوابد :
الوحش النافرة

(٢) مكر مفر : سريع السكر والفر ، غل : فوق

(٣) الطهاة : جمع طاه وهو الطباخ . لحم صفيف : صف على النار ليشوى أو

فى الشمس ليقدد . قدیر : مطبوخ فى القدر

(٤) ٦٧ الشعر والتعمر

وبعض مقطوعات لا تخرج عن موضوعها وقد أجاد في الفخر إجادة منقطة النظير
٢ - وللمعلقة مشهورة بالركة والسلاسة والسهولة وفيها تكرير في بعض
معاييرها وألفاظها ، ومبالغة واضحة شديدة في الفخر بما لم يوافق نظيرها في
الشعر الجاهلي ، مثل :

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما تخبر له الجبابر ساجدينا
ومثل :

لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونيطش حين نبطش قادرينا
وفنون المعلقة كثيرة :

(١) فقد بدأها عمرو بن كلثوم بوصف الخمر ؛ وهذه المعلقة فريدة في هذه
الناحية ، فلم تبدأ معلقة أو قصيدة بوصف الخمر في الجاهلية إلا هذه القصيدة
ولعل من ذلك أن تغلب كانت النصرانية موجودة في بعض ربوعها وأن
الخمر كانت شائعة في هذه الربوع ، قال :

ألا هي بصحنك فاصبحيا ولا تبقى خمور الأندرينا (١)
مشعشة كأن الحصن فيها إذا ما الماء خالطها سخينا (٢)
صددت الكأس عنا أم عمرو وكان الكأس مجراها البينا (٣)
وما شر الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذي لا تصبحيا (٤)
وكأس قد شربت ببعلي وأخرى في دمشق وقاضينا (٥)
إذا صمدت حمياها أرييا من الفتيان خلعت به جنونا (٦)
(ب) ثم يأخذ في الغزل ووصف محبوبته وجمالها .

-
- (١) هي : استيقظي ، الصحن : القدح العريض ، اصبحينا : أسقينا الصبوح
وهو الشرب في الغداة . الأندرينا : جمع الأندروهي قرية بالشام جمعها بماحو اليها
(٢) مشعشة : مزوجة . الحصن : الروس . سخينا : جداولنا وتكرارنا من السخاء
(٣) صددت : أي صرفت . أم عمرو : هي والدته
(٤) أي لست أنا شر الثلاثة فتعدلي عن الكأس (٥) بلاد معروفة
(٦) صمدت : قصدت ، الحميا : الحميا : سورة الراح . الأريب : العاقل

ففى قبل التفريق يا ظمينا نخبرك اليقين وتخبرنا
ففى نسالك هل أحدثت صرماً لوشك البين أم خنت الأمانة؟ (١)
أفى ليلى يعاتبنى أبوها وإخوتها وهم لى ظالمونا؟
(ح) ثم ينتقل إلى الفخر بقومه ومجدهم وعزتهم ، ويردد الملك عمرو بن
هند وينذره ويتوعده فى أسلوب قوى جزل مع عذوبة وجمال ، والظاهر
أن ذلك كان أيام التماكم أمام عمرو بن هند والمفاخرة بين تغلب وبكر :

أبا هند فلا تمجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقين
بأننا نورد الرايات بيضا ونصدرهن حراً قد رويننا
وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن نديننا
ورثنا المجد قد علت معد نطاعن دونه حتى يديننا

والجزء الثانى من المعلقة يبدو أنه نظم بعد قتل عمرو بن هند ، وهو :

بأى مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتودريننا
تهبديننا وتوعديننا رويدا متى كئنا لأملك مقتوبنا
وان قناتنا يا عمر أعيت على الأعداء قبلك أن تلتينا

ثم ينتقل إلى ذكر وقائع قومه مفتخراً بهاعلى بكر ، ومنها يوم خزان ،
ثم يختتمها بفخر قوى منه :

وأنا الحاكون إذا أردنا وأنا النازلون بحيث شينا
وأنا النازلون بكل نعر يخاف النازلون به . المنونا
إذا ما الملك سام الناس خسفا أيدنا أن نقر الخسف فينا
ألا لا يجهلن أحد علمينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا ونحن البحر نملؤه سفينا
إذا بلغ القطام لنا رضيع نخز له الجبابر ساجديننا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادريننا

(١) الصرم : الحجر . الوشك : السرعة . البين : الفراق . الأمين : الوفى بعهده

٣ - وبعد فالمعلقة من روائع الفخر ، ويقال إنها كانت تزيد على الألف بيت وإنما وصل إلينا بعضها بما حفظه الناس منها .

والغالب - كما ذكرنا - أن الشاعر نظمها على مرتين : في مفاخرته لبكر عند عمرو بن هند ، وفي حادثة أمه ، ولذلك رأينا فيها إشارة إلى كليهما وقد وقف عمرو بن كثوم بهذه المعلقة في عكاظ فأشدها في موسم مكة ، وكان بنو تغلب يعظمونها ويرويها صغارهم وكبارهم لما حوته من الفخر والحماسة مع جزالتها وسهولة حفظها .

وقد أثرت هذه القصيدة في نفوس قبيلة تغلب وفخروا بها ، واتخذوها أنشودتهم ، حتى قال فيها بعض البكرين :

ألهى بنى تغلب عن جل أمرهم قصيدة قالها عمرو بن كثوم
يفأخرون بها مذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مستوم
والميزة الواضحة فيها السهولة والقوة ؛ والاعتداد بالنفس والقبيلة ؛ والمبالغة في الفخر ، وأنها شعر صدر عن سيد قومه يعتز بسيادته وسيادة قبيلته ومجدها وأيامها وبطولة أبطالها وانتصاراتهم .
وبدؤها بالخمر يرجع إلى انتشار النصرانية في تغلب وانتشار الخمر بينهم ، وتسكاد تكون هي القصيدة الوحيدة في بدئها بالخمر على غير عادة الشعراء الجاهليين .

ويمجب النقاد بمعلقة عمرو إعجاباً شديداً ، قال ابن قتيبة : وهي من جيد شعر العرب وإحدى السبع المعلقات (١) ؛ وقدمه بها النقاد (٢) ، وقال مطرف عن عيسى بن عمر : لو وضعت أشعار العرب في كفة وقصيدة عمرو ابن كثوم في كفة لمالت بأكثرها (٣) .

(١) ص ٦٧ الشعر والشعراء (٢) ص ٤٠ جمهرة أشعار العرب

(٣) ص ٤١ المرجع

معلقة زهير

-- ١ --

وهي أثر آخر من آثار البلاغة العربية القديمة ، تقع في تسعة وخمسين بيتاً صاحبها زهير بن أبي سلمى ربعة بن رباح المزني ، نشأ في أقاربه بني غطامان ، وتخرج في الشعر على خال أبيه بشامة بن الغدير ، وكان يروي لأوس ابن حجر أيضاً وكان أوس زوج أمه ، فكان شاعراً فخلاً ، كما كان صائب الرأي عاقلاً حازماً حكيماً .

كان يتأله ويتعفف في شعره ؛ ويدل شعره على إيمانه بالبعث :
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينقم (١)
وفضله عمر بن الخطاب على الشعراء لأنه كان لا يعاقل بين القول ولا
يتبع حوشى الكلام ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه (٢) ،
وكان زهير أحكمهم شعراً وأبعدهم من سخف وأجمعهم لكثير من المعنى
في قليل من المنطق وأشدهم مبالغة في المدح (٣) .

كانت حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان تؤرق زهيراً وتضاييه ،
وتشير شاعريته ، ولما سعى هرم بن سنان والحارث بن عوف المريان في الصالح
وحقن الدماء وتحملوا دياب القتل أنطلقت تلك المأثرة زهيراً ، فنظم معلقته
هذه يمدح هذين السيدين وينزه بعلمهما الجليل ويدعو إلى السلم وينفر من
الحرب ويصف مآسيها وآلامها ، وهي قصيدة رائعة ، وتمتاز بحكمها الكثيرة
وكان زهير ذا حكمة في شعره .

تحليل للقصيدة :

-- ٢ --

١ - بدأ زهير معلقته بذكر الديار وزيارته لها ووقوفه فيها بعد

(١) ٤٥ الشعر والشعراء (٢) ٤٤ المرجع ، ٢٩ طبقات الشعراء ،
٣٠٥ ٢٣ المرمر ، وراجع ٣٢ المجرة (٣) ٢٩ طبقات الشعراء لابن سلام

عشرين عاما طوالا يتذكر ذكريات حبه ووفائه ، قال :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالتشم؟ (١)
وقفت بها من بعد عشرين حجة فلأيا عرفت الدار بعد توهم (٢)
فلما عرفت الدار قلت لربها ألا انعم صباحا أيها الربع واسلم
ثم أخذ يصف النساء اللائي ارتحلن عندها ، فيتبعن ببصره كثيباً حزينا ،
ويصف الطريق التي سلكها ، والهوادج التي كن فيها والمياه التي نزلنها في
عذوبة وسهولة وجمال إلى أن يقول :

فلما وردن الماء زرقا جمامه وضعن عصي الحاضر المتخيم (٣)
تذكرني الأحلام ليلي ومن تطف عليه خيالات الأحبة يحلم
٢ — ثم ينتقل إلى مدح هرم والحارث والإشادة بمنقبتيهما السكريمة في
إنقاذ السلام وإطفاء الحرب بين عبس وذبيان وتحملهما ديات القتلى من
مالهما وقد بلغت ثلاثة آلاف بعير . قال :

سعى (٤) ساعيا غيظ بن مرة بعدما تبرزل ما بين العشيرة بالدم
فأقسمت (٥) بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرحهم
يمينا لنعم (٦) السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم

- (١) أم أوفى : محبوبة الشاعر . الدمنة : آثار الديار . تكلم : تشكم .
حومانة الدراج والمتشم : موضعان
(٢) الحجة : السنة . لأيا : أي بعد لآي ومشقة . توهم : ظن
(٣) جمام الماء : ما اجتمع منه . والجمام الزرق : المياه الصافية . وضع العصي
كناية عن الإقامة . الحاضر : النازل على الماء . المتخيم : المقيم
(٤) غيظ بن مرة من غطفان اسم جد القبيلة . تبرزل : نفجر . الساعيان هما
هرم والحارث
(٥) البيت : الكعبة
(٦) السحيل : ضد المبرم ، المفتول . والسحيل كناية عن الرخاء
والمبرم عن الشدة

تداركثما عيسا (١) وذييان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر ملشم
وقد قتلها (٢) إن ندرك السلم واسعا بمال ومعروف من الأمر نسلم
فأصبحتما (٣) منها على خير موطن بغيرين فيها من عقوق ومأثم
٣ - ثم ندد بالحرب ووصف فظائعها ودعا إلى السلم وأكده وأوجه
على المتحاربين، قال :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم (٤)
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر إذا هربتوها فتضرم (٥)
ثم ينصح قومه بأن يبقوا على السلم ، ويندد بالحصين بن ضمضم وبآثار
عمله في تهيج الشر وإعادة نار الحرب ، وكان الحصين حين اجتمع القوم
للصلح قد حمل على رجل له عنده نار في الحرب فقتله ، ويعيد التنويه بالرجلين
اللذين احتملا ديوات القتلى واحدا واحدا على غير جريرة أو ذنب كان منهما
٤ - ثم ينتقل من هذا المجال الرهيب مجال النصيح والتوجيه وتأكيد
السلام إلى مجال الحكمة الإنسانية العامة ، حكمة الرجل المجرب للحياة الذي
ذاقها وخبرها وعاش في خضمتها ثم امتد به العمر فزهدا وانصرف عنها قال :
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذم
ومن لا يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن لا يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بملسم (٦)

(١) ملشم : امرأة من خزاعة كانت تبيع عطرا فإذا حاربوا اشتروا منها
كافورا لموتاهم .

(٢) واسعا : ممكنا أو غالبا

(٣) المعقوق : فطيمة الرحم . المأثم : الاثم والعدوان

(٤) المرجم : المظنون

(٥) ضررته فضرى : أى هيجته فهاج . تضرم : تشمل

(٦) المصانعة : المداواة . يضرس : يعضخ بالأضراس . الملسم ، الحافر

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ، ومن لا يتق الشتم يشتم (١)
ومهما تكن عند امرى من خليفة وإن غالها تخفى على الناس تعلم
سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولا لا أبالك يسأم
وأعلم ما فى اليوم والأبس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطى بهر فيهرم

ويختتمها بتأكيد معروف السيدين الممدوحين عليه فيقول :

سألنا فأعطيتم وعدما فعدتم ومن يكثر التسأل يوما سيهرم

معلقة عنبرة

- ١ -

عنبرة بن عمرو بن شداد العبسى م ٦١٥ م أحد فرسان العرب
وأبطالها وشعرائها ، كان عبداً أسود ، وكان لا يقول من الشعر إلا البيتين أو
الثلاثة نخاصه رجل وعيره بسواده وسواد أمه وسوى ذلك ، وأنه لا يقول
الشعر فقال عنبرة : والله إن الناس ليتراقدون الطعام فما حضرت أنت ولا
أبوك ولا جدك مرفد الناس قط ، وإن الناس ليدعون فى الغارات فيهرقون
بقسويمهم فما رأيتك فى خيل مغيرة فى أوائل الناس قط ، وإن اللبس
ليكون بيننا فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك خطاة فصل . وإنى
لأحضر البأس ، وأوفى المغنم ، وأعف عن المسألة ، وأجود بما ملكت
يدى ، وأفصل الخطاة الهباء ، وأما الشعر فستعلم . فغاب حيناً وعاد إليه
فأنشده معلقته :

هل غادر الشعر من متردم ؟ أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

وهى أجود شعره ، وكانت العرب تسميها الذهبية .

وشجاعة عنبرة وبسالته وشاعريته دفعت أمه إلى أن يستأجده بأسبه ، وإلى أن

(١) يفره أى يهونه ويهينه

بوجه عمه ابنته غيلة ، وأصبح فارس داحس والغبراء ، كما كان فارس عيس ،
وأحد أغربة العرب المشهورين .

تحليل ونقد للمعلقة :

١ - هي إحدى المعلقات السبع ، ومن روائع الشعر العربي القديم ، مطلعها :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

وتمتاز بالسهولة واللين ، البادين فيها ، والذين قلما يوجدان في
الشعر النجدي القديم ، والذين لا يخلوان من غفامة وجزالة ، فهي واضحة
جلية ، سهلة اللفظ ، قريبة المعنى ، ليس بينها وبين النفس حجاب من هذه
الجزالة التي تكاد تبلغ الغرابة ، وإنما تسير في سهولة ويسر ، وترتفع عن
الإسفاف والابتذال دون تورط في الغلظة والاغراب .

وعنبرة فيها رقيق في غزله والإشادة ببطولته ، بل هو رقيق في حديثه
عن أعدائه ، أليس هو الذي يقول :

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بحرم

بل هو رقيق على فرسه ، يألم لآله ، ويشقى لشقائه ، ويرى بكاهه ،
ويسمع توجعه حين تعبت به رماح الأعداء :

فأزور من وقع القنا بلبانه وشكا إلي بعبرة وتحمحم

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولسكان لو علم الكلام مكلمي

وعنبرة لا تنتهى به الرقة إلى الضعف ، كما لا تنتهى به الشدة إلى العنف ،
وكما لا ينتهى به السكر إلى ما يفسد الأخلاق والمروءة ، أو الصحو إلى
التقصير والعيب والبخل . وهو مقدم إذا كانت الحرب ، عفيف إذا قسمت
القنائم ، يحاول أن يصف من أخلاقه ما يشرف به الرجل العربي عما يستغنى
عن الإبانة عنه ، فيقول هذه الكلمة الرائعة « وكما علمت شمالي وتكرمي » .

والمعلقة تصوير واضح لنفسية الشاعر ومشاعره وحياته وعواطفه
وبطولاته وقوته وبأسه ونضاله للأعداء ، ولا عجب فهمي تلعب من نفسه
وحياته وتصورهما تمام التصوير .

ولولم نعرف عنتره أو نسمع بأخباره وحياته ، لهر فناه من معلقاته بطلا
مقداما ، وشجاعا فارسا ، وعربيا كريم الخلق ، رقيق العاطفة ، حار الشعور ،
يضع روحه في كفه ، ويبدلها مضحيا في سبيل كرامته وشرفه وبطولته .

٢ - وقد سار الشاعر فيها على نهج غيره من الشعراء ، فذكر الديار كما ذكروها ،
ووصف الناقة كما وصفوها ، وافتخر بالكرم والنجدة والبطولة . وفيها كما يقول
الدكتور طه حسين معان قلما انتهى إلى مثلها غير عنتره من الشعراء ، ولم يخطئ ابن
سلام حين قال : إن هذه القصيدة نادرة ، فهي نادرة حقا ، وكانت طايفة من
الأنعام الموسيقية الكثيرة المختلفة فيما بينها أشد الاختلاف ، وفيها نغمة
واحدة متصلة منذ بدء القصيدة إلى نهايتها ، تظهر واضحة حيناً وتحسبها النفس
وإن لم تسمعها الأذن حيناً آخر ؛ وهذه النغمة التي تكون وحدة هذه
القصيدة كما كوَّنت الوحدة في معلقة لبيد ، هي حديث الشاعر إلى صاحبه
واستحضار صورتها في نفسه منذ بدء القصيدة ؛ ولكن بين هذه
النغمة في قصيدة عنتره وقصيدة لبيد فرقا واضحا جداً ، فهي في قصيدة عنتره
حلوله رقيقة تمازج النفس فتمتزج بها لأن عنتره فيما يظهر كان حلو النفس
رقيق القلب ، قوى العاطفة ، جاءه ذلك من أنه عز بعد ذلة ، وتحير بعد
رق ، فهو قد شقي في صباه وطفولته ، واحتمل الأذى في شبابه ، والذل الذي
يتمزج بالنفس فيصني عواطفها ، ويلطف حديثها ، على حين تجدد هذه النغمة
عند لبيد غليظة خشنة ، لبيد يتحدث عن صاحبه في أول القصيدة ويذكرها
أثناءها ولكنه ليس منها السكا عليها ولا متخرجاً من الصد عنها ، فهو يبادل
القطيعة بالقطيعة والمهجر بالمهجر ، أما عنتره فيقول :

ولقد نزلت فلا تظني غيره مني بمنزلة المحب المسكرم

٣ - وفيها عدة تشبيهات رائقة ، كتشبيهه الظلم وقد تبعته النعام بالعبد الاسود وقد ثابت إليه الإبل :

تأوى له قلس النعام كما أوت حرق بجانبه لأعجم طمطم

ومثل هذا التشبيه الرائع الذى يعجب به النقاد من القدماء ويحبونه ، فى الآيات التى وصف فيها ثمر صاحبه بالجمال وطيب النشر ، فذكر فأرة المسك وذكر الروضة الأنف التى ألح عليها الغيث حتى زكا نبتها وكثر فيها الذباب مبهجا نشوان مترنما :

وكان فأرة تاجر بقسيمة	سبت عوارصها إليك من الفم
أو روضة أنفا تضمن نبتها	غيث قليل الدمن ليس بمعلم
جادت عليه كل بكر حرة	فتركن كل قرارة كالدهرم
سحا وتسكابا فكل عشية	يجرى عليها الماء لم يتصرم
وخلا الذباب بها فليس يبارح	غردا كفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعاه بذراعاه	قدح المكب على الزناد الأجزم

٤ - وكثير جداً من أبيات هذه المعلقة قد ظار مظهر كبير من الإيجاز والامتلاء والبراعة من اللغو والفضول حتى جرى مجرى الأوهام . وأى الناس لا يتمثل قوله :

وإذا شربت فانى مستهلك مالى وترضى وأفر لم يسلكم
وإذا صحت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائل وأكرمى
أو قوله :

يلبئك من شهد الواقعة أننى أغشى الوغى وأعف عند المغنم
أو قوله :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على أبني ضمضم
التستامى عرضى ولم أشتهمها والناذرين إذا لقيتهما دى

بما احتذاه جميل فقال :

وليت رجلا فيك قد نذر وادى وهما يقتلى بابئين لقونى
أو قوله :

إن بفعلنا فقد تركت أباها جزر السباع وكل نسر قشعم

وجل هذه القصيدة يجرى بجرى المثل ، وينشد على اختلاف المصور
والبيئات والظروف ، فلا يمل إنشاده . ولا تحس النفس نبوacنه ، أو نفورا
منه ؛ وإنما تحس كأها تجرى فيه أو كأن هذا المصور مرآة صافية صادقة
لسكل نفس كريمة ولسكل قلب ذكى ولسكل خلق نقى .

ذلك لأن عنبرة بحياته وشخصيته ومشاعره وعواطفه وآماله وآلامه
كان كأنما يتحدث عن النفوس ، ويصف حياة الناس ، يأخذ من تجاربه
وخبرته ومن فراسته وذكاؤه أساليبه وصوره ، ويستمد من إلمامه بالحياة
ومعرفته ببيئته مادة يباينه وشعوره وشعره .

فعنبرة فى معلقته شاعر يتحدث عن البطولة فى البادية وعن المجتمع الذى
كان يعيش فيه وعن الحياة التى كان يتأثر بها وعن عواطف الشاعر وعن دواخل
نفسه حديث المصور الماهر والشاعر العبقرى .

وبعد فكل ما فى المعلقة جيد ، وكل أبياتها خلىق أن تطيل الوقوف عنده
والتفكير فيه والإعجاب به كما يقول الدكتور طه حسين .

- ٣ -

وفنون المعلقة كثيرة :

١ - بدأها عنبرة بالغزل فى ابنة عمه علة ومخاطبة دارها ذات الذكريات
الجميلة ، قال :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت اندار بعد توهم (١) ؟

(١) غادر : ترك . متردم : شىء يصلح لم يكونوا أصلحوه التوهم : الوهم

يا دار عبلة بالجواء تسكمنى وعمى صباحا دار عبلة واسلمى (١)
وتجل عبلة بالجواء وأهلنا بالحزن فالصمان فالمتعلم
حييت من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم
٢ - واستطرد إلى وصف الروضة :

أو روضة أنفأ تضمن نبتها غيث قليل الدمن ليس بمعلم (٢)
جادت عليه كل بكر حرة فتركن كل قرارة كالدرهم (٣)
وخلا الذباب بها فليس بيارح غردا كفعل الشارب المترنم (٤)
هزجا يحك ذراعاه بذراعاه قدح المكب على الزناد الأجنم (٥)
٣ - ثم يصف ناقته في أبيات كأبيات طرفة تمتاز بالغرابة :

هل تبلغنى دارها شذنية لعنت بمحروم الشراب مصرم (٦)
٤ - ثم يفتخر بنفسه وشجاعته :

أبني على بما علمت فأنى سهل مغالفتى إذا لم أظلم
فاذا ظلمت فإن ظلمى بأسل مر مذاقته كطعم الملقم
وإذا شربت فأنى مستهلك مالى ، وعرضى وأفر لم يكلم

- (١) الجواء : بلد في نجد من أماكن عبس ، عمى : أى انعمى
(٢) الأنف : التام في كل شيء ، الدمن : المطر الخفيف ، الغيث : المطر ،
المعلم : ذو العلامة
(٣) جادت : من الجود وهو المطر الكثير : البكر ، السحابة في أول الربيع
والحرة : البيضاء ، القرارة : القاع كالدرهم . معنى فى البياض والاستدارة
(٤) خلا : انفرد ، بارح : تارك ، غردا : مترنما
(٥) الهزج : السريع الصوت ، قدح المكب : أى الذى أكد على الزناديقده ،
الأجنم : مقطوع اليد
(٦) تبلغنى : توصلنى ، دارها : منزلها . شذنية : ناقة . لعنت : جف ضرعها
محروم الشراب : أى ضرع لالين فيه ، مصرم : جاف

وإذا صحت فما أقصر عن ندى وكما علت شمائل وتكرى
ويستمر في التنويه بشجاعته إلى أن يقول :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منى ويبيض الهند تقطر من دى
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسّم
لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتذاكرون كررت غير مذمّم
يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بتر في لبان الأدهم (١)
مازلت أرميهم بثغرة نحرة ولبانه حتى تسربل بالدم (٢)
فأزور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بهيرة وتحمحم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولـكان لو علم الكلام مكلمى
ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها قيل الفوارس : ويك عنتر أقدم

هـ — ثم يختمها بتهديد ابني ضمضم وكانا قد نذرا دمه وتربصا له لأنه
قتل أباهما في الحرب ، قال :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابني ضمضم
الشاتمي عرضي ولم أشتهمها والناذرين إذا لم ألقهما دى
إن يفعلوا فلقد تركت أباهما جزر السباع وكل نسر قشعم (٣)

معلقة لبید

١ — لبید بن ربیعۃ العامری من سادة العامريين القيسيين وأشرفهم
وكان يقال لأبيه ربیعۃ المعترین ، وعمه ملاعب الأسنة عامر بن مالك أخذ
أربعين مرباعاً في الجاهلية .

-
- (١) أشطان . حبال ، لبان : صدر ، الأدهم : الفرس الأسود
(٢) الثغرة : الهزمة التي في الخلق ، اللبان : الصدر ، تسربل : لبس السربال
(٣) جزر السباع . أى طعمة لها ، القشعم . الكبير من الذنور

كان لبيد من شعراء الجاهلية وفرسانهم ، وقال الشعر في الجاهلية في كل غرض ، وأدرك الإسلام وأسلم وهجر الشعر ، وأقام بالكوفة إلى أن مات عام ٤١ هـ عن مائة وسبع وخمسين سنة .

« وسئل لبيد من أشعر الناس ؟ فقال : الملك الضليل ، ثم الشاب القليل ثم الشيخ أبو عقيل يعني نفسه (١) » . وهو من أصحاب المعلقات ، وكان نظم لبيد في الجاهلية نغم العبارة منضد اللفظ قليل الحشو مزادنا بالحكمة العالية والكلم الرائعات ، وهو أحسن الجاهليين تصرفاً في الرثاء ، وأكثرهم قدرة على تصوير عواطف المموج الحزين ، بلفظ رائق وأسلوب مؤثر ، وقدمه بعض النقاد « لأنه أفضل الشعراء في الجاهلية والإسلام وأقلهم لغواً في شعره (٢) » .

٢ - ومعلقة لبيد تمتاز بقوة اللفظ ومتانة الأسلوب ، وبما فيها من تصوير للبادية والحياة والأخلاق فيها .

١ - بدأها لبيد بذكر الديار وخلوها من أصحابها وتعرضها للرياح والأمطار تعبت بها وتمحو معالمها ، قال :

عفت الديار محلماً فقامها بنى تأبد غولها فرجامها (٣)
وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجدد متونها أفلامها (٤)
فوقفت أسألها ، وكيف سؤلنا صما خوالد ما يبين كلامها (٥)

(١) ٢٩٧ ج ٢ المزهر . وراجع ٨٨ الشعر والشعراء .

(٢) ٣٨ الجهرة ، وراجع ص ٣٩ من الجهرة أيضا .

(٣) عفت : درست . المحل والمقام : موضع الحلول والاقامة . متى : موضع قريب من طخفة . تأبد : توحش . الغول : ماء معروف للضباب يخوف طخفة به نخل . الرجام : جبال بقلوعة الخي حمى ، ضرية .

(٤) يريد أن السيول كشفت عن الطلول فظهرت كالكتب تجدد ظهورها . والزبر جمع زبور وهو الكتاب

(٥) صم : جمع صماء . خوالد : بواق جمع حائدة . والصم البواق هي الأنثى

(٢٠)

يبين : يطهر .

ثم يصف رحيل أحبابه عنها حتى يقول :

بل ما تذكر من « نوار » وقد نأت وتقطعت أسبابها ورامامها (١)
مرية ، حلت بفيد ، وجاورت أهل الحجاز ، فأين منك مرامها (٢)
وأخيراً يرى لا أن يتسلى ويتعزى حتى يصل إلى رجائه وأمله ، ولكن
أن يقطع أمله منها ويترك رجاءه فيها ويقطع صلته بها مادامت نوار قد
تغير وصلها :

فاقطع لبانة من تعرض وصله ولشر واصل خلة صرامها (٣)

ب - ثم يأخذ في وصف ناقته في لفظ غريب وتعبير بدوي متين ؛
ويطيل في هذا الوصف ، ويشبهها بالأتان الوحشية وبالظبية الرؤوم المنفجوعة
إلى أن يقول :

فبتلك لذر قص اللوامع بالضحي واجتأب أردية السراب أكامها (٤)
أفضى اللبانة لأفرط ريبه أو أن يلوم بحاجة لوامها (٥)
أو لم تكن تدري نوار بأني وصال عقد حبال جذامها (٦)
تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حماءها

ج - ثم يتحدث عن نفسه وعزتها ، ولذات الراح التي شارك فيها ،

(١) نوار : اسم حبيته . الرمام : جمع رمة وهي القطعة من الحبل البالي ، يريد
أن الوصل تقطعت به الأسباب

(٢) مرية : تنسب إلى مرة بن عوف . فيد : موضع في طريق مكة . مرامها : منالها

(٣) اللبانة : الحاجة . تعرض : تغير . الخلة : الصداقة .

(٤) رقص : ارتفع . اللوامع بالضحي : بمعنى الآل . اجتأب : لبس . أردية :

جمع رداء . السراب : ما يتراءى للسائر في الصحراء من شبه الماء مما يكون لازقاً
بالقيعان . أكامها : جمع أكنة

(٥) اللبانة : الحاجة . لا أفرط أى لا أترك . الريبة : الشك والمخافة . أن

يلوم : أى أن لا يلوم . (٦) أى أصل وأقطع . وهذا منذهب لا يرتضيه
المنيعون في الحب .

وشجاعته وبطولته في مواقف الزال والنضال، وكرمه وسخائه ونواله للجار
الفقير والضييف النازل والجار الغريب وللبائسين والمساكين :

وجزور أيسار دعوت لحتفها بمغالق متشابه أعلامها (١)
فالضييف والجار الغريب كأبنا هبطا تبالة مخضبا أهضامها (٢)
تأوى إلى الأطناب كل رزية مثل البلية قالص أهدامها (٣)
د - ثم يفتخر بقومه ومآثرهم وشرفهم ومجدهم فيقول :

من معشر سلت لهم أبأؤهم ولكل قوم سنة وإمامها
فبنوا لنا بيتا رفيعاً سمكه فسما إليه كهلها وغلامها
فاقتع بما قسم المليك فإنما قسم الخلائق بيننا علامها
وإذا الأمانة قسمت في معشر أوفى بأعظم حظنا قسامها
فهم السعاة إذا العشيرة أفضعت وهم فوارسها وهم حكامها
وهم ربيع للمجاور فيهم والمرمات إذا تناول عامها

معلقة الحارث بن حلزة

الحارث بن حلزة اليشكري من بكر ، كان سيداً في قومه ، وشاعراً
مجيداً ، ارتحل معلقته ارتجالاً في مجلس عمرو بن هند يستدني بها عطفه ويستعجب
رضاه ويذرد بها عن قومه ، وكان هوى عمرو بن هند مع تغلب ، فتحول إلى

(١) الأيسار : الذين يحضرون القسمة ويضربون بالقديح . المغالق : جمع
مغلاق وهو السابح من سهام الميسر . متشابه : أى يشبه بعضه بعضاً
(٢) تبالة : قرية في نجد مشهورة بالخصب . أهضام : جمع هضم وهى بطون
الأرض المطمئنة .

(٣) الرزية : المرأة التى قد أرزها أهلها أى أهرطها : البلية ناقة الرجل تعقل
عند قبره حتى تموت . الاطناب : حبال الفساطيط . الأهدام : الخلقان . قالص :
قصير مرتفع .

العطف على البكرين بسبب هذه القصيدة الرائعة . وليس للحارث إلا آثار قليلة من الشعر مع معلقته هذه
وتمتاز معلقة الحارث بإحكام نسجها وتنوع أعراضها وبأثر من آثار البديهة والارتجال :

١ - بدأها بالغزل في محبوبته أسماء :

آذنتنا ببينها أسماء رب ثاو يحمل منه الثواء (١)
بعد عم د لنا ببرقة شما . فأدنى ديارها الخلاء (٢)
لا أرى من عهدت فيها فأبكي اليوم د لها وما يحير البكا (٣)

ب - ثم انتقل إلى وصف ناقته وكما يقول :

أتلهى بها الهواجر إذ كل ابن هم بلية عمياء (٤)
ثم يعاتب إخوانه من بنى تغلب لصلفهم على قومه :

إن إخواننا الأراقم يغلو ن علينا في قيلهم إحفاء (٥)
يخلمون البرى منا بذي الذنب ولا ينفع الخلى الخلا (٦)
أجمعوا أمرهم عشاء ، فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن نجيب ، ومن تصسمال خيل خلال ذاك رغاء
أيها الناطق المرقش عنا عند عمرو ، وهل لذك بقاء (٧)؟

(١) الإيذان : الاعلام البين : الفراق . الثواء : الإقامة .

(٢) العهد : اللقاء . وبرقة شما . والخلاء : موضعان قريبان من دياره

(٣) يحير : يرد ، الدله : الحزن والتحير وذهاب العقل

(٤) الهواجر جمع هاجرة وهي لفح الحر وقت الظهيرة . عمياء : شديدة

(٥) الأراقم : بطون من تغلب . الغلو : مجاوزة الحد . الإحفاء : الإلحاح

القييل : القول

(١) الخلى البرى الخالى من الذنب

(٣) الناطق المرقش : أى الواشى المنمق أكاذيبه ووشائنه وأباطيله .

فبقينا على غراتك لنا قبل ما قد وشى بنا الأعداء (١)
فبقينا على الشنأة تنميننا حصون وعزة قعسا (٢)
ثم يمدح الملك عمرو بن هند حيناً ويستمر في عتاب إخوانه من تغلب
حيناً آخر :

ملك مقسط ، وأفضل من يمشى ، ومن دون ما لديه الشنأ (٣)
أيما خطة أردتم فأدو ها إلينا تمشى بها الأملأ (٤)
ويسير على هذا النهج من المدح والعتاب .

ج - ثم يفتخر بقومه ومجدهم وأيامهم في صدق وجمال وقوة عاطفة :
هل علمتم أيام يلهب لنا س غوارا لكل حى عوا (٥)
إلى آخر هذه القصيدة الرائعة التي يصنع لنا أن نعدّها ملحمة شعرية مصفحة
تنطق بمجد بكر ومفاخرها في الحرب والسلم في الجاهلية .

أبواب الشعر الجاهلي

١ - المدح

١ - من أهم أبواب الشعر العربي ، وكان للمدح مكانة كبيرة في العصر
الجاهلي ، وخاصة بعد أن تكسب الشعراء بالشعر واتخذوه صناعة ومدحوا
به الملوك والرؤساء كالأعشى والنابغة وزهير وغيرهم .

(١) الغرأة : اسم بمعنى الاغراء .

(٢) الشنأة : البغضاء . تنميننا : ترفعنا

(٣) مقسط : عادل

(٤) الخطة : الأمر العظيم الذي يحتاج إلى التخلص منه . أدوها أى فوضوها .

الأملاء : الجماعات من الاشراف .

(٥) الغوار المغاورة العوا : صوت الذئب وهو مستعار للضجيج والصياح

كان الشعراء في الجاهلية يمدحون أبطال القبيلة وساداتها ، ويشيدون بمكانتهم بين القبائل ، ويصفون أخلاقهم ومآثرهم ومحامدهم وشجاعتهم ويتعنون ببطولتهم .

ثم قصد المتكسبون بالشعر منهم رؤساء القبائل والأمراء والملوك فمدحهم وأشادوا بمفاخرهم ومكارمهم وأخلاقهم وخلقهم ، وقصة النابغة مع النعمان وزهير مع هرم مشهورة .

وتمتاز المدائح الجاهلية ببساطتها وصدقها وبهدا عن الغلو والمبالغة ، وهي أثر جميل لشاعريتهم القوية .

ب - صور للمدح الجاهلي :

قال الأعشى الشاعر الجاهلي الفحل يمدح الأسود بن المنذر وهو أخو النعمان لأمه ، وكان النعمان ولده على بنى سعد وغيرهم ، وكان عنده أسرى من بنى سعد بن ضبيعة فأناه الأعشى فدحه وسأله أن يطلقهم ففعل ، ويعد صاحب الجهرة هذه المدحة من المعلقات ، ومطلع هذه القصيدة :

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي وما ترد سؤالي
ومنها يخاطب الناقة :

لاتشكى لى وانتجعى الأسود أهل الندى وأهل الفعال
فرع نبع يهتز فى غصن الحمجد ، غزير الندى شديد المحال
عنده البر والتقى وأمى الشق (١) وحمل المعضلات الثقال
وصلات الأرحام قد علم الناس وفك الأسرى من الأغلال
وهوان النفس الكريمة للذكر إذا ما التقت صدور العوالى
أنت خير من ألف ألف من القوم إذا ما كبت وجوه الرجال
ووفاء إذا ما أجرت فماغر ت (٢) حبال وصلتها بحبال

(١) الشق : الصدع والكسر . وأسى الشق . رأبه وإصلاحه

(٢) أى تقضت

وعطاء إذا سئلت إذ العذرة (١) فيشا عطية البخال
أريحي صلت (٢) يظل له القوم م وقوفا قيامهم للهلال
وأرى من عهساك أصبح محزو نا وكعب الذي يطعمك على
جندك الطارف التليد من الغا رات أهل الهبات والآكال (٣)
للعدا عندك البوار ومن وا ليت لم يعر عقده باغتيال
لن يزالوا كذلك ، ثم لازالت لهم خالداً خلود الجبال

وقال زهير يمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف المري سيدي بني
غطفان لسعيهما في الصلح بين عبس وذبيان ، وهي قصيدة من النمط العالي ،
ولها مكانتها في البلاغة العربية قال :

تداركتما الأحلاف قد ثل عرشها وذبيان قد زلت بأقدامها النعل
فأصبحتما منها على خير موطن سبيلكما فيه وإن أحزنوا سهل
رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهم قطينا بها حتى إذا نبت البقل
وفيههم مقامات حسان وجوهم وأندية يلتابها القول والمعل
على مكثريهم رزق من يعتريهم وعند المقلين السباحة والبذل
وإن جنتهم ألفيت حول بيوتهم بجاس قد يشفى بأحلامها الجهل
سعى بعمهم قوم لكي يدركوهم فلم يفعلوا ولم يلبسوا (٤) ولم يألوا
فما يك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آباءهم قبل
وهل ينبت الخطى إلا وشيجه وتفرس إلا في منابتها النخل؟

وقال أبو البرج القاسم بن حنبل المري في زفر بن أبي هاشم بن مسعود
ابن سنان :

(١) العذرة : المذرة

(٢) الأريحي : من الأريحية وهي الارتفاع للندى . الصلت : الماضى في الحوائج

(٣) أى الاطباع

(٤) يلبسوا : أى لم يأتوا ما يلامون عليه . ويألوا : يقصروا

من البيض الوجوه بنى سنان لو أنك تستضيء بهم أضأوا
هم حلوا من الشرف المعلي ومن حسب العشيرة حيث شاءوا
بنات مكام وأساة كلم دماؤهم من الكلب الشفاء
فلو أن السماء دنت لمجد ومكرمة دنت لكم السماء
وقصائد النابغة في مدح ملوك الحيرة وغسان مشهورة معروفة ولاداعي
لذكرها في هذا المجال الضيق الموجز .

٢ - الهجاء

١ - كان الهجاء في الجاهلية يقصد به الخط من شأن قبيلة أو عشيرة ،
أو فرد من أعداء قبيلة الشاعر وخصومه ، وكان الهجاء سوطاً يصبه الشاعر
على خصومه وخصوم قبيلته . فيثلبهم ويتنقص من مقامهم ، ويذري بهم ،
ويضع من مكانتهم ، ويلبس اليهم البخل والجبن والذلة والهوان ، وكانت
الخصومات الكثيرة بين القبائل ، والحروب المشتعلة في الجزيرة العربية في
العصر الجاهلي ، سببا في الاكثار من شعر الهجاء ، ولكن الماثور من هذا
الباب لا يضارع الماثور من باب المدح .

ويمتاز فن الهجاء في الجاهلية بالقصد في السب والشتم وتعتمد الأوصاف
الاجتماعية المزرية بالفرد والقبيلة من الهوان والبخل والجبن وسواها .

ب - صور لفن الهجاء :

قال عارق الطائي وهو شاعر جاهلي يهجو المناذرة :

والله لو كان ابن جفنة (١) جاركم لكسا الوجوه غضاضة وهوانا
وسلاسل يثنين في أعناقكم وإذا لقطع تلسم الاقرانا (٢)

(١) يريد به ملك غسان

(٢) الاقران جمع قرن بفتح الراء وهو الحبل . وتقطع الاقران كناية عن

تبديد جمعهم

وقال مساور بن هند بن قيس بن زهير يهجو بني أسد :

زعمتم أن إخوتكم قريش لهم إلف وليس لكم إلاف
أولئك أومنوا جوعاً وخوفاً وقد جاءت بنو أسد وخافوا
وقال قريظ بن أنيف أحد بني العنبر :

ليكن قومي وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحساناً
كأن ربك لم يخلق لحشيتك سواهم من جميع الناس إنساناً
فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا شدوا الإغارة فرساناً وركباناً
وقال مدرك الفقهسي يهجو عبسا :

وأعرضت عن سلمي وقلت لصاحبي سواء علينا بخل سلمي وجودها
فلا تحسدن عبسا على ما أصابها وذم حياة قد تولى زهيدها
تشبه عبس هاشما إن تسربلت سرايل خز أنكرتها جلودها

٣ - الفخر

وهو تباهى الرجل بنفسه أو قبيلته أو قومه أو أمته . والفخر باب كبير
في الشعر الجاهلي ، أكثر الشعراء فيه من الفخر بأحسابهم وأنسابهم وآبائهم
وأبائهم وماثرهم .

وصوره كثيرة في الشعر الجاهلي ، قال عمرو بن كلثوم يفتخر بقومه أمام
الملك عمرو بن هند ملك الحيرة :

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقيناً
بأننا نورد الرايات بيضاً ونصدرهن حمراً قد روينا
وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن نديننا
ورثنا المجد قد علمت معد نطاعن دونه حتى يديننا
وقد علم القبائل غير نخر إذا قُرب بأبطالهم بلينا

بأنا العاصمون إذا أطعنا وأنا الغارمون إذا عصينا
وأنا المنعمون إذا قدرنا وأنا المهلكون إذا أتينا
وأنا الحاكون بما أردنا وأنا النازلون بحيث شينا
ونشرب إن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا
إذا ما الملك سام الناس تحسفا أيينا أن نقر الخسف فينا
إذا بلع الفطام لنا رضيع نخز له الجبار ساجديننا
لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

وعلى نمطها يقول أمية بن أبي الصلت :

ورثنا المجد عن كبرى نزار فأورثنا مآثرنا البلينا
وكنا حيثما علمت معد أقنا حيث ساورا هاريننا
وأنا النازلون بكل نغر وأنا الضاربون إذا التقينا
وأنا المساعون إذا أردنا وأنا المقبلون إذا دعينا
وأنا الرافعون على معد أكما في المسكارم ما بقينا
نشرد بالخفاة من أنانا ويعطينا المفادة من يلينا (١)

وقال الخنفي من محارب واسمه عامر المحاربي :

وأبقيت لنا آباؤنا من تراثهم دعائم مجد كان في الناس معلما
ونرمى إلى جرثومة أدركت لنا حديثنا وعاديا من المجد خضرما (٢)
بنى من بني منهم بناء فكنوا مكانا لنا منه رفيعا وسليما
أوائلك قومي إن يلد بيوتهم أخو حدث يوما فلن يتمضيا
وكم فيهم من سيد ذى مهابة يهاب إذا ما رآه الحرب أضرمما
لنا العزة القعساء تحتطم العدى بها ، ثم نستعصى بها أن نخطما

(١) راجع القصيدة في الجهرة ١٨٦ - ١٩٠ ، وقصيدة عمرو بن كلثوم في
الجهرة أيضا ١١٧ - ١٢٩

(٢) الجهرثومة : الاصل . العادي : القديم الخضرم : الكثرة أو الواسع

وهم يدعون القوم في كل موطن بكل خطيب يترك القوم كظما
وكنا نجوما كلما انقض كوكب بدا زاهر منهن ليس بأقما
فما يستطيع الناس عقدا نشده وننقضه منهم وإن كان مبرما
وقال حجير بن خالد الشعلي وهو شاعر جاهلي :

وجدنا أبانا حل في المجد بينه وأعياء رجلا آخرين مطالعه
فمن يسع منا لا ينل مثل سعيه ولكن متى ما يرتحل فهو تابعه
وقال عوف بن عطية النيمي (١) :

لعمرك إنني لأخو حفاظ وفي يوم السكرية غير غمر (٢)
أجود على الأبعاد باجتهاد ولم أحرم ذوى قربي وإصر (٣)
وماني ، فاعلموه ، من خشوع إلى أحد ، وما أرى بكبر
ألم تر أننا مردى حروب نسيل كأننا دفاع بحر (٤)
ونلبس للعدو جلود أسد إذا تلقاهم وجلود نمر
وزعى ما رعيناه بين عبس وطينها وبين الحى بكر
وكلمهم عدو غير مبق حديث قرحه يسعى بوت

٤ - الرثاء.

١ - هو ذكر مناقب امت ومآثره ومآخره ، ووصف الحزن عليه
والجزع لفقدته ، وبيان مكانته في قومه وأثره في مجتمعه الذي كان يعيش فيه.
والرثاء كثير في الشعر الجاهلي ، ومن أمثلته عيبة لبيد في رثاء أخيه أربد ،
وراثية المهلهل في رثاء أخيه كليب ، والرثاء هو الذي هيج شاعرية المهلهل
فأطال القصيد في رثاء كليب سيد بني ربيعة ، ولامية تأبط شرا في رثاء ابن
أخته ، وسوى ذلك من عيون الرثاء في الشعر الجاهلي .

(١) شاعر جاهلي مفلق ومن فرسان العرب .

(٢) الغمر : الذي لم يجرب الامور . (٣) الإصر : العهد

(٤) مردى حروب : أي تقوم بها ، وأسفل المردى الحجر يرى به .

ب - صور لقن الرثاء :

قال المهلهل يرثى أخاه كليبا :

أهـاج فـذاة عـيني الـادكار	هـدوا فـالدموع لـها انـحدار
وصار اللـيل مشـتملا علـينا	كأن اللـيل لـيس لـه نـهار
وبت أراقب الجـوزاء حـتى	تقارب من أوائلها انـحدار
أصـرف مـقلـتى فـى لـثر قوم	تبايلت البـلاد بـهم فـقداروا
دعوتـك يا كـليب فـلم تـجـبـنى	وكيف يـجبـنى البـلد القـفار؟
أجـبـنى يا كـليب خـلاك ذم	ضـنـينات النـفوس لـها مـزار
أجـبـنى يا كـليب خـلاك ذم	لقد فـجعت بـفارسـها مـزار
سـقـاك الغـيث إـلك كـدت غـيـثا	ويسـرا حـين يـلتـمس الـيسـار
أبت عـينـاى بـعدك أن تـكفـا	كأن غـضا القـتاد لـها شـفار
وإنـك كـنت تـحلم عـن رـجال	وتـعفو عـنهم ولـك اقـتدار
وتـمنع أن يـسمـهم لـسـان	مخافـة من يـحـير ولا يـحـار
وكـنت أـعد قـربى مـنك رـبـحـا	إذا ما عـدت الـريح الـتـجار
فلا تـبـعد فـكل سـوف يـلـقى	شـعـرباً يـسـتـدبر بـها المـدار
يـعـيش الـمرء عـند بـنى أـبـيه	ويوشـك أن يـصـير بـحيـث صـادوا
أرى طـول الحـياة وقـد تـولى	كـما قـد يـسـلب الشـيء المـعار
كأنى إذ نـعى النـاعى كـليباً	تطـاير بـين جـنـي الشـرار
فـدرت وقـد عـشى بـصرى عـليه	كـما دارت بـشاربـها العـقار
سـألت الحـى أين دـفـنـتموه؟	فقالوا لى بـسـفـح الحـى دار
فـمرت إلـيه من بـلدى حـثـيثا	وطار النـوم وامـتنع القـرار
وحـادث ناقتى عـن ظـل قـبر	ثوى فـيه المـسـكـرم والفـخار
أتـغدو يا كـليب مـعـى إذا ما	جـبان القـوم أنـجاه القـرار؟
أتـغدو يا كـليب مـعـى إذا ما	حـلـوق القـوم يشـمـحـذها الشـفار؟
أقول لتـغلب والعـز فـيـها	أثـيروها لـذلك اتـصـار

تتابع إخوتى ومضوا لأمر عليه تتابع القوم الحسار (١)
ولست بمخالع درعى وسيفى إلى أن يخلع الليل النهار
وإلا أن تبعد سراة بكر فلا يبقى لها أبدا آثار
وقال تأبط شرا فى الرثاء :

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيلا دمه ما يطبل (٢)

(١) جمع حاسر وهو : من لا مغفرة له ولا درع ولا جنة ، ويرى : الخيار
(٢) الشعب : طريق فى الجبل . سلع : موضع وهو أرض قوم تأبط شرا .
طل دمه : ذهب هدرا لا يتأثر به . المعنى : أن القتل الذى بالشعب دون سلع لن
يذهب دمه هدرا .

ترجمة الشاعر :

هو ثابت بن جابر بن سفيان شاعر جاهلى مجيد . سمي تأبط شرا لأنه تأبط
سيفا وخرج فقيل لأمه : أين هو ؟ فقالت : تأبط شرا وخرج وكان أحدا لصوص
العرب المغيرين ، وكان هو والشنفرى الأزدي وعمر بن براق من أعدى العدائين
فى العرب ، والشنفرى هو ابن أخت تأبط شرا ، ويصف الشنفرى حاله تأبط
شرا فى قصيدة ثائية له فى المفضليات فى الأبيات ١٩ - ٣٧ من القصيدة العشرين
(ص ١٠٦ : ١ المفضليات طبعة المعارف ١٣٦١) . والشنفرى شاعر جاهلى لخل
وتجد ترجمة لتأبط شرا فى الشعر والشعراء (ص ٩٢ ط الخانجي ١٣٢٢ هـ)
القصيدة :

للقصيدة عالية الطبقة فى الفصاحة وهى من عيون الشعر الجاهلى ورواها
صاحب الحماسة (٣٤٨ : ١ ديوان الحماسة طبعة محمود توفيق) وقد ترجمها جوته
إلى الألمانية ونشرها فى الديوان الشرقى .

وكانت هذيل قد قتلت ابن تأبط شرا ورمت به فى غار فرثاء والده وذكر
أخذه بثأره فى هذه القصيدة أو هى له فى رثاء ابن أخت له . وقيل إن القصيدة
للشنفرى يرثى بها حاله تأبط شرا ، وقيل إن القصيدة منحولة فحلها بعض الرواة
لتأبط شرا وليست له وأنها مولدة ، بدليل قوله « جل حتى دق فيه الاجل » ، فإن
ذهن الجاهلى لا يكاد يصل إلى مثل هذه الدقة فى الأسلوب والتفكير ، وبدليل ذكره

خلف العبء على وولى أنا بالعبء له مستقل (١)
 ووراء الثأر منى ابن أخت مصع عقدته ما تحمل (٢)
 مطرق يرشح سما كما أطرق أفعى ينفت السهم صل (٣)
 خبر ما ، نابنا ، مصمئل جل حتى دق فيه الأجل (٤)
 بزنى الدهر وكان غشوما بأبى جاره ما يذل (٥)
 شامس فى القر حتى إذا ما زكت الشعرى فبرد وظل (٦)

لسلع وسلع بالمدينة وأين تأبط شرا من سلع ولكنه قتل فى بلاد هذيل، ويمكننا أن نقول: إنهم رموا بجثته بعيدا عن بلادهم أو أن قومه نقلوه من هذيل إلى سابع أرض قومه .

(١) العبء : الثقل . مستقل : محتمل يقال استقل كذا حمله ورفعته . والمعنى أنه ترك نقل الثأر على وذهب وأما قادر على حمل ثقله غير عاجز عن طلبه
 (٢) المصع : الشديد الثابت الشجاع . العقدة : العزيمة . والمعنى : أن هذا الثأر الذى أطلبه إن لم أقدر على أخذه نخلنى ابن أخت ثابت الجنان قوى العزيمة لا تنتقض عزمته .

(٣) أطرق : أرغى عينيه ينظر إلى الأرض . الرش كالعرق . ينفت . يقذف
 الفصل : الحديث من الأفاعى . السم ما يقتل وهو مثلث السين .
 المعنى : إن ابن أختى بطرق إلى الأرض إطراق الحية الرقطاء ، شجاع فى الحرب ، مقدم فى النزال لا يسلم أعداؤه من شره .

(٤) المصمئل : الشديد . جل : عظم . دق : صغر . الأجل : الجليل
 والمعنى أن الذى نزل بنا وأصابنا بخبر موته أمر كبير يصغر عنده ما هو عظيم جليل من الحوادث

(٥) بزه الشيء : سلبه إياه والمراد : فجعنى به . الغشوم : الظلوم . الأبى : الذى لا يحتمل الضم .

والمعنى أن الدهر بتجبره وظلمه لجعنى وسلبنى رجلا عزيزا ذا أنفة لا يحتمل الذل يحمى جاره فيعز ولا يضام .

(٦) الشامس : الكائن فى الشمس . القر : البرد ذكت . استعلت
 والمعنى أن هذا الرجل ذر كرم وسخاء فمن لجأ إليه فى الشتاء وجد عنده

يا بس الجنين من غير يؤس وندى الكفين شهم مدل (١)
ظاعن بالحزم حتى إذا ما حل حل الحزم حيث يحل (٢)
غيث مزن غامر حيث يجدى وإذا يسطو فليث أبل (٣)
مسبل فى الحى أحوى رفل وإذا يغزو فسمع أزل (٤)
وله طعمان أرى وشرى وكلا الطعمين قد ذاق كل (٥)

ما يدفته من الطعام واللباس كالشمس تدفىء المقرور ومن وفد عليه فى الصيف حين يطلع نجم الشعرى وجد عنده ظلا ظليلا وماء باردا يطفىء به حرارة جوفه (١) يابس الجنين أى هزيل وذلك دليل الشجاعة والقوة . البؤس : الفقر :

الشهم : الذكى القلب . المدل : الواصل بنفسه وبعده

والمعنى أنه قليل الأكل هزيل لاعتق فقر بل لأنه سخرى يؤثر أضيافه بالزاد على نفسه ، وهو ذكى القلب يقظان واثق بنفسه وبما أعده لحوادث الدهر

(٢) الظعن : ضد الإقامة . والمعنى أنه منتصف بالحزم فى جميع شئونته وأحواله والحزم ملازم له حيث كان .

(٣) المزن جمع مزنة وهى السحابة البيضاء والمراد السحابة التى فيها الماء لأن السحاب الأبيض لا ماء فيه . غمره الماء : علاه . يجدى : يعطى الجدوى وهى العطية . يسطو : يقهر ويصول . الليث الأبل : المصمم الماضى على وجهه لا يبالي مالقى والمعنى : أنه جواد كريم شجاع إذا أعطى أجزل العطاء كالسحاب الذى يفر الناس بكثرة أمطاره وإذا صال فكالأسد المصور لا يبالي بالعدو

(٤) مسبل فى الحى مفعوله محذوف أى مسبل إزاره فى الحى وهم يمدحون ذا النعمة بذلك وقت السلم فاما فى الشدائد فاتهم يمدحون الرجل بالتشمير وعدم اللين . الأحوى : من فى شفتيه سواد وهو محمود فيهما . الرفل : الكثير اللحم . والسمع : ولد الذئب . الأزل : السريع المشى الممسوح العجز

والمعنى أنه يتنعم فى حاله السلم ويسبل رداءه ويأكل ما يشتهى وإذا نزل فى الحرب كان كالسبع الضارى

(٥) الأرى : العسل . الشرى : الحنظل ، وكلا مفعول ذاق . والمعنى أنه رجل سهل الجانب حلو المذاق لمحبه ، مر الطعم لعدوه ، وكل من المحب والعدو قد ذاق كلا الطعمين

يركب الهول وحيدا ولا يصحبه إلا اليماني الأفل (١)
 وقتو هجروا ثم أسروا ليلهم حتى إذا ما انجباب حلوا (٢)
 كل ماض قد تردى بـماض كسنا البرق إذا ما يسـل (٣)
 فادر كـنا النار منهم ولما ينج م الحيين إلا الأفل (٤)
 فاحسوا أنفاس نوم فلما هوموا رعتهم فاشمـعلوا (٥)
 فلئن فلت هذيل شباه لبا كان هذيلـا يـفل (٦)
 صليت منى هذيل بخرق لا يـل الشر حتى يملوا (٧)

(١) وحيدا حال ، اليماني : السيف الأفل : المنظم ، المعنى انه شجاع لا يخاف الأحوال لكثرة ممارسته لها يقتحمها بنفسه ولا يستصحب معيناً إلا السيف اليماني المنظم من كثرة الضرب به

(٢) فتو : جمع فتى ، هجر : سار وقت الهاجرة وهي اشتداد الحر في نصف النهار . أسروا : لغـة في سروا ، والسرى : السير في الليل خاصة ، انجباب : انكشف ، حلوا : أقاموا ، والمعنى ورب فتيسان واصـلوا سيرهم من وقت الهاجرة إلى آخر الليل فاذا انكشف الضوء أقاموا

(٣) تردى بسيفه مثل ارتدى به إذا تقلده ويسمى السيف رداء ، سنا البرق : ضوءه ، والمعنى ان كل رجـل ماض منهم قد تقلد بالسيف الماضى الذى يحكى سنا البرق عند إخراجه من الغمد

(٤) ادر كـنا : أخذنا ؛ والمعنى أخذنا نارنا منهم ولم ينج منهم إلا اليسير (٥) احسبى الشراب : تناوله شيئاً فشيئاً ، الأنفاس : الجرح ، هوم الرجل : إذا هز الرأس من النعاس ، اشمعلوا : أسرعوا فى السير ، رعتهم : أفرعـتهم ، يقول : كانوا فى النعاس فلما أفرعـتهم جدوا فى السير

(٦) الفل : كسر حد السيف . الشبا : الحد . وقوله لبا كان ، معناه كثيراً ما كان

(٧) صليت بكذا : قاست شدته . الخرق : الشجاع الكريم والمعنى أن هذيلـا قاست الشدائد من شجاع ذى صبر وثبات على القتال فلا يسأـمه حتى يجد السأمة من أعدائه فيـرأف بهم

ينهل الصعدة حتى إذا ما نهلت كان لها منه عل (١)
 حلت الخمر وكانت حراما وبلاى ما ألت تحمل (٢)
 فاسقنيها ياسواد بن عمرو إن جسمي بعد خالي لخل (٣)
 تضحك الضبع لقتلى هذيل وترى الذئب لها يستهل (٤)
 وعناق الطير تغذو بطانا تتخطاهم فلا تستقل (٥)

ولديـد بن الصمة قصيدة في الرثاء يرثي بها أخاه عبد الله بن الصمة لما
 قتل ، ومن الغريب أنه بدأها بالغزل ، ومطلعها :

أرث جديد الحبل من أم معبد لعاقبة أم أخلفت كل موعد
 ومنها :

تنادوا فقالوا: أردت الخيل فارسا فقلت أعبد الله ذلكم الردى
 فإن يك عبد الله خلى مكانه فما كان وقافا ولا طائش اليد
 صبا ما صبا حتى علا الشيب وأسه فلما علاه قال للبائل ابعـد

(١) أنهله الشراب : سقاه إياه أول مرة . وعله : سقاه الثانية . الصعدة : القنـاة
 نفيت مستوية . المعنى أنه لا يكتفى بطمن أعدائه بقناته مرة بل يكرره مرة بعد
 أخرى كالشارب الذي لا يكفيه النهل فيشتاق إلى العمل
 (٢) ألت من اللام وهي الزيارة الخفيفة . اللأى : البطء . والمعنى أنه فاز
 بأخذ الثأر بعد بطء ومضى مدة فصارت الخمر حلالا له بعد أن حرمها على نفسه
 جريا على عادتهم من تحريم الخمر وغسل الرأس قبل أخذ الثأر
 (٣) سواد : مريخم سواده . الخل : المهزول . والمعنى : اسقني الخمر الآن فإن
 جسمي قد هزل بعد خالي

(٤) تضحك الضبع استعارة عن سرورها ومثله الاستهلال للذئب . والمعنى
 أن الضبع والذئب في سرور يقتل هذيل لخصبهما على كثرة الغذاء من الحومهم
 (٥) عناق الطير : جوارحها . تستقل : تطير . والمعنى أن جوارح الطير تنزل
 على القتلى من هذيل فتعلا بطونها حتى لا تكاد تطيق الطيران لكثرة أكلها من قتلاهم
 (٢١)

والقصيدة رواها صاحب الجهرة (١) وصاحب الحماسة (٢) .
وقد عسدة جليلة - في رثاء كايب ورثاء حياتها الزوجية بعد أن ارتكب
أخوها جساس جرما فظيها بقتله كلييا - مشهورة ذائعة ، وقد سبق بعضها .
وقال امرؤ القيس لما بلغه مقتل أبيه حجر :

أرقت لبرق بليل أهل يضى سناه بأعلى الجبل
أتانى حديث فكذبته بأمر تززع منه القل
بقتل بنى أسد زبهم ألا كل شىء سواء جمل
وأين ربيعة عن ربها وأين تميم وأين الخول ؟
ألا يحضرون لدى بابي كما يحضرون إذا ما استهل

وقال لبيد في رثاء النعمان :

ألا تسألان المرء ماذا يحاول أنحب فيقضى أم ضلال وباطل ؟
ألا كل شىء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهة تصفر منها الأنامل
فإن أنت لم ينفعك نملك فانتسب لملك تهديك القرون الأوائل
وإن لم تجد من دون عدنان والدا ودون معد فلتزك العواذل

وقال عبدة بن الطبيب :

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحمنا
فما كان قيس هلكك هلك واحد ولكنه بديان قوم تهدما

ولام السليك تربيته :

طاف يبقى نجوة من هلاك فهلك
ليت شعري ضلة أى شىء قتلك

(١) راجعها في ٢٢٤ - ٢٢٧ الجهرة

(٢) ٢٢٦ - ٣٤٠ : ديوان الحماسة لابن تمام

أمريض لم تعد أم عدو ختلك
أم تولى بك ما غالب في الدمر السلك
والمنايا رصد للفتى حيث سلك
أى شيء حسن لفتى لم يك لك ؟
كل شيء قاتل حين تلقى أجلك
طلما قد نلت في غير كد أملك
إن أمراً فادحا عن جوابى شغلك
سأعزى النفس إذ لم تحجب من سألك
ليت قلبى ساعة صبره عنك ملك
ليت نفسى قدمت للمنايا بذلك

وقصيدة أوس في رثاء فضالة بن كعدة والتي مطلعها :
أيتها النفس أجلى جزعا إن الذى تحذرين قد وقعنا
مشهورة معروفة .

٥ - الحماسة

وهي ما أثر عن العرب في جاهليتهم من شعر قالوه في وصف شجاعتهم
ونضالهم وحروبهم وواقعتهم ، وفي الدعوة إلى الأخذ بالنار والانتقام من
العدو ، وفي التحريض على القتال ، وبعث عزائم الأبطال في الحروب ،
وفي ما سوى ذلك من شتى أغراض شعر الحماسة ومناجيه .

وهو باب كبير في الشعر الجاهلي ، وصدر به أبو تمام حماسته ، وبماذجه
كثيرة ، ولنعرض هنا شواهد لهذا الفن من فنون الشعر .

قال الفند الزماني في حرب البسوس :

صفحننا عن بني ذهل وقلنا القوم إخوان (١)

(١) صفحننا: أعرضنا .

عسى الأيام أن يرجعن قوما كالذى كانوا (١)
 فلما صرح الشر فأمسى وهو عريان (٢)
 ولم يبق سوى العدوان ن دناهم كما دانوا (٣)
 مشينا مشية الليث غدا واليـث غضبان (٤)
 بضرب فيه توهين وتخضيع وإقران (٥)
 وطعن كفم الزق غدا والزق مألان (٦)
 وبعض الحلم عند الجـهل للذلة إذعان (٧)
 وفي الشر نـجاة حين لا ينـجيك إحسان (٨)

والقبيـد الزمانى شاعر جاهلى كان أحد فرسان ربيعة المشهورين
 المـعدودين شهد حرب بـكرو وتـقلب وقد قارب المائة سنة واسمه أشهل بن شـيبان
 ابن ربيعة بن زمان .

وهذه القصيدة من عيون الشعر الجاهلى رواها صاحب الحماسة (١٥ ج ١
 ديوان الحماسة طبعه محمود توفيق) . وقد نظمها الشاعر فى حرب البسوس

-
- (١) كالذى كانوا : أى مثل ما كانوا ودا وإخلاصا
 (٢) صرح : انكشف : قوله « عريان » ضربه مثلا لظهور الشر ووضوحه
 ويروى « فأضحى » وهو أحسن لان الشئ فى الضحى أظهر وأبين .
 (٣) العدوان : الظلم الضريح . دناهم : جزيئناهم والدين الجزاء يقول : جزيئناهم
 بفعلهم القبيح كما ابتدأونا به .
 (٤) غدا : ابتكر . والمعنى مشينا إليهم مشية الاسد ابتكر وهو جاثع غضبان
 (٥) التوهين : التضعيف . والتخضيع : التذليل ، الاقران : الاسترخاء أو التتابع
 (٦) غدا : سال : شبه الطعنة إذا سال منها الدم بفم الزق - وعاء الخمر - إذا
 سال منه الخمر .
 (٧) الاذعان : الانقياد : اعتذر فى هذا البيت عن تركيم التحمل مع الاقرباء
 لأنه يفضى إلى الذل
 (٨) الشر : الانتقام . الإحسان : العفو

التي كانت بين بكر وتغلب وذلك أن بكر بن وائل قوم القند بعثوا إلى بني حنيفة في حرب البسوس يستنصرونهم فأمدوهم به وبقومه بني زمان .

وقال وذاك بن ثميل المازني وهو شاعر جاهلي :

رويد بني شديان بعض وعيدكم تلاقوا غدا خيل على سفوان
تلاقوا جيادا لا تحيد عن الوغى إذا ما غدت في المأزق المتداني
عليها السكاة الغر من آل مازن ليوث طعان عند كل طعان
مقاديم وصالون في الروع خطوهم بكل رقيق الشفرتين يمانى
إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم لأية حرب أم بأى مكان

وقال عمرو بن معديكرب الزبيدي :

ليس الجمال بمنزور فاعلم وإن رديت بردا
إن الجمال معادن ومناقب أورثن مجدا
أعددت للحدثان ساء بقة وعداء علفدى (١)
وعلمت أنى يوم ذا ك منازل كعبا ونهدا
قوم إذا لبسوا الحديد تنمروا حلقا وقدا (٢)
كل امرئ يحمرى إلى يوم الهياج بما استعدا
لما رأيت نساءنا يفحصن بالمعزاء شدا (٣)
وبدت ليس كأنها بدر السماء إذا تبدى
وبدت محاسنها التي تحفى ، وكان الأمر جدا
نازلات كبشهم ولم أر من نزال الكبش بدا
هم ينذرون دوى وأنذر إن لقيت بأن أشدا
كم من أخ لي صالح بوأته يبيدى لحدا

(١) السابقة : الدرع الواسعة . العداء : الفرس كثير العدو . العلفدى : الشديد

(٢) الحلق : الدروع . القد : شبه درع كان يتخذ من الجلد

(٣) المعزاء : الأرض الصلبة . ويفحصن أى يؤثرن فيها من شدة الجري

ما إن نجزعت ولا هلمت ولا يرد بكاي زندا
ألبسته أثوابه وخلقت يوم خلقت جلدا
أغنى غناء الداهيين أعد للاعداء عدا
ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فردا

وقال الحسين بن الحمام المرى :

تأخرت أستبق الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أقدم
فلسنا على الأعتاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما
نفلق هاماً من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعز وأكرما
وقال الحارث بن ودة الجرمي وهو شاعر جاهلي من فرسان قضاة
وأعلامها :

قوى هم قتلوا - أميم - أخى فإذا رميت يصيبني سهمي
ولئن عفوت لأعفون جللا ولئن سطوت لأوهين عظمي
لا تأمن قوماً ظلمتهم - وبدأتهم بالشمم والرمم
وزعمتم ألا حيلوم لنا إن العصا قرعت لدى الحلم

وقال عبد الشارق بن عبد العزى :

ألا حبيت عنا يا ردينا نحيها وإن كرمت علينا
ردينة لو رأيت غداة جئنا على أضيائنا وقد اختويننا (١)
فأرسلنا أبا عمرو ريداً فقال ألا انعموا بالقوم عينا
ودسوا فارساً منهم عشاء فلم تقدر بفارسهم لدينا
فجأوا عارضا بردا وجئنا كمثل السيل نركب وازعينا (٢)
تنادوا يا لهبة إذ رأونا فقلنا : أحسنى ضرباً جبيننا
سمعنا دعوة عن ظهر غيب فجلنا جولة ثم ارعونا

(١) الأضيم : شدة الحقد. اختويننا : أى لم نطعم شيئاً .

(٢) الوازع : الذى يرتب الجيش ويصلحه ، أى جئنا خلفه مباشرة

فلما أن تواقفنا قليلاً أنحننا للكلال فارتمينا
فلما لم ندع قوساً وسهما مشينا نحوم ومشوا إلينا
تلاؤ مزنة برقت لأخرى إذا حجلوا بأسياف ردينا
شددنا شدة فقتلت منهم ثلاثة فتية وقتلت قينا (١)
وشدوا شدة أخرى فجروا بأرجل مثلهم ورموا جويننا (١)
وكان أخى جوين ذا حفاظ وكان القتل للفتيان زيننا
فآبوا بالرماح مكسرات وأبنا بالرماح قد انحنينا

٦ - العتاب

العتاب فن ليس بذائع في الشعر الجاهلي . وشواهد عديدة ومن مثله :
قول أمية بن أبي الصلت يعاتب ابنه :

غذوتك مولودا وعلتك يادما تعلم بما أدنى إليك وتهل
إذا ليلة نابتك بالشكولم أبت لشكواك إلا ساهدا أتمل
كأنى أنا المطروق دونك مالمذى طرقت به دونى وعينى تهمل
تحاف الردى نفسى عليك وإتها لتعلم أن الموت حتم مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التى إليها مدى ما كنت فبك أومل
جعلت جزائى منك جها وغلظة كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتلك إذ لم ترع حق أبوتى فعلت كما الجار المجاور يفعل
وسميتنى باسم المفضل رأيه وفى رأيك التفنيد لو كنت تعقل
تراه معدا للخلاف كأنه برد على أهل الصواب وكل

وقال حكيم بن أقيصة الضبي يعاتب ابنه بشرا :

لعمري أبى بشر لقد خانته بشر على ساعة فيها إلى صاحب فقر
فما جنة الفردوس هاجرت تبغى ولكن دعاك الخبز - أحسب - والتمر

(١) اسم فارس :

وقال ذوالأصبع العدواني :

لاه ابن عمك لا أفضلت في حسب	عنى ولا أنت ديانى فتخزوني (١)
ولا تقوت عيالى يوم مسغبة	ولا بنفسك فى العزاء تكفينى
فان ترد عرض الدنيا بمنقصتى	فان ذلك بما ليس يشجيني
إن الذى يقبض الدنيا ويبسطها	إن كان أغناك عنى سوف يغنينى
الله يعلمكم والله يعلمنا	والله يحزبكم عنى ويجزىنى
ماذا على وإن كنتم ذوى رحمى	أن لا أحبك إذ لم تحبوني
لو تشربون دمي لم يرو شاربكم	ولا دماؤكم جميعا تروبنى
يا عمرو إلا تدع شتمى ومنقصتى	أضربك حتى تقول الهامة اسقوني
كل امرئ صائر يوماً لشيمته	وإن تخلق أخلاقا إلى حين
يا عمرو لو لنت لى ألفيتى بشرا	سمحا كريما أجازى من يمازىنى
والله لو كرهت كفى مصاحبى	لقلت إذا كرهت قربى لها بينى

٧ - الاعتذار

وأول من أجاد فيه واشتهر به هو النابغة الذبياني ، واعتذارياته إلى النعمان بن المنذر ملك الحيرة من عيون الشعر الجاهلى .

وقصيدة النابغة :

أتانى - أبيت اللعن - أنك لمتنى ونلك التى أهتم منها وأنهب
ومنها : فانك شمس والموك كواكب . إذا طاعت لم يبد منهن كوكب

وقصيدته :

أتانى - أبيت اللعن - أنك لمتنى وئلك التى تستك منها المسامع
والتي منها : فانك كالليل الذى مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

قصيدتان مشهورتان فى الاعتذار .

(١) أى لله ابن عمك . الديان : القائم بالامر القاهر . خزاء : ساسه ودبره

وقال النابغة يعتذر إلى النعمان :

فلا لعمر و الذي قد زرتة حججا
والمومن العانذات الطير يسحها
ما إن نديت بشيء أنت تكرهه
إذا فعاقبني ربي معاقبة
إلا مقالة أقوام شقيت بهم
هذا التبرؤ من قول قدفت به
مـلا فداء لك الأقوام كلهم
أنبت أن أبا قابوس أوعدني
وما هريق على الأنصاب من جسد
ركبان مكة بين القيل والسند
إذا فلا رفعت سوطي إلى يدي
قوت بها عين من يأتيك بالحد
كانت مقاتلهم قرعا على السكبد
كانت نوافذه حرا على السكبد
وما أوـمل من مال ومن ولد
ولا قرار على زار من الأسد

٨ - الحكمة والأخلاق

وهي كثيرة في الشعر الجاهلي .

تجدها في معلقة زهير حيث يقول :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله
ومن يقترب يحسب عدوا صديقه
ومن لا يزد عن حوضه بسلاحه
ومن لم يصانع في أمور كثيرة
ومن يجعل المعروف من دون عرضه
ومهما تكن عند امرئ من خليقة
سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش
وأعلم ما في اليوم والامس قبله
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
يضرس بأنساب ويوطأ بمنسم
يفره ومن لا يتقى الشتم يشتم
وإن خالها تخفى على الناس تعلم
ثمانين حولا لا أبالك يسأم
ولكنني عن علم ما في غد عمي
تمته ومن تخطى يعمر فيهرم

كما تجدها في معلقة طرفة حيث يقول :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى
عقيلة مال الناحش المتشدد

أرى الدهر كنزاً ناقصاً كل أيلة وما تنقص الأيام والدهر ينقذ
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتي لكما طول المرخي وثلياه باليد
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند
ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود
لعمرك ما الأيام إلا معارة فما أسطعت من معروفها فتزود
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى
وفي قصيدة عبيد بن الأبرص البائية حكمة كثيرة وقد رواها صاحب
الجمهرة . ويقول منها :

وكل ذى غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب
من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب
والله ليس له شريك علام ما أخفت القلوب
والمرء ما عاش في تكذيب طول الحياة له تعذيب

وكذلك في دالية عدى بن زيد التي رواها صاحب الجمهرة ويقول منها :

أعاذل ما يدريك أن منيتي إلى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد
أعاذل ما أدنى الرشاد من الفتى وأبعده منه إذا لم يسدد
أعاذل إن الجهل من لذة الفتى وإن المنايا للرجال بمرصده
ذريني فإنني إنما لي ما مضى أمامي من مالى إذا خف عودى
وللوارث الباقي من المال فاتركى عتابي فإنني مصلح غير مفسد
كفى زاجراً للبرء أيام دهره تروح له بالوعظاظ وتقتدى
فنفسك فاحفظها عن الغى والردى متى تقوها يغو الذى بك يقتدى
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى
وبالعدل فانطق إن نطقته ولا تلم وذا الذم فاذمه وذا الحمد فاحمد
عسى سائل ذو حاجة إن منعه اليوم سؤلاً أن يفسر في غد

إلى آخر ما في هذه القصيدة الطويلة من حكم وتجارب وآراء (١). ويقول
الأفوه الأودى :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهلهم سادوا
تهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت فإن تولت فبالأشرار تنفاد
إلى ما سوى ذلك من ألوان الحكمة الكثيرة في الشعر الجاهلي بما
لاداعى إلى الإطالة في نشر صحائفه ، ويمكنك أن تقرأ قصيدة عبدة بن الطليب
في المفضليات (٢) التي مطلعها :

أبني لاني قد كبرت وراني بصرى ، وفي المصلح مستمتع
ويقول منها :

ونصيحة في الصدر صادرة لكم مادمت أبصر في الرجاله وأسمع
أوصيكم بتقى الإله فإنه يعطي الرغائب من يشاء ويمنع
ويعبر والدكم وطاعة أمره إن الأبر من البنين الأطوع
إن السكير إذا عصاه أهله ضاقت يداه بأمره ما يصنع
لأن الذين ترونها إخوانكم يشفي غليل صدورهم أن تهرعوا
فستجد حكمة وجمالاً ونصائح خلقية كريمة .

٩ - الوصف

وهو باب واسع في الشعر الجاهلي سعة مناظر الحياة ومشاهد الوجود
نفسها . ولقد صور الشاعر الجاهلي بيئته وحياته وألوان معيشته في شعره
تصويراً رائعاً بديعاً ، بما لا يمكن إحصاؤه وتعداد القول فيه .
فقد وصف الجبال والرمال والوديان والمياه والأمطار والسيول والبرق

(١) راجعها في المجهرة ١٧٤ - ١٨٠

(٢) ١٤٣ ج ١ وما بعدها المفضليات طبع مطبعة المعارف سنة ١٣٦١

والرياح واختلافها . كما وصف الإبل والغنم والخيل والوحش والصيد
وما في بلاده من حيوان ونبات وجماد ، ووصف دياره وأماكن نزوله
ومواضع لهوه وكرهه ، ووصف معارك الحرب والأسلحة التي يستعملها فيها ،
ووصف ملابسه وكل ما يتصل به أو يبيته ، بما تكتفي بالإشارة إلى شواهد
قليلة له .

قال امرؤ القيس في وصف الليل :

وليل كهج البحر أرخى سدوله على بأواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تخطى بسلبه وأردف أعجازاً ونا . بكامل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه بكل معار القتل شدت يذبل
وقال طرفة يصف السفينة :

كان حدوج المالكية غدوة خلایا سنين بالنواصف من دد .
عدولية ، أو من سفين ابن يامن يحور بها الملاح طورا ويهتدى
يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب الممايل باليد
وقال عنتره يصف روضة :

ولقد مررت بدار عبلة بعد ما لعب الربيع بربعها المتوسم
جادت عليه كل عين ثرة فتركن كل قرارة كالدرهم
سحا وتسكبا فكل عشية يجري عليها الماء لم يتصرم
وخلا الذباب بها فليس ببارح غردا كفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الأجذم
ولحسان السعدى يصف القمر :

مهما يكن ريب المنون فاني أرى قمر الليل المعذب كالفنى
يهل صغيرا ثم يعظم ضومه وصورته حتى إذا ما هو استوى

تقارب يختبئ ضوءه وشعاعه ويمسح (١) حتى يستسر (٢) فما يرى
ويصف عنزة الغراب فيقول :

ظعن الذين فراقهم أتوقع وجرى بينهم الغراب الأبقع
خرق الجناح كأن لحى رأسه جلدان ، بالأخبار دس مولع
ويصف فرسه الذى خاض به المعركة فيقول :

مازلت أرميهم بشفرة نحره ولبانه ، حتى تسربل بالدم
فأزور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمحم
لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ولكن لو علم الكلام مكلمى
ولقد شفى نفسه وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم
والخيل تفتحم الخبار عوابسا ما بين شيطمة وأجرد شيطم
ويصف طرفة ناقتة فيقول :

وإني لأمضى الهم عند احتضاره بهرجاء مرقال تروح وتفتدى
أمون كألواح الأران نسأتها على لاجب كأنه ظهر يرجد
لها فخذان أكمل النحض فيهما كأنهما بابا منيف يرد
فإن شئت لم ترقل وإن شئت أرقات مخافة ملوى من القد عهد
إلى آخر هذا الوصف الغريب . وحسينا فى باب الوصف ذلك فهو
يلبى عن شاعرية موهوبة وملكية مطبوعة .

١٠ - السليب

وهو من أكثر أبواب الشعر العربى ، وأغورها ، وقد أكثر الشعراء
الجاهليون منه ، وابتدأوا به قصائدهم (٣) .

(١) يذهب (٢) يخفى

(٣) لا تسكنا : نخلو قصيدة منه اللهم إلا قصيدة عمرو بن كلثوم :

ألا هي بصحك فاصبحينا ولا تبقى نخور الاندرينا

والنسيب هو ذكر جمال المرأة ووصف محاسنها وأثر تبريح الشوق
بالشاعر وحنينه اليها وقص ذكرياته مع محبوبته وساعات لقائها ، والديار
التي كانت تنزل بها ، ومسارح اللهو واللعب التي كانت تلعب وتلهو فيها ، إلى غير
ذلك من حديث الجمال والظلمة اليه وذكريات الحب والحنين والشوق إلى
المرأة . والغزل والنسيب متقاربان في المعنى وإن كان بعض الباحثين يعرف
الغزل بأنه الاشتهار بموادة النساء وتلعبن والحديث إليهن ، والتشبيب
قاصر على ما يأتي به الشاعر في مطلع كلامه من ذكر للمرأة والإطلال والديار
وذكريات اللقاء والحب ، وإن كان بعض الباحثين يرى أن الجميع بمعنى
واحد لا اختلاف في مدلولهما .

وامرؤ القيس هو أول من رقق الغزل وأطاله وشبه المرأة بالمها والظبي
والظلم ووصف ديبه اليها وفجوره في حبه ولهوه مع محبوباته . وهامى ذى
أمثلة للنسيب من الشعر الجاهلي .

قال امرؤ القيس إمام الشعراء ، وشيخ النسيب والغزل ومبتدئه ، من
لأهيته الطويلة المشهورة :

بلى رب يوم قد طوت ليلة	بأنسة كأنها خط تمثال
يضىء الفراش وجهها لضجيعها	كمصباح زيت في قناديل ذبال
كأن على لباتها جمر مصطل	أصاب غضى جزلا وكف بأجذال
ومثلك بيضاء العوارض طفلة	لعوب تلسيني إذا قت سر بالي
تنورتها من أذرعات وأهلها	يئرب أدنى دارها نظر عال
نظرت اليها والنجوم كأنها	مصاييح رهبان تشب لقفال
سموت اليها بعد ما نام أهلها	سمو حباب الماء حالا على حال
فقلت سباك الله إنك فاضحى	ألست ترى السهار والناس أحوالى
فقلت يمين الله أبرح قاعدا	ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى
فلما تنازعنا الحديث وأسجحت	هصرت بغصن ذى شماريخ ميال

فصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ورضت فذلت صعبة أى اذلال
حلفت لها بالله حلقة فاجر لنا ما فخرنا من حديث ولاصال
فأصبحت معشوقا وأصبح بعلمها عليه القتام كاسف الظن والبال
يفط غطيط اليكر شد خناقه ليقتلنى والمرء ليس بقتال
أيقلتى والمشرقى مضاجعى ومسئولة زرق كأنياب أغوال

وقال الأعشى :

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تعاقب وداعا أيها الرجل ؟
غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشى الهوينى كما يمشى الوجى الوحل
كأن مشيتها من بيت جارنها من السحابة لا ريث ولا تيجل
ليست كمن يسكره الجيران طلعتها ولا تراها لسر الجار تختل
يسكاد بهرعها لولا تشدها إذا تقوم إلى جارنها السكسل
إذا تقوم بضوع المسك أصورة والزئبق الورد من أردانها شمل
ماروضة من رياض الحزن معشبة خضراء جاد عليها مسبل هطل
يضاحك الشمس منها كوكب شرق مؤزر بعميم النبات مكتمل
يوماً بأطيب منها نشر رائحة ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل
قالت هريرة لما جئت زائرها وبلى عليك ووبلى منك يا رجل
أما ترانا حفاة لا نعال لنا إنا كذلك ما نحفى ونقتل
وقد أخالس رب البيت غفلته وقد يحاذر منى ثم ما يشل
وقد أقود الصبي يوماً فيلبنى وقد يصاحبنى ذو الشرة الغزل

وقال النابغة :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نوى وأحجار ؟
أقوى وأقفر من نعم وغيره هوج الرياح بهابى الترب موار
وقعت فيها سرة اليوم أسأها عن آل نعم أمونا عبر أسفار

فاستعجمت دار نعم ما تكلمنا والدار لو كلمتنا ذات أخبار
فما وجدت بها شيئاً ألوذ به إلا الثمام وإلا موقد النار
وقد أراني ونعماً لاهمين بها والدهر والعيش لم يهجم بامرار
أيام تخبرني نعم وأخبرها ما أكرم الناس من حاجي وأسراري
لولا حباتل من نعم علمت بها لأقصر القلب عنها أي إقصار
نبتت نعماً على الهجران عانة سقياً ورعياً لذاك العاتب الزاري
رأيت نعماً وأصحابي على عجل والعيس للبين قد شدت بأكوار
فريع قلبي وكانت نظرة عرضت حيناً وتوفيق أقدار لأقدار
ببضاء كالشمس وافت يوم أسعدها لم تؤذ أهلاً ولم تفحش على جار
والطيب يزدد طيباً أن يكون بها في جيد واضحة الخدين معطار
أقول والنجم قد مالت أواخره إلى المغيب ، نبتت نظرة حار
المحة من سنا برق رأى بصرى أم وجه نعم بدا لي أم سنا نار
بل وجه نعم بدا والليل معسكر فلاح من بين أبواب وأستار
وقال المخبل السعدي :

ذكر (الرباب) ، وذكرها سقم فصبا وليس بار صبا حلم (١)
وإذا ألم خيالها طرفت عيني ، فماء شؤونها سجم (٢)
كاللؤلؤ المسجور أغفل في سلك النظام تخافه النظم (٣)
وأرى لها داراً بأغدره السيدان لم يدرس لها رسم (٤)

(١) الرباب : اسم محبوبته - الصبوة : العشق ، الحلم : العقل
(٢) الشؤون : مجارى الدمع واحداً شأن ، سجم مصدر من سجم الدمع :
سال والمراد بالمصدر اسم الفاعل
(٣) المسجور ، المنظوم المسترسل ، أغفل ، أهمل ، والمعنى أنه حين يرى
خيال حبيبته تسيل دموعه كأن قطراتها در منظوم في سلك انقطع فتحدر منه الدر
(٤) الأغدره جمع غدير ، السيدان : أرضى لبني سعد قوم المخبل ، الرسم :
الأثر بلا شخص ، درس : عفا وذهب ، يريد أن دار حبيبته لم تذهب آثارها

إلا رماداً هامداً دفعت عنه الرياح خوالد سحج (١)
فكأن ما أبقى البوارح وال أمطار من عرصاتها الوشم (٢)
وكان أطلاء الجآزر وال غزلان حول رسومها البهم (٣)
والنخل أبو يزيد التميمي السعدي ، شاعر مشهور ، واسمه ربعة بن مالك
عمر في الجاهلية والإسلام طويلاً ، ومات في خلافة عمر أو عثمان وهو
شيخ كبير (راجع ترجمته في الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٩٦ ط الخانجي
١٣٢٢ هـ ، ١٧٧٧ المؤلف للأمدى)

والقصيدة عالية الطبقة في البلاغة ، رواها صاحب المفضليات وذكر منها
أربعين بيتاً .

بل بقيت بعض رسومها ، فهو حين يراها ، يذكر صاحبته ويحزن كثيراً
لفراقها وبعدها
(١) هامد : خامد ، وإنما همد لطول مكثه . الخوالد : البواقى قصد بها الأثافي
وهي الحجارة التي تنصب عليها القدور . سحج من السحمة وهو لون يضرب إلى
السواد . يريد أن الأثافي حفظت الرماد من أن تذرره الرياح .
وقوله « لا رماداً » ، إلا ، هنا بمعنى الواو كما يقول أبو عبيدة . يقول : وأرى
لها رماداً .

(٢) « ما » اسم موصول . البوارح الرياح الشديدة من الشمال خاصة وهي
من رياح الصيف . العرصات : جمع عرصة وهي ساحة الدار . الوشم : النقش
في اليد .

والمعنى : أن الآثار الباقية من دار حبيبته التي كادت تعفوها الرياح والأمطار
تبدو كأنها الرسم المنقوش في اليد .

(٣) الأطلاء : جمع طلا وهو الصغير من ذوات الظلف . الجآزر : جمع
جؤزر وهو الصغير من ولد البقر . البهم . صغار أولاد المعزى الواحدة بهمة

وفد بدأها الشاعر بالذكرى والطيف ، ووصف دار صاحبه الدارسة ثم وصف جمالها وبياض وجهها وكثافة فرعها ، ثم أنحى على لائمه التى لامته على كرمه وإنفاقه ، واحتج بأن الخلود فى البذل والجود لا فى الثراء والشح ، وبأن المنية غاية الاحياء ومنها :

ولقد تحمل بها الرباب لها سلف يفلى عدوها نفم (١)
بردية سبق النعيم بها أقرانها وعلا بها عظم (٢)
وتريك وجهها كالصحيفة لا ظمآن محتلج ولا جهم (٣)
كعقيلة للذن استضاء بها محراب عرش عزيز المعجم (٤)
وتضل مدرها المواشط فى جعد أغم كأنه كرم (٥)

وتقول عاذلى وليس لها بغد ولا ما بعده علم (٦)
إن الثراء هو الخلود وإن المرء يكرب يومه العدم (٧)

-
- (١) السلف : الخليل المتقدمة . يفلى ، يزوم ، يريد أن قومها ذرو شجاعة واستعداد ضخم فى الحرب
- (٢) بردية أى كبردية ، يشبهها بالبردى فى صفائها وبياضها واستوائها ، علا : ارتفع ، المعنى أنها يضاء زاء النعيم والترف فى شبابها حتى أتراها كبيرة السن عن أقرانها وهى صغيرة ، كبيرة الجسم والعظم .
- (٣) يشبه وجهها بالصحيفة لللاسته وليسته ، المحتلج : القليل اللحم الضامر . الجهم : الكثير اللحم البشع .
- (٤) العقيلة : الكريمة ، وعقيلة كل شئ خيرته . المعجم فاعل استضاء وهو لازم ، ومحراب منصوب على نزع الخافض ، والمحراب صدر المجلس
- (٥) المدرى : المشط . الجعد : الشعر المتقبط ايس بالسبط . الأغم : الشعر الكثير . الكرم . سجر العنب شبه به أكثرته
- (٦) الماذلة : اللائمة
- (٧) يكرب : يدنى . العدم : الفقر

إني وجهدك ما تخلدني مائة يطير عفاؤها؛ آدم (١)
 ولئن بليت لي المشقر في هضب تقصر دونه العصم (٢)
 لتنبهن عني المنية إن الله ليس كحكمه حكم (٣)
 إن وجدت الأمر أرشده تقوى الآله وشره الأثم (٤)
 وقال المنخل الإشكري وهو شاعر جاهلي كان يعاصر النابغة وادم
 النعمان بن المنذر :

ولقد دخلت على القناة الخدر في اليوم المطير
 السكائب الحسناء تر في الدمقس وفي الحرير
 فدفعتهما فتدافعت مشى القطاة إلى الغدير
 ولثمتها فتتفتت كتنفس الظبي الغدير
 فدنت وقالت يا منخل ما بجسمك من حرور
 ما شف جسمي غير حبك فاهدني عني وسيرو
 وأحبها وتحبني ويجب فاقتهما بهيرو

وقال ورد الجعدي :

خليلي عوجا بارك الله فيكما وإن لم تكن هندا لأرضكما قصدا
 وقولا لها ليس الضلال أجارنا ولكننا جرننا لنلقاكم عمدا
 وقال المرقش الأكبر :

-
- (١) يطير عفاؤها : يذهب وبرها من سمن . الأدم : الإبل الخالصة البياض
 (٢) المشقر : حصن بالبحرين ، وكان الخبيل وأولاده قد هاجروا إلى البصرة وأقام
 بعض أبنائه بالاحساء والبحرين ، وهم شعراء . العصم : الوعول واحدها عصم
 يريد أن الهضبة عالية لا ترقاها الوعول
 (٣) تنبهن : تنبهن : المنية : الموت
 (٤) أرشده من الرشد وهو الهدى والاستقامة . الأثم : الذنب

وهي قصيدته المفردة في الغزل (١) :

سرى ليلا خيال من سليمى فأرقنى وأحبابى هجود
فبت أدير أمرى كل حال وأرقب أهلها وهمو بعيد
على أن قد سما طرفى لبار يشب لها بذى الأرطى وقود
حواليها مهاجم التراقى وأرام وغزلان رقة-ود
نواعم لا تعالج بؤس عيش أوانس لا تراح ولا ترود
سكن ببلدة وسكنت أخرى وقطعت المواقى والعهد
فما بالى أنى ويخان عهدى وما بالى أصاد ولا أصيد
ورب أسيلة الخدين بكر منعمة لها فرع وجيد
وذو أشر شتيت النبت عذب نقي اللون راق برود
لهوت بها زماناً من شبابى وزارتها النجائب والقصيد
أناس كلها أخلقت وصلا عنانى منهم وصل جديد

وقال طرفة : (وهي قصيدته المفردة في الغزل) ، ومعالمها :

اتعرف رسم الدار قفرا منازل كجفن اليماني زخرف الوشى مائله
ومنها :

ديار سليمى إذ تصيدك بالمنى وإذ جبل سلمى منك دان تواصله
وإذ هى مثل الرنم صيد غزالها لها نظر ساج إليك تواعله
غنيما وما نخشى التفرق حقبه كلانا غرير ناسم العيش باجله
ليالى أقتاد الصبا ويقودنى يحول بنا ريمانه ونجاوله

ثم يصف خيالها ، ويتعجب لاهتمامه إليه ثم يقول :

وقد ذهبت سلمى بعقلك كله فهل غير صيد أحرزته جباله ؟

(١) راجعها في المفضليات ٢٣ ج ٢ طبع دار المعارف ١٣٦١ هـ

(٢) سما : ارتفع . يشب : يرفع الخطب حواليها وهو الوقود . الأرطى
بسكون الراء : شجر ينبت في الرمل : وذو الأرطى : موضع

كما أحرزت أسماء قلب مرقش بحب كلبع البرق لاحت مخالبه
ثم يذكّر قصة المرقش مع محبوبته أسماء ، ويختمها بقوله :
فوجدى بسلمى مثل وجد مرقش بأسماء إذ لا تستفيق عواذله
قضى نعبه وجدا عليها مرقش وعلمت من سلمى خيالاً أوطله

النقد الأدبي في الجاهلية

النقد الأدبي هو الحكم الذي تصدره على الشعر والنثر ؛ وهو عند
المحدثين تقدير النص الأدبي تقديرأ صحيحاً وبيان قيمته ودرجته الأدبية (١)
وهو كما أقول : تحليل الآثار الأدبية والحكم عليها وبيان قيمتها الأدبية
والموازنة بينها وبين ما يشابهها من الآثار ، وأصول النقد قراءة وفهم وتفسير
وحكم ، والغرض منه دراسة الأساليب أو الكتاب أو الآراء والأفكار (٢)
لم يكن النقد الأدبي عند العرب في أول نشأته بهذا اللون من الدراسة
والموازنة ، إنما كان تعبيراً خاطفاً ينم عن رأى في الإجابة أو الاستمجان
للموضوع الأدبية العامة ، ثم تدرج في الدقة في أحكامه الأدبية عصرأ بعد
عصر حتى وصل إلى ما هو عليه وعلى ما نفهمه الآن .

نشأ النقد في الجاهلية مرتجلاً : وكان هينا يسيراً ملائماً لروح العصر
وللشعر العربي نفسه (٣) ، عرى النشأة كالشعر لم يتأثر بمؤثرات أجنبية ولم
يقم إلا على الذوق العربي السليم (٤) .

وجد في أطوار تهذيب الشعر وفي اختيار المعلقات وتعليقها على الكعبة (٥)

(١) أصول النقد الأدبي للشايب (٢) ٩٠ وما بعدها مقدمة لدراسة بلاغة
العرب (٣) ٢٤ تاريخ النقد الأدبي عند العرب (٤) ٢٥ تاريخ النقد الأدبي
عند العرب (٥) ٣٧٩ : ٣ العقد

وفي حكومة أم جندب بين امرئ القيس وعلقمة (١) . وحكومة النابغة بين الشعراء وكان تضرب له قبة حمراء في عكاظ ويأتيه الشعراء ويشدون له أشعارهم (٢) ، ومن حكم ربيعة بن حذار الأسدي على الزبرقان بن بدر والمخبل السعدي وعبد بن الطيب وعمرو بن الأهتم (٣) ، ووجد في نقد الشعراء للشعر : فاسرؤ القيس يمر بكعب وأخويه : الغضبان والقعقاع فأشده فقال : إني لأعجب كيف لا تمتلي عليكم نارا جودة شعركم فسووا بني النار (٤) ويقول النابغة : أشعر الشعراء من استجيد كذبه وأضحك رديته (٥) ، وسمى كعب الغنوي كعب الأمثال لكثرة ما في شعره (٦) منها ، وسمى طقبل الغنوي طقبل الخيل لكثرة وصفه إياها ، والنمر بن توبل المحبر لحسن شعره (٧) ، وسموا قصيدة سويد بن أبي كاهل : بسطت رابعة الحبل لنا ، اليتيمة كسروا بعد ذلك خطبة لسحبان الشوهاة لحسنها (٨) ، ويقول زهير يروى لحسان :

وإن أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أشدته صدقا

ورأى لبديد بعد شيخوخته أن أشعر الناس امرؤ القيس ثم طرفه ثم نفسه (٩) إلى غير ذلك من مظاهر النقد في الجاهلية .

(١) ١٢٨ : الأغاني . ونقد الرافعي هذه الحكومة (٢٢٥ - ٢٣٤ : ٣ : آداب العرب للرافعي) وتابعه في ذلك محمد هاشم (١٨٤ : الأدب العربي في العصر الجاهلي) ويرتاب باحث في صحة هذه الحكومة ويرى جورها ويقول : ولعل ذلك مما حمل ابن المعتز على أن ينكر هذه القصيدة فيما أنكره من شعر امرئ القيس (٢١ و ٢٢ تاريخ النقد الأدبي عند العرب)

(٢) ١٢٣ الشعر والشعراء .

(٣) ١٤ تاريخ النقد الأدبي عند العرب و ٧٥ موشح (٤) ٧٠ من المؤلف

للأمدى

(٥) ٢٥٦ سر الفصاحة لابن سنان ، ٥٠ و ٢٠٥٨ العمدة

(٦) ٣٤١ معجم الشعراء

(٧) ١٨٤ المؤلف ، ١١٢ : ٢ : العمدة (٨) ١ : ٢٢٥ : البيان والتبيين

(٩) ٢٠ : ٣٨٠ : ٣ : ويقول ابن عبد ربه :

صورة من النقد الأدبي في الجاهلية :

١ - كان النابغة تضرب له قبة حمراء في سوق عكاظ فتأتيه الشعراء وتشدده أشعارها ، فأناه الأعشى فأشده ، ثم أناه حسان فأشده ، فقال لولا أن أبا بصير أنشدني آنفا لقلت أنك أشعر الجن والإنس ، قال حسان والله لأننا أشعر منك ومن أبيك وجدك ، فقبض النابغة على يده ثم قال يا ابن أخي أنت لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك راسع
ثم قال للخنساء وقد أنشدته :

قذى بعينك أم بالعين عوار أم أقفرت إذ دخلت من أهلها الدار؟
فلما بلغت قولها ،

وإن صخرنا لتأنم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
قال : ما رأيت ذا مثانة أشعر منك قالت ولا ذا خصيتين (١) وتوادر في
هذه الرواية زيادات فيها مبالغة كثيرة تتصل بنقد قول حسان :

لنا الجففات الغريبلعن بالضحي وأسيفنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما
وهي مشهورة ولا داعي لذكرها .

٢ - وسمع طرفة وهو صغير بيت خاله المسيب بن علس :

وقد أتنامي الهم عند احتضاره بناج عليه الصعيرة مكدم

وهذا - أي تفضيل شاعر وأنه أشعر الشعراء - عما لا يدرك غايته ولا يوقف
على حد منه والشعر لا يفوت به أحد ولا يأتي منه بديع إلا أتى ما هو أبدع منه ،
ولله در القائل : أشعر الناس من أنت في شعره (٣:٣٨١ المقد)

(١) راجع ١٢٣ الشعر والشعراء

فتنقده وأزرى بقوله : « استنوق الجبل » ، لأنه وصف الفحل بالصيعرية
وهي عندهم من صفات إناث الإبل .

٣ - وتنازع امرؤ القيس وعلقمة بن عبدة حول قصيدتين لهما وأيهما
أشعر من الآخر ، والقصيدتان في وصف الفرس والعيد ، ومطلع قصيدة
امرىء القيس :

خليلي مرا بي على أم جندب لنقضى حاجات العوادم المذهب
ومطلع قصيدة علقمة :

ذهبت من الهجران في كل مذهب ولم يك حقا كل هذا التجنب
فتحاكما إلى أم جندب الطائفة زوج امرىء القيس ، ففضلت علقمة
عليه ، قالت وقد سمعت قول امرىء القيس :

فللسوط الهوب واللساق درة وللزهر منه وقع أهوج منهب (١)
وقول علقمة :

فأدرك لم يحمد ولم يثن شأوه يمر كمر الراح المتعذب
فقلت له : فرس علقمة أجود من فرسك لأنك حركته بساقك
وامتريته بسوطك وزجرته بصوتك ، وأدرك فرس علقمة ثانيا من عنانه
٤ - وقال الأعشى يمدح قيس بن معد يكرب :

ونبت قيساً ولم أبله وقد زعموا ساد أهل اليمن
فعاثوا عليه قوله « زعموا » .

٥ - ونحائم الزبرقان بن بدر وعمر بن الأهم وعبد بن الطيب والنخيل السعدي
إلى ربيعة بن حذار الأسدي في الشعر أيهم أشعر فقال الزبرقان : أما أنت
فشعرك كلحم أسخن لا هو أنضج فأكل ولا ترك نيتا فينتفع به . وأما أنت

(١) الالهوب : شدة الجرى . الدرة : الجرى اللين . الأهوج : الاحق .
المنعب : الذي يستعين بصوته .

يا عمر فإن شعرك كبرود حـبر يتلأأ فيها البصر فكها لأعيد فيها النظر
نقص البصر . وأما أنت يا غنبل فإن شعرك قصر عن شعرهم وارتفع عن
شعر غيرهم ، وأما ما أنت يا عبدة فإن شعرك كزادة أحكم خرزها فليس
تقطر ولا تمطر (١)

وتروى برواية أخرى في المرجع نفسه وهو الموشع ، قال المرزباني :
اجتمع الزبرقان وعمر بن الاثم وعبدة بن الطبيب والخنبل التميميون في
موضع فتناشدوا أشعارهم فقال لهم عبدة : والله لو أن قومًا طاروا من جودة
الشعر لطرتم فيما أن تخبروني عن أشعاركم وإما أن أخبركم قالوا : أخبرنا .
قال : فإني أبدأ بنفسى ، أما شعري فمثل سقاء وكيع (٢) وغيره من الأسقية
أوسع منه .

وأما أنت يا زبرقان فإنك مررت بحزور منحورة فأخذت من
أطايها وأخايتها (٣) .

إلى غير ذلك من مظاهر النقد في الجاهلية

فنون الشعر الجاهلي أو أغراضه

- ١ -

أغراض الشعر هي فنونه وموضوعاته التي يقول فيها الشعراء من مدح
وهجاء ونحو ورثاء وغزل وحكمة وما شأ كل هذه الموضوعات التي عرفها
الشعر والشعراء من قديم .

وأغراض الشعر طرقها الشعراء فنا ولكن لم يصطلحوا عليها اصطلاحاً ،
وكانت أقسام الشعر في الجاهلية كما يقول أبو هلال خمسة : المديح والهجاء
والوصف والتشبيب والمرأى حتى زاد فيها النابغة سادساً هو الاعتذار ،
فأحسن فيه ولا أعرف أحداً من المحدثين بلغ مبلغه فيه إلا البحترى (٣) ،

(١) ٧٥ موشع (٢) شديد (٣) ٩١ - ١ ديوان المعاني .

وليس للعرب شيء ينسب إلى التهانى وما جاء عنهم من شكلها فهو من جملة المدح (١)
وقالوا : بنى الشعر على المدح والهجاء والنسيب والرماء ، وقالوا : قواعد
الشعر : الرغبة ومنها يكون المدح والشكر ، والرغبة ومنها يكون الاعتذار
والاستعطاف ، والطرب ومعه يكون الشوق ورقة النسيب ، والغضب ومعه
يكون الهجاء والعتاب . وقال الرمانى : أكثر أغراض الشعر خمسة : المدح
والمدح والهجاء والفخر والوصف (٢)

وقالوا : للشعر فنون كثيرة تجمعها أربعة : المديح والهجاء والحكمة
واللهو ، ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون : فمن المديح المرائى
والافتخار والشكر واللفظ في المسألة وغير ذلك مما أشبهه وقارب معناه ،
ومن الهجاء الذم والعتب والاستبطاء والتأنيب وما أشبه ذلك وجانسه ،
ومن الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ وما شاكل ذلك ، ومن اللهو الغزل
والطرد وصفة الخمر وما أشبه ذلك وقاربه (٣) . وأول من عد فنون الشعر
وميز بينها تمييزاً هو أبو تمام فإنه رتب كتابه الحماسة في عشرة أبواب :
الحماسة ، والمرائى ، والأدب ، والتشبيب ، والهجاء ، والأضياف والمديح ،
والصفات ، والسير ، والملح ومذمة النساء .

أما البحرى فقد خالف أبا تمام في ذلك وجعل حماسته التى عارض بها
حماسة أستاذه أبى تمام ١٧٤ باباً وأهداهما للفتح بن خاقان . ونجد الحماسة
البصرية (٤) لأبى الحسن البصرى اثني عشر باباً : الحماسة والمديح . الرثاء .
الأدب . الغزل . الأضياف . الهجاء . مذمة النساء . الصفات . النعوت .
السير . الأكاذيب والخرافات . الزهد

ويجعل عبد العزيز بن أبى الأصبح أغراض الشعر ثمانية عشر (٥) .

(١) ٩٢ : ١ المرجع السابق (٢) ١٠٠ : ١ العمدة

(٣) ٨١ نقد النثر (٤) ٥٢٠ أدب مخطوط بدار الكتب الملكية

(٥) ٧١ : ٣ تاريخ أدب العرب للرافعى .

ورواة الشعر العربى فى العصور الاولى كان لهم اثر كبير فى تقسيم الشعر
إلى فنون وأبواب :

فجامع ديوان أبى نواس (١) يقسمه إلى فنون ثمان : المديح . المراثى .
العتاب . الهجاء . الزهد . الطرد . الخزيات . الغزل والمجون

وديوان أبى تمام (٢) مقسم إلى أبواب : المديح . المراثى . المعانيات .
الأوصاف . الغزل . الفخر . الهجاء .

وديوان ابن المعتز رواة الصولى مقسم إلى عشرة أبواب : الفخر . الغزل
المديح . الهجاء . الخزيات . المعانيات . الطرد . الأوصاف . الرثاء . الزهد .

وكان كثير من دواوين الشعر ترتب بحسب الحروف الهجائية للقوافى
لا بحسب الأغراض ، ومنها ديوان البحتري (٣) ، أما ديوان ابن الرومى فلم
يطبع إلا مختارات منه ولا نعلم على أى نهج سار جامعه فى ترتيب شعره (٤)
على أنه ليس من السهل تقسيم الشعر العربى إلى أبواب شاملة تستوعب جميع
ما جادت به قرائح الشعراء فالأبواب التى يطررها الشعراء تختلف باختلاف
العصور وباختلاف شخصيات الشعراء .

وبعض العلماء والنقاد يدخل بعض هذه الفنون فى بعض . فقدمة يرجع
فى نقد الشعر الرثاء إلى المدح ويرى أن لا فرق بينهما إلا فى اللفظ دون

(١) اعتنى بجمع شعره جماعة منهم الصولى وعلى بن حمزة الأصفهاني وإبراهيم
ابن أحمد الطبرى .

(٢) جمعه الصولى ورتبه على الحروف وجمعه على بن حمزة الأصفهاني ورتبه
على الأنواع (٢٨٣ : ١ كشف الظنون)

(٣) جمعه الصولى ورتبه على الحروف وجمعه على بن حمزة الأصفهاني ورتبه
على الأنواع (٣٧٨ : ١ كشف الظنون)

(٤) عمل شعره ورتبه على الحروف الصولى وجمعه أبو الطيب وراق بن
عبدوس من جميع النسخ فزاد فيه نحو ألف بيت وابن سينا انتخبه وشرح مشكلات
شعره (٢٨٢ : ١ كشف)

المعنى (١) ، وإن كان هذا لم يحل بينه وبين أن يجعل أغراض الشعر ستة :
المديح والهجاء والرثاء والتشبيه والوصف والسيب.

وأغراض الشعر عند ابن رشيق كما عدها في عمدته : السيب والمديح
والافتخار والرثاء والاستنجاز والعتاب والوعيد والانذار والهجاء والاعتذار
ثم جاء البارودي في العصر الحديث فسار قريبا من نهج أبي تمام في تقسيم
الشعر إلى فنونه المختلفة وهي عنده سبعة : الأدب والمديح والرثاء والصفات
والسيب والهجاء والزهد .

هذا وأدباء الغرب يجعلون أبواب الشعر عامة ثلاثة : الشعر القصصى أو
شعر الملاحم ، والشعر الغنائى أو الانشادى والشعر التمثيلى أو المسرحى ،
وهذه الأقسام الثلاثة قد ظهرت للمرة الأولى في الأدب اليونانى ثم أخذ
الرومان يقلدون اليونان في فنونهم وسار الأدب اللاتينى في الطريق التى سار
فيها الأدب اليونانى ، وفي عهد النهضة أخذ الأوربيون يدرسون الأصول
اليونانية فتأثرت بها آدابهم تأثرا مباشرا ، وبنى الشعر الأوروبى الحديث على
الأصول اليونانية اللاتينية من حيث الأقسام الثلاثة المعروفة (٢) ، والغرب
مع اطلاعهم على علوم اليونان وفلسفتهم لم يهتموا بالإنتاج الأدبى اليونانى فلم
يصل فن التمثيل إلى البلاد العربية إلا في العصر الحديث عن طريق اللغريين ،
كذلك لم يلبس شعراء العربية قصصاً منظومة على طريقة الإلياذة (٣)
والشعر العربى الذى بأيدينا اليوم كله من الشعر الغنائى (٤) .

- ٢ -

وبعد فإنى أرى أن يقسم الشعر إلى أقسام يكون من أهمها :

١ - الشعر الوجدانى ، وهو الذى يصف عواطف النفس ومشاعرها
وآمالها وآلامها وأحزانها ومسراتها وحبها وطوها

(١) ٦١ فقد الشعر

(٢) ٢٥٨ التوجيه الأدبى (٣) ٢٢٠ المرجع . ويمكننا اعتبار أرجوزة
ابن المعتز في المعتمد وتاريخه من شعر الملاحم والقصص (٤) ٢٢١ التوجيه

- ٢ - الشعر الاجتماعي ، وهو الذي يتحدث عن المجتمع وحالته والبيئة ،
والمؤثرات فيها والشخصيات وأثرها الاجتماعي في حياة المجموعة العامة
- ٣ - الشعر السياسي ، ويتناول وصف الحياة السياسية وأحداثها والرجل
الذين يبدون زمام الأمور في الدولة عن تربطهم بالشاعر صلات خاصة أو عامة
- ٤ - شعر الآداب والحكم والأخلاق
- ٥ - الشعر الفني ، وهو الذي يصور الحياة ويصف مظاهر الطبيعة
والأحياء ويرسم لك صوراً حية لكل ما في الوجود من كائنات .
- ٦ - الشعر الإنساني الذي يتناول وصف أحداث الحياة والكون والوجود
وقضايا البشرية العامة ، وحقائق الحياة الخالدة ؛ بالعرض والتفصيل .
ولكن لا ضير علينا في أن نقول إن الشعر الجاهلي ينقسم إلى فنون
كثيرة منها : المدح ، الهجاء ، الرثاء ، الفخر ، الوصف ، الغزل ، الاعتذار ،
الحماسة ، الحكمة ، العتاب
- وسماني الكثير من مثل كل فن من هذه الفنون والشواهد له من صميم
الشعر الجاهلي وعيونه

معاني الشعر الجاهلي

- ١ - يقول الأمدى في الموازنة : « وهذا مذهب من مذاهب العرب
عام في أن يصفوا الشيء على ما هو وعلى ما شوهده من غير اعتماد لإغراب
ولا إبداع (١) » ، ويقول في امرئ القيس :
« وهذه الخلة - لطف المعاني - دون ما سواها ، فضل امرئ القيس ، لأن
الذي في شعره من دقيق المعاني وبديع الوصف ولطيف التشبيه وبديع
الحكمة ، فوق ما استعار سائر الشعراء ، من الجاهلية والإسلام . حتى إنه
لا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من أن تشتمل من ذلك على نوع وأواع ،

ولولا لطيف المعاني ، واجتهاد امرئ القيس فيها ، وإقباله عليها ، لما تقدم على غيره ، وإن كان كسائر شعراء أهل زمانه ، إذ ليست له فصاحة توصف بالزيادة على فصاحتهم ، ولا لالفاظه من الجزالة والقوة ما ليس لالفاظهم ، ألا ترى أن العلماء بالشعر إنما احتجوا في تقديمه بأن قالوا هو أول من شبه الخيل بالعصى وذكر الوحش والطير ، وأول من قال « قيد الأوابد » ، وأول من قال كذا وكذا . فهل هذا التقديم إلا لأجل معانيه (١) .

ومكنا نجد بعض التصوير لمعاني الشعر الجاهلي في كتب الأدب والنقد كالوساطة والصناعتين وسر الفصاحة وسواها .

ب - وبعد فمعاني الشعر الجاهلي تمتاز بما يأتي :

١ - البساطة والوضوح والصدق وعدم التكلف أو الإغراق ، وقلة المبالغة ، وإنما يعبر الشاعر الجاهلي عن المعاني التي تدور بخياله في سذاجة وصدق ويسر لا مثيل لهما .

وما في الشعر الجاهلي من بعض المبالغات ، مثل قول النابغة في السيوف :
تقد السلوقي المضاعف نسجه وتوقد بالصفاح نار الجاحب
وقول امرئ القيس :

من القاهرات الطرف لودب محول من الذر فوق الإتب منها لأثرا
وقوله :

تنورتها من أذرع وأهلها يثيرب أدنى دارها نظر إلى
وقول المتلمس :

أحار لنا لو تساط (١) دماؤنا تزايلن حتى لا يمس دم دما

(١) ١٨٠ و ١٨١ المرجع . وقد ذكر ابن رشيق بعض ما اخترعه امرؤ القيس من معاني الشعر (٢٣٢ : ٢٣٣ : العمدة) : وكذلك ابن سلام في طبقات الشعراء (٢٦ طبقات لشعراء) ، و ٢٩٧ : ٢ المزهرة للسيوطي . (٢) أي تخطط

يعول إن دماءهم تتأاز من دماء غيرهم ، وهذا ما لا يكون كما يقول
ابن قتيبة (١) :

وقول المهلهل :

ولولا الريح أسمع من بحجر صليل الببيض تفرع بالذكور (٢)
وقول عنقرة :

وأنا المنية في المواطن كلها والطعن منى سابق الآجال

وقول الفر بن تولب في السيف :

تظل تحفر شنه إن ضربت به بعد الذراعين والساقين والهادي

فإنما كل هذه المبالغات مثل مفردة في الشعر الجاهلي الذي يمتاز في عمومته
بقلة المبالغة والتكلف والتهويل في الوصف لأن الشعراء الجاهليين كانوا
يسلكون دائماً في معانيهم التعبير الصادق الواضح الساذج البريء من
الغلو والإسراف .

٢ - عدم تركيب المعاني أو تعقيدها ، وقلما تجد معاني مركبة في الشعر
الجاهلي ، وإنما قد توجد معاني حسية متعددة تلاحظ أشكالها وألوانها
كأنها متصلة بعضها عن البعض الآخر ، كقول النابغة :

فأنك شمس والماوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب
وقول امرئ القيس :

كان قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والخشف البالي
وقول زهير يشبه امرأة بثلاث أشياء في بيت واحد :

نازعت المهمل شبيهاً ، ودر البحور ، وشاكت فيها الظباء
فأما ما فويق العقد منها فمن أدماء مرتعها الخلاء
وأما المقلتان فمن مهاة ولدر الملاحاة والعفاء

(١) ٥٢ الشعر والشعراء (٢) هي أصلب الجديد وأشدّه ييساً

وقول امرئ القيس :

كأن المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القطر
يعمل به يرد أنسابها إذا طرب الطائر المستحضر

٣ - المعاني في الشعر الجاهلي مستمدة من أوصاف حسية ولا أثر للمعاني العقلية فيها ، فتجد امرأ القيس حين يصف الليل يقول :

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليلتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكل كل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الأصباح منك بأمثل
ويقول النابغة :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المتأى عنك واسع
إلى غير ذلك من المناظر الحسية المشاهدة .

٤ - ومعاني الشعر الجاهلي مستمدة من البيئة العربية في العصر الجاهلي ، وهي تصورها تمام التصوير لأنها تعبير دقيق عن الحياة الجاهلية :
سلاما وحرابا ، وجدا ولها ، وفرحا وحزنا ، وألما وأملا . كما تكثر في
الشعر الجاهلي أوصاف جبال الجزيرة وصحراواتها وقفارها ووديانها ومياهها
وأوصاف أعشابها وحيواناتها وخيامها ومنازلها إلى غير ذلك مما يتصل بالبيئة
الجاهلية ويصورها تمام التصوير ، ألا ترى إلى قول امرئ القيس :

قفأ نيك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول بإحومل

كيف ذكر الأماكن وحددها هذا التحديد الجميل الدقيق ؟

٥ - قلة ترتيبهم للمعاني أو تأنيدهم في نظمها ، إنما كانوا يرسلون الكلام
على ما خيلت نفوسهم واستدعته فطرتهم وسجيتهم وبديهم ، فيدخلون معنى
في معنى ويلتقلون من غرض إلى غرض في اقتضاب واضح دون عناء
بالتلفظ وحسن التخيل في الانتقال ، وأحيانا يقولون : دع ذا وعد عن ذا

ويكتفون بها في الانتقال من معنى إلى معنى ومن غرض إلى غرض ، كما قال
زهير في هرم بن سنان يمدحه :

دع ذا وعد القول في هرم خير البداة وسيد الحضرة
وسبب ذلك أمية العرب وبداءتهم وقلة حظههم من الثقافة والتفكير
الحضري العميق .

جـ ويمتاز امرؤ القيس كما سبق بإبتكاره المعاني الجديدة الكثيرة ، بما
اتبعت الشعراء فيها . وكان أوس بن حجر عاقلا في شعره كثير الوصف
لمسكارم الأخلاق ، وهو من أوصفهم للخمر والسلاح ولا سيما القوس ،
وسبق إلى دقيق المعاني وإلى أمثال كثيرة (١) ، وكان أبو دؤاد الإيادي
أحد نعات الخيل المجيد (٢) ، وكان الأغشى أوصفهم للخمر والحمر
وأمدح وأهجى (٣) ، إلى آخر هذه النواحي التي امتاز بها الشعراء الجاهليون
في المعاني وفنون الشعر .

أخيلة الشعر الجاهلي

الخيال في الشعر العربي :

الخيال ملكة خصبة تقدر على تخيل الأشياء وتصوير العواطف والآراء
تخيلا وتصويرا يوضح لنا نواحيها الغامضة ويعرض علينا ما فيها من أسباب
الروعة والجمال عرضاً مؤثراً نحسبه حقيقة أو كالحقيقة المدوسة ، يأخذ الشاعر
الأشياء المألوفة التي يراها الناس جميعاً ، ثم يعمل فيها خياله فيخرجها
في صورة جديدة لم تكن تنوهمها ، فليس الخيال دائماً مجافاة للحقائق وبعداً
عن المألوف وقدرة على الاغراب والالتيان بما لا يكون ، بل المهم أنه مرآة

(١) ٤٧ الشعر والشراء (٢) ٦٩ المرجع (٣) ٨٢ المرجع

تنطبع فيها الصور فيعكسها وقد صفاهما من كل شائبة وأخرجها إخراجاً جديداً
والخيال خادم للحقيقة وغايته تصوير ما حجب عنا من حقائق الوجود، وهو
في حسن اختيار التفاصيل المميزة وحركة الذهن في انتقاء هذه التفاصيل وضم
بعضها إلى بعض وترتيبها، فالشاعر يشعر بما حوله ويعتاد الملاحظة الدقيقة
في الحياة المحيطة به بما يتصل بالإحساس والشعور والعاطفة والتفكير ويلاحظ
ذلك جملة وتمهيداً فتسجله ذاكرته بدقة ثم يركز ذلك في ذهنه وأعمق شعوره
تركيزاً تاماً، ويأخذ في القوص في أغوار الذهن على التفاصيل ودلالاتها،
مستغرقاً في نشوته الروحية وفي تأملاته، وتصوره وتخيله استغرقت أفاقاً ما يساعده
على نشر المألوف من الملاحظات وإظهارها في فن جميل وآية من سحر القرى
وهذا الاستغراق وتلك النشوة والتعبئة بالتعبير عن النفس بفجران يلبوعا
من القوة الباطنة يلهم الشاعر روائع الشاعرية وآثاراً من الفن والجمال، فادة
الشعر الأولى في العواطف الإنسانية من حب وحزن وأمل وبأس وغير
ذلك مما يشعر به الشاعر ويمس به الإنسان، وهذه العواطف هي الينابيع
الصادقة للشعر (١)، وهي التي يعمل الخيال عمله لتصويرها ويسمى ليركب
الصور المودعة في العقل الباطن ومشاهده ليصوغها فناً شعرياً يعبر عنها
ويوضع ما خفي منها، فليس الشعر صوراً وألفاظاً وعبارات إنما هو عواطف
الشاعر وشعوره يركبها خيال صنّاع وملكات قادرة ومقدرة فنية موهوبة
في صور من الألفاظ والأساليب، وجمال الشعر وروعته موقوفان على مدى
إحساس العاطفة وقدرة الخيال على تصويرها، فإذا كانت صور الخيال

(١) القدماء من النقاد يختلفون في مادة الشعر اختلافاً كبيراً، فالجاحظ يراها
في الأسلوب والنظم كما يدلنا على ذلك قوله: والمعاني مطروحة في الطريق وإنما
الشان في إقامة الوزن وتخير اللفظ وجودة السبك فإنما الشعر صياغة وضرب من
التصوير (٤٠: ٣ الحيوان)، وعلى رأى الجاحظ يسير عبد القاهر في الدلائل،
أما قدامة فيرى أن مادة الشعر هي المعاني (١٤ نقد الشعر) والآدى وابن
خلدون يريانها في الألفاظ (١٨٣ الموازنة، ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون)

ناشئة عن عاطفة سقيمة أو سطحية ، كان الأثر الأدبي متكلفا مصنوعا لاحظ له من التقدير ، وإذا كان عمل الخيال محكما وإحساس العاطفة قويا نال الشعر حظه من الجودة والإعجاب ، والخيال إذا كان عمله وتأليفه لصورا جديدة اختيرت عناصرها من بين الحقائق والمشاهدات المبعثرة المخزونة في الذاكرة وألفت تأليفاً جديداً سمى خيالا مبتدعا ، ونهاية هذا الحديث أن هناك صلات وثيقة بين الخيال والعاطفة فهو الذي بصورها وببناها قوية مؤثرة ، وقوة الخيال مرتبطة بقوة العاطفة ، فإذا كانت صادقة قوية خلقت خيالا رائعا ، وإذا أردنا للأدب قوة وخلودا فعلينا أن نعني بهذيب الشعور ليكون إدراك الشاعر للحياة صادقا عميقا وآثاره الأدبية جميلة رائعة ، وخياله الأدبي موهوبا ملهما ، فالخيال أنفع المواهب والملاكات في فن الشعر لأنه المعبر عن العاطفة واللغة الطبيعية لأداء الانفعالات والمواقف الإفسانية .

الشعر الجاهلي وحظه من الخيال :

١ - في الشعر الجاهلي الكثير من التشبيهات والاستعارات والأمثال والكنايات ، وهذه هي أجنحة الخيال في التعبير والتصوير ، فتجد أمراً القيس كثير التشبيهات في معلقته ، وكنايته البليغة :

وتضحى فتات المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تلتطاق عن تقصلي
لا يما دلهما جمال ، وقوله :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسميك في أعشار قلب مقتل
من أسلوب التمثيل البارع .
وكذلك قول النابغة :

نبئت أن أبا قابوس أوعدني ولا قرار على زار من الأسد
وقول النمر بن تولب :

فصدت كأن الشمس تحت قناعها بدا حاجب منها وضلت بحاجب
تشبيه جميل جيد .

ويقول زهير : «لدى أسد شاكي السلاح مقذف» ، وهي استعارة واضحة :
ويقول تأبط شرا :

إذا حاص عيبيه كرى النوم لم يزل
له كالىء من قلب شيعان فأنك
وهي كذلك استعارة قريبة: ويقول النابغة :

رقاق النعال طيب حيزاتهم يحمون بالريحان يوم السباب
فنجود كناية جميلة عن العفة والطهر
ويقول الأعشى :

تشبُّ لمقرورين بهسظليانها وبات على النار الندى والمحلق
وهي كناية عن الكرم والجود في غنى عن الإشادة وأوصاف البلاغة
إلى غير ذلك من مثل هذه الأخيلة القريبة الواضحة الجميلة .

٢ - والخيال في الشعر الجاهلي خيال واضح مألوف يحلق قريباً من هذه
البيئة الطبيعية الجاهلية ومناظرها وألوانها وما تحفل به من شتى المشاهدات
والأوصاف (١) ، وإن كان بعض الشعراء قد طاف في البلاد القريبة من
الجزيرة العربية فاستمد بعض صور خياله وتصويره منها ، كما يقول النابغة
يزرى بالفرات لأن مدوحه النعمان أكثر منه جوداً وسخاء :

فما الفرات إذا هبَّ الرياح له ترمى أو ذابه العبرين بالزبد
يظلُّ من خوفه الملاحُ معتصماً بالخيزرانة بعد الأين والتجدد
يوماً بأجود منه سيَّب نافلة ولا يحول عطاء اليوم دون غد

(١) انظر قول الأعشى :

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وكالأعشى وعدى بن زيد الذين طافا بكثير من البلاد .

٣ - الأخيلة البعيدة البديعة قليلة جدا في الشعر الجاهلي لبدوية الأمة العربية وحياتها وبعدها عن آثار الثقافة والحضارة والرفاهية وبعد فما أكثر الخيالات الساذجة في شعر الجاهليين، فتجدون الأعشى يسمو في قوله :

وقد أراها وسط أترابها في الحى ذى البهجة والسامر
كدمية صُور محرابها بُذْهب في مرمر مالم
يشقى غليل النفس لاه بها حوراء تسي مقلّة الناظر
ثم يقول في سذاجة الشاعر وخيال البدوى

عهدى بها في الحى قد سرّ بلى هيفاء مثل المهرّة الضامر

ألفاظ الشعر الجاهلي وأسلوبه

ألفاظ الشعر الجاهلي تمتاز بما يأتى :

١ - كراهة استعمال الألفاظ الأعجمية إلا ما جاء قليلا فيه على سبيل الفكاهة والظرف والتلميح كما في شعر الأعشى وعدى بن زيد وأبي دؤاد الأبادى . وكان عدى يسكن بالحيرة ويدخل الأرياف فنقل لسانه واحتمل عنه شيء كثير جدا وعلماؤنا لا يرون شعره حجة (١) والعرب لا تروى شعر أبي داؤد وعدى بن زيد وذلك أن ألفاظهما ليست بنجدية (٢) .

(١) الشعر والشعراء .

(٢) المرجع . ويقول أبو الفرج : كان عدى بن زيد شاعرا فصيحاً من شعراء الجاهلية وهو نصراني وليس ممن يعد من في الفحول . وكان الأصمعي وأبو عبيدة يقولان : عدى في الشعر بمنزلة سهيل في النجوم يعارضها ولا يجرى معها ، وكذلك كان عندهم أمية بن أبي الصلت (ص ١٧ : ٢ الأغاني) وكان امرؤ القيس يتوكل على أبي دؤاد ويروى شعره (٢٩٨ : ٢ المزهرة)

ويقول الأعشى :

وشاهدنا الجبل والياسمين والمسمعات بأقصاها
وبربطها دائم معمّل فأى الثلاثة أذى بها
فتجد أسماء فارسية بعيدة عن إلف العربى وسمعه ، وذلك أن الأعشى
دخل بلاد الفرس وجالسهم وصدر عن ملوكهم وعلق بسمعه بعض ألفاظهم.
ويقول الأعشى أيضاً :

لها جُلُسانٌ عندها وبنفسج وسيسنبر والمرزجوش متمنّيا
٢ - كثرة استعمال الألفاظ في معانيها الحقيقية الموضوعة لها فهي بعيدة
غالباً عن أسلوب المجاز والكناية والتشبيهات وما شابهها .
٣ - كثرة القريب والحوشى ولا سيما عند وصف منظر أو حيوان أو
غيرهما من مشاهد البيئة العربية في جاهليتها .

٤ - استعمال الألفاظ الجزلة غالباً . والجزل من الكلام هو الذى
تعرفه العامة إذا سمعته ولا تستعمله في محاوراتها (١) ، وأجود الكلام ما يكون
جزلاً سهلاً لا ينفلق معناه (٢) . ويقول ابن الأثير : الألفاظ تنقسم في
الاستعمال إلى جزلة ورقيقة ، ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه ،
فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب وفي قوافع التهديد
والتخويف وأشباه ذلك . وأما الرقيق منها فانه يستعمل في وصف الأشواق
وذكر أيام البعاد وفي استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف وأشباه
ذلك . ولست أعنى بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متوعراً عليه
عنجهية البداوة ، بل أعنى به أن يكون متيناً على عدوبته في الفم وإذاته في
السمع . وكذلك لست أعنى بالرقيق أن يكون ركيكاً سفسفاً وإنما هو اللطيف
الرقيق الحاشية الناعم الملمس كقول أبى تمام :

ناعمت الأطراف لو أنها تلبس أغنت عن الملاء الرقاق (١) ،

ويقول : وأما البداوة في الألفاظ فتلك أمة قد خلت وقد عيبت على مستعملها في ذلك الوقت فكيف الآن (٢) وقد عرف النقاد أمر الجزالة والرقعة وشأنهما في الكلام ، وبحسبها منهم كثيرون في تقدم ودراساتهم ، فالفرزدق يقول في جرير : ما أحوجني مع فسوقي إلى رقة شعره ، وأحوجه مع عفافه إلى خشونة شعرى (٣) ، فهو يرى أن الجزالة والرقعة بحسب الشاعر والموضوع الذي ينظم فيه . ويقول عبد الملك في الأعشى : قاتله الله ما كان أعذب بحره وأصلب صخره (٤) ، ويقول الأصمعي في شعر النابغة : إن قلت ألين من الحرير صدقت ، وإن قلت أشد من الحديد صدقت (٥) ، وقال أبو عبيدة في شعره : له ديباجة إن شئت قلت شهداً إن مسسته ذاب ، وإن شئت قلت صخر لو رديت به الجبال لأزالها (٦) .

وبحث الجرجاني في وساطته الجزالة والرقعة بتفصيل (٧) وذكر أثر نفس الشاعر وحياته وبيئته وعصره ولون معيشته فيهما ورأى أن الرقعة إنما تأتيك من قبل العاشق المتيقن والغزل المتهالك ودعا إلى تنزيل الجزالة والرقعة منازلها بحسب المعاني والأغراض والموضوعات (٨) . وقد ذكر الجاحظ في البيان الجزالة والرقعة غرضاً قتره يقول : ومن الكلام الجزل والسخيف والخفيف والثقيل وكل عربي وبكل قد تكلموا (٩) وذكر أن سخييف الألفاظ هشاكل لسخييف المعاني وأنه قد يحتاج إليه في بعض المواضع وربما أمتع كثيراً .

ويقول : وحاجة الكلام إلى الخلاوة كحاجته إلى الجزالة (١٠) ويدعو إلى ترك الوحشي والسوقي في مواضع كثيرة من بيانه (١١) وعرض لهما ابن المدبر

(١) المثل السائر (٢) ٦٨ المثل السائر

(٣) ١٢٧ الشعر والشعراء (٤) ٣٨ الجمهرة (٥) ٣٨٠ : ٣ العقد

(٦) ٢٢ جمهرة أشعار العرب (٧) ٢٢ وما بعدها من الوساطة

(٨) ٢٩ المرجع (٩) ١١٠ ج ١ البيان والتبيين (١٠) ١٣٠ البيان

(١١) ١٠٥ و ١١٠ و ١٧٦ ج ١ المرجع

عرضا فقال : لا يعتد بالمعنى الجزل مالم تلبسه لفظا جزلا (١) وعرض لهما
أرسطو في كتابه الخطابة فذكر أنه « لا ينبغي أن تكون الألفاظ سفاسفة
ولا مجاوزة في المثانة مبلغ الأمر الذي يدل عليه فلا تبلغ درجة العامية ولا
تصوج إلى الكلفة المشنونة » وذكر أنه « ينبغي أن يلام بين اللفظ والمعنى
فالمدى الجزل يعبر عنه بالألفاظ جزلة والمعنى الرقيق يعبر عنه بلفظ رقيق (٨) .
وبعد فالشعر الجاهلي فريد في جزالته ونفائمه وجلالته وشدة تركيبه
وقوة أسره ، وإن شئت فقرأ قول زهير :

قد جعل المبتغون الخير في هرم والسائلون إلى أبوابه طرقا
إن تلق يوما على علانه هرما تلق السباحة منه والندى خلقا
لوناك حتى من الدنيا بمكرمة أفق السماء لثالت كفه الأفقا
أو قول أمية بن أبي الصلت :

أذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك؟ ، إن شيمتك الحياء
وعلمك بالحقوق وأنت فرع لك الحسب المذهب والثناء
خليل لا يغيره صباح عن الخلق الجميل ولا مساء
وأرضك كل مكرمة بدتها بنو تيم وأنت لها سماء
إذا أتني عليك المرء يوما كفاه من تعرضه الثناء
تبارى الريح مكرمة ومجدا إذا ما الكلب أجحره الشتاء
وقول امرئ القيس في عذوبة وخفة :

وما ذرفت عيناك إلا لتضرنى بسهميك في أعشار قلب مقتل
أغرك مني أن حبك قانلي وأنت مهما تأمرى القلب يفعل
إلى غير ذلك من الشواهد والمثل

أما أسلوب الشعر الجاهلي فنتحدث عنه بإفاضة فنقول :

(١) الرسالة العذراء

(٢) راجع الفن الثامن من الخطابة في الشفاء لابن سينا مخطوط

ماهو الأسلوب :

الأسلوب في اللغة الطريق وعنق الأسد والوجه والمذهب

والأسلوب الأدبي يعرفه ابن خلدون في حديث طويل بأنه « المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه (١) » ، فهو يراه في الصورة الأدبية الممتازة التي يتميز بها الأدباء والشعراء وينسجون في أديهم وشعرهم على منوالها . ويعرفه بعض المحققين بأنه طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الاقتناع والتأثير ، أو هو طريقة التفكير والتصوير والتعبير (٢) .

ويعرفه آخر بأنه المعنى المصوغ من ألفاظ مؤلفة على صورة تكون أقرب لنيل الغرض المقصود من الكلام وأفضل في نفوس سامعيه ، ويعرفه آخرون بأنه طريقة اختيار الكلمات ونظمها لتؤثر في نفس القارئ . أو السامع . ويذكرون أنه غرضين : نقل الحقائق أو المعاني إلى ذهن السامع أو القارئ . ونقل شعور الكاتب أو المتكلم إلى نفسيهما للتأثير

ويعرفه محن بأنه نهج الكاتب والشاعر في صوغ أدبه وشعره وأداء أفكاره ومعانيه والطريقة التي يسير عليها في اختيار كلماته وتراكيبه وما يبرز في لغة تعبيره وتصويره من سهولة أو غرابة ومن عذوبة أو جزالة ومن وضوح أو خفاء وطبع أو صنعة ، وألوان الصنعة في شعره وأدبه من تشبيه واستعارة وكناية وطباق ومقابلة وتعليل ومبالغة وتورية وتدريج وعكس ومشاكلة ؛ وطرق الأداء التي يسير عليها في صياغته من تقديم وتأخير وذكر أو حذف وفصل أو وصل وإيجاز أو إطباب إلى غير ذلك من شتى أوصاف الأسلوب ، وما يراعيه الكاتب والشاعر من أوصاف في بدو كلامه وفي فصوله وخاتمته : والأسلوب هو الوسيلة التي ينقل بها الأديب فكرته

وعاطفته وأراءه وممانيه إلى الناس . ومقياس جودة الأسلوب هو القدرة على نقل ذلك والتعبير عنه بدقة وقوة تأثير

ويمتاز أسلوب الشعر بما فيه من عاطفة ، وما يشيع في نظمه من خيال وسحر صنعة وعذوبة موسيقى وحرية في الأداء والتصوير ، وبشدة تأثيره في النفوس وأثره في العاطفة والشعور والوجدان . أنشد أبو العتاهية قصيدته :

أنته الخلافة منقادة إليه تيجرر أذيالها
فلم تك تصلح لإلاله ولم يك يصلح لإلالها
ولورامها أحد غيره لزلات الأرض زلزالها

وكان بشار حاضرا ، فلما سمع الأبيات اضطرب وسحر وقال : انظروا إلى أمير المؤمنين هل طار عن أعواده (١) وسمع الجاحظ رجلا ينشد أرجوزة أبي العتاهية التي سماها ذوات الأمثال ، فبلغ قوله :

ياالشباب المرح التصابي روائح الجنة في الشباب
فقال للمنشد : قف ثم قال : أنظروا إلى قوله : «روائح الجنة في الشباب»
فإن له معنى كعنى الطرب لا يقدر على معرفته إلا القلوب وتعجز عن ترجمته
الأسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير .

نعم إن الشعر ينبعث غالبا عن إحساس قوى ، ويلبس حلة جميلة من النظم تصور المعانى تصويراً قويا رائعا فكل ذلك يجعله ذا أثر شديد في نفوس سامعيه وقاريه على السواء .

وأهم خصائص أسلوب الشعر الجاهلى هي :

١ - القصد إلى المعنى في إيجاز وعدم إطنباب أو تطويل ، وتلك ميزة شعراء الجاهلية عامة ، وإن كان زهير كما يقول ابن سلام « أجمعهم لكثير

من المعنى فى قليل من المنطق كما كان أشدهم مبالغة فى المدح (١) .

٢ - الزهد فى المحسنات البديعية وعدم الإلمام بها إلا لما ما وعن غير قصد وكان العرب لا يعرفون ألوان البديح والبيان علما وإنما يعرفونها فثما وذوقا وملكة . وما جاء من المحسنات البديعية - من سجع وجناس وطباق ومقابلة وغيرها - فى شعرهم قليل نادر وعن غير قصد ولا التذات .

٣ - الاستداء فى قصائدهم بذكر الأطلال والديار ، والثرويح عن النفس بالالمام بالتشبيهات القوية البديعة .

٤ - متانة الأسلوب وقوته ودويته فى الأذن والذوق ، كما يقول النابغة :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نوى وأحجار ؟
وقول امرئ القيس :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فعلت له لا تبك عينك إنما نحال ملوكا أو نموت فنعذرا
وقول الذعشى فى ناقتة :

فأليت لأرثى لها من كلاله ولا من حى حتى تلاقى محمدا

٥ - هذا الطابع البدوى الذى يمتاز به أسلوب الشعر الجاهلى الذى نما وعاش فى هذه البيئة البدوية الغربية وكثرة ما فيه من مخاطبة الأطلال وذكر الناقة والفرس وسواهما .

٦ - كما يمتاز بحذف الفصول والسلامة من اللحن والقصد إلى المعنى ، فى بلاغة وسحر ودقة تصوير

الرجز في العصر الجاهلي

كان الشعر الجاهلي قبل أن ينتقل إلى النهضة الفنية الواسعة على يد مهمل و امرئ القيس ، كان كله رجزاً ، يتعلق الشاعر بالبيت أو البيتين فيما يعرض له من شئون الحياة ، كالأبيات التي توتر عن دريد بن زيد والعنبر ابن عمرو بن تميم وأعصر بن سعد والمنوغر بن ربيعة وسواهم (١) .
ولكن هذا الرجز كان خالياً من آثار التهذيب ، وخمل شأنه ببدء النهضة الفنية في الشعر على يد امرئ القيس وسواه .

ثم جاء الأغلب العجلي ، فاتخذ الرجز صناعة فنية ونظمه وأجاد فيه فكان الأغلب أول من طوّل شعر الرجز ، ويرى بعض النقاد كالجمحي وغيره أنه أول من رجز ، وينفي ذلك ابن رشيق لأن الأغلب أدرك عصر الرسول وليس بتقديم جدا مع أن الرجز كان قبله . ويذكر أبو عبيدة أن المعجاج هو أول من أطال الرجز وقصده وشبب فيه وذكر الديار واستوقف الصحاب عليها واستوصف ما فيها وبكى على الشباب ووصف الراحلة ، كما فعلت الشعراء بالقصيدة فكان في الرجاز كما يرى القيس في الشعراء وأرجوزته « قد جبر الدين الاله فجبر ، نحو من مائة بيت وهي موقوفة مقيدة (٢) ، ويؤيد ابن قتيبة أن الأغلب هو أول من أطال الرجز (٣) وهو الصحيح ؛ وأما المعجاج فقد انتقل بالرجز خطوة جديدة فسار فيه على نهج الشعراء في القصيدة .

واشتهر بعد ذلك من الرجاز : المعجاج وابنه روبة ، وأبو نخله ، وأبو النجم ، ودكين ، والأغلب .

(١) ٢٩٤ و ٢٩٥ : ٢ المزهر ، ١٨ - ٢١ طبقات الشعراء .

(٢) راجع في ذلك كله ص ٣٠١ : ٢ المزهر ، ٢٤١ وما بعدها طبقات الشعراء .

(٣) ٢٣٥ الشعر والشعراء .

الشعر الجاهلي بين الرجز والقصد

١ - علمت أن الجاهليين سبقوا افتقاروا النثر في جمل صغيرة ، كما ترى في الأمثال العربية ، ثم صاروا يوازنون كل جملة من النثر بالآخرى حتى توصلوا رويدا رويدا إلى نظم البيت أو البيتين . وكان الشاعر في تلك الأبيات يعبر عن الاحساسات التي كان يشعر بها كالحب والغضب والحماة وغير ذلك وكانوا يستعملون في ذلك الشعر بحر الرجز لسهولته وخفته ، ويسمون القطعة منها أرجوزة والجمع أراجيز ؛ وبعد ذلك صاروا يرتجلون منه أكثر من بيتين ، ويعبرون بها عن إحساساتهم النفسية ويصفون الوقائع الحربية والخيال والإبل والصحراء وغير ذلك مما يقع تحت نظرهم ، وصاروا يستعملون عدا الرجز أوزانا أخرى منها الطويل والكامل والوافر وغيرها من البحور ويصف الأغلب العجلى (١) الذي عاش قبل الرسول في أراجيزه محبوبته ويذكر آثار حبها ويتأسف على ماضى من شبابه . ونرى في آخر الجليل الخامس أشعارا في أرق نظم وأدق لفظ وأوسع معنى وأبدع صورة تدعى قصائد والواحدة قصيدة ، ويقال كما علمت إن أول من قال قصيدة هو المهمل ابن ربيعة من بني تغلب قالها في قتل أخيه ، وذهبوا إلى أن الفرق بين الأشعار المرتجلة والقصائد هو أن الشعر المرتجل يعبر الشاعر فيه عن إحساساته الإنسانية حالما ينفع من شيء ويقول الشعر بدون تحضير وأكثر ما يكون الشعر المرتجل من بحر الرجز ولا تتجاوز القطعة منه العشرة الأبيات وقيل

(١) بعد العجاج أول من أطال الرجز وكان الشاعر قبل ذلك يقول البيتين والثلاثة ، فهو في الرجز كامرئ القيس في الشعراء ، وهذا قول أبي عبيدة ، وقال غيره : أول من طول شعر الرجز الأغلب وهو قديم وزعم آخرون أنه أول من رجز وكان على عهد رسول الله (ص ٣٠١ المزهج ج ٢) ، وراجع ٢٣٥ الشعر والشعراء .

بل السبعة، والقصائد ترد من جميع الابحر ولا تسمى قصيدة إلا إذا زادت
عن السبعة الآيات وكان نظمها مقصودا وقلما تقال مرتجلة بل إن أكثر
الشعراء كانوا ينقحونها قبل إنشادها .

٢ - وكانت القصائد تبتدىء بالغزل ويلم الشاعر فيها بأغراض كثيرة ،
قال ابن قتيبة : وسمعت بعض أهل العلم يقول إن مقصد القصائد إنما ابتدأ
فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فشكا وبكى ، وخاطب الربيع واستوقف
الرفيق ، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الطامنين عنها . إذ كان نازلة العمى في
الحلول والظمن على خلاف ما عليه نارلة المدر ، لاتجاعهم السكلا ؛ وانتقالهم
من ماء إلى ماء ، وتقبعهم مساقط القيث حيث كان ، ثم وصل ذلك بالنسيب
فشكا شدة الشوق وألم الوجد والفراق وفرط الصبابة ليميل نحوه القلوب
ويصرف إليه الوجوه ، ويستدعى به إصغاء الأسماع إليه ، لأن النسيب
قريب من النفوس ، لانتط بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد من
محبة الغزل وإلف الدساء . فليس يسكاد يخلو أحد من أن يكون متعلقا منه
بسبب ، وضاربا فيه بسهم ؛ فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه .
والاستماع له ، عقب بإيجاب الحقوق ، فرحل في شعره ، وشكا التعب والسهر
وسرى الليل وإنضاء الراحلة والبعير ، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه
حق الرجاء وزمام التأميل ، وقرر عنده ماناله من المسكاره في المسير ، بدأ
في المديح ، فبعثه على المسكافات ، وهزه على السباح .. فالشاعر المجيد من
سلك هذه الأساليب وعدل بين هذه الأقسام (١) . وهكذا يفهم النقد
القدامى النهج الفنى للقصيدة أو وحدة القصيدة عند الشعراء الجاهلين .

ومن غير شك أن النهج الذى ذكره ابن قتيبة هو نهج أغاب القصائد
الجاهلية ، وقلما تجد قصيدة فى موضوع واحد ، وبما شذ عن ذلك قصيدة
تأبط شرا :

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيلا دمه ما يطل (١)
وبعض قصائد أخرى نادرة

هذا والقصائد الجاهلية كثيرة بكثرة الشعراء أنفسهم ، وبعد الباحثون أكثر من مائتى شاعر عاشوا فى الجاهلية عددا من ضاع ذكرهم ونسيت أشعارهم ، ولكن لم يصل إلينا من أشعار هؤلاء إلا القليل ، لأن جمع الشعر الجاهلى وتدوينه لم يبدأ إلا بعد سنة ١٥٠ هـ وأول مجموعة من مجموعات الشعر الجاهلى وصلت إلينا هى المفضليات .

٣ - ومن الشعراء الذين جمعوا بين الرجز والتصيد : امرؤ القيس ، وطرفة ، وليبد ، أما زهير والناخبة والأعشى فليس لهم من الرجز شئ . (٢)
ويقول الأغلب الراجز :

أرجزا سألت أم قصدا . لقد سألت هيتا موجودا

العربيات الشاعرات فى العصر الجاهلى

نسمع من أسماء الشاعرات فى العصر الجاهلى ، العدد العديد ، ولا ترى لواحدة منهن ديوانا مجموعا . أو شعرا مشروحا . كما نرى لأكثر شعراء الجاهلية .

فن شاعرات العرب : جمل الضبابية من بنى كلاب ، وأم موى الكلابية وزهراء السكلابية ، ورهيلة بنت العباس السلمى ولها أبيات تروى أحباها وقد قتله بنو خثعم ، وأم الفضل بنت الحارث الهلالية ، وضباعة بنت عامر من بنى عامر من صمصعة وكانت زوجا لعبد الله بن جددعان التميمى ، وأم

(١) ويسمى بها بعضهم « نشيد الانتقام » ونقلها إلى الألمانية جوته الشاعر ونقلت إلى الفرنسية والإنجليزية والإيطالية مرارا

(٢) ٢٥٩ ج ٣ البيان والتبيين

الأسود الكلاية ، وجمل السلبية ، وضاحية الهلالية - ، والخنساء بنت التيمحان
وليل العفيفة زوج البراق ، وكانت من أجمل نساء زمانها ؛ ومن شعرها وهي
في بلاد فارس :

ليت للبراق عينا فترى ما ألقى من بلاء وعنا
عذبت. أختكم يا ويلكم لعذاب النكر صبيحا ومسا
يكذب الأعجم ما يقربني ومعى بعض حشاشات الحيا
فاصطبار أو عزاء حسن كل نصر بعد حين يرتجى

وكثيرات سوى هؤلاء وقد ذكرت غيرهن في كتاب « شاعرات
العرب » .

ولقد عنى الرواة بدواوين الشعراء من الرجال عناية شديدة ، وبذلوا
وسهمهم في الحديث عنهم وعن شعرهم .

ولم يكن لعلماء اللغة ورواتها مثل هذه العناية بشاعرة من شعراء
الجاهلية فيما أعلم حتى إن الذين تغيروا الشعر الجيد منهم وجمعه في ديوان
يحفظ كأنهم لم يريدوا أن يختاروا قصيدة لامرأة لتكون بجانب
قصائد الرجال .

فهذا أبو زيد القرشي قد اختار تسعاً وأربعين قصيدة من القصائد العالوال
ولم يحى فيها بواحدة لامرأة لا من الجاهلية ولا من الإسلام ، مع أن في
كلام ليل العفيفة ، وجليلة بنت مرة ، وأخترق والخنساء ، وليل الأخيلية ،
مالا يذكربجانبه شعر كثير للشعراء من أصحاب المذاهب والمشوبات والملحمات
والمنتقيات . فإن كنت في ريب من ذلك ، فإني ذا كرك منتقاة انتقيتها
للخنساء ، ومنتقاة انتقاها أبو زيد المبتلس ، ثم وازن أنت بينهما ، واحكم بما
تشاء . فأما التي للخنساء فهي قولها في رثاء أبيها وأخوها :

كأن لم يكونوا حمى يتقى إذ الناس إذ ذاك من عز برا (١)

(١) أى من سلب غلب

هم منعموا جارهم والنساء • يحفز أحشاءها الموت حفزا
ببيض الصفاق وسمم الرماح فبا لبيض ضربا وبالسمم وخزا
وخيل تكس بالدارعين وتحمت اللجاجة يجمزون جمزا (١)
جزونا نواصي فرسانها وكانوا يظنون أن لن نجزا
وكانت العرب إذا أسرت أسيرا جزت ناصيته ، وألقتها في السكناة
أطلتته تفتخر بذلك .

فمن ظن بمن يلاقى الحروب بأن لن يصاب فقد ظن عجزا
تعف ونعرف حق القرى وتتخذ الحمد مجدا وكثرا
ونلبس في الحرب نسج الحديد وفي السلم نلبس خزا وقزا
وهذه منقاة المتلبس التي قالها حين هرب من عمرو بن هند هو وطرفة
ألقى الصحيفة فنجوا ولم ينبج طرفة :

كم دون مية من مستعمل قذف ومن فلاة بها تستودع اللبس
ومن ذرى علم طام مناهله كأنه في حباب الماء مغموس
القذف والقذف : البعيدة أى كان الجبل مغمورا في الماء من الآل ..
جاوزته بأمون ذات معجمة (٢) تهوى بكالكها (٣) والرأس معكوس
يا آل بكر ألا لله دركم طال الثواء وثوب العجز ملبوس
أغذيت فاغنوا اليوم شأنكم وشمروا في مراس الحرب أوكيسوا (٤)
حنت قلوصى بها والليل مطرق بعد الهدوء وشاقتها النواقيس
معقولة ينظر الاشراق (٥) راكبها كأنه من هوى الرمل ملبوس

-
- (١) التكس : اجتماع الخيل ووثبها معا ، والدارع لابس الدرع .
(٢) ذات معجمة أى قوة وبقية على السير وأصلها التي ربت وثنت في سنة
أحدة (٣) الكلكل الصدر والمعكوس المطوى
(٤) أى كونوا ناطقين إما برأيكم وأما بسيوفكم
(٥) الاشراف سوق بالطائف وجبل لهديل أو إشراف الشمس ، والاشراق
الذهاب إلى الشرق (٢٤)

وقد أضاء سبيل بعد ما هجموا كأنه ضرم في الكف مقبوس
 حنت إلى النخلة القهوى فقلت لها حجر حرام ألا تلك الدهازيس
 آليت حب العراق الدهر أطعمه والحب يأكله في القرية السوس
 فليس في منتفاه أكثر من استبعاد ديار صاحبه ثم ركوب ناقته فراراً
 من الظلم قاعداً الشام بدل العراق وتحريمه العراق على نفسه وليس فيها كلها
 شىء يروع أو يزن قول الخلساء :

كأن لم يكونوا حى يتقى إذا الناس إذ ذاك من عززا
 أو مثل قولها :

ومن ظن من يلاقى الحروب بأن ان يصاب فقد ظن عجزا
 فكم ترى في الأول من تفخيم شأن قومها ، وفي الثانى من تهوين المهينة
 على الشجاع ، وما أحسن ما وصفت الخيل في فشاطها ، وهى تمشى مؤتلفات ،
 وتذب مجتمعات تحت العجاج بفرسانها الدارين الوائعين بالظفر بقولها :

وخيل تكس بالدارعين وتحت العجاجة يجمزون جزا
 وما أبدع كتابتها عن غلبة قومها لهؤلاء الشجعان في قولها :

جزونا واهى فرسانها وكانوا يظنون أن ان نجوا
 وناعيك باعتذارها عنهم وتسليتهم عن مصابهم والإشارة من طرف نفي
 إلى لومهم لظنهم في أنفسهم أكثر مما تستحق وذلك قولها :

فمن ظن من يلاقى الحروب بأن ان يصاب فقد ظن عجزا
 أفترك مثل هذا الكلام النقي الهراز الأخذ ويجعل كاشى لللقى ، ولا
 عيب فيه فيما أظن إلا أنه كلام امرأة ، ولا حسن في كلام المتلصص إلا أنه
 كلام رجل .

فإن لم يكن هذا كما أظن فلم لم يجمع الرواة دواوين فضليات النساء ؟ وأين
 ديوان جليلة وأمينة بنت عيينة . وأمامة بنت ذى الأصبع العدواني .
 وأم بسطام ، وأم السليك ، وأم الصريح السكندية ، وأم كاثوم بنت عبود ،

وجنوب أخت عمروذى الكلب ، وبنات عبدالمطلب : صفية ، وبرة ، وعاتكة ،
وأم حكيم ، وأميمة ، وأروى ، وريطة بنت العجلان بن عامر الهذلى ، وسارة
القرطبة ، وعميرة الخثعمية ، والفارعة بنت شداد ، وخاصة الخزاعية ،
وأضراب دؤلة من شواعر الجاهلية ، ولا يزال ديوان الخرنق مخطوطا ،
وقد رأيت فوجدت جميع ما فى الديوان من شعرها خمسة وخمسين بيتا جمعه
أبو عمرو بن العلاء ، ووصل إليه متفرقا ، وكتبه المرحوم الشيخ الشنقيطى
بخطه ، وهو فى دار الكتب المصرية ، ولم يسنده إلى راو ؛ ولو لم يكن
للخندساء النابهة فى الجاهلية والإسلام ، المسكنة العالية فى سوق عكاظ ،
والبلاء فى الجهاد ، هى وأولادها فى حرب القادسية ، لما كان حظنا من كلامها
اليوم إلا كحظنا من كلام ليلى العفينة .

وهذه المفضليات مائة وعشرون قصيدة وقطعة ليس فيها إلا خمسة
أبيات لامرأة مجهولة من بنى حنيفة ، والمفضليات هى أجود كلام العرب
الذى اختاره المفضل الضبي بأمر أبى جعفر المنصور للمهدى العباسى
ليتأدب بها .

فهذه مكانة شعر النساء فى نظر المؤرخين والرواة والعلماء فى ذلك الزمن ،
وكان الذين جاؤا بعدهم احتذوهم حذوا النعل بالنعل فما رأيتهم دونوا شعر ليلى
الأخيلية فى ديوان كما دونوا شعر المجنون .

وقس على هذا سائر المفضليات من الشعراء ، خصوصا بعد سقوط
بغداد ، ثم أفول قرطبة ، فإن شعر المرأة فى هذا الزمان قد اختبأ تحت
جبال الرجال ولم يظهر منه إلا القليل .

ولعل ظهور عائشة التيمورية وطبع شعرها كان فلتة نادرة .

والمرزبانى جمع أشعار النساء فى كتاب يوجد بدار الكتب المصرية
بخط أندلسى قديم مضى عليه نحو ثمانمائة سنة ، والظاهر أنه أحفل كتاب
بشعر الصحيح ، ولولا مثله لبقى تاريخ أدب المرأة مطموسا .

ومن شعر النساء قالت أم ندية تعرض زوجها حذيفة بن بدر على أخذ
نار ابنها ندية ، وكان قيس بن زهير العبسي قتله في حرب داحس والغبراء
فرضى زوجها حذيفة بأخذ ديتة فعاظها ذلك :

أيقتل ندية قيس وترضى بأنعام مرق سارحات
أما تخشى إذا قال الأعادي حذيفة قلبه قلب البنات
تخذ نأراً بأطراف العوالي وبالبيض الحداد المرفقات
وإلا خلني أبكي نهاري وليلي بالدموع الجاريات
لعل منيتي تأتي سريعاً وترميني سهام الحاديات
أحب إلى من بهل جبان تكون حياته أردا الحياة
فيا أسفى على المقتول ظلماً وقد أمسى قتيلاً في العلاء
ترى طير الحمام ينوح مثلى على أعلى الغصون المائلات
وهل تجد الحمام مثل وجدى إذا رميت بسهم من شتات
فيا يوم الرهان فجعت فيه بشخص جازع من حد الصفات
ولا زال الصباح عليك ليلاً ووجه البدر مسود البجعات
ويا خيل السباق سقيت سما مذاباً في المياه الجاريات
ولا زالت ظهورك مثقلات باحمال الجبال الراسيات
لأن سباقكم ألقى علينا هوما لا تزال إلى الممات

ولهذا الشعر نظائر من شعر النساء يؤخذ منها أن المرأة لضعفها لا تضبط
نفسها عند شدتها حتى إنها لتدعو على أقرب المقربين إليها وقد تدعو على
نفسها وعلى من لا يتصور منه الجناية عليها لذهاب رشدها عند النوائب ولا
كذلك الرجل فإنه أقدر على ربط جأشه وحفظ بواذره وكظم غيظه ومن
هنا علم أن شعر المرأة يظهر من أخلاقها أكثر مما يظهر شعر الرجل من
أخلاقه فإن شعر المرأة مرآة مصقولة تشف عما في نفسها .

وقالت جلييلة زوج كليب ، وأخت جساس بن مرة حبيبا معها أخت
كليب من الدخول في مأتم أخيها ، وقد كان قتله جساس في حديث

مشهور ، وقد نقلت هذه القصيدة على أصح رواية من كتابه أشعار
النساء للربزباني :

يا ابنة الأقوام إن لمت فلا	تعجلى باللوم حتى تسألى
فإذا أنت تبينت التى	عندها اللوم فلو مى واعذلى
إن تكن أخت امرئ لميت على	جزع منها عليه فافعلى
فعل جساس على وجدى به	قاطع ظهري ومفن أجلى
لو بعين غير عيني انفقات	عيني اليتى إذا لم أحفل
أيتم المجد كليب وحده	واستوى العالى معا بالأسفل
من لحكم الناس فى حيرتهم	وقرى الأضياف كوم البزل
ولإصلاح وإفساد معاً	فى صدى الرمح ودك المنصل
جل عندى فعل جساس فيا	حسرتى عما انجلت أو تنجلى
يا قتيلا خرب الدهر به	سقف بيتى جميعا من عل
هدم البيت الذى استحدثته	وبدا فى هدم بيتى الأول
ورمانى قتله عن كسب	رمية المصمى به المستأصل
يا نسانى دونكن اليوم قد	خصنى الدهر بأمر معضل
خصنى قتل كليب بلظى	من ورانى ولظى مستقبلى
ليتة كان دمي فاحتلبوا	بدلا منه دما من أكجلى
لانى قاتلة مقتولة	ولعل الله أن يرتاح لى

ومن كلام أم السليك بن السليكة ، وقد انقطعت عنها أخباره ، وغلب على
ظننا أنه قتل ، وكان عداء مشهوراً :

طاف يبعثى نجوة	من هلاك فم-لك
ليت شعري ضلة	أى شىء قتلك
أمر يض لم تعد	أم عدو ختلك ؟
أم تولى بك ما	غال فى الدهر السلك ؟
والمنيا رصد	للقتى حيث سلك

أى شىء حسن لفتى لم يك لك
كل شىء قاتل حين تلقى أجلك
ظالما قد نلت فى غير كد أملك
إن أمراً فادحا عن جوابى شغلك
سأعزى النفس إذ لم تجب من سألك

وفيه من السهولة والنقاء والتأثير والوقوف به عند حد الشعور مافيه ،
ونجده بمكانة لا تحتلها إلا عواطف النساء .

ومن ذلك قول الخنزق بلى بدر أخت طرفة بن العبد لأمه ، وزوج
بشر بن عمرو بن هميرد ، ولها فى رثاء أخيها وزوجها ، ومدح قومها
أشعار جيدة :

ألا أقسمت آسى بعد بشر على حى يموت ولا صديق
وبعد الخير علقمة بن بشر إذا نزت النفوس إلى الخلق (١)
ومال بنو ضبيعة حول بشر كما مال الجذوع من الحريق
وقالت فى قومها :

لا يبعدن قومي الذين هم سم العداة وآفة الجزر
النازلون بكل معترك والطيبون معاقد الأزر
الضاربون بحومة نرات والطاعنون بأذرع شعر (٢)
والخالطون نعيمهم بنضارهم وذوى الغنى منهم بذى الفقر
وقالت لعبد عمرو ، حين وشى بأخيها طرفة إلى عمرو بن هند
وقتلته عامله :

أرى عبد عمرو قد أساط ابن عمه وأنضجه فى غلى قدر وما يدرى
فهل ابن جساس قتلت ومعبدا هما تركاك لا ترش ولا تبرى
وقالت فى رثاء طرفة :

(١) أى علت (٢) الأشعر الذى فيه شعر وهو أقوى

عددنا له خمساً وعشرين حجة فلما توفاهما استوى سيدنا نهما
لجوعنا به . لما انتظرنا إيايه على خير حين لا وليدا ولا قهما

قالت ذلك حينما بلغها قتل طرفة ، وكان قد ذهب هو وتبعه عمرو بن
الشريد وعم طرفة ، وعمرو بن مرثد بن عمه ، إلى عمرو بن هند ، ونادموه مدة
فوشى بطرفة عبد عمرو ، وكان طرفة قد هجاه ، فكتب إليه عمرو بن هند
كتاباً وأرسله إلى عامله بالبحرين ، وأوهمه أن فيه إنفاذ جائزته ، وكذلك
أعطى المتلمس ولكنه ألقى كتابه في النهر ونجا إلى الشام ، وأما طرفة فذهب
بكتابه إلى المكبر عامل عمرو على البحرين ففرض الكتاب ، وقتله بعد أن قطع
يديه ورجليه ، ودفنه حياً .

والذي يهنا من سرمد شعرها هو الاستعانة على إثبات ما لشعر النساء من
الخصائص ، وقد أوردنا فيما سبق أبيات ليلي العفيفة وذكرنا قصتها وهي
في طبقة جليلة ، وإن كانت أقدم منها ، وخصائص أشعارهما واحدة ، بيد أن
في شعر الخرنق شيئاً كثيراً من متانة شعر طرفة أخيها .

هذا ولم يمر بنا في كل ما روينا شيء من الغزل والتشبيب والوقوف على
الديار وترسم الآثار مع أننا لا نكاد نجد قصيدة جاهلية الرجال خالية
من مثل هذا .

وسبب ذلك أن النساء لغلبة الحياء عليهن تركن باب الغزل ، وأبقينه
مفتوحاً للرجال ، وقد تصفحت أشعار أكثر من ستين من شاعرات الجاهلية
فلم أجد واحدة منهن غزلاً فعرفت صحة السبب الذي أوردته ، وعددت هذا فارقاً
بين شعرهن وشعرهم .

ثم نظرت كذلك فلم أجد لمن في الجريبات شيئاً ، وما سمعت واحدة
تمدحت بشربها ، ولا نعتت غيرها من النساء بهذا النعت . فدل ذلك على أن
الشرب لم يكن من خلق النساء ولا كان محموداً عند الرجال ، ولذلك لم يقلن فيه
وتركته كما تركن فن الغزل .

آراء علماء الأدب في الشعر الجاهلي

- ١ -

الشعر الجاهلي ، الذي اتخذته الشعراء في مختلف العصور ، أصلاً يحتذون
حذوه ، وينهجون منهجه ، ويبنون عليه ، ويقلدونه في مناحيه الفنية والأدبية
تقليداً كبيراً ؛ هذا الشعر هو الذي نريد أن نتحدث عن موقف النقاد منه ،
وآرائهم فيه ، ومذاهبهم حياله ، حديثاً يجمع مع الإيجاز أطراف هذا الموضوع
المتشعب الدقيق .

- ٢ -

وأول ما نذكره في هذا البحث ، آراء أنفسهم في الشعر
الجاهلي ونقده ؛ وهذه الآراء كثيرة متعددة ؛ طائفة منها تتحدث عن
منزلة بعض الشعراء الأدبية في الشعر ، وطائفة أخرى فيها نقد لبعض الشعراء .
فأنت تعلم أن كل قبيلة في الجاهلية ، كانت ترفع منزلة شاعرها على
الشعراء ، وتذهب إلى أنه إمامهم وأولهم في دولة الشعر . فكان اليمنيون
يذهبون إلى أن امرأ القيس هو إمام الشعراء ، وكان بنو أسد يذهبون إلى
تقديم عبيد ، وتعلب تقدم مهلهلا ، وبكر تقدم المرقش الأكبر ، وإياد
ترفع من شأن أبي دؤاد ، وهكذا . وكان أهل الحجاز والبادية يقدمون
زهيراً والناطقة ، وأهل العالية لا يعدلون بالناطقة أحداً ، وأهل الحجاز
لا يعدلون بزهير أحداً . وكان العباس بن عبد المطلب يقول عن امرئ
القيس : هو سابق الشعراء ؛ ورأى لبيد أن أشعر الناس امرؤ القيس ثم طرفة
ثم نفسه .

كما تعلم أن الجاهليين أنفسهم كانت لهم آراء كثيرة في نقد الشعراء :
فكان النابتة تهزب له قبة حمراء في سوق عكاظ ، فتأتيه الشعراء وتشدده
أشعارها ؛ أتاه الأعشى يوماً فأنشده ، ثم أتاه حسان فأنشده ، فقال : لولا

أن أبا بصير - الأعشى - أنشدني آنفاً لقلت إنك أشعر الهجن والإنس ؛
فقال حسان : والله لأننا أشعر منك ومن أبيك وجدك ، فقبض النابغة على
يده وقال : يا ابن أخى أنت لاتحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المتأى عنك واسع
ثم أنشدت الخنساء :

قذى بعينك أم بالعين عوار أم أقفرت إذ خلت من أهلها الدار
فلما بلغت قولها :

وإن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار
قال : ما رأيت امرأة أشعر منك ؛ قالت : ولا رجلاً .

وحكومة أم جندب الطائية بين امرئ القيس وعلقمة بن عبدة
الشاعرين ، وتفضيلها علقمة على زوجها امرئ القيس مشهورة ؛ ولاداعى
لذكرها ، فلما حديث آخر^١ إن شاء الله .

ومر امرؤ القيس بكعب وأخويه : الفضبان والقعقاع ، فأنشدوه ؛ فقال :
إنى لأعجب كيف لا تملى عليكم ناراً جودة شعركم ، فسموا بنى النار .

وروى المروزبانى فى كتابه « الموشح » أن الزبرقان وعمر بن الأهم
وعبد بن العلييب والنخيل السعدى ، تحاكموا إلى ربيعة بن حذار الأسدى
الشاعر ، فى الشعر وأيهم أشعر ؛ فقال للزبرقان : أما أنت فشعرك يكاحم
أسخن ، لاهو أنضج فأكل ، ولا ترك ندياً فيلتفع به ؛ وأما أنت يا عمرو فإن
شعرك كبرود حبر ، يتلأأ فيها البصر ، فكأما أعيد فيها النظر نقص البصر ؛
وأما أنت يا نخيل فإن شعرك قصر عن شعرهم ، وارتفع عن شعر غيرهم ؛
وأما أنت يا عبدة فإن شعرك كزادة أحكم خروها فليس تقطر ولا تمار .

كما روى أيضاً أن هؤلاء الشعراء اجتمعوا فى موضع فتناشدوا أشعارهم
فقال لهم عبدة : والله لو أن قوما طاروا من جودة الشعر لطرتم ، فيما أن
تخبروني عن أشعاركم وإما أن أخبركم ، قالوا : أخبرنا ، قال . فإني أبدأ بنفسى ،

أما شعرى فمثل سقاء شديد ، وغير من الأسقية أوسع منه ، وأما أنت يا زبرقان فإنك مررت بجزير منحورة ، فأخذت من أطايبها وأخابتها . إلى غير ذلك من مواقف النقد والتفاد للشعر في العصر الجاهلي ، والتي لا تخرج عن الاستهجان أو الاستهجان للشعر والشعراء .

- ٣ -

وجاء الإسلام ، فكان له ولرسوله الكريم ، موقف جليل من الشعر الجاهلي . أنكر بعضاً وعرف بعضاً . أنكر هذا الشعر الذي يتنافى الأخلاق الكريمة ، والمثل العليا : من الغزل الفاحش ، والمجون الخليع ، والهجاء الكاذب ، والمدح المفرق ، والمبالغة ؛ وعرف هذا الشعر الذي يدعو إلى الفضائل والأخلاق والدين ، ويحث على الأدب والعلوم وأداء الواجب وحب الجماعة والتضحية في سبيل الأمة والإنسانية . فكان هذا الموقف الخالد للإسلام ونبيه العظيم ، توجيهاً جليلاً لرسالة الشعر ، وتهذيباً نبيلاً للشعراء ليسموا بفنهم الرفيع إلى مجال الطهر والخير ، وآفاق الحق والعدل والحرية والنور ؛ بل كان نقداً عميقاً للشعر ومنهج الشعراء في الجاهلية ، وإنكاراً لاتخاذ الشعر وسيلة للتكسب والثراء .

وظهر أثر الإسلام والقرآن في تهذيب أسلوب الشعر وأنفاظه وفي البعد به عن الحوشية والغرابية ، وطبعه بطابع القوة والجلالة والروعة مع الخلاوة والبلاغة والسلاسة . كما ظهر أثر القرآن والحياة الجديدة في عقلية الشعراء وتفكيرهم ومعاييرهم وأخيلتهم .

- ٤ -

وفي عصر دولة بني أمية ، انتشرت المصيبات ، وكثرت الخلافات السياسية والدينية وتغير نهج حياة العرب وتفكيرهم ؛ فعادوا إلى مذاهب الجاهليين في الشعر ، واتخذوه أداة للدفاع عن الرأي والعقيدة ، واساناً لإذاعة محيائهم ومفاخرهم . وشجعوا الرواة على رواية الشعر الجاهلي ،

والشباب على درسه وتعلمه والتأديب بأدبه ، ووضعت في هذا العصر أصول النحو العربي ، فأخذ العلماء ينتقدون الشعر الجاهلي والشعراء نقداً يحصل بالإعراب ، وكان ابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر يطعنان عليهم . وكان عيسى يقول : أساء النابتة في قوله :

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة من الرقش في أنيابها الدم نافع
ويقول موضعه : ناقماً (١) .

- ٥ -

ومن أشهر رواة الشعر الجاهلي ونقاده في القرن الثاني الهجري : أبو عمرو بن العلاء البصري المتوفى عام أربعة وخمسين ومائة بعد الهجرة ؛ وحماد الراوية الكوفي (٧٥ - ١٥٦ هـ) ، وخلف البصري م ١٨٠ هـ ، والمفضل الضبي م ١٨٩ هـ ، وهو أقدم من جمع المختار من شعر العرب في كتاب ، وأول من فسر الشعر بيتاً بيتاً ، ويقال إنه أول من جمع أشعار الجاهليين .

ومنهم ابن السكاي م ٢٠٤ هـ ، وأبو زيد الأنصاري صاحب كتاب الجرة المتوفى عام خمسة عشر ومائتين ، وأبو عبيدة البصري م ٢٠٩ هـ صاحب النقائض ، وديجاز القرآن ، والأصمعي البصري م ٢١٦ هـ ؛ وقد أدرك بعض هؤلاء جزءاً من أوائل القرن الثالث . وكان هؤلاء الرواة أثر كبير على الشعر الجاهلي ، فقد اهتموا بجمعه وروايته وتدوينه ، ووضعوا الجاهليين في طبقات ، ولم يتركوا شاعراً مشهوراً من الجاهليين إلا رأوا فيه رأياً .

وكان أبو عمرو بن العلاء أشد الناس إكباراً للجاهليين ، وتعظيماً لشأنهم ، جلس إليه الأصمعي عشر سنين فما سمعه يحتاج بيتاً إسلامياً ؛ ويروي عنه : « لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية ما قدمت عليه

(١) ٤١ الموشج ، ١١ و ١٢ طبقات الشعراء لابن سلام .

أحدا ، وكان لا يعد الشعر إلا للجاهليين ، وكان كما يقول ابن سلام في «طبقات الشعراء» : أشد الناس تسليها لهم . وكان المأمون رغم ثقافته الواسعة يتعصب للأوائل من الشعراء ، ويقول : انقضى الشعر مع ملك بني أمية .

وكان الأصمعي - مع تحامله على المحدثين وشعرهم - معتدلا في عصبية للشعر الجاهلي ، كان يحب الجيد منه ، وينقد الرديء ، عاب امرأ القيس في قوله في وصف الفرس .

وأركب في الروع خيفانة كسا وجهها سعف منتشر
والخيفانة في الأصل هي الجرادة ، وتشبه بها الفرس في الخفة ؛ قال الأصمعي : شبه شعر الناصية بسعف النخلة ، والشعر إذا غطى العين لم يكن الفرس كريما ؛ كما عاب غير امرئ القيس من الشعراء ؛ وكان يقول : ختم الشعر بالرّماح ، وهو شاعر أموي مشهور .

- ٦ -

وفي القرن الثالث الهجري نجد التناد في موقفهم من الشعر الجاهلي طائفتين :

فطائفة تعجب بالجاهليين وشعرهم إعجاباً شديداً ، ولا ترى الشعر إلا لهم . ومن هؤلاء ابن الأعرابي م (٢٣١ هـ) ، وكان يزرى بأشعار المحدثين ، ويشيد بشعر القدماء ؛ وكان يعيب شعر أبي نواس وأبي تمام ، ويقول : ختم الشعر بابن هرمة ؛ وقال في بشار : والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير من الشعراء .

ومنهم أيضا : إسحاق الموصلي م (٢٤٠ هـ) ، وكان في كل أحواله ينصر الأوائل ، وكان شديد العصبية لهم ، وكان لا يعتد ببشار ، ولم يكن موقفه قاصراً على الشعر وحده ، بل كان كذلك في الغناء ؛ كان يتعصب للغناء القديم ، وينسكب تغييره ويعظم الإقدام عليه . ومثل ذلك التمعيب للقديم موجود في

الآداب الأوربية ، فقد كان « هوراس » الشاعر الرومانى يرى أن شعراء اليونان هم النماذج التى يجب أن تدرس ليلا ونهاراً ، وأن الشعر ينبغى أن ينظم كما كانوا ينظمونه ، وكان فى فرنسا خلال القرن السابع عشر مذهب أدبى يرى إلى إكبار البلاغة القديمة وتقليدها ، لأنها تمثل صور البيان خير تمثيل ، وكان يتزعمه جماعة من النقاد أشهرهم « باولو » ، حتى ألف شارل بيرو كتابه الموازنة بين القدماء والمحدثين ، يدعو فيه إلى التحرر من التقليد ، ويشيد بالمحدثين ، ويقول : إنهم فاقوا القدماء فى البلاغة

وقد اعتذر الباقلاى عن هؤلاء النقاد العرب المحافظين ، بأنهم إنما كانوا يميلون إلى الذى يجمع الغريب والمعانى : واعتذر ابن رشيق عنهم بحاجتهم إلى المثل والشاهد وقلة ثقتهم بما يأتى به المولدون ؛ ولكن الجرجانى فى الوساطة يذكر أن ذلك أثر لتعصب علماء اللغة ووراثتها للشعر القديم ، وإنكارهم لفضل المحدثين وشعرهم (١) .

وطائفة أخرى من النقاد فى القرن الثالث ، حكموا الذوق الأدبى والطبع وحدهما فى الشعر ، وحكموا بالفضل لمن يستحقه ، جاهلياً كان أو إسلامياً أو محدثاً ، فلم يفضلوا الجاهليين لسبقهم فى الزمن ، ولم يغضوا من شأن المحدثين لتأخر عصرهم ، ومن هؤلاء : الجاحظ م ٢٥٥ هـ . وابن قتيبة م ٢٧٦ هـ ، والمبرد م ٢٨٥ هـ ، وابن المعتز م ٢٩٦ هـ .

يقول ابن قتيبة فى أول كتابه « الشعر والشعراء » (٢) : « ولا نظرت إلى المتقدم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين ، وأعطيتهما كلا حقه ، ووفرت عليه حظه ؛ فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه موضع متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب عنده إلا أنه قيل فى زمانه ،

(١) ٤٩ و ٥٠ الوساطة ط بيروت .

(٢) ٧ و ٨ الشعر والشعراء .

ورأى قائله ؛ ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا
نخص به قرماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عبادته ، وجعل
كل قديم منهم حديثاً في عصره ، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل يعدون
محدثين ، وكان أبو عمرو يقول : لقد نبغ هذا المحدث حتى هممت بروايته .

وقال المبرد : ليس لقدم العهد يفضل القائل ، ولا لحديثان عهد يهضم
المصيب ، ولكن يعطى كل ما يستحقه (١) . وأنكر ابن المعتز عصبيةً دؤلاً .
النقاد للشعر القديم ، وذمهم لشعر المحدثين ، وقال : إننا عيب قبيح ، ومن
فعل ذلك فإنما غرض من نفسه ، وجعل هذا ناشئاً عن جهل بنقد الشعر
وتمييزه (٢) . وكان الجاحظ دؤ السابى إلى إقامة نقد الشعر على أسس فنية
خالصة ، وحارب هذا التعصب الممقوت للقديم لقدمه ، وآراؤه في ذلك في
كتابه : الحيوان والبيان والنبين كثيرة ؛ ففي الحيوان ينكر الجاحظ على
المتعصبين للقديم فعلهم ، ويقول : ولو كان لهم بصر . لرفوا موضع الجيد عن
كان وفي أى زمان كان ، (٣) .

وفي القرن الثالث أيضاً كثرت مؤلفات النقاد في الشعر والشعراء
الجاهليين ، وكتاب ابن سلام « طبقات شعراء » مشهور ، وهو أبرز
عمل أدبي منظم في النقد ، وقد قسم الجاهليين عشر طبقات ، وأضاف إليهم
شعراء المرأتى وشعراء المدن العربية ، ووضع في الطبقة الأولى امرأ القيس
وزهيراً والأعشى والنابعة ، ولم يسبقه إلى هذا التقسيم الفنى للشعراء الجاهليين
وطبقاتهم الأدبية إلا أبو عبيدة الذى قسم الجاهليين ثلاث طبقات ، ووضع
في الأولى امرأ القيس والنابعة وزهيراً ، وفي الثانية الأعشى وطرفة وليبدا ؛
ويذكر ابن سلام في « طبقات الشعراء » الإسلاميين أيضاً ويقسمهم طبقات
عشرة ، ولا يذكر أحداً من المحدثين . بعكس ابن قتيبة ، الذى ألف

(١) ١٨ : ١ الكامل للبرد .

(٢) ١٣ و ١٤ « رسائل ابن المعتز ، محمد عبد المنعم خلفاى .

(٣) ٤٠ : ٣ الحيوان .

كتابه: الشعر والشعراء، وذكر فيه الكثير من المحدثين الذين عاشوا قبيل منتصف القرن الثالث الهجري؛ وهذا يدلما على أن ابن قتيبة كان أكثر تقديرا للشعر الجيد وحده، بصرف النظر عن قائله وعصره. وذلك يذكرنا بجمع المفضل وأبي زيد الأنصاري للشعر العربي، فقد جمع المفضل في مفضلياته مختارات للشعراء الجاهليين، وللقليل جدا من المخضرمين؛ أما أبو زيد الأنصاري ففي كتابه «الجمهرة» مختارات للجاهليين والمخضرمين والإسلاميين، فكأنه لا يقف إعجابه على الشعر الجاهلي وحده، بخلاف المفضل.

وَألف ابن المعتز أيضا كتابا في طبقات الشعراء المحدثين، طبع في أوروبا ومصر، ويسير فيه على نهج ابن قتيبة من حيث ذكر الشعراء وحياتهم ومذاهبهم الفني في شعر، ونماذج من مختارات شعره، ولكن الكتاب وقف على المحدثين وحدهم من بشار إلى عصر ابن المعتز، وهو أوفى كتاب في دراسة طبقة بشار، وطبقة أبي نواس، وطبقة أبي تمام، والبحتري. وهذا يدلنا على إعجاب ابن المعتز بالمحدثين، وتقديره لبلاغتهم وشغفه بهم عن الجاهليين والإسلاميين إلى حد ما.

— ٧ —

أما القرن الرابع فقد كان أحفل قرن بالنقد والنفاد؛ وظهرت فيه أصول كتب النقد الأدبي مثل: نقد الشعر لقدامة م ٣٣٧ هـ؛ ونقد الثر الملسوب إليه أيضا؛ ومثل أخبار أبي تمام للصولي م ٣٣٦ هـ، والموازنة للأمدى م ٣٧١ هـ، والوساطة لالمرجاني م ٣٩٢ هـ. وإيجاز القرآن للباقلاني م ٤٠٣ هـ.

كما ظهر في القرن الخامس: ابن رشيق م ٤٦٣ هـ، صاحب «العمدة»، وابن سنان الخفاجي م ٤٦٦ هـ صاحب «الفصاحة»، وعبد القاهر الجرجاني صاحب «الأمرار والدلائل» م ٤٧١ هـ.

وكان النفاد في هذين القرنين يسيرون على نهج الجاحظ، فلم ينقصوا

للشعر الجاهلي لتقدم زمنه ، أو يميلوا على المحدثين لتأخر عصرهم ؛ بل حكموا الذوق وحده في كل شيء ، حتى لقد وقفوا معديدين لأخطاء الجاهليين ، كما فعل الأمدى في الموازنة ، والجرجاني في الوساطة ، وابن رشيق في العمدة ، وسواهم ؛ قال الأمدى في كتابه « الموازنة » : وما رأينا أحداً من شعراء الجاهلية سلم من الطعن ، ولا من أخذ الرواة عليه الغلط والعيب ، وقال صاحب « الوساطة » في أول كتابه : « ودونك هذه الدواوين الجاهلية والإسلامية ، فانظره هل تجد فيها قصيدة تسلم من يدت أو أبيات ، لا يمكن لعائب القدح فيه ، إما في لفظه ونظمه ، أو ترتيبه وتقسيمه ، أو معناه ، أو إعرابه ؛ ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم ، واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والحجة ، لوجدت كثيراً من أشعارهم معيبة مسترذلة ، ومردودة منفية ، لكن هذا الظن الجميل ، والاعتقاد الحسن ، ستر عليهم ، ونفى الظنة عنهم ، فذهبت الخواطر في الذب عنهم كل مذهب . وقامت في الاحتجاج لهم كل مقام (١) ؛ ولو تصفحت ما تكلفه النحويون لهم من الاحتجاج ، وتبيلت ماراموه في ذلك من المرامى البعيدة ، وارتكبوا لأجله من المراكب الصعبة ، التي يشهد القلب أن المحرك لها ، والباعث عليها ، شدة إعظام المتقدم ، والكاف بنصرة مامبق إليه الاعتقاد ، وألفته النفس لا يقنت بما ذكرت .

كما أزرى الأمدى والجرجاني بموقف بعض النقاد المتعصبين على المحدثين (٢) ؛ كالأصمعي الذي أنشده إسحاق الموصلي :

هل إلى نظرة إليك سبيل فيروى الصد ويشقى الغليل
إن ماقل منك يكثر عندي وكثير من تحب القليل

فقال : لمن تلشدني ؟ قال : لبعض الأعراب ، قال : هذا والله هو

(١) ص ٣ و ٤ الوساطة .

(٢) ١٠ الموازنة طبع صبيح ، و ٥٠ الوساطة طبع بيروت .

الديباج الخسرواني ، قال إسحاق : إنهما لليلتهما ، فقال الأصمعي : لا جرم والله ، إن أثر الصنعة والتكلف بين عليهما ؛ وكان الأعرابي الذي أنشده بعض الناس شعراً وهو لا يعرف قائله فأعجب به إعجاباً شديداً وكتبه ، فلما علم أنه لأبي نواس أنكره . . . ونقد الباقلاني في إعجاز القرآن معلقة امرئ القيس :

قفانك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحول
نقداً طويلاً ، وهو أول نقد أدبي مفصل قصيدة كاملة من الشعر العربي ،

- ٨ -

وفي العصور الوسطى ضعفت الملكات ، وعقمت الأوزان ، وتضاءلت الفطر الأدبية السليمة وتعصب العلماء والأدباء للشعر القديم لقدمه ، فأحاطوا الشعر الجاهلي بهالة من التقديس والجلالة ، لا يرون أحداً أحسن مثل إحسان الجاهليين أو أجاد إجادتهم ، بل رأوهم معصومين من الخطأ والعيب والنقد ، واستمر هذا المذهب سائداً حتى العصر الحديث .

- ٩ -

وفي العصر الحديث تفاوتت ثقافات الأدباء والنقاد ، فوقف أولو الثقافات العربية الخالصة موقف الإعجاب والتقدير للشعر الجاهلي . وهب جماعة من أولى الثقافات الحديثة يطعنون على الشعر الجاهلي ، ويرمونه حيناً بالضعف والتفكك ، وحيناً بأنه كله أو جلّه منتحل مختلق .

عاب العقاد الشعر الجاهلي بأنه لا يصلح أن يكون نموذجاً يقتدى به في النظم ، لأنه في الغالب أبيات مبثورة ، تجمعها قافية واحدة ، يخرج فيها الشاعر من المعنى ثم يعود إليه ، ثم يخرج منه على غير وتيرة معروفة ، ولا ترتيب مقبول ، وأن فيه غير التفكك ، وضعف الصياغة ، كثيراً من العيوب

العروضية ، والتكرير الساذج ، والافتسار المكروه ، والتجوز المعيب ،
الذى يؤخذ من روايته أن الشعر لم يكن فنا يستقل به صناعه الخبيرون به ،
ولما كان ضربا من الكلام يقوله كل قائل ، وىروى المحكم منه وغير المحكم
على السواء (١) . . فنرى العقاد يأخذ على الشعر الجاهلى مأخذ أهمها :

أولا - ضعف وحدة القصيدة . وفى مناقشة هذه الفكرة نكتفى
بهاتين الكلمتين :

قال نولدكه المستشرق المولندى المشهور : « فى أحوال كثيرة يحتفظ
الشاعر الجاهلى بوحدة الفكرة فى قصيدته ، بأن يجعل كل قسم من أقسامها
خاصا بوصف منظر . وحوادث من حياة الشاعر نفسه ، أو الحياة العامة التى
يحياها البدو فى الصحراء . . وقال جميل صدقى الزهاوى الشاعر المجدد
المشهور (٢) : « وهناك شئ يستحبه الذين تشبعت أدمغتهم بالأدب الغربى ، هو أن
تكون القصيدة الواحدة خاصة بفكرة واحدة ، أو وصفا لشئ واحد ، من
غير خروج إلى غير الموضوع ، ولو كان فى فصل منزول عن الأول ؛ وهذا
ليس من الشعر فى أصله ، بل هو تابع للأذواق ، ولطريقة الشاعر فى شعره ؛
ولا يتوع الشاعر المبرز فى العربية الموضوع فى كل قصيدة ، فكثيرا ما يصر
شعره فى القصيدة الواحدة فى موضوع واحد ؛ وإذا نوع الموضوع فهو
يخرج إلى الثانى بمناسبة وبعد فصله عن الأول ، مريدا بذلك أن تكون
قصيدته كالروضة الغناء . محتوية على مختلف الأزهار ، وهذا أقرب إلى الطبيعة
وليس فيه ما يؤخذ عليه غير كونه ينافى ما يفعله شعراء الغرب ، ولحل أمة
سياق ونزعة ليست لأختها ؛ واعتقد أن الكتاب الذين يزرون بشعر شعرائنا
على الإطلاق ، لو أتيح لهم أن يكونوا شعراء ، لما خرجوا كثيرا عن النهج
الذى يمشى عليه المبرزون من هؤلاء ؛ والسبب هو ما قدمته من اختلاف
ألوان الشعور عندنا عن ألوانه عند الغربيين من جهة . وقيد الثقافية وإعراها

عندنا وفقدانه عندهم من جهة أخرى ، وقد هم كثير من الشعراء المتعلمين من العلوم المصرية ، بتقليد الغرب في شعره ، فلم يكن ما أتوا به غربيا ولا شرقيا ، ولم يوفقوا إلا في ألوان من من الشعور ، هي مشتركة بين الأمم جميعها ، ومهما تكرر الشاعر الكبير على الأساليب والتصورات في أمته ، فهو لا يستطيع أن يطرأ مرة واحدة إلى تصورات وأساليب تخالف ما ألفه شعبه . فيقطع الوثائق القوية التي تربط الحاضر بالماضي ... ويعيب العقاد الشعر الجاهلي ثانيا بأنه لم يكن فنا مستقل به صناعه الخبيرون به ؛ وذلك لايسير مع الحقيقة الأدبية أو الواقع المأثور ، فشعراء المملقات ونداههم الفنية في الشعر معروفة ؛ يقول الدكتور طه حسين في كتابه « الأدب الجاهلي » : « أما مضر فكان لها في الجاهلية شعراء ، يتخذون الشعر فنا ، يملكون به نهضة فنية عقلية ، في هذا الإقليم من جزيرة العرب » . ويعيبه ثالثا بهلته صياغته ، وما فيه من عيوب عروضية ، وتكرار ساذج ، وتجاوز معيب ، وفي هذا ولا ريب مقالة لا يكاد يسلم بها دارس للأدب الجاهلي شعره ونثره .

أما أن الشعر الجاهلي كثير العيوب العروضية ، فلا أدري ما هو دليل الناقد عليه ؟ أهو قصيدة عبيد أم بعض هذا الشواهد المروية لعيوب الشعر من الاكفاء والايطاء والتضمين والسناد الخ ؟ وأين تكون هذه كلها في الشعر الجاهلي ؟ ثم ما هذا التكرار الساذج ؟ أهو مثل قول مالك بن الربيع :

لقد كان في أهل الغضا لودنا الغضا مزار ، ولكن الغضا ليس دانيا
أو في مثل قول الخطيب :

ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأى والبعد
أو في قول النابغة :

عوجوا فخيروا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نوى وأحجار
أقوى وأقفر من من نعم وغيره هوج الرياح بها في الترب موار
وقفت فيها سراة اليوم أسألها عن آل نعم أمونا عبر أسفار

وقد أراى ونعما لاهيين بها والدار لو كلمتنا ذات أخبار
أيام - تخبرنى نعم وأخبرها ما أكرم الناس من حاجى وأمرارى
وآين هو هذا الاقتسار المزعوم . ثم هل ما فى الشعر الجاهلى من مجازات
وكنائيات وتشبيهات وأخيلة - رغم قلتها وقربها من حقائقها - يدعو إلى
أن نهجر الشعر الجاهلى ونطرحه ظهريا ؟ .

وأما أن الشعر الجاهلى لم يكن فنا (١) يستقل به الخبيرون به ، فهذا خطأ
بعيد . وهل نلصق رجال المملقات ، والناطقة وحكومتها بين الشعراء فى سوق
سوق عكاظ ، وهؤلاء الشعراء الذين خلد ذكرهم على مر العصور ؟
واقدر كان الناشئ فى الجاهلية يقتلذ على شاعر مشهور يروى شعره ويأخذ
عنه فنه الأدبى ، وكان الشعراء يعرضون قصائدهم على غيرهم من الخبراء
بفن الشعر وصناعته ، واستمر هذا إلى ما بعد الإسلام . ثم إن هذه المجازات
والأخيلة هى من خصائص البيان العربى وبميزانه التى تنكسبه روعة وجهالا .

إن من العقوق للعربية أن نذهب مذهب العقاد فى الغلو فيما
رمى به الشعر الجاهلى من التفكك وعدم اتساق الفكرة وارتباطها وانهال
معانيها ، وما أظن أن ذلك وإن كان موجودا فيه عما يؤخذ عليه الشعر
الجاهلى إلى هذا الحد البعيد ، وفيه الفرق إذا بين الأسلوب الفنى الجميل وبين
الأسلوب العلمى وحقائقه المنطقية المرتبة ، إن الشعر فن قبل أن
يكون فلسفة .

وأخيراً فللمقاد رأيه فى عدم اتخاذ الشعر الجاهلى مثالا يحتذى ، ولقد
أخذ هو نفسه بذلك ، فلم يكن له حظ من الخلود فى الشعراء . أما نحن فنقول :

(١) إذا أردنا أن نسكت مزاعم العقاد المجدد برأى مجدد مثله هو « طه حسين »
فلا أكثر من أن نسوق إليه قول طه حسين فى الأدب الجاهلى : « أما مضر فكان
لها فى الجاهلية شعراء يتخذون الشعر فنا يتلون به نهضة فنية عقلية فى هذا الإقليم
من جزيرة العرب (راجع ١٩٧ وما بعدها من الأدب الجاهلى .

إنه لا داعي لأن يملأ شعراؤنا المعاصرون شعرهم بألفاظ العقنقل والسجنجل والجنبدل والحنظل كما فعل امرؤ القيس مثلا ، ولا بالإثمد والبرجد والمسرهده كما فعل طرفة ، وليس من المناسب أن نترسم خطاهم في بكاء الأضلال ووصف الدمن وذكركحاسن الخيل وكلاب الصيد، فلننا بدلا من ذلك كله - مجال فسيح لقول الشعر في عصر الكهرباء والذرة والآثير والطائرات . أما فيما عدا ذلك من الألفاظ والأغراض فالشعر الجاهلي أروع ما يحتذى في مذاهب النظم وجمال الصياغة وحسن الأداء .

ونشر أحمد أمين عدة مقالات في الثقافة بعنوان « جنابة الشعر الجاهلي على الأدب العربي » ، تحامل فيها عليه ما شاء له الهوى . وقد رد عليه النجدي ناصف في مقال عنوانه « هل جنى الشعر الجاهلي على الأدب العربي (١) » .

— ١٠ —

ويشك أنصار الجديد في الأدب الجاهلي (٢) بدعوى أن الكثرة المطلقة مما يسمى أدبا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء إنما هي منتحلة بعد ظهور الإسلام ، فهي تمثل حياة المسلمين أكثر مما تمثل حياة الجاهلية ، وما بقي من الأدب الجاهلي الصحيح قليل جدا لا يمثل شيئا ولا يدل على شيء ، والعصر الجاهلي القريب من الإسلام يمثل القرآن والأساطير (٣) . وعلى هذا لا يصح الاستشهاد بهذا الشعر المنحول في تفسير القرآن بل بحجب العكس (٤) والشعر الذي يضاف إلى الجاهليين يمثل حياة غامضة جافة بعيدة عن الدين ، القرآن يمثل لنا حياة دليمة وعقلية قوية بما كان عليه المستشرقون عليه من العرب ويمثل

(١) مجلة دار العلوم (ص ٢١ - ٤٠ - عدد أكتوبر ١٩٣٩) .

(٢) ٥٩ - ٦٤ الأدب الجاهلي لطفه حشيش

(٣) ٦٤ و ٦٥ المرجع و ٧٠ وما بعدها .

(٤) ٦٦ المرجع

لنا القرآن الكريم أيضا اتصال العرب بغيرهم من الأمم المجاورة كما يصور حياة العرب الاقتصادية (١) ، والأدب الجاهلي أيضا عندهم لا يمثل اللغة الجاهلية لاختلاف اللغة الحميرية عن اللغة العدنانية بعد الاختلاف ، والمأثور من شعر الشعراء القحطانية مروي باللغة العدنانية الفصحى مع أنهم لم يكونوا يتكلمون بها ولم يتخذوها لغة أدبية لهم قبل الإسلام كما حدث بعد الإسلام ، مما يدل على انتقال هذا الشعر وسواه من فنون الأدب على هؤلاء القحطانيين ؛ فهؤلاء المجددون يتكلمون ما يضاف إلى أهل الجنوب من شعر ونثر قيل بلغة أهل الشمال قبل الإسلام (٢) كما أن اختلاف اللهجات العدنانية أمر ثابت لا شك فيه ولا نجد أثرا لهذا الاختلاف في الشعر الجاهلي المأثور مما يدل على انتقال هذا الشعر وأنه قد حمل حملا على هذه القبائل بعد الإسلام (٣) . ثم يجمع الدكتور طه في الأدب الجاهلي أسباب انتقال الشعر كما يزعم ويروي ، فيذكر البواعث السياسية والدينية وأثر القصاص في الانتقال وأثر الشعوبية والرواة فيه (٤) . ثم يذكر الشعر والشعراء ، ذاهبا إلى أن كثرة ما يضاف إلى الشعراء الجاهليين منحول ، وإلى رفض الشعر المنسوب إلى شعراء من اليمن ، لأن لليمن لغة تخالف لغة قريش ، وهجرة اليمنيين إلى الشمال مشكوك فيها أولا وليس كل الشعراء هاجروا من اليمن ثانيا فالشعر الذي أضيف إلى جرهم وسواهم من الذين عاصروا اسماعيل منحول ، وليس لليمن في الجاهلية شعراء ، أما ربيعة - من عدنان وكانت تسكن في الشمال ف شعرها دون شعر المضريين أما مضر فكان لها شعراء يتخذون الشعر فنا ، فالشعر أصل في مضر دون اليمن أو ربيعة ؛ فنظرية تنقل الشعر في القبائل غير صحيحة ، فالشعر إنما كان في مضر ؛ ثم انتقل إلى أقرب القبائل العربية إليها وهم ربيعة ثم إلى القبائل البعيدة كاليمن ثم إلى الموالي وليس كما يقولون من أنه كان في اليمن ثم انتقل إلى ربيعة ثم إلى قيس من مضر ثم إلى تميم ، وشعراء المدينة لبسوا

(٢) راجع ٨١ - ٩٥ من المرجع

(٤) ١٢٢ - ١٨٦ المرجع

(١) ٧٠ - ٨١ المرجع

(٣) ٩٦ وما بعدها من المرجع

يمنيين بل هم مضريون (١)، ثم درس الدكتور من الشعراء : امرأ القيس
فعبيد فعلقمة . ثم عمرو بن قتيبة فهلhel فخليلة . ثم عمرو بن كلثوم فالخارث
ابن حلزة . ثم طرفة فالتليس . ثم الأعشى . . . وذلك على ضوء نظريته
في انتحال الشعر (٢) . ثم علق على الشعر المضري على ضوء هذه النظريات (٣)
ووضع مقاييس لتمييز المنحول من الشعر الجاهلي (٤) ثم درس أوسا وزهيرا
والخطيئة وكعب بن زهير والنابعة (٥) وبذلك ينتهي نقده للشعر الجاهلي .
وتركز آراء الدكتور في الشعر الجاهلي على أساس واحد هو انتحال
الشعر الجاهلي مؤكدا هذا الانتحال بأدلة كثيرة : منها أن المأثور من شعر الجاهلي
حياة الجاهليين الديلية أو العقلية ، ولا يصور اتصال العرب السياسي بغيرهم
من الأمم المجاورة لهم ؛ فوق أنه لا يمثل اللغة الجاهلية نفسها لاختلاف اللغة
الحيرية عن اللغة العدنانية جد الاختلاف ، فالمأثور من شعر الشعراء
القحطانيين مروي باللغة العدنانية الفصحى ، مع أنهم لم يكونوا يتكلمون بها
ولم يتخذوها لغة أدبية لهم قبل الإسلام ، مما يدل على انتحال هذا الشعر
على القحطانيين ، فوق أن الشعر الجاهلي لا يصور اختلاف اللهجات العدنانية
المتعددة ، التي لا شك في اختلافها ، ويشرح الدكتور أثر البواعت السياسية
والديلية في الانتحال ، وعمل القصص والرواة ، ويبني على ذلك كله رفضه
الشعر المنسوب إلى شعراء اليمن ، لأن لليمنيين لغة تخاف قریش . ولأن
هجرة اليمنيين إلى الشمال مشكوك فيها أولا ، وليس كل الشعراء هاجروا من
اليمن ثانيا ، وشعراء المدينة ليسوا عنده يمنيين بل مضريين . ويرى أنه ليس
لليمن في الجاهلية شعراء . أما ربيعة من عدنان ، وكانت تسكن في الشمال ،
فيرى الدكتور أن شعرها دون شعر المضريين ، لأنها لم تكن تتكلم لغة
قریش ، ويتردد في قبول الكثير منه ، وأما مضربكان لها شعراء ، يتخفون

(١) راجع من ١٩٣ - ٢٠٨ من المرجع

(٢) ، ، ، ٢٠٩ - ٢٩٦ ، (٣) راجع من ٢٦٧ - ٢٨١

(٤) ، ، ، ٢٨٢ - ٢٩٥ (٥) ، ، ، ٢٩٦ - ٣٤٢

الشعر فنا ، وقد درس شعراء مضر دراسة نقد وتحليل ، كما درس غيرهم ، على ضوء نظريته في انتقال الشعر الجاهلي ، ووضع مقاييس لتمييز المنحول منه ، وجعل الشعر أصلاً في مضر ، ثم انتقل منها إلى ربيعة فالين فالموالى . وبذلك يعكس نظرية القدماء في انتقال الشعر الجاهلي بين القبائل . .

ولمناقشة هذه الآراء ، نعود إلى تلخيصها والرد على كل رأى منها ، إن الدكتور يذهب في الشعر الجاهلي إلى :

١ - أن هذا الشعر الجاهلي أو أكثره منحول بدليل .

(١) أنه لا يمثل الحياة الجاهلية .

(ب) و د د د اللغة د

(ج) د د د اللهجات العربية

٢ - وأنه لم يكن للشعراء الذين يروى من شعر اللقحطانيين فأنما هو منحول عليهم

٣ - وأن أكثر شعر الشعراء الذين ينتسبون إلى ربيعة منحول لأنه لا يمثل لهجاتهم التي كانوا يتكلمون بها ،

٤ - وأنه ليس صحيحاً أن الشعر كان في اليمن ثم انتقل إلى ربيعة ثم إلى قيس من مضر ثم إلى تميم بل إنما كان في مضر ثم امتد إلى ربيعة فالين ثم إلى الموالى (١) .

٥ - وأنه كان للرواة (٢) والقصاص والعوامل السياسية والدينية للمصيبات أثر في الانتقال .

ولما صودر كتاب « الشعر الجاهلي » أعاد الدكتور نشره باسم الأدب الجاهلي بعد أن حذف منه بعض فقرات كانت موصغة النقد ، وقد ألف في نقد هذا الكتاب عدة مؤلفات أهمها :

(١) راجع ٢٠٦ المرجع (٢) وراجع أصول نظرية طه حسين عن الشعر الجاهلي وروايته في كتاب مقدمة لدراسة بلاغة العرب لضييف (ص ٥٠ - ٦٢)

- (١) الشهاب الراصد للأستاذ محمد لطفي جمعة المحامي وقد طبعه عام ١٩٢٦
(ب) النقد التحليلي لكتاب الأدب الجاهلي للأستاذ محمد أحمد الغمراوي
(ج) نقض كتاب الأدب الجاهلي للشيخ الخضر حسين
(د) نقد الأدب الجاهلي للخضري

(هـ) نقض مطاعن في القرآن الكريم للشيخ محمد عرفة
ولا نجد بدا من التنويه بعناصر الرد على آراء الدكتور في كتابه في إيجاز
بالغ فنقول :

أولا : أما قصة انتحال الشعر لجاهلي ونفي وجود شعراء يمينيين والذهاب
إلى عكس ما يراه الباحثون حول نظرية تنقل الشعر في القبائل فذلك لا يعتمد
على أكثر من الحدس ، ولا داعي للافاضة في نقده وتحليله (١) فقد سبق
الكلام فيه .

ثانيا : الشعر الجاهلي يمثل حياة الجاهليين ، ويرسم ألوان معيشتهم ، ويروي
عاداتهم ويتحدث عن أديانهم ويصف بيثتهم ولون ثقافتهم . وهل هناك ريب
في أن الشعر الجاهلي يصف البيئة الجاهلية وصفا دقيقا : من حيوان ونبات
وأرض وجبال ووديان وقرى ومن جو ورياح وأمطار الخ ؟ . وهل هناك
شك في أنه سجل لتاريخهم وأخبارهم وأيامهم ، يقول : نيكلسون في كتابه
« تاريخ آداب اللغة العربية : » « إن الأدب الجاهلي المنظوم منه والمنثور يمكننا
من تصوير حياة تلك الأيام الجاهلية تصويرا أقرب ما يكون من الدقة في
مظاهره الكبرى ، ويقول ثوريكس الألماني في كتابه عنتره أحد شعراء
الجاهلية ، : لا نملك مصادر موثوقة قامنا لتدوين تاريخ تلك الغارات البدوية
سوى القصائد والمقطوعات المحفوظة عن شعراء الجاهلية ، وقال أيضا : يمكن
تعريف الشعر الجاهلي بأنه وصف مزين بالشواهد لحياة الجاهلية وأفكارها
فقد صور العرب أنفسهم في الشعر صورة منطقية على الحقيقة بدون تزويق

(١) راجع في ذلك ١٥٨ - ٢٧٣ من الشهاب الراصد ، وراجع آراء المستشرقين
الذين يؤيدون صحة الشعر الجاهلي في الشهاب الراصد (٢٩٩ - ٣٠٤)

ولا تشويه، وقال نولديك المستشرق الهولندى فى كتابه عن الشعر العربى القديم : إن عادات عرب الجاهلية وأحوالهم معلومة لنا بالدقة نقلا عن أشعارهم وفى الشعر الجاهلى ما يفتن القارىء من أوصاف الحياة والعادات فى البادية ،

ويقول لطفى جمعه فى كتابه الشهاب الراصد : يدل الشعر الجاهلى فى جملة على نفوس ناضجة وحياتهم ، ثم قال : والشعر الجاهلى أشد ما يكون اتصالا بحياة القوم وتاريخهم وأكثر ما يكون تمثيلا ووصفا لبيئتهم بل أنا أصدق مثال لحياة العرب أنفسهم ، فأثر تلك البيئة الطبيعية والمحيط الاجتماعى ظاهر فى شعورهم بجانب بلاغتهم النادرة ، وهل هناك أكثر من الدلالة على الحياة الجاهلية أكثر من الشعر الجاهلى نفسه الذى هو ديوان العرب ومستودع تاريخهم ومرآة حياتهم وصناعاتهم وعاداتهم

والشعر الدينى الذى يمثل الحياة الدينية عند الجاهليين كثير مبثوث فى شتى الكتب ، وقد جمع منه الأستاذ لطفى جمعه الكثير (١) ، والذين يذهبون إلى ما يذهب إليه الدكتور طه حسين من أن الشعر الجاهلى خال من تصوير حياة الجاهليين الدينية كثيرون منهم مرجليوث (٢) . ويرى جورجى زيدان أن منظومات العرب الجاهليين فى الناحية الدينية قد ضاعت فى أثناء الأجيال لعدم تدوينها لاشتغالهم عنها بالحساسة والفخر بسبب الحروب التى كانت بينهم قبل الإسلام ، فلما جاء الإسلام أغضى الرواة عنها لأنها وثنية والإسلام يحو ما قبله ، ويقول الأستاذ ادوار براندلش فى رده على مرجليوث فى مجلة الأدبيات الشرقية عام ١٩٢٦ : لا حظ العلماء أن الشعر الجاهلى قلما دل على شىء من دين العرب قبل الإسلام وقد ذكر بعضهم فى سبب ذلك أن

(١) راجع ص ٨٥ - ٩٢ من كتاب الشهاب الراصد .

(٢) يقول مرجليوث: قلما نعثر فى الأشعار الجاهلية على شىء يلقى بالدين

إلا نادرا

علماء المسلمين يرفضون من الشعر ما خالف دين الإسلام ، وهذا مما يثق
الإنسان بوقوعه ؛

وأما أن الشعر الجاهلي لا يدل على اتصال العرب بغيرهم من الأمم
كما يزعم الدكتور طه حسين فهذا خطأ في الرأي، ألا تسمع لعمر بن كاثوم
يقول : د وكأمن قد شربت ببلعبك ، : أو لامرئ القيس وهو يصف
رحلته إلى القسطنطينية حيث يقول :

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لا حقان بقيصرا
وهل شعر النابغة لا يمثل اتصاله بملوك الحيرة وغسان أتم تمثيل؟ وعدى
ابن زيد واتصاله بديوان كسرى معروف ورحلات بني عبد مناف في البلاد
لتأمين طرق التجارة مشهورة ويقول الشاعر الجاهلي :
يا أيها الرجل المحول رحله هلا نزلت بأرض عبد مناف؟
الآخذون العهد من آفاقها والراحلون لرحلة الإيلاف
ويقول الأعشى :
قد جبت ما بين بانقيا إلى عدن وطال في المعجم تردادي وتسيارى
ويقول :

وطوفت للبال آفاقه عمان نخمص فأوريشلم
أثبت النجاشي في داره وأرض النبط وأرض المعجم

ثالثا : الشعر الجاهلي ولهجات العرب (١) :

(١) يستدل الدكتور طه على اتصال الشعر الجاهلي بأنه لا يمثل اللغة
العربية ولهجاتها (٢) .

(١) راجع ص ١٠٠ - ١٥٩ من الشهاب الراسد

(٢) راجع رد الأستاذ لطفى جمعه على رأى الدكتور طه وهو أن الشعر الجاهلي
لا يمثل لهجات القبائل حيث أثبت الأستاذ لطفى عكس هذه النظرية بأدلة من الشعر
الجاهلي الذي يمثل لهجات القبائل المختلفة (١٥٤ - ١٥٧ الشهاب الراسد)

ويبدو من أفراد الدكتور كلمة اللهجات مرة وعطفها على اللغة أخرى أنه لا يفرق بين اللغة واللهجة والفرق بينهما تنظيم ، فاللهجة طريق أداء الكلام إلى السامع ويتمثل ذلك في التفعيم والترقيق والامالة وعدمها ، لا يؤثر في ذات الحرف ولا يقتضى العدول عنه أو عن السكامة إلى غيرها فالجمللة الواحدة نستطيع النطق بها مختلفة الهيئة مع بقاء حروفها وكلماتها في كل صورة من صور النطق كما في تلاوة القرآن بالقراءات المتنوعة التي لم تختلف فيها الكلمات إلا بما قدمنا . وبعد ذكرنا لهذا الفرق نقول : إن اختلاف اللهجة لا يؤثر في وزن الشعر ولا في قوافيه ، فثلاثة قفا تبك الح ، لا يحدث تفعيم الألف في قفا ولا إمالتها في ذكرى شيئاً في وزنه ، ونحن لانخالف الدكتور في أن العرب كانوا في الجاهلية مختلفي اللغات واللهجات ، ولكننا لا نسلم بما استنبطه الدكتور من ذلك وهو أنه كان يجب أن نرى في الشعر اختلافاً بين المروى عن القحطانيين والعدنانيين ، ذلك لأننا نؤمن مع إيماننا بهذا الاختلاف أنه كان بتقادم العهد واتصال العرب ورحلة أهل الجنوب إلى الشمال وقيام قریش بالسيادة على العرب ، قبل ظهور الإسلام ، والاشتغال بالتجارة بين الجنوب والشمال وقيام عكاظ ، كل ذلك قرب من هذه اللغات واستطاعت قریش أن توجد لها لغة مختارة من شتى لغات العرب وقد ارتضاها الخطباء والشعراء لغة لهم في المحافل العامة ، لأنها مختارة من شتى لغات القبائل فهي حيوية لهم مفهومة عندهم وهي لغة قریش ذات السيادة ، أما اتصال القبائل الذي حاول الدكتور أن ينفيه بقوله « وثبت أن العرب كانوا متنايذين ليس بينهم من أسباب المواصلات المادية والمعنوية ما يمكن من توحيد اللغات » ، هذا الاتصال ثابت بالتاريخ ، فصلة المصاهرة كانت شائعة بين شتى القبائل يصهر القيسى إلى القرشى ، والرعى والتميمي والعدناني إلى القحطاني ، فزهير بن خزيمة العبسى سيد بنى عبس أصهر إلى النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، فقد زوجه ابنته المتجردة ، وكانت صلات الحلف تجمع بين القبائل العربية ، كما كان بين أسد وعطفان وبين قریش وثقيف .

(ب) وما يذهب إليه الدكتور من اختلاف لغة حمير عن اللغة العدنانية
جد الاختلاف مبالغ فيه وردنا عليه هو أن :

١ - ما ذكره الدكتور من الأمثلة للغة الحميرية يدل على علاقة العدنانية
بالقحطانية وأن الأولى وليدة الثانية ، وأوجه الخلاف التي يمكن استنباطها
من هذه الآثار هجائية ، ونحوية وانحوية ، وهذه الأنواع من الخلاف لا تجعل
اللغتين متمايزتين كما استنبط الدكتور فإنه حاصل في اللغة الواحدة ، كما أنه
يسلم معنا بأن في اللغتين ألفاظا متحدة في الصيغة والمعنى مثل أخ وأخت ونعمة
وحلف ووثن وغير ذلك ، ثم إن هذه الآثار لا يعلم تاريخ كتابتها ، وبعض
المؤرخين على أنها كتبت قبل الميلاد بخمسة عشر قرنا .

٢ - لو سلمنا بوجود الخلاف الكبير بين اللغتين العدنانية والقحطانية
فلا يترتب على ذلك وجوب تمثيل القحطانية في شعر الشعراء القحطانيين
المروى شعرهم ، لأن القحطانيين قسمان : سبتيون وحميريون ، فالسبتيون
نزحوا من الجنوب إلى الشمال قبل الإسلام بعد سيل العرم ومنهم الانحيميون
ملوك الحيرة والساسنة ملوك الشام والأوس والخزرج سكان المدينة وسواهم
أما حمير فهي التي كانت بأرضها في ظفار وصنعاء وما جاورها ، وهي التي قال
فيها أبو عمرو بن العلاء : « ما لسان حمير وأقصى اليمن لساننا ولا عربيتهم
عربيتنا » .

٣ - لا ننكر أن هناك اختلافا بين لغات العرب إلى جانب اختلاف
لهجاتها ، ولكنه اختلاف لا يستوجب التباين الذي تصوره الدكتور ، وقد
عرف العلماء هذا الاختلاف ودونوه ، فن ذلك الترادف مثلا . وقد ذكرنا
سابقا بعض وجوه الاختلاف بين اللهجات واللغات العربية فلاداعي لذكرها
هنا الآن .

ويقول المرحوم الأستاذ محمد عبد المطلب في مقالة له نشرها في البلاغ
يرد فيها على الدكتور زكي مبارك في ذهابه إلى هذه النظرية الجديدة ، نظرية

اختلاف لغة أهل الجنوب عن لغة أهل الشمال : « يعتمد الدكتور في تأييد رأيه على الأدلة الآتية :

أولا - كان القدماء من مؤرخي اللغة العربية يفهمون حق الفهم اللغة العدنانية تختلف عن اللغة القحطانية في كثير من الألفاظ والتعابير وشواهد ذلك كثيرة . . ومن القدماء من صرح بأن لغة أهل اليمن غير أهل الحجاز ومن هؤلاء أبو عمرو بن العلاء . وليت شعري أراجع الدكتور عن شيء من دعواه ؟ فشتان ما بين « اختلاف اللغتين اختلافا جوهريا » وبين أن « اللغة العدنانية تختلف عن اللغة القحطانية في كثير من الألفاظ والتعابير » . ساق الدكتور هذه العبارة دليلا أولا على مدعاه فهي قائم الكتاب في الاستدلال وأنا أقول معه ومع المتقدمين نعم إن اللغة العدنانية تختلف عن اللغة القحطانية مع بقاء الوحدة بينهما لأن هذا هو اختلاف الحروف واللهجات الذي أمثته في أصل دعواه وهل هذا يسمى بالاختلاف الجوهري ؟ . وإذا يخرج البرهان العقلي الذي استأثرت به المدرسة الجذرية في صورة القياس الآتي : بين لغة اليمن ولغة العدنانيين خلاف جوهري « أي في جوهر اللغة لا في أغراضها » - وأول دليل لذلك أن المتقدمين كانوا يفهمون حق الفهم أن اللغتين تختلفان في كثير من الألفاظ والتعابير . فاللغتين يقصد المؤرخون بما قالوا ؟ أم هي اللغة التي أثر عنها الأدب العربي في الإسلام ؟ أم هي اللغة التي كانت قبل هذا ولم يصلنا من أدبها شيء ؟ فإن الثاني فهو ممنوع . لأن لغتين لم يصلنا شيء منهما لا يمكن لباحث ولا مؤرخ يدعي الخلاف بينهما ، لأن وجود هذا الخلاف فرع عن وجود اللغتين والعقل يقول باتحاد اللغتين في هذه الأزمان لا باختلافهما . وإذا كان الأمر فإنه لا يجوز لعقل أن يحمل ما قالوه على ظاهره كما حملته المدرسة الجديدة أيحكم أبو عمرو وأمثاله بالتعابير بين اللغتين على المعنى الذي فهمه الدكتور واضرابه ، وهو يسمع شعراء مذحج وكندة وطيه والأزد حوله يقول ما يقولون . فهذا عبد يغوث المذحجي يقول :

الا لا تلوماني كفى اللوم ما ييا فسالكم في اللوم خير ولا ليا
وهذا الافوه الاودى المذحجى يقول أيضاً :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهلهم سادوا
ويقول السكندى :

وقد أغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل
ويقول عمه شرحبيل :

تعلم أن خير الناس طرا قتيل بين أحجار الكلاب
ويقول حاتم الطائي :

وأغفر عوراء الكريم ادخاره وأعرض عن شتم اللثيم نكرما
وكذلك يسمع حساما وابن الخطيم وابن رفاعة يقولون ما يقولون بما هو
معروف من شعرهم وهم أزد يون . وإذا فكلام أبي عمرو ومن قال به لا ينصرف
إلا إلى اختلاف اللامجهتين لا إلى اختلاف اللغتين . وكأني بالدكتور ينكر
أن ما قدمت من الشعر لمؤ لا . اليمانيين عدنانا الديباجة .. إن اختلاف اللامجات
أمر طبيعي لا في لغة العرب وحدها بل في جميع اللغات حتى لقد يصل الخلاف
فيها إلى حد أن أحدهما لا يفهم الآخر .

ثانياً - يقول الدكتور زكي في دليله الثاني ما نصه : إن النقوش التي
اكتشفت في اليمن ودرسها المستشرقون تبين في وضوح تام أن اللغة الحميرية
لغة مستقلة لا تتشابه مع اللغة العدنانية إلا في طائفة من الألفاظ ، أما أصولها
من حيث النحو والتصريف وطرائق التعبير فتختلف عن اللغة العدنانية أشد
الاختلاف . إلى أن قال : « تلك النقوش أوثق من الروايات الشفوية التي
يعتمد عليها بعض الناس . والاستهانة بهذه النقوش تعد جرأة عجيبة لأن
الأثر المنقوش أوثق من الأثر المكتوب في عرف أهل التاريخ وما يلجأون
إليه من التشكيك في قيمة النقوش لا يفهم فتبلاً لأن تلك النقوش إليها
المراجع حتماً في درس أصول اللغات » . إن النقش أثر على الأحجار إن صح

كان أوثق الأدلة كما يقول، وإنما يجب علينا الإيمان بالنقوش الحجرية إذا اجتمعت فيها الشروط الآتية :

(١) أن يثبت باليقين أنها نقشت في الزمن الذي تتكلم بلغته ولم تصطبغ اصطناعاً لأغراض سياسية أو اجتماعية أو نحو ذلك من الأغراض .

(٢) أن تكون بأيدي أهل تلك اللغة صنعت وبلغتهم نقشت .

(٣) أن تكون من الكثرة بحيث لا يحتمل الشك فيها .

(٤) أي يعرض لها من الشبه ما يوجب الشك فيها . على فرض توفر الشروط السابقة .

إذا ثبتت هذه الاعتبارات للآثار النقشية ثبوت اليقين وجب المصير إلى ماتحكم به إذا ، لأنه يقين ، وإذا لم تثبت هذا الثبوت كان الحكم المبني عليها ظنياً أو مشكوكاً فيه فليست أولى من الرواية بشئ . في إفادة العلم وكان بناء اليقين عيباً بناء متصدعاً أحشى أن ينهار على المدرسة الجديدة فيتهدع به بنيانها .

فأما الشرط الأول فإن أحداً من الناس لا يستطيع الجزم به في تلك الآثار وفوق هذا فإن بين أيدينا ونحن بلاد الآثار ما يؤيد بقوة ، احتمال الصنعة في تلك النقوش .

ونحن نرى بأعيننا إلى أي حد وصلت صناعة التقليد في آثار المصريين من الاجمال « الجمارين » والدمى وغيرهما ثم لينظر كيف أحكم عليها نقش الهيروغليفية . فهل لدى الدكتور دليل واحد يمنع أن أجوز هذا التقليد فيما ذكر هو من الآثار . ولعل الدكتور يعلم ولا ينكر هذا العلم إن بعض أهل العلم بالآثار يصطنعون بعض هذه الأحجار لبعض الأسباب ، كما افترض حضرته أن بعض الرواة قد اصطنعوا بعض الأخبار لبعض الأسباب ، أتحدأك يادكتور .

وأما عن الشرط الثاني فهل يستطيع الدكتور أن يدلنا على من كتب

النقوش التي يستند اليها ويعتمد حتما عليها ؟ أكان من الحيريين أهل اللغة الحيرية أم هو من غيرهم من الأمم المجاورة لهم من أمم الآثار كالمصريين ، مثلاً أو الكلدانيين . وهل يمكنه أن يثبت لي من طريق آخر ليزيل هذا الشك من نفسي أن لغة هذا النقش حيرية ، أو لا بد لي أن أؤمن بأنها حيرية ولو لم يدل عليها دليل . إن أمرني الدكتور بهذا الإيمان فعلت حتى أخرج في نظره من هذه الجرأة العجيبة ، ولكن هل يقبل العقل « وهو الذي يحكمه » هذا الإيمان ؟

وأما عن الشرط الثالث فهل يدلني أخى الدكتور على عدد من أحجار هذه النقوش بمعنى بكثرته واختلاف صانعيه وأمكنته عن الشك فيه ؟ فيكون ذلك عند المدرسة القديمة بمثابة الخبر الذي تعتمد فيه الروايات ؟ إنا قلنا إن بضعة الأحجار التي في طلل من الأطلال بعد ما قدمت له تفيد القطع باليقين ، فأنا السميع بذاتي دون عقلي لأن حكمه يقضى على ألا أوقن وقد أمرني أخى باليقين وهو الذي يعرف وحده كيف يحكم العقول .

وأما عن الشرط الرابع فإني أسأله - وعمدى به ألا يخالط أو ينكر العلم - ألم يسمع بأن بعض المشتغلين بالآثار من المستشرقين اصطنع بعض هذه الأحجار لبعض الأسباب كما سمع أن بعض الشعراء من الرواة كان يصنع بعض الشعر ويدسه على المتقدمين لسبب من الأسباب أيضاً ؟ وهل هو لم يسمع أن بعض الملوك في أكبر أمة أثرية « مصر القديمة » محبا وأثبت في الآثار ؟ وهل يحمل الدكتور أن من هؤلاء الملوك رئيس ؟

أما ما أورده الدكتور من الدلائل اثالث الذي يقول فيه : « طبيعة الحياة تأبى أن يكون للعرب لغة واحدة في جميع أرجاء الجزيرة قبل الإسلام » . فإني أناقض دليله هذا على الخط المستقيم فأقول إن طبيعة الحياة تأبى أن يكون للعرب لغات مختلفة ذلك الاختلاف الجوهرى الذى يشير إليه .
(٢٦)

طبيعة الأرض واحدة وبيئاتها متشابهة تشابهاً كلياً ومؤثرات الاجتماع والطبيعة واحدة والحكومة في أكثر الأحيان واحدة واللغة الأصا واحدة والامة في عزلة تامة عن سواها، فمن أين يجيء الاختلاف في غدا
الاممجات ؟

١١ -

ويقول الدكتور طه حسين في كتابه « الشعر الجاهلي » : « يقول القدماء إن أبناء إسماعيل تعلموا العربية من القحطانيين فسموا المستعربة كما سم الأولون العاربة .. ثم تساءل كيف يحصل هذا التمايز العظيم بين اللغتين الذ اثبتته الآثار المكشوفة بأيدي المستشرقين ؟ ثم قال : فواضح جداً لمن إلمام بالبحث التاريخي عامة وبدرس الأساطير والأقاصيص خاصة أن هذا النظرية متكافئة ومضطربة في عصور متأخرة دعت إليها حاجة ديدنية اقتصادية أو سياسية .. ثم رأى أن قصة إسماعيل وورودها في الكتب الدينية لا يكفي لإثبات صحتها التاريخية ، قال : نحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الإسلام واليهودية من جهة والقرآن والتوراة من جهة أخرى وأقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو هذا العصر الذي أخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية ويبنون فيه المستعمرات فنحن نعلم أن حروباً عنيفة نشبت بين هؤلاء اليهود المستعمرين وبين العرب الذين كانوا يقيمون في هذه البلاد ، فليس يبعد أن يكون هذا الصالح الذي تم به المستعمرين وبين العرب أصحاب البلاد منشأ هذه القصة التي تجعل العرب واليهود أبناء عم لاسيما وقد رأوا أولئك وهؤلاء أن بين الفريقين شيئاً التشابه غير قليل فأولئك وهؤلاء ساميون ، ولكن الشيء الذي لا شك في هو أن ظهور الإسلام وما كان من الخصومة بينه وبين وثنية العرب غير أهل الكتاب قد اقتضى أن تثبت الصلة بين الدين الجديد والديانتين القديمتين ديانة النصارى واليهود » .

« أما الصلة الدينية فثابتة واضحة بين القرآن والتوراة والإنجيل ، اشتراك في الموضوع والصورة والغرض ، كلها ترمى إلى التوحيد ، ولكن هذه الصلة الدينية معنوية عقلية يحسن أن تؤيدها صلة أخرى مادية ملموسة ، فإلا الذي يمنع أن تستغل هذه القصة قصة القرابة المادية بين العرب العدنانية واليهود؟ وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الأسطورة في القرن السابع فقد كانت في أول هذا القرن قد انتهت إلى حظ من النهضة السياسية والاقتصادية ضمن لها السيادة في مكة وما حولها وبسط سلطانها المعنوي على جزء غير قليل من البلاد العربية الوثنية وكان مصدر هذه النهضة أسواق التجارة والدين : فأما التجارة فنحن نعلم أن قريشا كانت تسافر إلى الشام و مصر وبلاد الفرس واليمن والحبشة ، وأما الدين فهذه الكعبة التي كانت تجتمع قريش حولها ويحج العرب إليها كل عام والتي أخذت تبسط سلطانها على نفوس هؤلاء العرب نوعا من السلطان قويا والتي أخذ هؤلاء العرب المشتركون يجهلونهم رمزاً لدين قوي كأنه كان يريد أن يقف في سبيل انتشار اليهودية والمسيحية من ناحية أخرى ، »

وهذا الرأي لا يدعمه الدليل اللهم إلا « ليس ما يمنع ، و « ليس بعيد ، و « أمر هذه القصة واضح ، » . على أن هذه الآراء هي من صنع المستشرقين ووليدة شكوكهم ، وهي تهدم من حيث لا مبرر للهدم ولا نجد ما نقوله له إلا أن نقول إن الدين في هذا الموضوع لم يهدم بالعالم وإنما اصطدم بالهوى والهوى لا يثبت أن ينكسر عند أول صدمة على أن السبب الذي ذكره الدكتور لوضع اليهود الحديث واه لا يصلح أساساً لأنه إذا صح إنما يثبت القرابة بين الاسماعيلية وبينهم من العنقانيين وبين اليهود ، وأما العرب الذين أغار عليهم اليهود ثم صالحوهم فهم عرب يثرب وهم من القحطانيين لأنهم من غسان إحدى قبائل الأزد فالحديث لا يؤدي إلى المطلوب الذي يريده الدكتور والدكتور يتبع في ذلك رأى الدكتور مرجليوث فقد قال في مقالته « ذيل مقالة الإسلام » : « حقيقة الأمر في قصة إسماعيل أنها

دسيسة لفقها قدما، اليهود تزلقا إلى العرب وتذرعا منهم إلى دفع الروم عن بيت المقدس أو إلى تأسيس مملكة جديدة في بلاد العرب ، . ونقول كان يكفي وجود القصة في القرآن ليؤمن بها الباحث والناقد جميعاً .

الحكومة الأدبية

بين قصيدتي علقمة وامرى القيس

- ١ -

علقمة بن عبدة التميمي شاعر جاهلي مشهور ، عاصر امرأ القيس زعيم الشعراء الجاهليين ، وتوفي عام ٥٦١ م ، بعد وفاة امرى القيس بسنة واحدة ، ومطلع قصيدة علقمة :

ذهبت من الهجران في غير مذهب ولم يك حقا كل هذا انتجنب
ومطلع قصيدة امرى القيس :

خابلي مرا بنى على أم جندب لتفضي حاجات الفؤاد المملوب

والموازاة الأدبية بين القصيدتين بمعناها الصحيح معدومة في القديم والحديث . قالوا : إن علقمة ضاف امرأ القيس وكان صديقا له ، فذاكرا القريض ، وادعاه كل منهما على صاحبه ، ولجا في ذلك ؛ فقالت لهما « أم جندب ، زوج امرى القيس : قولاشعرا تصفان فيه الخيل ، وتذكران الصيد ، على قافية واحدة وروي واحد (١) ، ، لأنظر أيكما أشعر ، فرضيا بحكمها ، وأنشداها على البديهة قصيدتين كبيرتين بائيتين ، سبق ذكر مطلعهما ولما فرغا من إنشادهما قالت أم جندب لبعاهما : علقمة

(١) هذا كلام صاحب الشعر والشعراء . (ص ٥٨) ، وقد يكون ذلك من زيادة الرواء .

أشعر منك ، فقال وهو يكاد يتميز من الغيظ : وكيف ذاك ؟ قالت :
لأنك قلت :

وللسوط ألحوب وللحاق درة وللزجر منه وقع أهوج منعب
فزجرت فرسك ، وجهده بسوطك ، ومربته بسافك . وقال علقمة :
فأدر كهن ثانيا من عنانه يمر كمر الريح المتحلب
فأدرك الطريدة وهو ثان من عنان فرسه ، لم يضربه بسوط ، ولا مرأه
بساق ، ولا زجره . فتربد وجهه ، وقال لها : ما هو بأشعر مني ولكنك له
وامق ، وطلقها خلفه عليها علقمة .

وقد ذكر هذه الرواية ابن قتيبة (١) ، وأبو الفرج (٢) ، وصاحب
الموشح (٣) ، مع بعض تغيير فيها ؛ ويزيد المرزباني على هذه القصة رواية
أخرى عن أبي عمرو الشيباني يقول فيها (٤) . تزوج امرؤ القيس امرأة من
طى ، وكان مفركا ، فلما كان ليلة ابنتى بها أبغضته ، فجعلت تقول :
« أصبح ليل ، يا خير العتيان أصبحت أصبحت » ، فينظر فيرى الليل
كهيئته ، فلم يزل كذلك حتى أصبح ، فنزل به علقمة ، وكان من فحول
شعراء الجاهلية وكان صديقا له ، فقال أحدهما لصاحبه أينما أشعر ؟ فقال
هذا : أنا ، وقال هذا : أنا ، فتلاحيا ، حتى قال امرؤ القيس : أنعت ناقتك
وفرسك وأنعت ناقتى وفرسى ، قال : فافعل ، والحكم بينى وبينك
هذه المرأة من ورائك ، فقال امرؤ القيس : « خليلي مرأى على أم جندب » ،
وقال علقمة : « ذهبت من الهجران فى غير مذهب » ؛ فلما فرغا من
قصيدتيهما عرضاها على الطائفة امرأة امرئ القيس ، فقالت . فرس ابن
عبدة أجود من فرسك ؛ قال لها : وكيف ؟ قالت : إنك زجرت
فرسك وحركت ساقيك وضربت بسوطك . تعنى قوله :

(١) ٥٨ الشعر والشعراء (٢) الأغاني ج ٨ ص ١٢٨ .

(٣) ٢٨ الموشح للرزباني (٤) ٢٩ المرجع .

فلان حجر الهوب والساق درة والسوط منه . وقع أخرج مذهب (١)

وإن علقمة جاهر الصيد فقال :

إذا ما اقتصنا لم نقده بجنة ولكن نادى من بعيد ألا اركبي
هذه هي حكومة أم جندب الأدبية بين الشعارين ، في كثير من رواياتها
التي تختلف قليلا وتتفق كثيراً ، والتي لا تخرج عن أن أم جندب فضلت
قصيدة علقمة على قصيدة امرئ القيس .

ويرتاب بعض الباحثين في صحة هذه الحكومة ويرى جورها ويقول :
ولعل ذلك بما حمل ابن المعتز على أن ينسكرك هذه القصيدة فيما أنسكرك من شعر
امرئ القيس (٢) .

وذلك هو رأى الدكتور طه حسين في الأدب الجاهلي الذي رأى أن
هذه القصة منتحلة (٣) . وقد وقف الباحثون حيال هذه الحكومة الأدبية

(١) الهوب : ألحج جريه حين زجره . درة . أى إذا غمر در بالجري . الأخرج :
الظلم وهو ذكر الثعام والآثى خرجاء في حال لونه وهو سواد وبياض لون لماد
والأخرج الرماد . مذهب : مسرع في عدوه .

(٢) ٢١ و ٢٢ تاريخ النقد الأدبي عند العرب للرحوم الأستاذ طه إبراهيم
وقد أخطأ هذا الباحث فيما زعمه من أن ابن المعتز أنكر قصيدة امرئ القيس ، ذلك
أنه يعتمد في ذلك على المرزبانى فى الموشح : ونص كلام المرزبانى هو : قال المرزبانى
بعد ذكره للحكومة أم جندب : « وقد روى هذا الحديث أيضا هشام بن السكبي
ورواه أيضا ابن المعتز وذكره فيما أنسكرك من شعر امرئ القيس ، (ص ٣٠
الموشح) وكلمة أنسكرك هنا بمعنى نقده وغايه لا بمعنى إنكار القصيدة ودنوى أنها منتحلة
ذلك اصطلاح عند صاحب الموشح يفهم من قراءة الكتاب ، وهب أن الأمر كما
يقول هذا الباحث فكلام المرزبانى يجوز أن يحمل على إنكار أبيات من القصيدة
لا على إنكارها كلها .

(٣) راجع الأدب الجاهلي ٢٢٠ - ٢٢٥ .

موقفين متعارضين : ففريق يؤيد أم جندب في رأيها ، وفريق آخر يرى جور
حكومتها الأدبية ؛ ومن الفريق الأخير الرافعي الذي عرض لحكومة
أم جندب وبين حيفها ، وفضل قصيدة امرئ القيس على قصيدة علقمة ،
وأيد ذلك ببعض الآراء والحجج الأدبية (١) .

يقول الرافعي : وقصيدة علقمة بحملتها ليست بشيء ؛ لأن كل ما فيها من
الآلغاز البارعة ، والمعاني الحسنة ، مأخوذ من قصيدة امرئ القيس ، حتى
ليأخذ البيت برمته ، والشطر بحاله ، ومع ذلك فقد أبر عليه امرؤ القيس
في الصنعة وما أدرى كيف هذا ، فلولا أن الزواة مجمعون على أن قصيدة
علقمة بمصح لقلت إنها مصنوعة ، وإن صح خبر هذه المنازعة فيكون ذلك
هو السبب في تعفف امرئ القيس على الشعراء وإدلاله بشعره (٢) .
وقال : وما أرى أم جندب إلا أرادت ما تريد الفارك من بعلمها ،
فقرعت أنفه على حية ونخوة ، وهي تعلم أنها لا بد مسرحة في زمام هذه
الكلمة ؛ وإلا فالبيت الذي توافيا على معناه ليس بموضع تفضيل ، لأن
في قصيدة امرئ القيس ما هو أبلغ في هذه الصنعة من بيت علقمة ،
وهو قوله :

إذا ما جرى شأوين وابتل عطفه تقول هزير الريح موت بأثاب (٣)
ومن تدبر صنعة امرئ القيس للخيال في شعره وجد السوط لا يمارقه
فلعلمها كانت عادته (٤) ويقول : وما رأيت أحداً من أهل النقد وازن

(١) ٢٢٥ - ٢٣٤ : ٣ آداب العرب للرافعي طبعة ١٩٤٠ .

(٢) ص ٢٢٧ : ٣ تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي طبعة ١٩٤٠ .

(٣) يقول الرافعي : ليس بين الناس اختلاف في أن أمراً القيس أول من
ابتكر هذا المعنى : فبالغ في صفة الفرس وجعله على هذه الصفة ، بعد أن يجرى
شأوين ، وابتل عطفه بالعرق ، ثم زاد إيغالاً في صفته بذكر الأثاب وهو شجر
الريح في أضغاث أغصانه خفيف عظيم وشدة صوت (٢٢١ : ٣ المرجع) .

(٤) ص ٢٢٧ : ٢ المرجع

بين القصيدتين ، بل كلهم متبعون كلمة هذه المرأة ؛ وبعضهم لا يعرف ما كان بينها وبين امرئ القيس ، وامرئ القيس يقول في قصيدته :

ولأنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلوب (١)

والطريف أن الرافعي لم يوازن بين القصيدتين موازنة أدبية ، وإنما اكتفى بعد ذلك بأن ذكر القصيدتين كاملتين دون تعليق . وعلى رأى الرافعي سار الأستاذ هاشم عطية في كتاب « الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي (٢) » ، قال بعد أن عرض أبحاثاً كثيرة من القصيدتين : « والذين يعرفون أن امرأ القيس كان مفركاً تكرهه النساء ، وأن هذه المرأة كانت تكرهه ، وكانت ضلوعها مع علقمة (٣) : يدركون في سهولة أنها جارت في حكمها على امرئ القيس ، لأن الذي قصد من ذكر السوط والساق والزجر — وإن كان فيه شيء من الهجنة — إنما هو التلميح على مبلغ عنايته بريضة فرسه وتأديبه ، وأن عنده أفانين من الجرى ، فيعطى راكمه من كل حالة ما يشبهها من العدو (٤) » ، على أنه مع ذلك قال : « فأدرك لم يجهد » وهو يدل على ما يدل عليه بيت علقمة من أنه أدرك طريدته ، وهو لا يزال كما هو لم يتعب ولم يتن شأوه ، أى لم يعد الشوط بل أدرك من أول حضر (٥) .

- ٢ -

ونحن هنا في أول موازنتنا الأدبية بين القصيدتين لا يصح أن نحكم في هذه الموازنة أى باعث غير البواعث الأدبية في الحكومة بين

(١) ٢٢٦ : ٣ المرجع (٢) ص ١٨٤ .

(٣) هذه الأسباب الأولى في تحليل جور حكومة أم جندب الأدبية . مضحكة

لغاية (٤) وهذه أيضاً حجة أدبية رائعة مثل ما سبقها .

(٥) ص ١٨٤ الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي .

القصيدتين نفسيهما ، فلا يصح أن نفضل امرأ القيس لأنه زعيم الشعراء الجاهلين ، فنحن نعلم أن علقمة أيضاً شاعر فحل وإن كان لا يصل إلى منزلة امرئ القيس في زعامة الشعر الجاهلي ؛ قال له ربيعة بن حذار الأسدي الشاعر الجاهلي : « شعرك كزادة قد أحكم خرزها فليس يقطر منها شيء » ، يريد أن شعره يثبت على النقد ولا يطرح منه شيء ، وقال ابن سلام : لعلقمة ثلاث روائع جياذ لا يفوقهن شعر :

ذهبت من الهجران في كل مذهب ولم يك حقاً كل هذا التجنب
والثانية : طحا بك قلب في الحسان طروب .

والثالثة : هل ما علمت وما استودعت مكتوم (١) .

ولعلقمة معان جيدة ، واشتهر بوصف النعام بما أشاد به ابن الأعرابي ، ولكنه على أي حال لا يصل إلى منزلة امرئ القيس ، فقد وضع ابن سلام الناقد الكبير في الطبقة الرابعة مع عدى وعبيد وطرفة (٢) ، ووضع امرأ القيس في الطبقة الأولى . فاختلاف منزلة الشاعرين الأدبية وما تلقى به روعنا زعامة امرئ القيس للشعر الجاهلي من أثر عميق باطى ، كل ذلك لا يصح تحكيمه في الموازنة بأي حال ، إنما يجب أن نهج منهجاً عادلاً فيما نتناول به القصيدتين من أحكام .

أما قصيدة امرئ القيس فقد بدأها بالفزل العذب الجميل ، وفن امرئ القيس في الفزل محبب إلى النفوس مستوفى البلاغة ، قريب من القلب والروح ، يقول فيما يقول :

خليل مرا بى على أم جندب لنقصي لبانات الفؤاد المعذب
ألم تريانى كلما جئت طارقا وجدت بها طيبا وإن لم تطيب
فإن تنأ عنها حقبة لاتلاقها فإنك بما أحدثت بالبحر

(١) ص ٥٠ طبقات الشعراء لابن سلام .

(٢) ص ٤٩ المرجع .

ولاء عيأ من رأى من تفرق أشت وأناى من فراق المحصب (١)
فربقان : منهم جازع بطن نخلة وآخر منهم قاطع نجمد كبكب (٢)
فعميناك غرباً جدرول فى مفاضة كمر الخليج فى صفيح المصوب (٣)
فتجد عذوبة فى جزالة ، وقرة عاطمة فى أسلوب عال من الشعر .
ثم انتقل إلى وصف الدوية التى جابها على ناقته فى أسلوب رائع تمتع
بلميح فقال :

ودوية لا يهتدى لفلاتها يعرفان أعلام ولاضوء كوكب (٤)
تلافيتها والبوم يدعو بها الهدى وقد ألست أطرافها ثنى غيب (٥)
ثم ألم بناقته وشبهها بالحمار الوحشى ووصفه فقال فيما قال من وصفه :
يفرد بالأسحار فى كل سدفة تغرد مياح الندامى المطرب (٦)
ثم انتقل إلى وصف فرسه ، فأجاد الوصف ؛ وأمتع فى الأسلوب ؛
وامرؤ القيس أوصف الناس للخيل ، فلا غرو أن يحىء هذا الوصف جميلاً
بمتعاً قويا على غرابة فيه ، ومن قوله فيه :
له أبطالا ظي وساقا نعامة وصهوة عير قائم فوق مرقب (٧)

(١) أشت : أكثر تفرقا أناى : أبعد . المحصب : المكان الذى ترمى فيه الحجارة بمعنى
(٢) جازع : قاطع بطن نخلة : موضع . نجمد كبكب : جبل يستديره الواقفون
بعرفات (٣) الغرب : الدوا العظيم . الجدرول : النهر . المفاضة : الأرض الواسعة
الخليج : الماء المتخالج وهو الذى تعترضه العقبات فى سيره فيتمتأسر مرة ويتيمان
أخرى الصفيح : العريض من الحجارة . المصوب : المنحدر .
(٤) الدوية : الفلاة التى لا يهتدى فيها بعلامة أو ضوء كوكب .
(٥) تلافيتها : قطعها . الغيب : الليل الخالك .
(٦) يفرد : يطرب بصوته السدفة : القطعة من الليل . المياح : الميأس .
(٧) الايطل : الخاصرة الصهوة : الظهر . العير : حمار الوحش قائم : منتصب
المرقب : المكان المرتفع .

كثير سواد اللحم مادام بادنا وفي الضمر: شوق القوائم وذوب (١)
وصف امرؤ القيس خلقه وصفاً دقيقاً ، ثم وصف قوته وسرعة عدوه ،
فقال فيها قال :

إذا ماجرى شأوين وابتل عطفه نقول : هزير الريح مرت بأناب (٢)
إذا ماركننا قال ولدان أهلنا تعالوا إلى أن يأتي الصيد نخطب (٣)
ثم انتقل إلى وصف الصيد ، وهو فن من فنون شعر امرؤ القيس
الجيدة العالية ، فذكر خروجه للصيد حول ثعالة ، ورؤيته لقطيع كبير من
الصيد ، وامتطاه متن فرسه ، وحمله غلامه خلفه ، وعدوه الشديد بهما على
آثاره ، وذكر أنه لم يمهل مع ذلك هذا الفرس ، بل ألح عليه يجهده ،
ويستحثه بساقه وسوطه وبزجره له ، حتى أدرك القطيع ، قال فيها قال :

فلاساق الهوب وللسوط درة وللزجر منه وقع أهوج منعب (٤)
فأدرك لم يجهد ولم يثن شأوه يهر كخذوف الوليد المتعب (٥)
وذكر معركة الصيد وفيثته إلى بيت مشيد ، وجلوسه فيه هو وأصحابه
في يوم جميل تمتع :

فظل لنا يوم لذيت بنعمة فقل في مقيل نحسه متغيب (٦)

-
- (١) البادن : السمين . المشوق : حسن القوام . الشوذب : الطويل الخشن
للخلق المنسجم (٢) شأوين : شوطين . ابتل عطفه : سال عرقه على جانيبه .
هزير الريح : صوتها . أناب : اسم شجر .
(٣) نخطب : نجمع الخطب للطبخ والشواء .
(٤) الاهوب : الجري الشديد ، الدرة الدفعة . الزجر : النهر . الاهوج : الاحق
المتعب : الذي يصاح عليه وهذا البيت حكمت أم جندب على امرؤ
القيس بالتقصير وفنات علقمة عليه .
(٥) الخذوف : لعبة للأطفال .
(٦) يريد أنه كان ذلك اليوم من أيام السعادة التي غاب عنها النحس

يتمتعون فيه بأكل الشواء المصنوب (١) .
ثم ذكر رجوعه على فرسه إلى منزله ، وفرسه محبب إلى الأصحاب
غير ملعن :

حبيب إلى الأصحاب غير ملعن يفدونه بالأمهات وبالألب
كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حناء بشيب مخضب (٢)
وتنتهى هذه القصيدة الرائعة القوية الخصبة الخيال ، البليغة الأسلوب ،
الكثيرة المعاني ، المشبوبة العاطفة والشعور ، الطويلة حتى لتبلغ أيمانها
خمس وستين بيتاً .

أما قصيدة علقمة فعدد أيمانها خمسة وأربعون بيتاً بدأها بالغزل كما بدأ
امرؤ القيس قصيدته ، فقال :

ذهبت من الهجران في غير مذهب ولم يك حقاً كل هذا التجنب
ليألى لا تبلى نصيحة بيننا ليألى حلوا بالستار فقرب (٣)
مبتلة كأن أنضاء حليها على شادن من صاحبة مترب (٤)
وبعد أن تحدث عن ماضى حبه لها ، ذكر الحاضر المزل الذى تقطعت
فيه أسباب المودة والحب ، فقال فيما قال :
إذا ألجم الواشون للشر بيننا تبلى رس الحب غير المكذب (٥)

-
- (١) أى الذى لم ينضج تماماً (٢) الهاديات : أوائل الوحش
(٣) الستار جبل بعالية الججاز . غرب : موضع تلقاءه .
(٤) مبتلة : الحسنة الخلقة وتقسيم الاعضاء ، أو الضامرة المكشع الانضاء
جمع نضو : الهزيل : الحلى ، والحلى : ما تزين به المرأة ، الشادن : ولد الغزال .
اصاحة : موضع . مترب : مربى فى البيوت . شبه جيدها وما عليه من الحلى بجيد
هذا الشادن الذى تربيه الجوارى وتزينه بالحلى .
(٥) ألجم : أدخل للشر اللام رائدة . الرس : الثابت الراسخ . المكذب :
الزائل المتقطع

أطعت الوشاة والمشاة بصرمها فقد أنهجت حبالها للنقض (١)
ويذكر وعدماله ، ودلالها الشديد ، ورجوع المودة والصلة من جديد ،
ثم يقول :

فحشنا بها من الشباب ملاوة فأنجح آيات الرسول المخيب (٢)
ثم يذكر تسليه بالأسمار على ظهر ناقته :
فإليك لم تقطع لبانة عاشق بمثل بكور أو رواح مؤوب
ثم ينتقل إلى وصف الناقة ، فيجيد وصفها في خمسة أبيات جميلة قوية
بليغة الأسلوب ، فيقول فيما يقول في وصف عينها :
بعين كمرآة الصنّاع تديرها لمحجرها من النصف المثقب (٣)
وفي وصف ذيلها :

تذب به طوراً وطوراً تمره كذب البشير بالرداء المهذب (٤)
ثم ينتقل إلى وصف الفرس فيجيد إجادة عالية ، قال فيها قال :
وقد أغتدى والطير في وكثاتها وماء الندى يهرى على كل مذنب (٥)
بمنجرد قيد الأوابد لآحه طراد الهوى كل شار مغرب (٦)

(١) الصرم : الحجر . أنهجت حبالها للنقض : ضعفت العلاقة بيني وبينها
وكادت أن تنقطع ، والنقض : التقطع .
(٢) ملاوة : دهرًا طويلًا . عشنا بها : أي نعمنا بوصولها . آيات : علامات
مخيب معلم الخب وهو الخداع أو من الخيب يريد المشى بين الحبيبين والخيب نوع
من السير ، يريد الرسول المفسد .
(٣) أي بعين صافية صفاء مرآة الصنّاع وهي المرأة الحاذقة العمل . المحجر :
ماحول العين . النصف : الخمار . المثقب : ذو الثقوب
(٤) تذب : تدفع الذباب : المهذب : ذو الأهداب .
(٥) أغتدى : أخرج في الغدو . وكثاتها : أعشاشها . المذنب : مسيل الماء إلى
الرياض . (٦) منجرد : قصير الشعر . الأوابد : بقر الوحش . لآحه : أهزله

وينسف أذنيه فيقول .

له حرتان تعرف العتق فيهما كسامعتي مذعورة وسط ررب
وهكذا يصفه علقمة وصفا دقيقا ؛ ثم انتقل إلى الصيد فقال في أسلو

تمتع وتصوير خصب وخيال جميل :

رأينا شياعا برعين خميلة كمشى العذارى في الملاء المهذب
فبينما نمارينا وعقد عذاره خرجن علينا كالجمان المنقرب
فأدر كم ثانياً من عنانه يمر كمر الراح المتحلب
وهذا البيت الأخير من أسباب حكومة أم جندب الأدبية اتى فضا
فيها علقمة على امرئ القيس ؛ إلى أن قال :

فعادى عدا بين ثور ونعجة وتيس شبوب كلشيمة قرهب
ثم يذكر عودته إلى خباته المطنب المضروب :
فقلنا : ألا قد كان صيد لقانص نخبوا علينا فضل برد مطنب

الطراد : المطاردة . الهوادي : أوائل الوحش . الشاو : الشوط . المغرب : البحر
(١) الحران : الأذنان جعلهما حرتين للطافتها واتصاهما . السامعتان
الأذنان . المذعورة : المفزعة يريد بقرة الوحش دمرت فتصبحت أذنيها وحددت
الررب جماعة بقر الوحش .

(٢) الشياء : النعاج الوحشية . الخيلة : الأرض الكثيرة النبات والشجر
المهذب ذر الهذب . (٣) التمارى : التجادل والتشكك . عقد عذاره : أى إلجا
الحبل . الجمان حب يصنع من فضة على هيئة العقد أى خرجت متتابعة منتظمة كالجمان
المنظوم . (٤) ثنى عنان قرسه : جذبه نحوه الراح السحاب ، المتحلب : المتساقط
المتتابع (٥) فعادى عدا : جرى أشواطاً متتالية ، التيس : الذكر من الظب
الشبوب الفوى ، المشيمة : الشجرة البالية وشبهه بها فى حالة صيده وسه وطاصريه
على الأرض كالشجرة التى تقع وهى بالية .

(٦) نخبوا : أى فضربوا علينا خياما ، البرد : كل ثوب موشى ، المطنب
المشدود بالاطناب وهى حيال الخيمة

وتمنهم بالأكل من الصيد ورميهم لعيون الصيد حول الخباء .
 كأن عيون الوحش حول خيانتنا وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب (١)
 ثم يذكر عودته من رحلة الصيد على فرسه الذي سار في نشاط وحدة
 يسابق النوق وتسابقه ، ويشبهه بالحياة المناسبة :
 وراح يبارى في الجنباب قلوصلنا عزيزا علينا كالجنباب المسبب (٢)
 وبذلك تنتهي هذه القصيدة .

- ٣ -

ومن ذلك العرض المريع نرى أن القصيدتين :

١ - وتشابهان في الوزن والقافية .

ب - وفي الموضوع أيضاً ، فبكنا القصيدتين مبدوءة بالغزل ،
 ووصف كل من الشاعرين في كليهما الناقة والفرس ورحلة الصيد ونزوله
 في الخباء المضروب للراحة وتناول الطعام ، وعودته من هذه الرحلة الجميلة
 الممتعة ، ويزيد امرؤ القيس بوصف المرقبة (٢) بيتين والدوية (٤) في بيتين
 آخرين بعد الغزل مباشرة .

ج - وتشابه القصيدتان أيضاً في الخيال والروح ، وفي هذا الارتجال
 الغنى والهدية الحاضرة الذين تفيض في ذكرهما الروايات المختلفة .

د - وتشابهان فوق ذلك في كثير من المعاني وأساليب الشعر :

١ - قال امرؤ القيس في الفرس :

حبيب إلى الأصحاب غير ملعن يفدونه بالأمهات وبالآب

(١) الجزع : خرز فيه بياض وسواد

(٢) يبارى : يسابق . الجنباب : مصدر جانبه بجانب إذ صار إلى جنبه ، الفرس

الناقة الشابة القوية ، الجنباب : الحية . المسبب : المناسبة

(٣) هي المكان المرتفع الذي يقف عليه الديدبان ليرقب العدو

(٤) الدوية : الفلاة الواسعة

وقال علقمة :

أخا ثمة لا يلعن الحى شخصه صبوراً على العلات غير مسبب
فذكر امرؤ القيس أنه غير ملعن ، وفصل علقمة فقال « الحى ،
وشخصه » ثم عاد فأجمل فقال : « غير مسبب » أى غير ملعن ؛ وزاد
امرؤ القيس بقوله : « يقدونه بالأمهات وبالأب » ؛ وزاد علقمة بقوله :
« أخا ثمة » أى يوثق به وبنجابته وأصالته وقوته ومصرته عدوه عند
المطالب ؛ وبقوله « صبوراً على العلات » أى على مختلف الحالات أو على
ما يلزم به من تعب وإفناء .

٢ - وقال امرؤ القيس فى الفرس أيضا :

فكان تناديننا وعقد عذاره وقال صحابي : قد سأرك فاطلب
وقال علقمة :

فبينما تمارينا وعقد عذاره نخرجن عاينا كالجمان المنقب
يقول امرؤ القيس : أبصرنا قطيع الوحش فنأدى بعضنا بعضاً وألجمت
الفرس ، فسبق الصيد ، وقال أصحابي : قد سبقك القطيع فاطلبه .. ويقول
علقمة : أخذنا فى الجمال والكلام والشك وأنا ألجم فرسى وإذا نعايج
الوحش تخرج علينا متتابعة منتظمة كالجمان المنظوم ، فلم يذكر علقمة أن
الصيد قد هرب منه ، ولا أن أصحابه قالوا له شيئاً ، وزاد بهذا التشبيه الرائع
« الجمال المنقب » زيادة رائعة .

٣ - وقال امرؤ القيس فى الفرس :

فأدرك لم يجهد ولم يثن شأوه يمر كخذروف الوليد المنقب
وقال علقمة :

فأدركن ثانيا من عنانه يمر كمر الرانح المتحلب
فذكر امرؤ القيس أن فرسه أدرك الصيد بشوط واحد وأنه كان شديد

الجرى لا يبصره الناظر وأن مثله مثل هذه اللعبة التى يلعب بها الأطفال بما يسمونه « المقلع » فإذا ضربت لم تكدر تراها العين ؛ وذكر علقمة أن فرسه أدرك الصيد وهو ثمان من عنانه أى يجذبه نحوه ، وشبه سرعته النادرة بسرعة السحاب المتناقص المتتابع . . فنجد امرأ القيس ينص على أن فرسه لم يصبه إجهاد وأنه أدرك الصيد من شوط واحد ، ونجد علقمة لا يذكر شيئاً من ذلك ولكنه يذكر أن فرسه كان شديد العدو حتى كان يجذب عنانه نحوه ليهداً في سيره ، وبأنى بهذا التشبيه الجيد الذى أفضله على تشبيه امرئ القيس .

٤ - وقال امرؤ القيس فى فرسه :

وراح كئيس الربل ، ينفض رأسه أذا به من صانك متحلب (١)
وقال علقمة :

وراح كشاة الربل ينفض رأسه أذا به من صانك متحلب
فنجد اتفاق البيتين فى أكثر الأسلوب وفى المعنى ، وإن كان علقمة .
مستبقاً ، والفضل لامرئ القيس .

٥ - ويقول علقمة :

ترى الفأر عن مسترغب القدر لا تحما

على جدد الصخر من شد ملهب (٢)

(١) شاة الربل وتيس الربل يعنى الثور الوحشى وقد شبه به الفرس فى نشاطه وحدته ، ينفض : يحرك ، الصانك : العرق ، المتحلب : السائل المتقاطر ، يقول إن هذا الفرس راح يحرك رأسه لينزل العرق المتقاطر السائل

(٢) عن معنى من ، مسترغب القدر : واسع الخطو ، لا تحما : ظاهراً ، الجدد الطريق . شد ملهب : أى من جرى فرس ملهب وهو الشديد الجرى المثير للغبار

خفي الغار من أنفاقه فكأنما تجلله شؤبوب نيت منقب (١)
وظل لثيران الصريم غماغم يداعسهن بالنضى المقلب (٢)
فهاو على حر الجبين ومقق بمدراته كأنها ذاق مشوب (٣)
وقال امرؤ القيس من قصيدته في المعنى نفسه :

ترى الغار في مستنقع القاع لاجبا (٤)

على جدد الصحراء من شد ملهب
خناهن من أنفاقهن كأننا حذاهن ودق من عشى مجلب (٥)
وظل لثيران الصريم غماغم يداعسها بالسهمري المقلب
فكباب على حر الجبين ومثق بمدرية كأنها ذاق مشوب
فتجد تشابه المعنى والأسلوب والألفاظ والخيال في القطعتين .

٦ - وقال امرؤ القيس :

وقلنا امتيان كرام : ألا انزلوا فعالوا علينا فضل ثوب مطب
وقال علقمة :

فقلنا : ألا قد كان صيد لقانص نخبوا علينا فضل برد مطب

(١) خفي الغار : أخرجه من أنفاقه ، وهو جمع نفق وهو الجحر . تجلله : غشيه
وأحاط به ، الغيث المطر ، المنقب : الذي ينقب في الأرض ويستخرج ما فيها لشدته .
الشؤبوب : الدفعة من المطر

(٢) ثيران الصريم : بقر الرمل ، الغماغم : حوار الثيران عند الطعن يداعسهن
يطاعنهن : النضى : الريح ، المقلب : المشدود بالعلاء . وهي عصبة كانوا يشدون
بها الرماح والسهام لئلا تنكسر

(٣) هاو : ساقط ، حر الجبين : ما أقبل عليك منه ، المدرا : القرن ، الذاق
الحد والطارف ، المشوب : المخرز الذي تخرز به الجلود

(٤) مستنقع القاع : الأرض المنخفضة التي تنقع فيها المياه . لاجبا : ظاهرا

(٥) الودق : المطر ، مجلب : شديد الجلبة والصوت

فيزيد علقة بذكره « صيد القانص » ، ويوجز فيحذف ذكر النزول ،
ويزيد امرؤ القيس فينص على كرم الفتيان وعلى ذكر النزول .

٧ - ويقول امرؤ القيس :

وقد اغتدى قبل الشروع بساجح أقب كيغفور العلاء مجنب (١)
ويقول علقة :

وقد اغتدى والطير في وكماتها وماء الندى يجري على كل مذب (٢)
بمنجرد قيد الأوابد للاحه طراد الهوادي كل شأو مغرب (٣)
فيجاد علقة يزيد هذه الزيادات الجميلة الرائعة حفا : « وماء الندى
يجري على كل مذب » ، و « بمنجرد قيد الأوابد - البيت كله » ،
ويزيد امرؤ القيس في وصف فرسه بما وصفه به ، وإن كانت « بمنجرد »
وقيد الأوابد ، مما ابتكره امرؤ القيس وأخذ عنه ، إلا أن علقة هنا أرفع
بلاغة من غير شك .

٨ - ويقول امرؤ القيس في الناقة :

بمجنفرة حرف كأن قتودها على أبلق الكشجين ليس بمغرب (٤)
ويقول علقة :

بمجنفرة الجنبين حرف شملة كهملك مرقال على الأين ذعلب (٥)

(١) الساجح : الفرس السريع الجري . الأقب : الضامر البطن ، اليمفور : حمار
الوحش ، العلاء : الصجر . المذب : مسيل الماء إلى الرياض
(٢) منجرد . قصير الشعر ، الأوابد ، بقر الوحش ، للاحه ، أهزله ، الطراد
المطاردة ، الهوادي ، أوابل الوحش ، الشأو : الشوط ، الغرب : البعيد
(٣) المجنفرة : الناقة العظيمة البطن ، الحرف التي تماثل حرف الجبل في صلابتها
القتود : أداة الرجل ، أبلق الكشجين يريد حمرا وحشيا أبيض الخاصرة ، المغرب
الذي أبيضت أشفاره وحالده ،
(٤) الحرف ، الضامرة أيضا . الشملة ، المريضة . كهملك أي كما تشتهي وتريد المرقال

٩ - ويقول امرؤ القيس في الفرس :

وهو هواء تحت صلب كأنه من الفضة الخلقاء زحلوق ملعب (١)
ويقول علقمة في المعنى نفسه :

وجوف هواء تحت متن كأنه من الهضبة الخلقاء زحلوق ملعب

١٠ - ويقول امرؤ القيس في ذنب الفرس :

وأسحم ريان العسيب كأنه عشا كيل قنو من سميحة مرطب (١)
ويقول علقمة في ذنب الناقة :

كأن بماذيها إذا ما تشذرت (٢) عشا كيل قنو من سميحة مرطب
فيزيد علقمة بالشعر الأول أو أغلبه على امرؤ القيس .

١١ - ويقول امرؤ القيس في الفرس :

وعينان كلما ويتين (٤) ومحجر إلى مند مثل الصفيح المنصب
ويقول علقمة في الناقة :

بهين كمرأة الصناع تديرها لمحجرها من النهيف المثقب

فيشبهه امرؤ القيس عيني الفرس بمرأتين صافيتين ويقول : إن عينه
يستندها عظم الوجه القوي الصلب المنصب ، ويقول علقمة : إن عين

الكثيرة الرقلان وهو المشى السريع ، الايز ، التعب ذعاب ، خفيمة في سيرها
(١) البهو ، جوف الصدر ، هواء ، واسع ، الصلب ، الظهر ، الخلقاء ، المساء ،
الرحلوق ، ما يتحلق عليه الاطفال أثناء لعبهم

(٢) الاسحم ، الاسود ، والمرادية الذنب ، ريان ، تمتلي ، العسيب ، أصل الذنب .
العشا كيل : الاغصان الرقيقة وهي الشها ريخ ، القنو : العذق وهو العنقود . سميحة
بئر على حافظه نخل مشمر

(٣) الحاذان ، ما وقع عليه الذنب من الفخذين ، تشذرت الناقة ، ضربت بذنبها

(٤) تثنيه ماوية وهي المرأة الصافية المحجر : نقرة العين . الصفيح المنصب :
الواح الحجارة الثابتة .

الناقة شبيهة بعين المرأة الصباغ التي تديرها وتنظر بها من خلال ثوب
الخمار ؛ فتجد إحكاما في التشبيه عندهما واختلافا في تفاصيل المعنى ، واتفاقا
في عمومه . وهذا الاتفاق كله يبين لنا مدى هذا التشابه الفني الواسع بين
تيمك القصيدتين الكبيرتين .

- ٤ -

وهناك خلاف كبير أيضا بين القصيدتين يتجلى لك في ما يأتي :

١ - قصيدة امرئ القيس تزيد على قصيدة علقمة عشرين بيتاً
فأزولي خمسة وستون والثانية خمسة وأربعون .

٢ - وثمان بين غزل القصيدتين ، فغزل امرئ القيس تمتع خصب
بعكس غزل علقمة ، علقمة لا يحسن أن يتغزل كما يتغزل امرؤ القيس ،
فنتجده يقول :

فإني لم تقطع لبانة عاشق بمثل بكور أرواح مؤوب
فيرى أن يقطع آماله في حب محبوبته ويقطع صلته بها بالسفر مبكراً
أورائها ؛ ويقول أيضاً :

فقلت لها : فيئى فما يستفزنى ذوات العيون والبنان المخضب

وإذا لم تستفزه هؤلاء فمن الذى يستفزه بعدهن ؟

ولكن امرئ القيس لا يدور ببلده شيء من ذلك ولا يطابق به أسانه ،
إنما نراه يقول :

فإني لم يفخر عليك كفأخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

فنتجده يذكر ضعف المرأة وأنوثتها وسحرها مع ذلك وامتلاكها بهذا
الضعف القلوب والأرواح : وقد ذكر علقمة في غزله الوصل ومظاهر الجمال
في خلق حبيبته وفي ذيلتها ، ثم صور ما وقع بينهما من صرم وعودة
الصلوات ثم قطعهما بالأسفار . أما امرؤ القيس ويدكر لبانات الفؤاد

المعذب وحاجة قلبه إلى اللقاء وجمال محبوبته الفاتن ، وراحتها الذكية حتى في غير وقت الزينة والطيب ، وإقامتها على المودة وثقته بها ، وينذكر ساعات رحيل أحبابه وهو ينظر إليهن نظرة اليأس الحزين ، تنهمر دموعه حزناً لفراق أحبابه .

وعلقمة في غزله الذي يبلغ الأربعة عشر بيتاً لا يصل على أى حال إلى منزلة امرئ القيس شاعر الغزل والجمال الذي رسم في مطلع قصيدته صوراً رائعة لأحبابه وذكرهم في إيجاز وفي ثلاثة عشر بيتاً .

٣ - أما الناقة فقد وصفها علقمة في خمسة أبيات ووصفها امرؤ القيس في بيت بل في شطره فقط ، ويزيد امرؤ القيس فيصف حمار الوحش الذي شبه ناقته به وصفا جميلا ، فعلقمة إذا يتفوق على امرئ القيس في وصف الناقة ، وإن كان امرؤ القيس يزيد عليه بوصفه للحمار الوحشى في ثلاثة أبيات :

٤ - ووصف الشاعران الفرس ، ووصفه علقمة في ثلاثة عشر بيتاً ثم ذكره في بيتين في آخر القصيدة ، ووصفه امرؤ القيس في سبعة عشر بيتاً ثم عاد إليه في ذكره لرحلة الصيد ، وفي نهاية القصيدة عاد لذكره في سبعة أبيات أخرى . ووصف امرئ القيس للفرس وصف دقيق ، لا يترك شيئاً منه إلا ويصفه ويصوره ومن أولى من امرئ القيس بذلك وهو الذي قيل فيه : « أشعرهم امرؤ القيس إذا ركب » ؛ ولكن امرؤ القيس مع ذلك يخطئ في بعض معانيه ، أما علقمة فلا يخطئ في شيء وذلك ما لاحظناه أم جندب ونقدت امرؤ القيس من أجله وفضل علقمة عليه .

٥ - ووصف الصيد عند الشاعرين وصف جميل ، تتع . . وصفه علقمة في ثمانية أبيات ووصفه امرؤ القيس في اثني عشر بيتاً . مع اتحاد في بعض الأساليب والمعاني ، ولكن امرؤ القيس يزيد في وصف الصيد على علقمة من غير شك ، وزاد عليه أيضاً بوصف الخباء الذي نزل هو ورفاقه فيه لتناول الغذاء وأكل لحم الشواء المصهوب كما يقول :

وبذلك نجد تفوق امرئ القيس في الغزل ووصف الصيد وتفوق
علقة في وصف الناقة والفرس .

٦ — على أن في قصيدة علقمة صورا شعرية كثيرة أرجح أنه اقتبسها
من قصائد امرئ القيس الأخرى ، كقول علقمة : « وقد أغتدى والظهير
في وكلائها » ، وقوله « بمنجرد قيد الأوابد » ، وقوله : « فعادى عداء
بين ثور وبعجة » ، وقوله :

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب

— ٥ —

وامرؤ القيس له السبق في إنشاء قصيدته وإبتكار معانيها ، فعلقمة تابع
له في المعاني التي شارك امرأ القيس فيها من غير شك . ولكن بماذا نسفى
عمل علقمة ، أنسميه معارضة أم تقليداً فنياً ، أم أنه عمل جديد بكر كعمل
امرئ القيس الشاعر الأول . إن عمل علقمة الفني ليس جديداً بكرأ ،
ولكنه جديد في بعض نواحيه ، وهو تقليد في بعض النواحي ، ومعارضة
أدبية في باقيها ، واسنا نذهب مذهب من يفضل أحد الشعارين على الإطلاق
كما فعل القدماء ، ففضلوا علقمة على امرئ القيس ، فقالت أم جندب ما
قالت ، وقال ابن رشيقي . ونازع - امرؤ القيس - علقمة بن عبدة ، فكان
من غلبة علقمة عليه ما كان (١) ، وكما فعل بعض المحدثين ففضلوا امرأ
القيس على أى حال ، ولكن نهجنا في الموازنة نهج يسير على العدل والحق
والإنصاف في الحكومة الأدبية دون نظر إلى ما بدا ذلك . إن عمل علقمة
الفني في قصيدته جديد في الكثير من معانيها وأساليبها وخيالاتها ، وهو
تقليد فيما أسلفناه لك من معانٍ احتذى فيها علقمة امرأ القيس الذي سبقه
بارتجال قصيدته ، ولكن العمل الفني الذي عمله علقمة كله وعلى وجه
الإجمال أصمية معارضة ، والمعارضة في الشعر أن يقول الشاعر القصيدة ،

(١) ١٣٥ : العدد ط ١٩٢٥ طبعة هندية بمصر

فيتبعه شاعر آخر بقصيدة في خيالها وروحها وموضوعها مع الاتفاق في الوزن والقافية في أحيان كثيرة ، ويقصد الشاعر الثاني أن يسجل بقصيدته على الأول تفوقا أو أن ينقض فكرة الأول في قصيدته . والمعارضات في الشعر العربي القديم والحديث كثيرة ؛ ولكن المعارضة في قصيدتنا - موضوع هذا البحث - أظهر وأبين وأوضح .

- ٦ -

وبعد فقد حاول علمقة بقصيدته أن يتفوق على امرئ القيس في حكم النقد الأدبي ،

وقد نال ما أراد عند القدماء ، وحرمه منه بعض الباحثين من المحدثين ولكننا نقدر عمل الشاعرين الفنى معا :

١ - فلا امرئ القيس ميزة البدى وفضيلة الابتكار ، وله فضل التفوق في الغزل والعهد :

٢ - ولعلمقة فضل المعارضة وفضل الابتكار الذى يظهر في قصيدته أحيانا حتى ليكاد يجعلها جديدة من نواحيها ، وله فضل التفوق على امرئ القيس زعيم الشعر الجاهلى في وصف الناقة وفي وصف الفرس وهو الفن الذى شهر به امرؤ القيس

إن الصور الفنية الممتعة في القصيدتين كثيرة جدا ، وخيالهما قوى خصب يتكىء على الحس ، ومعانيهما متدفقة ثرة جياشة لا تكاد تنتهى . ووحدة الموضوع والروح والوزن والقافية في القصيدتين تكاد تنأج بينهما إلى حد بعيد . وهذا هو آخر تلك الموازنة الأدبية الدقيقة لى فلما القول فيها لنتخذ منها منهجا أدبيا واضحا في النقد والموازنة ،

الموازنة بين الشعراء

الموازنة هي المعادلة بين كلام شاعرين أو أكثر ومقابلة معنى كل واقعه بالآخر حتى يتبين رجحان أحدهم فيقال « إنه أشعر ، وإن كان من شهورات العقول المفاضلة بين الأشياء والظفر بالافضل ولهذا كان الأدباء من يوم أن كشف لنا التاريخ وجودهم إلى اليوم مولعين بالموازنة بين الشعراء وتفضيل بعضهم على بعض فإذا نظرنا إليهم في الجاهلية رأيناهم في سوق عكاظ يتحاشون إلى النابغة تحت قبته الحمراء ولحننا هنالك الأعشى وحسان والخنساء يتناشدون ويتنافسون ، ومقاول العرب في تلك الحلبة يستمعون وهم أشوق ما يكونون إلى التساق في البيان واستماع حكم النابغة في ذلك .

وإذا رجعنا إلى آراء الأدباء في نوابغ شعراء الجاهلية وجدنا كلماتهم مفرقة في امرئ القيس والنابغة وزهير والأعشى : لكل منهم شيعه تفضله على غيره وتقيم البراهين على تفوقه وكذلك حالهم مع كل نابه من الشعراء المخضرمين كالخطيبه وكعب بن زهير وحسان والنابغة الجعدي وأبي ذؤيب الهذلي والخنساء وأضراب هؤلاء .

وإذا تخطينا بهم هذه الطبقة إلى طبقة الشعراء الإسلاميين رأيناهم أبعد خلافا وأكثر شقاقا ، ورأينا الملوث والأمرأ والعلماء يشاركونهم في هذا ويناضلون عنهم يفضلون نضالا ولا كنضال الحرب تدفع عن العرض والنفس ، وهذا تاريخ جرير والفرزدق والأخطل والراعي والقطامي ونصيب مشحون بأحاديث المفاضلة وأحكام المحكمين من الشعراء والعلماء والأمرأ ، وهي أحكام كثيرا ما تكون مطبوعة بطابع المهوى الشخصي يتجلى لنا ذلك في بحاس عبد الملك ابن مروان وأكثر ملوك بني أمية فقد كان المفضل عندهم هو الذي ينال فن عددهم أو يمدحهم بما ليس في سواهم وكذلك القول في الشعراء الفضلين من هذه الدولة : كمكثير ، وجميل ، وليلبي

الأخوية : وقيس ن الملوحي ، وعمر بن أبي ربيعة . والعرجي .

فإذا ذهبنا إلى بني العباس وجدنا الأدباء هنالك يتنازعون للتفضيل بين أبي نواس وصريع الغواني مسلم بن الوليد ، وأبي العتاهية . ثم نراهم أشد ما يكونون تماخضا وتقاطعا في أبي تمام والبحتري . ثم بين ابن المعتز وابن الرومي . ثم بين المتليبي ، وابن هاني ، والشريف الرضي ، وهيار الديلمي ، ولا يزال الخلاف الذي كان بين المتقدمين قائما بين أدبائنا إلى اليوم .

وما ترى مذاهب أكثر انشعابا ، ولا طبائع أبعد افتراقا ، من مذاهب الناس وطبائعهم في تفضيل الشعراء

فمنهم من يرى الفضل للشاعر في جريه على الفطرة مع السلامة وإصابة الغرض ، ومن هؤلاء هارون الرشيد . فقد كان يقدم أبا العتاهية ، حتى يجوز الحد في نقديته ليله إلى عفو الخاطر وحاضر البديهة والكلام الذي يجري في مجرى العادة حتى لقد بلغه أن إسحاق بن إبراهيم الموصلي يفضل العباس ابن الأحنف عليه ، فلما حضر بين يديه ، وأنشده العباس أجود ما يرويه ولأبي العتاهية أرداه . تعصبا للعباس . قال هارون : فأين أنت عند قول أبي العتاهية :

قال لي أحمد ولم يدر ما بي أنحب الغداة عتبة حفا

فتنفست ثم قلت نعم حيا جرى في العروق عرقا فعرقا

ثم قال : ويحك أنعرف لأحد مثل هذا أو تعرف أحدا سبقه إلى قوله فتنفست ، ثم قلت كذا وكذا اذهب ويحك فاحفظها .

ولما عرف هذا الخلق من هرون ، كان الشعراء يتقربون بهذا النوع من الشعر ، ومن ذلك أن العباس بن الأحنف اشتاق أهله ، وقد كان خرج مع الرشيد إلى خراسان ، وطال مقامه بها ، ثم إلى أرمينية . فعارضه العباس في طريقه وأنشده :

قالوا خراسان أتهى ما يراد بنا ثم القه قول فقد جثنا خراسانا

ما قدر الله أن يدني على شحط سكان دجلة من سكان جبرانا
مضى الذي كنت أرجوه وآمله أما الذي كنت أخشاه فقد كانا
عين الزمان أصابتنا فلا نظرت وعذبت بصنوف المجر الوانا

فقال له الرشيد : قد اشتقت يا عباس أذنت لك خاصة ، وأمر له بثلاثين
ألف درهم ، ولولا أن الشعر جاءه من الوجه الذي يحبه لما كان منه هذا
العطف ولا هذا الإحسان .

ومنهم من يرى فضيلة الشعر في الصدق والرفق . وجميل الأحذوثة .
ومن هؤلاء دوحه المجد والادب . بضمة سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
السيدة سكينة بنت الحسين رضي الله عنهما . فقد أصبحت الشعراء على لسان
وصيبتها نقدها الصحيح ، وغيرتها على أخلاق الأدباء ، وألفت عليهم درسا
ما كان أحوج أمثالهم إليه فقد ذكر صاحب الأغاني أنه اجتمع في ضيافتها :
جرير ، والفرزدق ، وكثير ، وجميل ، ونهيب . فنكثوا أياماً ثم أذنت لهم
فدخلوا عليها فقمعت حيث تراهم ولا يرونها ، وأسمع كلامهم ، ثم أخرجت
وصيفة لها وضيئة قد رويت الأشعار والأحاديث فقالت « أيكم الفرزدق ،
فقال لها : ها أيذا . فقالت أنت القائل :

هما دلتاني من ممانين قامة كما انحط بازاقم الريش كاسره

فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا

أحى برجي أم قنيل نحاذره

فقلت ارفعوا الأمراس لا يشعروا بنا

وأقبلت في أعجاز ليل أبادره

قال نعم . قالت « فما دعاك إلى إفشاء سرها وسرك ؟ هلا سترت عليك
وعليها خذ هذه الألف والحق بأهلك » .

ثم دخلت على مولاتها وأخرجت فقالت « أيكم جرير ، قال « ها أيذا ،
فقال أنت القائل :

طرقتك سائدة القلوب وإيس ذا وقت الزيارة فارجمي بسلام
تجري السواك على أغر كأنه برد تحدر من متون غمام .
فقال نعم . قالت « أولا أخذت بيدها وقلت لها ما يقال لمثلها ، أنت
ضعيف وفيك ضعف ، خذ هذه الألف والحق بأهلك » .

ثم دخلت على مولاتها وخرجت وقالت « أيكم كثير » فقال « هاء نذا »
فدأبت أنت القائل :

وأعجبي يا عز منك خلائق كرام إذا عد الخلائق أربع
دنوك حتى يدفع الجاهل الصبا ودفعك أسباب المني حين يطعم
فوالله ما يدرى كريم ماطل ألبسك إذ باعدت أو يتصدع
قال نعم . قالت « ملحت (١) وشككت ، خذ هذه الثلاثة آلاف (٢)
والحق بأهلك » .

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت « أيكم نصيب » قال « هاء نذا »
فقالت أنت القائل :

ولولا أن يقال صبا نصيب لقلبت بنفسى الشأ الصغار
بنفسى كل مضموم حشاها إذا ظلمت فليس لها انتصار
قال نعم . قالت « ربيقتنا صفارا ، ومدحتنا كبارا ، خذ هذه الألف
والحق بأهلك » .

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : يا جميل مولاتي تفرئك السلام
وتقول لك والله ما زالت مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بوادي القرى إني إذا لسعيد
لكل حديث بينهم بشاشة وكل قتيل عندهن شهيد

(١) الملاحة الحسن والشكل الغزل
ولها تحريف والصوات الآلف

(٢) الثلاثة آلاف هذه رواية الأغاني

جملت حديثنا بشاشة ، وقتلانا شهداء ، خذ هذه الألف ديناراً
والحق بأهلك .

وقد قالت مرة لراوية جميل أليس صاحبك الذى يقول :

فياليتنى أعمى أصم تقودنى بثينة لا يخنى على . كلامها
قال نعم . قالت « رحم الله صاحبك إن كان صادقاً فى شعره » . انتهت
رواية الأغانى .

فأنت تراها قد أكرت جائزة كثير وجميل لعفتها وصدقها فى الحب
ورفقها بالحوارير ، وتعطفت عليها أيما تعطف كما عنفت أجلاف الشاق
وكذبة المحبة مثل جرير والفرزدق . وإن كانت مروءتها أبت عليها أن
تحرهما الجائزة وهما فى حرهما خاصة .

ومنهم من يرى الفضل فى المبالغة والقصد إلى الخيان الغريب ولا يسألى
أصدق الشعراء أم كذب بل يجرى على قولهم ، « أعذبه كذبه » ، ومن هؤلاء
عبد الملك بن مروان ، فقد روى أبو على اللقالى فى ذيل أماليه . أن
عمر بن أبى ربيعة ، وكثير عزة ، وجميل بن معمر . اجتمعوا بباب عبد الملك
ابن مروان فأذن لهم فدخلوا . فقال أنشدونى أرق ما قلتم فى الغواني أناشده
جميل بن معمر :

حلفت يميناً يا بئينة صادقاً فإن كنت فيها كاذباً فعصيت
لئن كان جلد غير جلدك مسنى وبأشرفى دون الشعار (١) شريت (٢)
ولو أن راقى (٣) الموت يرقى جنازتى بمنطقها فى الناطقين حبيت

وأناشده كثير غرة :

(١) الشعار ويفتح ماتحت الدثار من اللباس بلى شعر الجسد
(٢) شراه أصابه بعلة الشرى وهى بثور صغار حمر حككة محدث دفعة غالباً
وتشند ليلاً (٣) رقاء يرقيه نفث فى عوزته

بأبي وأمي أنت من مظلومة طين (١) العدو لها فغير حالها
ولو أن غرة خاصمت شمس الضحى في الحسن عند موفق لقضى لها
وسعى إلى بصرم عزة نسوة جعل المليك خدودهن نهالها
وقال ابن أبي ربيعة المخزومي القرشي :

ألا ليت قبري يوم تقضى منيتي بتلك التي ما بين (٢) عينيك والقم
وايت طهوري كان ريقك كله وايت حنوطي من مشاشك والدم (٣)
ألا ليت أم الفضل كانت قرينتي هنا أو هنا في جنة أو جهنم
فقال عبد الملك لحاجبه اعط كل واحد منهم ألفين وأعط صاحب جهنم
عشرة آلاف .

فحكم لا كثرهم أمانى ، وأبعدهم في الخيال ، ولم يبال بما وراء ذلك من
الحاسن التي في شعر صاحبي عمر ولا سيما قول كثير :
ولو أن غرة خاصمت شمس الضحى في الحسن عند موفق لقضى لها
فإن قوله عند موفق بما لم يوفق إليه سواء ، ولو ألهم جميل أن ينشد
عبد الملك أبياته التي غالى فيها بقتاعته في حب بثينة لرجوت له أن يرضيه كما
أرضاه عمر ، وذلك قوله :

وإني لأرضى من بثينة بالذي لو أبصره الواشي لقرت بلابله
بلا وبألا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالظرة العجلى وبالحول تنقضى أو آخره لا ، ناتيقي وأوائله
وهو في العفة والقناعة غاية ليس بعدها غاية .

ومنه من يفضل الكلام لحسن التشبيه وتجلى الوصف كما روى الأصمعي
وقد حضر ندى أدب في بني عامر بن صعصعة ، وفيهم شيخ لهم طويل الصوت
عالم بالشعر وأيام الناس ، يمجسع إليه فتيانهم ينشدونه أشعارهم فإذا سمع

(١) طين كغطى وزنا ومعنى (٢) ما بين عينيك والقم لعله يريد فتحة
أنفها (٣) المشاش جمع مشاشة بالضممة وهي رأس العظم الممكن المضغ

الشعر الجديد قرع الأرض بمحجن في يده ، فينفذ حكمه على من حضر بمكر (١) للملشد وإذا سمع مالا يعجبه قرع رأسه بمحجنه فينفذ حكمه عليه بشاة إن كان ذا غنم ، وابن مخاض إن كان ذا إبل فإذا أخذ ذلك ذبح لأهل النادی وما زال يسمع ويضرب الأرض بمحجنه لما يستحسن حتى أنشده شاب يصف ليله :

كأن شميظ (٢) الصبح في أخرياتها ملا . بنقى من طيا السة خضر
نخال بقاياها التي أسار (٣) الدجى تد وشيعاً (٤) فوق أردية الفجر
فقام كالمنجون مصاة سيفه حتى خالط البرك ، وهى إبل أهل الحواء بالغة
ما بلغت ، وجعل يضرب يمينا وشمالا

فانظر كيف راعه من الشاب الملشد حسن تشبيهه منظر آخر الليل وقت ابتداء أشعة الفجر في الظلمات وتصويرها بصورة ملا . طويل مختار من الطيا السة الخضر ، وكيف صور الأشعة في طبقات السحاب ، والأجواء في أخريات الليل بالأردية يجىء بعضها فوق بعض . ويتضام بعضها إلى بعض عليها الأعلام الموشاة حتى كان الفجر تخيرها يودع بها الليل ويستقبل بها النهار .

ومنهم من يرى المزية للناعر في كثرة فنونه ، وإنساع بجره ، ومن دؤلا . بشار بن برد ، فقد روى ابن سلام قال : سألت بشارا المرعك أى الثلاثة أشعر ، يريد - جريرا ، والفرزدق ، والأخطل - فقال : لم يكن الأخطل ، ولهما ، ولكن ربيعة تعصبت له وأفرطت فيه ، قلت فمذا . قال : كانت لجرير ضرب من الشعر لا يحسنها الفرزدق . ولقد ماتت النوارق ، وإيها حون عليها بشعر جرير ، يشير إلى قوله :

(١) البكر الجمل (٢) الشميظ المخلوط من بياض وسواد
(٣) أسار : أبقى (٤) الوشيع على الثوب كما يصنع الآب على ثياب
الحفريات من الوشى

لولا الحياء لعاذني استعبار (١) ولزرت قبرك والحبيب يزار
ولقد سبق بشارا إلى هذا الحكم السيدة سكينة رضى الله عنها . وما ذاك
إلا لرفقته وكثرة فنونه . وكذلك رأى خالد بن صفوان ، فإنه قال في مجلس
عبد الملك ، وقد كان يصف الثلاثة : أما أغزرهم بحراً ، وأرقهم شعراً ،
وأهتكمهم لعدوه مترا - الأغر الأبلق - الذى إن طلب لم يسبق ، وإن طلب لم
يلحق ، جرير . وقد فضله الراعى حتى على نفسه لما سمع قوله :

وعاوى من غير شىء رميته بقارعة انفاذا (٢) تقطر الدما
خروج بأفواه الرواة كأنها قرا هندوان إذا هن صمما
وقال لآخرى مجلسه دألام على أن يغلبنى مثل هذا ؟ .

وقد قال الصلتان العبدى لما حكم بين جرير والفرزدق ، وفضل جريرا
بشعره ، والفرزدق بلسانه :

أرى الخطفى بفرزدق شعره ولكن خيرا من كليب مجاشع
فيا أعراسا عرا لا شاعر اليوم مثله جرير ولكن فى كليب تواضع
جرير أشد الشعاعين شكيمة ولكن عليه الباذخات الفوارع (٣)
يناشدنى النهر الفرزدق بعد ما ألحت عليه من جرير (٤) صواقع
فقلت له إني ونصر ككالى يثبت أنفا كشمته الجوارع

ومنه من يرى الفضل فى قرب الكلام وصحة سبك وعذوبة لفظه وكثرة
مائه ورونقه ، فيفضل النابغة الذبياني فى الجاهليين ، والخنساء فى المخضرمين
وعمر فى الإسلاميين ، وابن المعتز فى المولدين ، والشاب الظريف فى المتأخرين
ومنه من يراها فى الصنعة ، والخصى على المعاني والاختراع ، فيفضل زهير
ومسلم بن الوليد ، وأبا تمام ، على غيرهم من معاصريهم ، وطائفة تحسّم
على الكلام بأثره فى نفس السامع ، وهم أهل الفطرة ، والراسخون فى الأدب

(١) استعبر جرت عبرته وحزن (٢) انفاذا : فتحاتها

(٣) الفارغ المرتفع الظاهر الحسن (٤) كشم أنفه أى قطعه

البعيدون عن الهوى . وهؤلاء قلما يمدحون إلا كلام الوالدين من العشاق
والمفجعين بالشكل والمصائب ، والناهضين بالإصلاح في الأمم من الحكماء ،
لأن كلام هؤلاء يخرج من قلوبهم ، فيقع في قلوب الناس ، فإذا سمعوا مالك
ابن الريب يرضى نفسه ، ويذكر مرضه ، وغرته بخراسان شاركوه في مصابه
وتوجعوا لبلائه ، وذلك قوله :

تذكرت من يبكى على فلم أجد سوى السيف والرح الرديني باكيا
وأشقر محبوبا يجر عنانه إلى الماء لم يترك له الموت ساقيا
فيا صاحبي رحلي دنا الموت فانزلا برأية لاني مقيم ليااليا
ولا تحسداني بارك الله فيكما

من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا
خذاني فجرائي ببردى إليك فقد كان قبل اليوم صعبا قياديا
وقد كنت عطافا إذا الخيل أدبرت سريعا لدى الهيجا إلى من دعائيا
يقولون لا تبعد وهم يدفنونني وأين مكان البعد إلا مكانيا
غداة غد يا لطف نفسي على غد إذا أدلجوا عني وأصبحت ثاويا
ويعجبهم شعر ابن الدبينة وخاصة إذا سمعوه يقول :

ولو أني أستغفر الله كلما ذكرتك لم تكتب علي ذنوب
وإني لأستحييك حتى كأنما علي بظهر القيب منك رقيب
أر سمعوا علي بن الجهم ، وهو يقول في الاغتراب :

وارحمنا للغريب بالبلد النا زح ماذا بنفسه صنعنا؟
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده وما انتفعنا
أو سمعوا عروة بن حزام وهو يقول في ابنة عمه عفراء :

فقد تركتني ما أعي لمحدث حديثا وإن ناجيته ونجاني
كأن قطاة علق بجناحها علي كبدي من شدة الخفقان
(٢٨)

فياليت كل اثنين بينهما هوى من الناس والأنعام يلتقيان
أو سمعوا أبا العلاء يقبح جفء الإنسان للحيوان ، وقلة الشفة
عليه في قوله :

وبين بني حواء والخلق كلهم عداً فها هذا التخاذل والدخل (١)
هذه طائفة من وجوه التفضيل ذكرناها لتكون عنواناً لسواها ، وقبلها
تنحصر أذواق الناس وأهوائهم .

وكان السواد الأعظم من المفضلين متسرعين في الحكم جاثراً ، فقد يحكم
للشاعر بالسبق ، وهو لم ير من كلامه إلا القصيدة أو القصيدتين بما استجيد
من كلامه ، وقد يحكم على غيره بالتأخر عنه لأن الذي رآه من كلامه كان دون
الذي رآه من كلام السابق . ولو اطلع على كل ما قاله الشاعران وعلى أسباب
قولهما ، وقارن بين معانيهما المتحددة الموضوع ، وأساليبهما ، ومقدار تأثيرهما
بالحوادث التي قالها فيها الشعر . وحاذى البديهة بالبديهة . والروية بالروية ،
وعلم أن اللاحق لم يسرق من السابق ، ولم يخترع لنفسه اختراعه ، لعدل
عن حكمه ، ولما أطلق القول في التفضيل بل قال : فلان أشعر في قصيدة
كذا ومعنى كذا ، والآخر أجود في كيت وكيت من جهة المعنى أو الديباجة
أو حسن التصوير ، ولا يسوغ له أن يقول « أشعر على الإطلاق »
إلا بعد أن يستقرى المحاسن والمساوى ويقارن بين ما لكل من الشاعرين منهما ،
حتى إذا وجد أحدهما أنضر ديباجة وأبلغ معنى وأغزر فنونا وأحضر بديهة
وأقل سقطاً ، وأكثر غوصاً على المعاني ، وأجمل أخذاً وأوفر مادة ، حكم له
على الآخر حكماً يؤيده الدليل الصحيح ، والذوق السليم . لا كحكم كثير من
المفضلين الفضوليين . ومنهم جماعة من النحاة . عرضوا قوانينهم على بعض
الشعر الرائع كشعر النابغة فلم يتفق مع بعضها ، ففضوا من فضله ، ونسوا
أن قواعدهم محكومة بشعره ، لاحكمة عليه .

ومنهم آخرون حملتهم المعاصرة والمنافسة على الخط من شعر أقرانهم وقد
قدم في ذلك بعض المؤلفين ، فحاضوا في أقدارهم وهم لا يشعرون .
وقد ينتقد الحضري البدوي فيعييه لاختلاف الذوقين وربما كان البدوي
في باديته أشعر من الحضري في حضارته .

وعندي أن الاعرابية التي كانت تندب ولدها بريدا عند قبره فتقول :

هل خبر القبر سائليه أم قر عيننا بزائريه ؟
أم هل تراه أحاط علما بالجسد المستكن فيه ؟
لو يعلم القبر ما يوارى تاه على كل ما يليه
يا جبلا كان ذا امتناع وطود عز لمن يليه
ونخلة طلعتها نضيد يقرب من كف مجتليته
ويا مريضا على فراش تؤذيه أيدي ممرضيه
ويا صبورا على بلاء كان به الله يبتليته
يا دهر ماذا أردت مني أخلفت ما كنت أرتجيته ؟

أشعر من إبراهيم بن المهدي في رثاء ولده الذي مات بالبصرة وإن كست
الحضارة كلامه ثوبا مرقشا وذلك قوله من جيد قصيدته الطويلة :

كان لم يكن كالغصن في ميعه الضحى سقاء الندى فاهتز وهو رطيب
كان لم يكن زين الفتاء ومعقل النساء إذا يوم يكون عصيب
وريمان صدرى كان حين أشمه ومؤنس قهرى كان حين أغيب
وكانت يدي ملأى به ثم أصبحت بحمد إلهي وهي منه سليب
كظل سحاب لم يقم غير ساعة إلى أن أطاحت فطاح جنوب
أو الشمس لما من غمام تحسرت مساء وقد وات وحن غروب
سأبكيك ما أبكت دموعي والبكا بعيني ماء يا بني يجيب

ولا بد أن يكون الموازن من الذوق الصحيح والاطلاع الواسع ، محيطا
بكل ما قاله الشعراء ، بعيدا عن الهوى والتقليد ، دقيق النظر في المقابلة

بين المعاني والالفاظ ، فيوازن بين المفردات والأساليب والمعاني المخترعة وحسن الخيال وقبحه والبراعات والمخالص والمقاطع والأخذ والابتداع وأن يذكر تحليل كل تحسين أو تقبيح بما يقتضيه حتى يرسم للنظر ما يهوى له الحكم فلا يسهه قبل أن يأتي على آخر الموازنة إلا النطاق بالحكم قبل سماعه كما فعل أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الأمدى فى كتاب الموازنة بين أبى تمام والبحتري ، فإنه قال : لست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر لكنى أقارن بين قصيدتين من شعرهما إذا انفقتا فى الوزن والقافية وإعراب القافية وبين معنى ومعنى فأقول أيهما أشعر فى تلك القصيدة وذلك المعنى ثم أحكم أنت على جملة ما لكل واحد منهما إذا استطعت علما بالجميل والردى ، ثم ذكر مساوى الشعارين فسرد سرقات أبى تمام وإحالاته وغملته وساقط شعره وقبح استعاراته وتجنیه واضطراب وزنه ثم ذكر ما وجدته من ذلك للبحتري وقارن بين ما افتتحا به القول من الوقوف على الديار ووصفها والسلام عليها والدعاء لها إلى غير ذلك ونبه على الجيد وفضله على الردى . وبين علل ذلك .

ثم قال : وبقي ما لم يمكن إخراجه إلى البيان وهو ما لا يعرف إلا بالدربة ثم ضرب المثل بالفارسين والجاريتين تقساويان فى كل شيء . من الصفات الحسنة ومع هذا يفضل إحداهما على الأخرى المجربون ولا يستطيعون بيان ذلك ثم ذكر ميزان الموازنة وهو أن يكون الناقد من أصحاب الذوق السليم الخشوع على النظر فى الوجوه التى فضل بها الأئمة شعر أوس بن حجر على الدابة الجعدى مثلا فإن عرفها فضل على مقتضاها وحكم حكما مقبولا وإلا فحسبه أن يكون مع الجمهور .

أما فائدة الموازنات فتحصيل ملكة الأدب وصحة للنقد وكشف القناع عن المحاسن لتحذير ، والمقايح لتجنب . وكذا أن اللسان لا يمرن على النطق بالصواب إلا بالمحاكاة كذلك الذهن لا يمرن على الفهم الصحيح ولا يحول فى ميدان فسيح من المعاني ولا يقدر الأشياء قدرها إلا بالمقارنات

الكثيرة التي تمثل في النفس لكل شاعر صورة وتقرر له حكما غير مزعزع ولا مدافع . ولو أن المتقدمين عنوا بهذا الموضوع عنايتهم بسواه ، لما بقى كثير منا مضطربا مضطرا بهم إلى اليوم في منازل الشعراء ولعلنا نوفق إن شاء الله إلى مقدار صالح من المقارنات نبليخ به غايقتنا

وسلبداً ذلك بالموازنة بين زهير والأعشى لا تحادها في صفات كثيرة تجعل الموازنة صحيحة .

الموازنة بين شاعرين جاهليين

١ - تحدثنا عن الموازنة والموازنين وتمييز المقبول من آرائهم والمردود فيها وكيف تكون الموازنة صحيحة متقبلة . ومتى يصلح الموازن لتولي هذه الحكومة وأتينا على فائدة المقارنات بين الشعراء وأنها تضم إلى علم الأدب ملكة .

والآن نبدأ الموازنة بين زهير والأعشى على منهجنا من استيفاء ما للشاعرين ومقابلة كل بالآخر على وجه يجلي لكل منهما صورة بيذة ومنزلة معينة وزبماض علمينا الزمن فتركنا بعض الشيء مما يدركه الطالب وقد نكل إلى الذوق السليم مالا يقام البرهان عليه ولكن لا يفوتنا أن نعرض على القارىء ليحكم ذوقه كما حكمنا ولعله يرشد إلى ما لم نرشد إليه من وجوه التمهيل فقد يجيىء من عفو الخاطر مالا يجيىء من كد القريحة . وقد رأينا أن نمهد للموازنة بين هذين الشاعرين بذكر الصفات المشتركة بينهما والصفات الخاصة ليسكون ذلك أعون على الحكم الصحيح وبعد فنقول :

٢ - كلا الرجلين شاعر جاهلي مكثر مجيد متفنن محدود في الطبقة الأولى متكسب بشعره وإن كان الأعشى أكثر الحافا ونجعة في طلب رزقه . وهما محدودان من أصحاب المعلقات : زهير واحدة باتفاق الرواة والأعشى اثنتان لا ميتين أحدهما مرفوعة وهي التي قال في مطالعها :

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل؟
والثانية بحرورة وهي التي قال في مطلعها :

ما بكاء الكبير بالأظلال وسؤالي وما ترد سيؤالي
ولكن الرواة لم تنفق عليها فصاحب الجهرة عد الأخيرة من المعلقات
وغيره عد الأولى، ومن اللغويين من أسقطهما كما فعلوا ذلك في قصيدة
الناطقة الذياني إحداهما الرائية وهي التي أولها :

عوجوا فحيوا النعم دمنة الدار ماذا تحيون من نوى وأحجار؟
وأخراهما الدالية التي مطلعها :

يا دارمية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد
وكما اختلفوا في معلقة عنترة والحارث بن حلزة يشكرو

٣ — ويتخالف الشعراء في الملشأ والأخلاق فزهير رباه خاله بشاه
ابن الغدير في غطفان . وكان بشامة هذا شاعرا مجيدا غنيا حازما لا تبت
غطمان في أمر دونه ، ولا تصدر إلا عن رأيه . وقد روى زهير شعر
وحبب إليه القول ومهد له سبيله حتى فطق به صغيرا ، وقد ورثه من ماله
وشعره فذمها شغوبا بالشعر قليل الحاجة إلى التكسب به ، وقد كان مع هذا
أبوه شاعرا وكان كثيرا ما يختلف إليه ويعلمه ويستخبره ، وكانت اختا
سلمى والخنساء (١) شاعرتين ، وكان ابنه كعب وبجير شاعرين وكذلك
المضرب بن كعب

فبيت زهير بيت عريق في الشعر جاهلية وإسلاما وكان زهير في الجاهلية
سيدا كثير المال . حليها ، معروف بالورع . ولهذا كان يكره الهجاء
كرهاته الناسك الأثام ، وقد صرح مرة بهجاء قوم حصن في قوله :
قصيدة طويلة :

(١) الخنساء : هي غير السيدة تماضر أخت صخر

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء ؟
فان قالوا النساء مخبات فحق لكل محصنة هدا (١)
فأسف لذلك أسفاً شديداً وقال : « ما خرجت في ليلة ظلماء ، إلا خفت
أن يصيبني الله بعقوبته لطجائي قوما ظلمتهم » .

ولا كذلك الأعشى في هذا كله فقد كان خاله عبداً من خاعة وأبوه قيس
ابن جندل قتيل الجوع لم يكن له في قومه ما كان لأبي سدي وخاله وقد تيره
بذلك جهنم أحد معاصريه من شعراء قبيلة قيس بن ثعلبة فقال :

أبوك قتيل الجوع قيس بن جندل وخالك عبد من خاعة راضع
فدشاً في اليمامة نشأة غير المياسير ، وأخذ في الزاني إلى هودة بن علي
صاحب اليمامة ببعض المدائح فيه حتى قر به منه ، ثم جعل الشعر متجراً ثم
اقترب من بني عبد المدان بنجران ، فأجزل لهم الثناء ، وأجزلوا له المعطاء ،
ثم وفد على ملوك الحيرة ، ومدح الأسود بن المنذر أخا النعمان ، وما زال
ينتجع البلاد متكسباً بشعره ، حتى وفد على ملوك فارس ، ولهذا كثرت
الفارسية في شعره ، من أسماء الأشربة وآلة الملاحى ، كالنأسى والبربط (٢)
وغيرهما ، وكأسماء الأزهار في قوله :

لها جلسان عندها وبنفسج وسيسنبر المرزجوش منمنها (٣)
وآس وخيري ووردوسوسن يصبحن في كل دجن (٤) تغيا (٥)

(١) الهداء زفاف العروس إلى زوجها ، ومعنى البيت : إنني حصن إن قالوا :
« نحن النساء مخبات » يجب أن يزفن إلى أزواجهن وهو كلام في غاية التحقير .

(٢) البربط العود ، أعجمي ليس من ملاحى العرب ، وقد عر بته حين سمعت به

(٣) المنمنم المصغر الورق

(٤) الدجن : ظلام الغيم في اليوم المطير

(٥) تغيم كان ذا غيم . الجلسان والبنفسج والسيسنبر والمرزجوش والآس

والخيري والسوسن : كل هذه ضروب من الرياحين .

وقد سمعه كسرى يوما يتغنى بقوله :

أرقت وما هذا السهاد المأورق وما بي من سقم وما بي تعشق؟

فقال « ما يقول هذا العربى » فقالوا : يتغنى بالعربية فقال : فسروا قوله ، قالوا : زعم أنه سهر من غير مرض ، ولا عشق ، قال « فهذا الصبي » ، وعندى أن هذا من قصور المترجم وسوء فهم من ترجم له ، فإن الشاعر أنكر على نفسه هذا السهاد ثم بين سببه بعد ، على أن أسباب السهاد لم تنحصر في السقم والعشق واللصوصية حتى يتم ما فهمه كسرى .

ومن هنا تعلم مقدار مصيبة الأمام بالتراجمة ، وخاصة مصيبتنا بضماهم اليوم ، وهم ألسنتنا عند السياحين وغيرهم ، من لا يباليون أن يأخذوا عليهم بنا من أفواه هؤلاء الجملة ، المتصدرين للإرشاد .

ولقد كانت خاتمة مطافه ، أن قصد النبي صلى الله عليه وسلم . ومدحه بالدالية التى طالعها :

ألم تفتنمض عيناك ليلمة أرمد (١) وبت كما بات السليم مسهدا ؟
وايكنه طمع فى جائزة قریش (٢) فأخذنا ورجع أدراجه فما كاد يبلغ
بلده منفوحة باليامة حتى رى به بعيره فقتله ، ولقد صدق فى صفة نفسه وطلبه
للمال كل حياته بقوله فى آخر قصيدة رويت عنه :

وما زلت أبغى المال مذ أنا يافع وايدا وكهلا حين شبت وأمردا
وقوله فى أخرى :

وطوفت للمال آفاقه عمان فخص فاوريشلم
أتيت النجاشى فى داره وأرض النبط وأرض العجم

(١) أرمد الرجل : افتقر أو أجذب وهلك موأشيه

(٢) جائزة قریش مائة من الإبل جعلوها له على أن يعود عن قصده النبي صلى الله عليه وسلم وينظر سنة ، وبعد ذلك يكون مع الغالب

فنجران فالسرو من حمير فأى مرام له لم أرم
ولهذا لم يكن يتخرج من الهجاء المقذع (١) ، وقد بلغ من أمره أنه كان لا يهجو
أحدا إلا وضعه ، ولا يمدح أحدا إلا رفعه ، وقد سمته العرب صناعتها لجودة
شعره أو لغنائهم به ، أو لأنهم شبهوه بالصنّاج ، وهو الضارب بالصنّج ، وهى آلة
بأوتار يضرب بها فيجتمع الناس لسماع شعره كما يجتمع العرب على الصنّاج ،
ويرجع هذا ما كان له من المشاهد فى عكاظ . وإلى هنا فقد عرفنا حال
الرجلين نشأة وأخلاقا . فلنبدا فى موازنة شعريهما .

٤ - وأجود ما قال زهير فى المدح قوله :

قد جعل المبتغون الخير فى هرم والسائلون إلى أبوابه طرقا
إن تلقى يوماً على علاته هرها تلقى السباحة فيه والندى خلقا (٢)
لو نال حى من الدنيا بمنزلة وسط السماء لالت كفه الأفقا
وقوله :

متصرف للمجد معترف (٣) للنايات يراح للذكر
جلد يبحث على الجميع إذا كره الظنون جوامع الأمر
فلأنت تفرى (٤) ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفرى
والستر دون الفاحشات وما يلقاك دون الخير من ستر
لو كنت من شىء سوى بشر كنت المنور ليلة البدر

(١) المقذع : المملوء شتائم ومكروها

(٢) أى أن تلقه على قلة ذات يده تجده سمحا نديا فكيف به على غير الملات

(٣) المتصرف : الصابر

(٤) تفرى : تبعد . وتخلق : توجد ، والمعنى : ولأنت توجد فتباعد ، وبعض

القوم لا يباعد فيما يوجد

وقوله :

على مكثريهم رزق من يعترهم وعند المقلين السباحة والبذل
وما يك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل
وهل يثبت الخطي إلا رشيجه (١) وتغرس إلا في منابتها النخل

وقوله :

فلو كان حمد يخلد الناس لم تمت ولكن حمد الناس ليس يخلد
وقوله :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم لأولهم أور مجدهم قعدوا
جن إذا فزعوا إنس إذا أمنوا مرزءون بهاليل إذا قعدوا
وقال الأعشى في مدح المخلق :

أبا مسمع سار الذي قد فعلتم فأنجد أقوام به ثم أعرقوا (٢)
لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمخلق
رضيحي لبان ندى أم تحالفا بأسحم داج عوض لا تنفرق
وقال :

ما النيل أصبح زاخرا من مده جاءت له ريح الصبا فجرى لها
يوما بأجود نائلا منه إذا نفس البخيل تجهمت لسؤالها
وقال :

ولو أن عز الناس في رأس صخرة مليلة (٣) تعي الأبى الخدما
لأعطاء رب العرش مفتاح بابها ولولم يكن باب لأعطاء سلما

(١) الخطي الرمح نسبة إلى الخط وهي جزيرة بالبحرين، والوشيج: القنا الملتف

(٢) أنجدوا : ذهبوا إلى نجد ، وأعرقوا : ذهبوا إلى العراق

(٣) المللم : المجتمع المدور المضموم

فما نيل مصر إذ تسامى عبابه ولا بحر بانقيا إذ أراح مفعها
بأجود منه نائلا إن بعضهم إذا سئل المعروف صد وججها (١)
وقال :

لا يرقع (٢) الناس ما أوهى وإن جهدوا
أن يرقعوه ولا يوهون ما رقعا
غيث الأرامل والأيتام كلهم لم تطلع الشمس إلا ضرا ونفعا
وقال :

المهينين ما لهم في زمان السوء حتى إذا أفاق أفاقوا
وقال :

فرع نبع يمتز في غصن المجد عظيم الندى كثير الجمال (٣)
وقال :

قبل امرئ طلق اليدين مبارك ألنى أباه بنجوة فسما لها
هذا أجود ما رأيت من مدائح الرجلين ، وكل منهما انفرد بهما ،
لم يشاركه فيها صاحبه . فأما زهير فقد انفرد بكل معانيه ، في الآيات
المختارة ما عدا قوله :

من يلق يوما على علاقته هرما يلق السباحة فيه والندى خلقا
وقوله :

وما يك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل
فإنه شارك فيهما الأعشى في قوله : المهينين ما لهم الخ ، وقوله : قبل
امرئ الخ ، وقد قصر الأعشى عن زهير في هذا المعنى فإن الأعشى قال

(١) ججها : لم يقدم

(٢) يرقع الثوب ونحوه يلحم خرقه ، وأوهاه خرقه أوهياه للتخرقق

(٣) الجمال الدية ، يحملها قوم عن قوم

« إنهم يهيشون ما لهم في زمان السوء حتى إذا ما أفاق الزمان أفاقوا من إهانة المال » ، ولكن زهيراً قال « إن الذي يلقي هرماً على قلة ذات يده في أى وقت كان يلقاه سمحاً جواداً يصد عنه الجود والسماح . صدور الغرائز ، فما بالك به أيام الرخاء . وسعة العيش » ، فزاد في المعنى زيادة رائعة ، ولم يقيد بقيد الأعشى الذي جعل يديه لا يسير كما سار بيت زهير .

فأما البيت الثانى : فإن معنى الأعشى فيه أجود لأنه بين أن الممدوح سما بنفسه إلى المنزلة العالية التى كان فيها أبوه ، فأثبت أنه عمل للمجد حتى بلغه ، وقد مهد لذلك بقوله « طلق اليدين مبارك » .

وأما زهير فقال إن خير الممدوح موروث فأثبت له الحسب ولم يشر إلى أنه فى جد بلوغ ما هو فيه ، على أن قوله « أبوه » قد يشعر بأنهم جادون ولكن ذلك محتمل لا مقطوع به كما فى بيت الأعشى .

ه — هذا وبقى أن نقارن بين المعانى الرائعة مما اخترنا من شعر الشعاعين فنقول ليس للأعشى إلا معنيان رائعتان أحدهما قوله « لم تطلع الشمس إلا ضر أو نفعاً » فإنه معنى ضخم فى لفظ نخم مهد له بالبيت قبله وهو قوله :

لا يرقع الناس ما أوهى وإن جهدوا أن يرقوه ولا يوهون ما رقما

فأحكمه أيما إحكام ، ووضعه موضع النتيجة من المقدمات الصحيحة ، والثانى قوله « وبات على النار الندى والمخلق » فإنه من أبدع الكنايات عن وصف المخلق بالسكرم وقد مكنتها فضل تمكن وزادها حسناً بقوله بعد :

رضيمى لبان ندى أم تحالفا بأسهم^(١) داج عوض لا تنفرق

فإذا كان المخلق قد ارتضع هو والندى من ندى أم واحدة ، وتحالفا بعد على الاصطحاب بما يخالف به من يبيع نفسه للدفاع عن بيضة قومه فيغمس يده فى الدم ليستحق إهراق دمه ، وإن كانت يمينه غموساً . إذا

(١) الأسهم الدم نغمس فيه أيدي المتحالفين

كان المحلق هو والندى كذلك كان الندى فطريا فيه ؛ لا يفارقه حتى عسرتة ،
أو تفارق بنفسه جسمه .

أما زهير فله كناية لا تنقص عن هذه معنى وتزيد عنها رشاقة وعبارة
وهي قوله :

لو كنت من شيء سوى بشر كنت المنور ليلة البدر
فإنه صدر الكلام بلوهي من مقربات المبالغة ومحسناتها ، ثم جاء بما يفيد
أنه خير من البدر ليلة تمامه بأبدع كناية وهي قوله « كنت المنور ليلة البدر »
لأن نوره غلب على نور البدر فلا يظهر البدر منه إلا كما يظهر من النجم في
رائحة النهار ، وهذا معنى دقيق في لفظ وجيز رشيق .

وقد جاء زهير بما لم يحمى به سواه من شعراء الجاهلية والإسلام فيما علمت
وهو قوله « كانك تعطيه الذي أنت سائله » وقوله :

جن إذا فزعوا إانس إذا أمنوا مرءون بها إيل (١) إذا قصدوا (٢)
فإن الأولين في المدح بالجد ، غاية لم يبلغها سواه ، وأما الثالث فله روتان
لفظية ومعنوية ، فأما اللفظية فهي المقابلات البديعة ، والتقاسيم المحكمة ، وأما
روعة المعنى ، فلما تراه فيه ، من غرر الأخلاق ، التي هي لباب ما ينتهي إليه
عقل العاقل ، وحكمة الحكيم ، إذ أراد أن يختار لنفسه ما أشرف الفضائل
ومن أعلى الكنايات عن الحمد قوله :

فلو كان حمد يخلد الناس لم تمت ولكن حمد الناس ليس بمخلد
وهذا وما تقدم لا نظير له في كلام الأعشى ، على أن زهير في المديح
مختارات كثيرة لا تكاد تبعد عما ذكرنا . وقد استقرت كلام الأعشى
في المديح فما رأيت يعلو إلا على سبيل الندور ، ولهذا : كان زهير أمدح ،
وهو في مدحه أصنع .

(١) البهلول السيد الجامع لسكل خير

(٢) زيروى : جهدوا ، من جهد عيشه كاستعب نسكد

٦ — وأجود نسيب زهير مطلع القافية التي مدح بها هرما وأباه وإخوته
وقد غنى به وهو قصيدته :

إن الخليط (١) أجداً بين فأنفرقا وعلق القلب من أسماء ما عاقما
وقوله من قصيدة يمدح بها سنان بن أبي حارثة المري :
وقد كنت من سلمى سنان ثمانيا على صير (٢) أمر ما يمر وما يحلو
وكنت إذا ما جئت يوم الحاجة مضت وأجبت حاجة القدماء مخلو (٣)
وكل محب أحدث النأي عنده سلو فؤاد غير حبك ما يسلو
وقوله :

قف بالديار التي لم يعرفها القدم بلى وغيرها الأرواح والديم
كأن عيني وقد سال السليل (٤) بها وعبرة مام لو أنهم أم
غرب (٥) على بكرة أولؤ قلق في السلك خاز به رباته النظم (٦)
وقال الأعشى :

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وذاعا أيها الرجل ؟
غراء فرعاء مصقول عوارضها
تمشى الهويناء كما يمشى الوجى الوجى
علقتها عرضاً وعلقت رجلاً غيرى وعلق أخرى غيرها الرجل
وعلقتني أخرى ما تلامنى فاجتمع الحب حب كله تبل (٧)
فكلنا مغرم يهذى بصاحبه ناء ودان ومحبول ومحتبل (٨)

-
- (١) الخليط : المخاطب (٢) الصير : الطرف
(٣) أجبت : دنت أى متى انقضت حاجة دنت حاجة
(٤) السليل : واد . وما زائدة ، والمعنى هم عبرة لى لو أنهم قرييون فما حالى
على البعد (٥) الغرب : الدلو (٦) النظم : جمع نظام
(٧) تبل : سقم
(٨) المحبول : الذى نصبت له الحباله وهى ما يصاد بها والمحتبل الذى أخذ فيها

وقال :

وأذكرتني وما كان الذي نكرت منى الحوادث إلا الشيب والصلما
والناظر إلى غزلها يرى بينهما فروقا .

الأول : أن غزل الأعشى في سهولة لفظه ، وخفة روحه أحب
من غزل زهير .

الثاني : أن المعاني النابهة في كلام الأعشى أكثر منها في كلام زهير على
أنه ليس في كلام زهير جميعه ما يعادل قول الأعشى « وأنكرتني - البيت ، لأنه
معنى نادر يحمى . مثله للفطرين ، وقدما يوفق له المذكفون .

الثالث : أن الأعشى لم يشغل نفسه بوصف الديار ورحلة الراحلين ،
ولم يملأ كلامه بالامكنة ومحاط السفر كما فعل زهير في مطلع معلقته بل تشغله
وصف صاحبته بالوقار والعفة والأمانة ، وكال الزينة ، وطيب الرائحة ،
ثم وصف حال المحبين من توزيع أهوائهم ، على من لا يحبونهم . ثم
ما يصير اليه أمرهم بعد هذا .

الرابع : أن الأعشى أغزر مادة من زهير في هذا الباب ، والظاهر أن
زهيراً لورعه كان يتغزل على طريقة الشعراء ، ولم يكن هو عاشقاً . أما الأعشى
فقد كان يعاقر الراح ، ويقاذل الملاح ، خصوصاً أيام أعياد نجران وفي أيام
الاحاد حينما كان يقول :

نازعتهم قنصب الريمان متكئاً وقهوة مزة راووقها خضل
أما زهير فليس في المختار من غزله أجود من قوله :

وقد كست من سلبى سنين ثمانيا على صير أمر ما يمر وما يحلو
وقوله :

وفارقتك برهن لا فكاك له يوم الوداع فأمسى الرهن قد غلقا
ومعنى الأول : أنه كان من حبه ثمانى حجج على طرف في منزلة بين

المرواحلو إذ لا يأس ولا وصل وهو معنى حسن لكنه يجرى مثله في
متعارف الناس ومتناول المحبين من عامتهم ،

وأما الثاني وهو رهين القلب عندها فإنه ليس شيئاً ذاتدا على أصل
الحب الصحيح وليس أمره فيه يُبدع هذا مع غض النظر عن التكرار في
قوله (لا فكاك له) وقوله (فأسمى الرهن قد غلقا) واستعماله عبارات .
هي بكلام الفقهاء أشبه منها بكلام الشعراء .

والأمر العجيب أن زهيرا على ورعه يشبه ريق صاحبتة بعد النوم
بالخمرة الممتلئة . ولا أدري : أهو على تقواه يستطيق راحتها . والأعشى
على تهتكه يشبه أنفاس صاحبتة بأنفاس الرياض . وما كان أخرى كلا
أن يكون محل الآخر في ذلك ولكن خطرات الشعر لا تنقيد بحال الشاعر
الخامس أنه ليس في كلام الأعشى شيء من التعميد ولا المبالغة المردودة
كما في كلام زهير في قوله :

كأن عيني وقد سال السليل بها وعبرة ما هم لو أنهم أمم
غرب على بكرة أو لؤلؤ قلق في السلك خان به رباته النظم
فإن عجز البيت الأول . لا يفهم إلا بعد أن تتأمل في « ما » لتعرف أنها
ذائدة وفي عبرة لتعرف أنها خبر مقدم وتبصر في جواب لو . والمعنى وهم
حزن لي لو أنهم قريبون فما حالي إذا كانوا بعيدين . وفيه عيب آخر
وهو تعليقه على الثاني ، وأما المبالغة المردودة في الثاني فهي تشبيه عينه
بالدلو على البكرة من غير أن يقول هذا التشبيه مما يقرب المبالغة فيه ،
ولكن لا يخفى حسن التشبيه الذي هو قوله « أو لؤلؤ قلق في السلك »
فإنه في غاية الإحكام ، لأن وقوع حبات اللؤلؤ من النهر لا يسكاد يفترق
عن وقوع ماء الشؤون من العيون .

وإلى هنا عرفنا أن الأعشى أغزل وأطبع .

٧ — وللشاعرين حكم كثيرة :

قال الأعشي في آخر عمره من القصيدة التي مدح بها النبي صلى الله عليه وسلم :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقي	ولا قيمت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثل	وترصد للأمر الذي كن أرصدا
فإياك والمينات لا تقربنها	ولا تأخذن سهما حديدا لتقصدا
وإذا النصب المنسوب لا تقربنه	ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا
وإذا الرحم القربى فلا تقطعنه	لما قبة ولا الأسير المتيدا
ولا تسخرن من بائس ذي ضرورة	ولا تحسبن المال للمرء مخلدا

وقال :

فإن القريب من يقرب نفسه لعمر أهلك الخير لا من نلها
وقال زهير :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه

يفره (١) ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يك ذا فضل فيمخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن هاب أسباب المنايا بفلانه وإن يرق أسباب السماء بسلم
ومن يجعل المعروف في غير أهله يكن حمده ذما عليه ويندم
ومن لم يزد (٢) عن حوضه بسلاحه

يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يعترب بحسب عدوا صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
وكان ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التسكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

(١) يفره : يكرهه أو يحفظه (٢) أى من لم يحرم حريمه ضاع

زهرير هنا أكثر حكمة ، وأغزر مادة ، وأشد غوصا على المعاني
الآخذة بالنفس ، والرأى الذى لا أظن أنى أخالف فيه أن زهير هنا أشعر
من الأعشى ، وإنى تارك تعليل ذلك للذوق السليم للصعوبة وإن كان لظهوره
ظهورا بينا .

٨ - وللأعشى فى الفخر والحماسة الكثير من الجيد الرائع وليس لزهير
فيها نصيب يذكر ، وأما الأعشى فله منها حظ وافر ، من ذلك قوله :

وإن منيت بنسا فى كل معركة لا نلعلنا عن دماء اقوم نتقتل
قالوا انطراد فقلنا تلك عادتنا أو تنزلون فإننا معشر نزل
قد نخب العير من مكنون نائله وقد يشيط على أرماحنا البهال

وله من مثل هذا كثير ، وقد تصفحت شعر زهير فما وجدت له إلا بيتا
واحدا يشبه هذه الأبيات وهو قوله :

قد أتيتك القرن مصفرا أمامه يمد فى الرمح مبد الماتح (١) الأسن (٢)

٩ - ولم أر الشعراء اشتراكا فى شئ من الأوصاف اشتراكهما فى صفة
الصيد . قال زهير فى ذلك قصيدته :

إذا ما غدت ما نبتقى الصيد مرة متى نره فإننا لا نختاله (٣)
وقال الأعشى فى ذلك أيضاً قصيدته :

واقعد أغتدى إذا صقع (٤) الديك بمهر مشذب (٥) فقال

فإذا قطعنا النظر عن بقية أوصاف الأعشى فى غير هذا الموضع من نعت
القصور والقلاع والليل والنهار ومجالس اللهو ، وتفوقه فيها على زهير وجعلنا

(١) الماتح : الداخل فى البئر ليلا الدلو لقله مائها (٢) الأسن : المتغير

(٣) أى لا نسارقه بل نجاهره لو ثوقنا بجودة فرسنا

(٤) صقع الديك : صاح

(٥) المشذب : قليل اللحم

وصفه الاصطياد يازاء وصف زهير له ، لانجد مندوحة من أن نقول إن
الأعشى أحكم في وصفه وأدق ، فإنك تجده قد بدأ الأمر من أوله من حين
صياح الديك إلى آخره من الأكل والسماع والشراب ، ولا نجد ذلك
في كلام زهير فإنه وقف بالوصف عند اصطياد الحمار ، ثم إن جواد زهير
آياته عاريا هو وعلامه من شماسه وعدم خضوعه ثم لما تم له أن يركبه غلامه
هوى به إلى حيث لا يعرف النجاة ، ولا كذلك جواد الأعشى الذى قال فيه
في إجادة وبراعة :

جواد يملأ العين عاديا ومقودا ومعرى وصافنا في الجلال
ثم إذا نظرنا إلى ما اتحدا فيه من تشبيه الحصان عند كرهه على الصيد فرى
أن تشبيهه الأعشى مصور للمشبه حتى كأنه رسمه وذلك قوله :

فجرى بالغلام شبه حريق في يابس تذروه ريح الشمال
فقد اطلعنا على لون الحصان وأنه لا يرى على الأرض وأنه يسرع إسراع
ريح الشمال في اليبس . وأما زهير فإنه شبهه بالدفعة من المطر فلم ينظر إلا إلى
السرعة ، ومع هذا لم يكن جواده في الإسراع بالاصطياد كجواد الأعشى . ولا
ما قصه كذلك فإن الأعشى يقول :

لم يكن غير لمحة الطرف حتى كب تسمما يعتامها كالمغالي
وأما جواد زهير فلم تعرف مدة اصطياده ولم يصطد إلا حمارا واحدا
بعد أن أطل وصية غلامه ، هذا من جهة المعنى وأما من جهة الأسلوب فإنه
في كلام الأعشى أسلس وأحكم .

١٠ - ولولم يكن زهير ورعا لكان أهجى من الأعشى ولكن ورعه أبى
عليه أن ينطلق لسانه بالفاحشات ومخازى الناس ، ولهذا لم يهج إلا مرة واحدة
كما أسلفنا وقد كاد يذوب أسفا عليها ، ولكنه دل بهذه المرة على أنه ناضج
في هذا الفن لا ينقص عن درجة الدحول فيه ، ولولم يكن له منه إلا البيتان المنتقدان
لكفى ، فكيف به إذا كان له في باقى القصيدة شيء كثير ، لا يسكاد ينزل

غن درجتهما مثل قوله :

فلم أر معشرا أسروا هديا ولم أر جاز بيت يستبأ (١)
فملا آل عبد الله عدوا (٢) مخازى لا يدب لها الضرا (٣)
أرونا ستة لا عيب فيهما يسوى بيننا فيها السوا (٤)

وقد كان زهير هجا آل حصن لأن رجلا كان في جوارهم قامهم على ماله وأهله فقمر فأخذوا ماله وامرأته . وأما الأعشى فقد هجا كثيرين واستباح أعراض الناس لشهوات نفسه ولأوهى الأسباب ، ومن ذلك أنه كان معه جائزة من الأسود العنسي ، وكانت حللا وعنبرا ودهنا . فلما مر ببني عامر ضافهم عليها ، فأتى علقمة بن علاثة فقال له أجزني ، قال قد أجزتك . قال من الجن والإنس ؟ قال نعم ، قال ومن الموت ؟ قال لا ، فأتى ابن الطفيل فقال أجزني ، فأجاره حتى من الموت . فقال له الأعشى : وكيف تجيرني من الموت ؟ قال إن مت وأنت في جوارى بعثت إلى أهلك الدية ! قال الآن علمت أنك قد أجزتني من الموت . فمدح عامرا ، وهجا علقمة . فقال علقمة : لو علمت الذي أراد كنت أعطيته إياه ، فانظر كيف هجا شخصه أراد أن يجيره من الجن والإنس ، ولم يأب عليه إلا الإجارة من الموت الذي لا يجار منه أحد ، ولم يفهمه الأعشى مراده ، وأخذ يقذع في دهجائه بلا سبب صحيح ويقول :

تيفتون في المشتى ملاء بطولكم وجاراتكم غرثي يبتن خائضا
كلا أبويكم كان فرع دعامة ولكمهم زادوا وأصبحت ناقصا
فمض حديد الأرض إن كنت ساخطا بفيك وأحجارا كلاب الروادها (٥)

(١) أي تؤخذ زوجه أو يقتل . والهدى : الرجل ذو الحرمة

(٢) أي انركوا مخازى لا يخفى أمرها

(٣) الضراء ما توارين به من شجر والمعنى مخازى لا يطامع في سترها

(٤) أي أروني طريقة لا تعاب عليكم تدوى بيننا في الحق

(٥) يقال رمص الحائط إذا دمه

هذا ولا أحب أن أكثر من ذكر الهجاء وإنما أقول إن الأعشى فيه أكثر قولا ، وإنه ينعت الناس بما ليس فيهم ، وإن زهير أقل قولا ، وأشد على المعنى غوصا ، ولا ينعت أحدا إلا بما هو فيه ، ولم أر في كل ما قرأته للأعشى من الهجو أنطح من قوله :

تبدتون في المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يتن خنائها
وهو دون قول زهير :

فلم أر معشرا أسروا هديا ولم أر جارا بيت يستبأ
والهدى : الرجل ذو الحرمة وهو المستجير بالقوم ، الم يجر أو يأخذ عمدا .
فإن أخذ العهد وأجير فهو حينئذ جار .
فالأعشى وصف قوم علقمة بأنهم لامروءة لهم لتركهم النساء الجارات
جائعات في وقت لا كسب لهن فيه ، وهم ملاء البطون لا تعطفهم رحمة ،
ولا تأخذهم شفقة .

وزهير يصف آل حصن بأنهم يأسرون المستجير بهم ، ويستبيحون
حرمة ، ولكن لفظ الأعشى في بيته أرق ، وأسلوبه أعذب ، وتأثيره في النفس
أشد ، ولهذا أرى أنهما يتعادلان في هذا الفن .

١١ - ولا مجال للمفاضلة في الخريات ومجالس الشراب . فإن الأعشى
فيها ابن بجدتها ، وهو في الجاهليين كآبي نواس في الإسلاميين ، وقد سد هذا
الباب على زهير ورعه .

وأما الأعشى فإن شيطانه لم يكتف بفتح الأبواب له بل كسرهما فمكان
كل حياته يشرب ويطرب بمثل قوله :

من نخر عانة (١) قد أتى لختامها حول تسل غمامة المازكوم

(١) عالة : بلدة على القنات ينسب إليها نوع من الخمر الجيدة .

وقد تفنن في وصف الخمر والكأس والساق والنديم والمطرب . فن
ذلك قوله :

وكأس كعين الديك باكرت خدرها
بفتيان صدق والنواقيس تضرب
سلاف كأن الزعفران وعندما يصفق في ناجوردا ثم يقطب
لها أرج في البيت عال كأنه ألم به من بحر دارين أركب (١)
إلى غير ذلك مما قاله في الخمر ؛ ولا محل لرواية أجود ما قيل فيها .

١٢ - وللموازاة بين الشاعر في مطالع القصائد نذكر بعض مطالع
قصائد الأعشى ، قال :

- ١ - ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي وما ترد سؤالي ؟
- ٢ - ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطبق وداعا أيها الرجل ؟
- ٣ - أرقى وما هذا السهاد المورق وما بي من سقم وما بي تمشق ؟
- ٤ - ألم تغمض عينك ليلة أرمدا وعادك ما عاد السليم مسهدا ؟
- ٥ - رحلت سمية غدوة أحمالها غصبي عليك فما تقول بدالها
- ٦ - شافتك من قتلة أطلالها بالسفح فالخبتين من حاجر
- ٧ - ألا قل لثيا قبل مرتها اسلمى تحية مشتاق إليهما مسلم
- ٨ - ألم خيال من قتيلة بعد ما وهي حبلى من حبلى فتصرما
- ٩ - أنرحل من ليلي ولما تزود وكنت كمن قضى اللبانة من دد

ومن مطالع قصائد زهير ، قوله :

- ١ - أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتشم
- وقوله :
- ٢ - لمن طلل برامة لا يريم عفا وخلاله حقب قديم
- وقوله :

(١) الأركب : واحد مراكب البر والبحر .

٣ - عفا من آل فاطمة الجواء فيمن فاقوا آدم فالحسنا (١)
وقوله :

٤ - صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلمو

وأقفر من سلمى التعانيق فالثقل (٢)

٥ - صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعرس أفراس الصبا ورواحله (٣)

٦ - لمن الديار غشيتها بالدفند كالوحي في حجر المذيل المخلد

٧ - غشيت ديارا بالبقيع فتهمد درارس قد أقوين من أم معبد

٨ - إن الخليط أجد البين فانفرقا وعلق القلب من أسماء ما علقا

٩ - إن الخليط أجد البين فانجردوا وأخلفوك عدالمر الذي وعدوا

فبين مطالع الرجلين فروق ظاهرة : الأول : أن مطالع زهير مكررة المعاني فإن الأول منها والثاني والرابع والخامس والتاسع في السؤال عن الطلل والسابع والثامن في سلو قلبه عن صاحبه ، والحادي عشر والثاني عشر في سفر صاحبه ، وأنها نوت ألا تصله ، والعاشر مطلع تافه ، وأما الثالث فغير مكرر ، وهو متوسط الجودة . . الثاني : أن مطالع الأعشى أشد تأثيراً في النفس ، وأنها : أغزر معنى ، وذلك أما لو قارنا مطلع الأعشى الأول وهو قوله :

ما بكاه الكبير بالاطلال وسؤالي وما ترد سؤالي

بأحسن مطلع لزهير وهو أول معلقته لرجح الأعشى رجحاناً عظيماً فإن الأعشى أنكر على نفسه وقوفه بالاطلال وهو كبير ، وكذلك سؤال الخوالد التي لا يبين كلامها كما قاله ابيد ، فأثبت أنه بكى وأنه سأل الطلل لدهشته ، فلما لم يجبه ، ورأى من نفسه شيخاً عاشقاً يسأل سؤال الخرق ، أنكر ذلك على نفسه ،

(١) الجواء : ما انحدر من الأرض ويمن والقوادم والحساء مواضع في بني غطفان

(٢) مرضعان (٣) أي عريت أفراس الصبا ورواحله التي كنت أركها للهي

وأما زهير فلم يزد على أن قال : هل هذه الدمنة التي لا تبين من منازل أم أوفى ؟
وهذا السؤال من شأنه أن يحجى ، عند كل من عرف أم أوفى ، وكان مارا
بأطلالها سواء أكان محبا أم غير محب ، فليس في مطلعته شيء يحلى ما عنده
من الشوق ويقف في مصاف العشاق ، وقد تكرر هذا المعنى منه في المطالع
من غير أن يزيد عليه شيئا ، وليس له مطلع ما بكى فيه أو أنكر على نفسه البكاء
ولا كذلك الأعشى .

وكذلك لا نجد نظيرا من كلام زهير لمطلع الأعشى في الوداع خصوصا
قوله « وهل تطيق وداعا أيها الرجل » .

وأما زهير فإنه قال في مطلعين : إن الخليط أجده البين ، ولم يذكر أنه هم
بتوديعه أو خشى وقفة الوداع فوجهم منه كما فعل الأعشى .

نعم إن زهيراً له مطلع واحد يتفوق فيه على الأعشى في نظيره ،
وذلك قوله :

صح القلب عن سلبى وأنصرباطله وعرى أفراس الصبا ورواحله
وقول الأعشى :

صح القلب عن ذكرى قتيلة بعدما يكون لها مثل الأسير المكبل

فإن في بيت زهير استعارة حسنة ، وزيادة بديعة ، لم يقع مثلها للأعشى
في بيته ، ولعل الأعشى كان على نية أن يهود ؟ فلم يؤكد كما أكد زهير
في تعربة أفراس الصبا ورواحله ، التي كان يركبها للهو ، ويؤيد هذا
قوله في مطلع آخر :

ألم خيال من قتيلة بعدما وهى حبلها من حبلنا فتصرما

فالأعشى أنسخ في مطالعه ميدانا ، وأكثر تفننا ، ألا تراه ذكر
الخيال وإمامه بعد الانصرام في هذا المطلع ، والشوق والتسليم في مطلع
آخر ، وهو قوله :

ألا قل لتيا قبل مرثا أسلى تحية مشتاق إليها مسلم

وإنكاره اتخذ الزاد قبل الراحلة في قوله :

أترحل من ليل ولما تزود وكنت كمن قضى اللبانة من دد
فظهر أن الأعشى في المطالع يتفوق على زهير في كثرة تفننه وروعة
معانيه وسهولة أسلوبه .

١٣ - أما من حيث المخالص فإن أكثر مخالص زهير مقتضبة كما في
معلقته ، حيث انتقل من الكلام في الطعام إلى مدح الحارث بن حوف ، وهرم
ابن سنان فجأة . وأما الأعشى فأكثر مخالصه تكاد لا تستشعر النفس بانتقاله
إليها مثل قوله :

فأليت لا أرثي لها من كلالة ولا من حفي حتى تزور محمدا
نبي يرى ما لا ترون وذكره أغار لعمري في البلاد وأنجدا
ولا أطيل بإيراد أسرار الشواهد ، وإنما أقول : إذا كان انتقال الشاعر
من معنى لمعنى لمناسبة محكمة تسرق نفس القارىء من الأول إلى الثاني هو الأنضل
فالأعشى في هذا أمثل من زهير .

١٤ - وزهير أيسر أمثالا ، وأغزر حكمة ، ولا تكاد تجد مثالا للأعشى
مثل قوله : وإنما العزة للكاثر ، حتى تجد أضعافه لزهير مثل :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
ولولم يكن لزهير من ذلك إلا آخر معلقته لكفى .

١٥ - أما عن طبع الشعراء فقد رأيت اتفاق الرواة على هذه المسألة
في محله وهو أن زهيراً أصنع ، والأعشى أطبع ، وأذواق الناس في استحسان
أحد الوجهين مختلفة ، وأما أنا فإني ميال إلى الأطبع لأنه مقتضى الفطرة .
والخلاصة : أن زهيراً أيسر أمثالا ، وأغزر حكمة ، وأمدح وأصدق
وأصنع ، وأن الأعشى أغزل وأنخر وأوصف وأجود مطالع ومخالص ،
وأما الخمریات ومجالس الشراب والأنس فهو ابن بجدتها الذي لا يضارعه

في الجاهلية أحد فيما نعلم ، وأما المهجاء فالشاعران فيه سيان . وخلاصة ذلك كله : أن زهيراً تفوق في ثلاثة فنون ، والأعشى في ستة ، وأن روح الشعر في الأعشى أظهر منها في زهير ، وللقارىء أن يحكم بعد ذلك بما يشاء .

قصيدتان جاهليتان

- ١ -

أما الأولى فهي معلقة : عمرو بن كلثوم التغلبي الشاعر الجاهلي المشهور (٥٠٠ - ٦٠٠) ، ومطلعها :

ألا هي بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا
وأما الثانية فهي بحجرة أمية بن أبي الصلت :

عرفت الدار قد أقوت سلينا لزيبب إذ تحمل بها قطينا

والقصيدة الأولى ملحمة تاريخية تصور المجد القديم لتغلب قبيلة الشاعر ، وملاحمها الحربية التي انتصرت فيها على أعدائها ، وهي فريدة في نوعها ، فهي جدرة حقاً أن تسمى ملحمة ، لأنها تاريخ مفصل لقبيلة عمرو ومفاخرها وأيامها ، ومنها يوم خزاز الذي انتصر فيه كليب قائد التزاريين على اليمنيين ، وفيها تهديد لأعداء تغلب ، وتلبية للملك عمرو بن هند ملك الحيرة (٥٦٢ - ٥٧٩ م) كي لا يطيع بهم الوشاة أو يتحيز لبكر شقيقة تغلب ومزاحمتها في المجد والنفوذ والسلطان . . وقد بدأها الشاعر بوصف الخمر بما يعد ميزة فريدة لها ، ثم انتقل إلى موضوع القصيدة وهو الفخر ، وختمها بقوله :

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبتش حين نبتش قادرينا
ملأنا البر حتى ضاق عما وماء البحر نملؤه سفينا

إذا بلغ الرضيع انا فطاما تخز له الجبابر ساجدين
وأنت تعلم أن عمرو بن كلثوم ارتجى بعض مملقته أمام الملك عمرو بن
هند وهو الجزء الذى هدد فيه أعداء تغلب وحذر الملك من الاستماع لوشاة
والميل معهم على قومه ، ومنه :

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرتنا نخبرك اليقينا
بأنا بورد الرايات بيضا ونصدرهن حمرا قدروينا
ثم أكل القصيدة كلها ، وأنشدها فى سوق عكاظ ، وقد عدتها
تغلب سجل مجدها ونفارها فاعتزت بها اعتزازا كثيرا ، ويقال إنها أضافت
إليها الكثير ، حتى بلغت أبياتها نحو ألف بيت ، وقال بعض شعراء
بكر فيها :

ألهى بنى تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفأخرون بها مذ كان أولهم يا للرجال لفخر غير مستوم
وأما بجمرة أمية فقد تحدث فيها الشاعر عن مجد قبيلته « ثقيف » ،
وهى من أمهات القبائل العربية وصاحبة النفوذ والسلطان فى الطائف من بين
قبائلها ؛ ولم يبدأ بوصف الخمر كما فعل عمرو بن كلثوم بل بدأها كما يبدأ
الشعراء قصائدهم ، فذكر أطلال محبوبته « زيب » وعفاها ولعب الريح
المعصرات بها ، ثم انتقل إلى موضوع القصيدة وهو الفخر بمجد القبيلة وشرف
الآباء فقال فيها قال :

ورثنا المجد عن كبرى نزار فأورثنا مآثرنا البينينا
وكنا حينما علمت معد أقننا حيث ساروا هاريننا
وتخبرك القبائل من معد إذا عدوا سعاية أولينا
بأنا التازلون بكل نفر وأنا الضاربون إذا لقينا

إلى آخر ما ذكره من الفخر بأسرته وقومه ومجدهم ومنابتهم وما أرصده
لريب الدهر من الخيل والرماح والسيوف والشيب المجربين والشبان الأقوياء ،

ووراثتهم المجدد عن كبرى تزار إلى غير ذلك من مظاهر الكبرياء والعزة والسيادة التي أضافها أمية إلى قومه . . . ولا ندرى شيئاً عن التاريخ الأدبي للقصيدة ، وإن كنا نرجح أن الشاعر نظمها في مفاخرة من هذه المفاخرات التي تحدث كثيراً بين القبائل العربية وخاصة في العصر الجاهلي .

- ٢ -

والقصيدتان تتفقان في الموضوع والوزن والقافية ، وفي خيالهما الفني الغالب على القصيدتين ؛ وتتفقان كذلك في هذه المبالغة الواضحة في الفخر . بما لا يؤثر نظيرها من المبالغات في معاني الشعر الجاهلي إلا قليلاً ؛ كما تتشابهان في هذه السهولة الفنية الغالبة على القصيدتين وخاصة عندما ينتقل الشاعران إلى العرض الأصلي من قصيدتيهما وهو الفخر ، وليست هذه السهولة الفنية بقرينة على الشعارين ، فارتجال عمر وقصيدته ومواقف الفخر فيها ، بما يقتضيه السهولة ، ونشأة أمية في الطائف ذات الخصب والزرع والثمار والهواء المعتدل والجو الجميل وتنقله في رحلاته التجارية بين الشام واليمن ونفاخته العامة وقرائنه في الكتب السمارية ، كل ذلك رقيق من طبيعته وهذب من أسلوبه وأكسبه مواهب فنية ممتازة ، وصقل من ملامكاته الأدبية ، فظهر آخر ذلك في شعره وضوحاً وسهولة وإسجاحاً .

وتتفق القصيدتان فوق ذلك في كثير من معاني الشعر وأساليب الفخر ؛ ومن مظاهر ذلك الاتماع هذه المعاني والأساليب والآيات :

١ - قال عمرو :

ورثنا الجـدد قد علمت معد نطاعن دونه حتى يبيننا

أى حتى يظهر الشرف لنا ، وقال : ورثنا مجد علقمة بن سيف .

وقال وهو يتحدث عن الخيول السكريمة التي يخوض قومه عليها المعارك :

ورثناهن عن آباء صدق ونورثها إذا متنا بديننا
فقال أمية :

ورثنا المجد عن كبرى نزار فأورثنا مآثرنا البدينا
ونستطيع أن نوازن بين البيتين الأخيرين إذا علمنا أن وراثته المجد في
بيت أمية أبلغ في الفخر من وراثته الخيل في بيت عمرو ، وإن كانت وراثته
الخيل من أسباب المجد لأن الخيل وركوبها واتخاذها عتاداً دليل الشجاعة
والبطولة وحب النضال ، وقول أمية « فأورثنا مآثرنا البدينا » أبلغ من قول
عمرو : « ونورثها إذا متنا بديننا » لأن أمية ذكر أن أبناهم ورثوا مجد الآباء
في حياتهم ، وأما عمرو فقد ذكر أن الأبناء سيرثون هذه الخيل بعد وفاة آبائهم ،
فلم يسند إليهم الشجاعة والبطولة وحماية الذمار في حياة الآباء ، وهذا قصور
في الفخر ، وقال أمية « البدينا » وقال عمرو : « بدينا » فشهرهم أمية وأبان عن
وضوحهم ، وقال عمرو : « آباء صدق » فدلل على شجاعتهم أو وضوح نسبهم
وطهارة أعراقهم ، وهي زيادة لانظير لها في قول أمية . وقد أخذ أمية لفظ
« قد علمت معد » من قول عمرو فقال :

وكنا خيثما علمت معد أقبلنا حيث ساروا هاربينا

ب - ويقول عمرو : « وأنا المهلكون إذا ابتلينا » أي نهلك
أعدائنا ونبيدهم إذا اختبرنا بقتال الأعداء ، فيقول أمية : « وأنا الضاربون
إذا لقينا » ، فتجد قول عمرو أبلغ ، حيث نص على إهلاك الأعداء ، ولم يذكر
أمية إلا الضرب ، وإن كان يكفى به عن الشجاعة والإقدام والعزيمة والجد
في طلب الأعداء ، ولكنه على أي حال لم يصور نتيجة الحرب كما صورها
عمرو بن كلثوم بقوله « المهلكون » .

ج - ويقول عمرو « وأما المانعون لما أردنا » ، ويروي : الحاكمون
بما أردنا ، فيقول أمية « وأما المانعون إذا أردنا » .

د - ويقول عمرو :

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدرا وطينا
ويروى من مجهرة أمية :
وأنا الشاربون الماء صفواً ويشرب غيرنا كدرا وطينا
هـ - ويعول عمرو :

بفتيان يرون القتل مجداً وشيب في الحروب مجربينا
وقد روى من المجهرة :
وفتياناً يرون القتل مجداً وشيباً في الحروب مجربينا

ومعلقة عمرو تمتاز بأنها الأصل الذى نسج على منواله أمية ، كما تمتاز
بتنوع أغراضها ، وبطولها ، وأنها ملحمة تاريخية نادرة ، وهى إحدى
المعلقات السبع ، التى هى قصائد تحتل الذروة فى الشعر الجاهلى . وقد انتخبت
من بين القصائد الجاهلية لشهرتها وخصائصها الفنية والأدبية الممتازة . وقال
ابن قتيبة فى قصيدة عمرو : وهى من جيد شعر العرب .

أما قصيدة أمية فلا تبلغ إلا نحو الثلاثين بيتاً أو تزيد قليلاً فهى نحو ثلث
قصيدة عمرو ، وقد وضعها النقاد مع المجمرات .. والمجمرات سبع قصائد
من الشعر الجاهلى رواها أبو زيد الأنصارى فى المجهرة ، وأصحابها هم :

١ - عبيد بن الأبرص ، ومجمرته مشهورة وهى فى الحكمة ومطلعها :

عينك دمعهما سرور كأن شأنهما شعيب

والسرور : الكثيرة الجريان . والشعيب : المزايدة ... وتشتهر بإظهار
وزنها ، ومنها :

والمرء ما عاش فى تكذيب طول الحياة له تهذيب
من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

ب - عدى بن زيد ؛ ومجهرته فى الحكمة ومطلعها :

أتعرف رسم الدار من أم معبد؟ نعم ورماك الشوق قبل التجلد
وهى شبيهة بمعلقة طرفة فى وزنها وقافيتها وحكمتها ، وتنفق معها فى
مضى الأبيات مثل :

عن المرء لا نسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى
ج - النربن تولب ، ومجهرته فى الحكمة أيضا ومطلعها : د تأبى من
' طلال عمرة مأسل ' .

د - أمية بن أبى الصلت ، ومجهرته موضع الحديث ، وهى فى الفخر .
ه - بشر بن أبى حازم ، ومجهرته فى الفخر بقومه وبطولاتهم
وعزهم ، ومطلعها :

لن الديار غشيتها بالأنعم ؟ تعدو معالمها كاون الأرقم
ب - خداس بن زهير ، ومجهرته فى الفخر بقومه أيضا ، ومطلعها :
د أمن رسم أطلال بتوضح كالسطر ؟ .
ز - عنزة ، وقصيدته :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟
ويعددها بعض النقاد من المعلقات والآخرى من المحمدرات .

وهذه القصائد السبع لم توضع فى مرتبة واحدة لانفاق موضوعاتها ؛
إذ أن موضوعاتها مختلفة : ثلاث منها فى الحكمة وأربع فى الفخر . كما أنها لم
ترتب بالنظر إلى الناحية التاريخية ، إذ أن أصحابها لم يعيشوا فى عصر واحد ؛
فمعدى توفى نحو عام ٥٨٠ م ، وعبيد عام ٥٥٥ م ، وأمى عام ٦٢٤ م ،
وعنزة عام ٦١٥ م الخ ؛ فهى إذا إنما وضعت فى منزلة أدبية واحدة تلى
منزلة المعلقات الأدبية بالنظر إلى خصائصها الفنية الأدبية وحدها ، ويكاد
الناقد الأدبى يقف أمام تشابه شاعرية هؤلاء الشعراء وخصائص الشاعرية

في هذه القصائد ، فهذه القصائد السبع يشبه بعضها بعضاً في النواحي الفنية والفطرة الأدبية وفي خصائص الشعر والشاعرية ، وتكاد تكون متساوية في حكم النقد الأدبي ، وهي على أى حال تلى المعلقة في الجودة والمكانة الأدبية . ونستخلص من ذلك كله أن النقاد لاحظوا الفروق الفنية الكبيرة بين القصديتين فوضعوا الأولى في صف المعلقات والثانية مع المجهرات ، وفي الحق أن شاعرية عمرو في معلقته أقوى وأبين من شاعرية أمية في مجهرته : سواء في الأسلوب أو المعاني أو الأغراض أو مدى الجودة الفنية ومواهب الشعر .

— ٤ —

ويرى الدكتور طه حسين في كتابه « الأدب الجاهلي » ، أنه لا يمكن أن تكون معلقة عمرو أو أكثرها جاهلية ، وقد شك الرواة في بعضها ، ويرجح أن تكون المعلقة منتحلة ، ونحن لا نذهب هذا المذهب ، فالمعلقة تمثل حياة جاهلية لقبيلة تغلب ، وتمثل شاعراً جاهلياً ، وتصور حياة عمرو الفنية والاجتماعية نفسها ، وهي شبيهة بالآثار الباقية من شعر عمرو ، وإن كان هذا لا ينفي أن تكون قد زيدت عليها بعض الأبيات ، وقصيدة أمية نفسها تؤيد أن قصيدة عمرو جاهلية وأنها لم تنتحل بعد الإسلام على أيدي الرواة .

ونلاحظ على مجهرة أمية خلوها من الصبغة الديلية التي اشتهر بها أمية ، ويبدو أنه نظمها في شبابه قبل أن يقف نفسه وحياته وشعره على الجانب الديني وحده ، وتقليده فيها لعمرو بن كاثوم يؤكد ذلك وأنها نظمت قبل أن تكتمل شخصية أمية الفنية ، وقد يكون السبب الذي جعل أمية ينظم بمجهرته محتذياً فيها عمراً هو إعجابه بمعلقته أو روايته لشعره أو تشابه موقف الفخر الذي وقفه الشاعران ، ونحن لا نستطيع أن نقول إن الرواة أدخلوا على مجهرة أمية بعض الأبيات من معلقة عمرو وتشابه الوزن والقافية والخيال والموضوع في القصديتين ؛ ذلك لأن مجهرة أمية ليست طويلة ولأنه إذا حذف منها

الآيات المتشابهة لا يبقى منها في مقام الفخر إلا القليل من أبياتها، ولا يعقل أن ينظم الشاعر قصيدة في الفخر معانيها فيه بحدودة أو شبه محدودة . .
ورواية أبي زيد للقصيدتين في كتابه دليل على إيمانه بصحة القصيدتين أولاً،
وبأن المعاني المتشابهة فيهما نتيجة لاتفاق الشعارية أو للتقليد الأدبي ثانياً،
وأبو زيد المتوفى عام ٢١٥ هـ راوية ثقة .

وبعد فلستطيع أن نقول : إن أمية قلد في مجمرته عمرو بن كلثوم في
معلقاته تقليداً فنياً واضحاً ، فأخذ من المعلقة كثيراً من معاني الفخر
وأساليبه ، وصاغ قصيدته على موسيقى وقافية معلقة عمرو . وهذا التقليد
الفني ليس بمعجيب بين الشعراء في شتى العصور وليس بغريب في الشعر الجاهلي
نفسه فأتت ترى أن الشاعر الجاهلي كثيراً ما يتفق مع شاعر قبله أو معاصر
له في أسلوب أو معنى أو بيت ، وأنت تعرف قول امرئ القيس :

وقوفا بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسمى وتجمل
وقول طرفة :

وقوفا بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسمى وتجمل
وتعرف غير ذلك مظاهر التشابه الفني أو التقليد الأدبي بين
الشعراء الجاهليين .

بين الجاهليين والمخضرمين

الشعراء الجاهليون هم الذين عاشوا طول حياتهم في الجاهلية ، أي قبل
ظهور الإسلام ، أو كان إنتاجهم كله في العصر الجاهلي أو متأثراً بروح
العصر الجاهلي وحده وإن عاشوا بعده قليلاً أو كثيراً ، فليبد جاهلي وإن
عاش بعد الهجرة أربعين سنة لأنه لم ينظم بعد إسلامه شعراً قط ، وأمية بن
أبي الصلت على ما ترجح جاهلي ، وإن عاش بعد الهجرة تسع سنوات لأنه
لم يحى حياة إسلامية قط ، ومثله قيس بن الخطيم

والمخضرمون هم الذين عاشوا في الجاهلية والإسلام ، وتأثروا في شعرهم بالجاهلية والإسلام معا ، مثل حسان والخطيبه ومعن بن أوس وكعب بن زهير والخنساء وسواهم . .

وأصل المخضرمه أن يجعل الشيء بين بين ، ومن ذلك أن أهل الجاهلية كانوا يسمون نعمهم فيقهطعون جزءا من أطراف آذانها ويتركونه ينوس (١) فتسمى مخضرمه لأن آذانها صارت بين الوافرة والناقصة ، فلما جاء الإسلام أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يخضرموا من غير الموضع الذي يخضرم أهل الجاهلية حتى تمتاز نعمهم من نعم مخالفينهم لأنهم أهل حرب فكانت خضرمه أهل الإسلام بائنة من خضرمه أهل الجاهلية ، ثم قيل لكل من أدرك الخضرمتين مخضرم وأكل من كان نصف عمره في الجاهلية ونصفه في الإسلام لأن حياته بينهما ومنه الشاعر المخضرم الذي أدرك الجاهلية والإسلام كحسان بن ثابت وكعب بن زهير ؛ ومن هذا المعنى قول الشاعر كما رواه صاحب اللسان :

إلى ابن حسان لم تخضرم جدوده كبير الثنا والخيم والفرع والأصل والظاهر أن استشهاده بهذا البيت غير سديد لأن سياق البيت يدل على أن معنى لم تخضرم جدوده ليسوا أدعياء لا على أنهم ليسوا بين بين اللهم إلا أن يريد معنى يقول إلى هذا ، وذلك أنه يقال رجل مخضرم أي أبوه أبيض وهو أسود فيكون بين أبيض وسوداء أو مغموز النسب وهو يناسب قوله إلى ابن حسان ، ومنه الطعام المخضرم وهو كما قال ابن سيده الذي ليس بمملو ولا حر ، أو كما قال ابن فارس بين الثقيل والخفيف وعلى كل حال بين بين ، وراء المخضرم ما لفتح على الأرجح ولكن قال ابن بري أن أكثر أهل اللغة على كسر الراء لأن الجاهلية لما دخلوا في الإسلام خضرموا آذان إبلهم ليكون علامة لإسلامهم إن أغبر عليها أو حوربوا ؛ ويقال لمن أدرك

(١) أي يتحرك

الجاهلية والإسلام مخضرم ، وقال ابن خالويه : خضرم خلط ، ومنه المخضرم الذى أدرك الجاهلية والإسلام ، والظاهر ما قلناه لأن اسم المفعول أصله بالنعم الموسومة فيكون اسم الفاعل لو اسمها (١) وقد وجه ابن برى رأى من فتح الرأ فقال تأويله عنده أنه قطع من الكفر إلى الإسلام وأما أقول إن هذا التأويل غير وجهه لأنه يستدعى أن يكون كل المخضرمين مسلمين وليس كذلك فإنهم عدوا كعب بن الأشرف اليهودى الهجاء من المخضرمين مع أنه مات على دينه ، ولو أنه وجهه بأنه قطع من حال من الشعر إلى حال أخرى كان أجود لأن كثيرا من الشعراء وجهوا تيار شعرهم إلى الحكم والمواظ والاخلاق وترفعوا عن الهجاء بل تغالى بعضهم كليد بن ربيعة العامرى وهو من أصحاب المعلقات فترك قول الشعر وبدل به الكتاب العزيز .

وقد توسع الناس بعد في هذه التسمية فسموا بها كل من أدرك مدينتين فقالوا في مثل بشار بن برد مخضرم لأنه أدرك بنى أمية وبنى العباس . بيد أنهم لا يذكرون ذلك من غير إضافة خوف اللبس ، ولذلك يقولون من «مخضرمى الدولتين» وعلى ما قدمنا لا يختص اسم الدولتين بالشاعر وإن اشتهر فيه ولا بزمان البعثة . وبعضهم يشترط في نعت الشاعر بالمخضرم أن يسكون قد قال الشعر في الزمانين ولهذا لا يسمى ليبدأ شاعرا مخضرمًا بل بعده من شعراء الجاهلية وإن كان مسلماً ويعد كعب بن الأشرف مخضرمًا وإن كان يهوديًا .

صور من الشعر الجاهلى

-- ١ --

قال حاتم الطائى :

أماوى قد طال التجنب والهجر وقد عذرتنى (٢) فى طلابكم عذر (٣)

(١) ومعناه أنه فى عصر الحضرة

(٢) عذرتنى : أى رفعت عنى اللوم ، ومحت الإساءة وطمستها .

(٣) العذر : جمع عذير ، والعذير هو الحال ، وأصله العذر ، ويخفف فيقال عذر

أماوى إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوى إني لا أقول أسائل إذا جاء يوما : خل في مالنا النزر (١)
أماوى إما مانع فبسين وإما عطاء لا ينهيه (٢) الزجر
أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت (٣) يوما وضاق بها الصدر
أماوى إن يصبح صدأى (٤) بقفرة من الأرض لا ماء لدى ولا خير
ترى أن ما أنفقت لم يك ضائرى وأن يدى مما بخلت به صفر
أماوى إني رب واحد أمه أخذت فلا قتل عليه ولا أسر
وقد علم الأفوام لو أن حاتما أراد ثراء المال كان له وفر
أماوى إن المال مال بذاته فأوله شكر وآخره ذكر
وإني لا آلو (٥) بمالى صليعة فأوله زاد وآخره ذخر
يفك به العانى (٦) ويؤكل طيبا وما إن يعر به القداح (٧) ولا القمر (٨)
ولا أظلم ابن العم إن كان لإخوتى شهودا وقد أودى بإخوته الدهر
غنينا (٩) زمانا بالتصملك والغنى وكلا سقانا بكأسيهما الدهر
فما زادنا بأوا (١٠) على ذى قرابة غنانا ، ولا أزرى بأحسابنا الفقير
وما ضر جاريا بنة القوم فاعلمى يجاورنى ألا يكون له ستر
بعضى عن جارات قومى غنلة وفى السمع منى عن أحاديثها وقر

وقالت أم الصريح الكندية ترى بعض قومها :

هوت أمهم ماذا بهم يوم صرعوا بجيشان من أسباب مجد نصرما

(١) النزر : القلة (٢) نهيه : منعه .

(٣) الحشرجة . الفرغرة عند الموت

(٤) الصدى : ما يبقى من الميت فى قبره . (٥) لا آلو : لا أقصر .

(٦) العانى : الأسير (٧) القداح : قدام الميسر . (٨) القمر : المقامرة .

(٩) غنينا : غنى بالمال كان ، أقام به . (١٠) البأو : الكبر والفخر .

أبوا أن يفروا والقنا في نحورهم وأن يرتقوا من خشية الموت سلما
فلو أنهم فروا لكانوا أعزة (١) ولكن رأوا صبرا على الموت أكرما

- ٣ -

وقالت أمية بنت عبد شمس بن عبد مناف فيمن قتل من قريش في
حرب الفجار :

أبي لبلى أن يذهب ونيط الطرف بالكوكب
ونجم دونه الأهوا ل بين الدلو والعقرب
وهذا الصبح لا يأتى ولا يدو ولا يقرب
بمقر عشيرة منا كرام الخيم والمنصب
أحال عليهم دهر حديد التاب والمخلب
فإن أبك فهم عزى وهم ركبي وهم منكب

- ٤ -

وقالت فاطمة الخزاعية في رثاء إخوتها :

إخوتى لا تبعـدوا وأبلى والله قد بعدوا
لو تملتهم (٢) عشيرتهم لاقتناء العز أو وولدوا
هان من بعض الرزية أو هان من بعض الذى أجد
كل ما حى وان أمروا واردا الحوض الذى وردوا

- ٥ -

وقال عنبرة من معلقته :

لما رأيت القوم أقبـل جمعهم يتذاكرون كررت غير مذمم (٣)

(١) أى لا يلامون لوضوح عذرهم - (٢) أى لو عاشوا مليا من الدهر
(٣) يتذاكرون : أى يحض بعضهم بعضا على القتال ، متذذعقات عليهم غير
مذموم على عمل بل مدحوا عليه .

يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بثر في لبان الأدم (١)
 ما زلت أرميهم بشقرة نحره ولبانه ، حتى تسربل بالدم (٢)
 فاذور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمحم (٣)
 لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى أو كان يدرى ما جواب تكلمى (٤)
 والخيل تقتحم الخبار عوابسا ما بين شيطمة وأجرد شيطم (٥)
 ولقد شق نفسى وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم (٦)
 ذل جهالى حيث شئت مشابعى لى ، وأحفزه رأى مبرم (٧)
 لاني عدانى أن أزورك ، فاعلى ما قد علمت وبعض الم تعلمى (٨)

- ٦ -

وقال لقيط بن يعمر الإيادى وهو شاعر جاهلى قديم مقل ، ذكر ابن

- (١) عنتر : أى ياعترة حذف التاء للرخيم ، وروى المبرد أنه كان يسمى عنترا أيضا . والأشطان : جمع شطن ، وهى الحبال الطويلة الشديدة الفتل . واللبان . الصدر . والأدم : فرسه . (٢) أى بشقرة نحره .
- (٣) العبيرة : تردد البكاء فى الصدر قبل أن تفيض الدمعة ، والتحمحم : الصوت المتقطع دون الصهيل ، ويكون من الفرس إذا طلب العطف عليه والرفة لحاله .
- (٤) المحاورة : الخطاب . ويروى : ولكان لو علم الكلام مكلمى .
- (٥) الخبار : الأرض اللينة . والشيطم : الطويل . والأجرد : القصير الشعر . وهما صفتا حسن للفرس الكريم .
- (٦) ويك مركبة من (وى) وكاف الخطاب . ووى تعجب كأنهم قالوا : عجبا لك ! أقدم : أوهى مخففة من ويك ، أو ويحك .
- (٧) الدلل : جمع ذلول ، وهو من الإبل وغيره أضعف الصعب الحرون . ومشابعى قلبى أى متابعى ومشجعى . وأحفزه : أدفعه . والمبرم : المحكم . المعنى : يصف نفسه بأنه رجل أسفار ، وأن جماله لله ، لتعودها السير ، لا يصعب أن يوجه إلى أى أرض . ويصف نفسه أيضا بأنه حاضر العقل لا يعزب عقله فى أى حال من الأحوال ، بل هو أيضا يدفعه ويقويه برأى محكم .
- (٨) المعنى : صرفنى عن زيارتك ماقد علمته من الأسباب ، وما لم تعلمه .

الشجرى أنه كان كاتباً في ديوان كسرى؛ ولم يكن بيد الناس من شعره في زمن صاحب الأغاني إلا قصيدة كتب بها إلى قومه يحذرهم ما اعتزمه كسرى من غزوم وقتالهم، وقطع أخرى لطاف متفرقة، فإذا صحت زواية ابن الشجرى - وفي ما قاله أبو الفرج ما يقويها وإن لم يصرح وكان لقيط قد خدم الأكامرة وكتب لهم - فهو أقدم من بلغنا خبره من أئقن الفارسية من من العرب وأجدرهم بأن يتأثر بها شعره. وليس من المستطاع اليوم وقد ضاع شعر لقيط تعيين ما كان لعلبه بالفارسية واتصاله بخدمة الملوك من أثر فيه، ولكن القصيدة التي بقيت له وانتهت إلينا تتميز من شعر ذلك العهد بأنها نسق واحد لا خلل فيه ولا اضطراب، وأنها لا تبدأ معنى حتى تتمه وتستوفيه ولا تنتقل عنه إلى آخر حتى يكون هو الذي أدى إليه واقتضاه. ولعل خير ما يدل على مذهب الشاعر ويكشف عن طريقته إثبات أبيات منها، نجتمع إلى وضوح الدلالة كثيراً من الفائدة، وهذه القصيدة قالها لقيط يحذر فيها قومه عاقبة أمرهم إذا قهرهم الفرس، ويذكركم بما يحمل بالأمم إذا دارت عليهم الدائرة وغلبهم الأجنبي على سلطانهم، ويوصيهم باجتماع الكلمة والتشمير للحرب وتقليد زمامهم من توفرت فيه خلال القيادة وتمت له أداتها:

هيات لا مال من زرع ولا إبل	يرجى اغابركم إن أنفكم جدعا
لا تلهمكم إبل ليست لكم إبل	لأن العدو بمظم منكم قرعا
لا تئمروا المال للأعداء لهم	إن يظفروا يحتموكم والتلاد معا
يا قوم إن لكم من إرث أولكم	إن ضاع آخره أو ذل واتصما
ماذا يرد عليكم عز أولكم	مجد أقدم أشفقت أن يفنى ويتفهما
فلا تفرنكم دنيا ولا طمع	أن تنعشوا بزماح ذلك الظلما
يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيرا	على نساءكم كسرى وما جمعا
يا قوم يهضنكم لا تفجعن بها	لأن أخاف عليها الأزل الجذعا
هو العناء الذي تبقى مذلتة	إن طار طائركم يوما وإن وقعا
هو القناد الذي يجتث أصلكم	فن رأى مثل ذا رأيا ومن سمعا

قوموا قياما على أمشاط أرجلكم ثم افزعوا ، قد ينال الأمن من فزعا
وقلدوا أمركم الله دركم ربح الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفا إن رخاء العيش ساعده ولا إذا عض مكروه به خشعا
لا يطعم النوم إلا ريث يبعثه هم تكاد حشاه تعظم الضلعا
مسهد النوم تعنيه أموركم يروم منها إلى الأعداء مطالعا
ما انفك يحلب در الدهر أشطره يكون متبعا طورا ومتبعا
وليس يشغل له مال يثمره عنكم ولا ولد ينبغي له الرفعا
قد استمر على شزر مريرته مستحکم السن لا قهما ولا ضرعا

وقد كان من أعلام شعراء العصر الجاهلي طائفة كانت تنظم الشعر في
اللسيب وحده ، وهم كثيرون ومنهم : المرقش الأكبر م ٥٥٢ م ، وعبدالله
ابن العجلان م ٥٦٦ م ومالك ، وعنترة ، ومسعود بن خراشة القميمي وقد
أدرك الإسلام ، ومنظورين زبان الفزاري . ولهم شعر رائع وقصائد كثيرة
قصروها على القزل وحده كما في قصيدة المرقش الأكبر : سرى ليلا خيال
من سليمي . وقد يبدو أن اللسيب فن إسلامي بدأه عمر بن أبي ربيعة
وجميل وكثير وطبقتهم ، والحقيقة أن هؤلاء كانوا يحتذون مثالا لمن
تقدمهم ، وما أظن أحدا بلغ من صفة النساء ما بلغ النابغة حين سأله النعمان
أن يصف امرأته المتجردة ، أو ما بلغ المنخل اليشكري والمرار العدوي
وسويد بن أبي كاهل وشعر المرقشين الأكبر والأصغر وعبدالله بن العجلان
النهدي وقيس بن الحداية ، من صدقوا الحب ونسبوا في لفظ عفيف ومعنى
نزيه مشهور معروف . . . قال المرقش الأكبر :

سرى ليلا خيال من سليمي فأرقني وأصحابي هجود
فبت أدير أمري كل حال وأرقب أهلها وهم بعيد
على أن قد سما طرفي لنار يشب لها بذى الأرطى وقود

حواليها مها جم التراقي
نواعم لا تعالج بؤس عيش
يرحن معاً بطاء المشى بدا
سكن ببلدة وسكنت أخرى
فما بالي أني ويحان عهدي
ورب أسيلة الخدين بكر
وذو أشر شتيت النبت عذب
لهوت بها زماناً من شباني
أناس كلما أخلقت وصلا

وآرام وغزلان رقود
أوانس لا تروح ولا ترود
عليهن المجاسد والبرود
وقطعت الموائق والعمود
وما بالي أصاد ولا أصيد؟
منعمة لها فرع وجيد
نقى اللون براق برود
وزارتها النجائب والقصيد
عناني منهم وصل جديد

وقال :

نواعم أبكار سرائر بدن
يهذلن في الأذان كل مذهب
نشرن حديثاً أنسا فوضعه

حسان الوجوه لينات السواف
له ربذ يعيا به كل واصف
خفيضاً فلا يلغى به كل طائف

ولعبد الله بن العجلان :

ألا أبلغاً هنداً سلامي فإن نأت
ولم أر هنداً بعد موقف ساعة
أنت بين أتراب تمايس إذ مشيت
أشارت إلينا في خفاء وراءها
وقالت تباعد يا ابن عمي فإنني

فقلبي مذ شطت بها الدار مدنف
بأنعم في أهل الديار تطوف
ديبب القعلا أو هن منهن أظف
سراة الضحى منى على الحى موقف
منيت بذى صول يغار ويعنف

وقال :

خليل زورا قبل شحط النوى هنداً
ولا تعجلا لم يدر صاحب حاجة
ومرا عليها بارك الله فيكما

ولا تأمنا من دار ذى لطف بعدا
أغيا يلاقى في التعجل أم رشدا
وإن لم تكن هند لوجهي كما قصدا

وقولها ليس الضلال أجارنا ولكننا جرنا لنلقاكم عمدا

وقال قيس بن الحداية من قصيدة طويلة :

أجذك إن نعمت نأت أنت جازع قد اقتربت لو أن ذلك نافع
قد اقتربت لو أن في قرب دارها نوالا ولكن كل من ضن مانع
وقد جاورتنا في شهور كثيرة فما نولت والله راء وسامع
وظئى بها حفظ لعبى ورغبة لما استرعت والظن بالغيب واسع
فقلت لفاء بعد حول وحجة وشحط النوى الا الذى المهد قاطع
وقد يلتقى بعد الشتات ألو النوى ويسترجع الحى السحاب اللوامع
ومنها :

كان فؤادى بين شقين من عصا حذار وقوع البين والبين واقع
يحك بهم حاد سريع نجاؤه ومعرى عن الساقين واللوب واسع
فقلت لها يا نعم حلى محلنا فإن الهوى يا نعم والعيش جاعم
فقلت وعيناها تفيضان عسيرة بأهلى بين لى : متى أنت راجع
فقلت لها : تالله يدرى مسافر لذل أضمرته الأرض ما الله صانع ؟
فشدت على فيها اللثام وأعرضت وأمن بالكحل السحيق المدامع
وإنى لمهد الود راع وانى بوصلك ما لم يطونى الموت طامع
فتصيب هذا العصر من الدسيب كما رأيت أوفروأجود بما توهم الأدباء ؛
وهو أصل يلتمى اليه بارع الدسيب الاسلامى من قريب (١).

(١) راجع الشعراء العشاق في كتاب تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان

حول الادب الجاهلي

حول العصر الجاهلي

- ١ -

عندما نقسم تاريخ الأدب العربي إلى عصور لندرسه على ضوءها ننظر
بجد إلى تاريخ الأدب العربي الذي هو تاريخ لقومية الأمة العربية وأخلاقيها
وعاداتها وحياتها وآمالها وآلامها ولكل ما تأثرت به من مؤثرات حياتها
الفكرية والاجتماعية والسياسية والأدبية . ننظر إلى تاريخ الأدب على أنه
ليس علما جافا بل فنا أساسه الذوق ودراسة الفنون الأدبية في الأمة دراسة
واسعة . ومؤرخ الأدب يعني بأن يدرس أسباب رقي الأدب وانحطاطه
وتأثر الأدباء بها أو تأثيرهم فيها ، وأن يدرس صلات المحدثين بالقدماء أدباء
وشعراء وكتابا وخطباء ونقادا ، وأن يتعمق في فهم المذاهب والمدارس
الأدبية العامة وصلاتها ببعض والعوامل التي أدت إلى قيام كل مدرسة وميزاتها
وخصائصها ومدى تأثيرها بما قبلها وتأثيرها فيما بعدها من المدارس والمذاهب
الأدبية العامة . فهذه المدارس والحركات الأدبية كانت تلعب دورا هاما في
الأدب ، ولها من الأهمية في دراسة تاريخ الأدب ما لا يقل شأنه عن دراسات
كثيرة في الأدب ، فتاريخ الأدب ليس سردا لنصوص أدبية وتراجم
عامة ، بل يوضح لما الصلات بين المذاهب الأدبية ويربط كاتباً بآخر وجماعة
بجماعة ومدرسة بمدرسة ، كما يدرس أسباب الانقلابات الأدبية المختلفة
في عصور الأدب وتأثير تحول الكتاب في نهضة الأدب والشعر وتوجيهها
وجهة جديدة . هذا كله فوق دراسة تاريخ الأدب الآثار الأدبية نظما وشعرا
ولشخصيات الأدباء شعراء وكتابا وخطباء والإمام بلشأتهم وحياتهم
ونزعاتهم وغير ذلك من مكونات شخصيتهم وطابع كل منهم وسماته التي
يتميز بها عن غيره ، فكل كاتب كبير أو شاعر عبقري يأتي إلى هذا العالم
بشيء جديد كل الجدة ذلك هو نفسه ، كما يقول بعض النقاد الغربيين : وكثير
من الكتاب الأفذاذ والشعراء الملهمين يخلقون ذوقا جديدا ومرحلة جديدة

فى الأءب؁ وكأ ٱأأأر الأءب بعصره فهو ٱوثر ففه . فالأءب ابن عصره وٱبئته؁ فكل ما ٱبعث أأهاها أءبءا فى الرأى أو فى منهجى الءفاة أو فى مجرى السفاة والشعور العام ٱوثر فى أكون الأءب إلى أء كبفر وٱبب الأئلسى ظروف الزمان والمكان والٱبئة عنء ءراسأنا لأى نص أءبى؁ كأ أنه لا بء من معرفة العوامل الأى أأر فى فن الشاعر والكأب والأءب وفى ذوقهم وإأأاجهم الفن وءمألأ لهم طابعا خاصا فى أءبهم . ومهما نكأأ شأصفة الأءب بالفة؁ فنهاها فان روح ألسه وعصره لا بء من أن ٱظهر ففه . وعلى ذلك فأارفأ الأءب ٱأأر بموثرأ قوفاة كأ ٱأأر بموثرأ شأصفة؁ فظهر الإسلام مثلا له من الأأر البعفء فى الأءب العربى ما لا ٱسأطاع أصره .

ومع ذلك فلا ٱأصر فأارفأ الأءب على ءراسة المألمأا الأءفة لمأأف الأءباء والشعراء؁ كل كأب على أءة؁ بل لا بء ففه من ءراسة أءب الأمة جملة وأءة وإظهار ٱمزانة العامة بأعأباره أأأا لعقلفة هءه الأمة الأى هى جماعة وأءة؁ لها فكفر خاص وشعور خاص وذوق خاص : فكل ماله أأر فى أكون الأمة له أأر فى نسأ أءبها؁ فأءب الأمة هو فأارفأها الذى ءوآفه بألبها لفسورأنا رقفها العقلى والأألقى فوق أقءمها الأءبى .

وقء اعأاء مؤرخو الأءاب أن ٱقسماوا الأءب إلى عصور مأأأفة؁ ولم ٱلأوا إلى ذلك لسهولة الءرس لأسب؁ ومن قبفل أقسفل الموضع المأشعب إلى أبواب وفصول . . وهأاك ما ٱبرر هءا الأقسفل؁ فالعصر فأارفأى عبارة عن فترة زمنية فسوء ففها نوع من الذوق العام؁ وعلى ذلك فان أءب ذلك العصر ٱأسم بأصفات خاصة من أفف المأءة والفكرة والأسلوب؁ وقد أمأأف أأار الكأأاب البارزفن بأقر ما أمأأف شأصفاأهم؁ ولكن ألك الهفأا العامة أظهر ففهم جمفعا . ولا ٱأأى عصر وٱأأفه أأر؁ إلا بعء أفسفر أامم فى الذوق العام . ولأكأنا ٱبب أن لا أضع الءواأر المأففة بفن عصر وعصر؁ فلفس فأارفأ الإنسان أبوابا وفصولا؁ ولأكنه أبار وأء منءفق فسفر أففنا ذأا الٱفن وأففنا ذأا الفسار؁ لفس له بءافة مفعفة؁ ولا فهافة

محدودة والعصور التاريخية في الواقع آخذ بعضها بتلايب بعض ، وقد يبدأ الرجل عمله في عصر من العصور ، ولا ينتهي منه إلا في عصر آخر ، كالخضر مين بين الجاهلية والإسلام ، وكبشار وابن المقفع بين العصر الأموي والعصر العباسي . ومع ذلك فإن لتقسيم الأدب إلى عصور أهمية الدراسة لأنه يوجه أنظارنا إلى المراحل التي اجتازها الأدب وتميز في كل مرحلة منها بميزة خاصة ، وهو أهم ما يعنى به مؤرخ الآداب .

-- ٢ --

وهناك سؤال لا بد من إirاده ، وهو : ماذا نعنى بالعصر الجاهلي ؟
إنه العصر الذى سبق الإسلام ، فإذا جعلنا حادث الهجرة هو الفاصل بين الجاهلية والإسلام ، كان عام ٦٢٢ م الذى هو بدء التاريخ الهجرى نهاية هذا العصر الجاهلي ، وإذا اتسع أفقنا أكثر من ذلك كانت نهاية العصر الجاهلي عام ٦١٠ م ، وهى السنة التى بعث فيها الرسول صلوات الله عليه إلى قومه وإلى الإنسانية عامة .

أما مبدأ العصر الجاهلي ، فهو غير معلوم تماما ، والقرآن الكريم يشهد للعرب بمحضرات سالفة بائدة ، كما يقول الاستاذ ابراهيم مصطفى فقد وردوا ابراهيم وكانوا على دينه ، لأنه أبو العرب ، وقد أرسل إلى العرب من الرسل هود وصالح وشعيب ، ولكل رسالة دين ، وفي كل دين حضارة وقد شهدت الجزيرة العربية قبل الإسلام حضارات ذات شأن ، وعلى هذا الأصل نحاول أن نحدد أول الجاهلية العربية قبل الإسلام ، وسبيل ذلك أن نعرف آخر حضارة قامت بالجزيرة ونحدد نهايتها فتكون بدء هذا العصر الجاهلي . فإذا اقتصرنا على العصر التاريخي وعلى ما كشف من آثار حضاراته ذكرنا حضارة الانباط ، وقد كانت في شمال الجزيرة وامتدت من العراق إلى مصر ووصلت في الجنوب إلى وادي القرى وورثت حضارة ثمود وأبقت آثارها خالدة وصمدت للروم في حروب شديدة مريرة . ثم حان حينها

فأنقضى أمرها على يد « تراجان » سنة ١٠٦ من الميلاد وورثت مكانتها تدمر
ووسع سلطانها الشام ومصر وما بين النهرين والآناضول إلى أنقرة وجاء
يومها فأنقضى ملكها سنة ٢٧١ م على يد أريان الروماني أيضا .

وكانت الحروب الطويلة القاسية بين الروم والفرس سبب انقطاع التجارة
بينهما ، وكان لابد للتجارة أن تشق لها مجرى ، فاتخذت سبيلها في مفاوز البلاد
العربية البعيدة عن سلطان الدولتين ، وكان الروم أشد حمرة لانصراف
التجارة إلى أيدي العرب .

ولهذا تجشموا الأهوال في القضاء على بطرة وعلى تدمر وحاولوا
القضاء على دولة اليمى أيضا وأرسل أغسطس حملته المشهورة بقيادة قائده
الياس جلاش فهلك في الصحراء جيشه وعاد بجنيبة سجنها رفيقه وصديقه
استرايون ، وأورثتهم ياسا أبديا من أن يتألوا بلاد اليمى عن طريق شمال
الجزيرة . وفي القرن الرابع كانت المسيحية قد انتشرت وصالحتها الدولة
الرومية البيزنطية واستعانت بها على مد سلطانها ، وكان رسل هذه الديانة قد
وصلوا إلى الحبشة وبشروا فيها بدينهم فقامت بها دولة مسيحية حبشية تقابل
في البلاد العربية دولة اليمى اليهودية ، وقامت العداوة بين الاثنين ، فأحباش
هذه الدولة من أصل عربى يمنى ، ولكن المنافسة في التجارة والعداوة في الدين
أججت نار الحرب بينهما ، ومن آثار تلك العداوة حديث الأخدود والنار
ذات الواقود ، وأرسلت بيزنطة رسلا وسفنها إلى الأحباش فكنتهم من
القضاء على الدولة الحميرية باليمن بعد حروب سجال ، وانتهى بذلك عهد آخر
دولة مستقلة قامت قبل الإسلام في الجزيرة العربية وكان ذلك سنة ٥٢٥ م ،
كما يقول ابراهيم مصطفى ، وقد خلت بلاد العرب من دولة تهيمن عليها ،
وتؤمن سبلها وتحمى تجارتها ووقعت في فوضى نرى بعض صورها في شعر
كشعر الحارث بن حلزة إذ يقول :

هل علمت أيام ينتهب الناس غواراً لكل حى عواء
لا يقيم العزيز بالبلد السم ل ولا ينفع اللذيل النجاء

ليس ينحى مواعدا من حذار رأس طود وحررة رجلا .
فهذا حد الضرر الجاهل العربي ، وقد كانت آثار المعامل اليمنية موجودة
في شتى أرجاء الجزيرة العربية . فبنو الحارث بن كعب في جنوب الحجاز ،
وكانوا يلقبون ملوكا ، والأيوس والخزرج في شماله ، وفي نجد طيء وكلب
وملوك كندة ، وفي عمان الازد ، وفي تخوم العراق المناذرة ، وفي مشارف الشام
الغساسنة ، وكلهم يلتسبون إلى اليمن ، وقد نشبت الحروب بينهم كل يريد
الملك لنفسه ، كما فعل قواد الاسكندر في ملكه الواسع من بعده ، وثار العرب
من غير اليمن وهم العدنانيون ، وتطلعوا إلى الاستقلال والنفوذ والسلطان
واشتعلت الحرب بين العدنانيين واليمنيين ، بل بين بعض العدنانيين والبعض
الآخر ، ومضى شعراؤهم يتغنون بفضائل الحرب :

وحليل غانية تركت مجدلا تمكو فريسته كشدق الأعم
فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم
فتركته جزر السباع يلشنه يقضن حسن بنانه والمهصم

يقول ابراهيم مصطفى : إن حياة العرب تعتمد على التجارة ورزقهم منها
ولا بد لهم أن يتجروا ليعيشوا ، والاثار الوارد : تسعة أئشار الرزق من
التجارة ، والرسول كان منذ الصبا تاجرا وأبوه وعمه وجدته تاجار وزوجه
تخديجة ترسل في التجارة أموالها .

فالعصر الجاهلي إذن يبتدىء بنقد حكومة البلاد وضياح أمنها ،
واضطراب نظامها في سنة ٥٢٥ ، ويلتصق بقيام الحكومة التي تقر السلام
وتلشر الأمان في سنة ٦٢٢ . وما بينهما عصر الجاهلية والفوضى والانتاحر
على السلطان .

فالغساسنة كانوا يتاخون الروم في الشام قبيل الإسلام ، ولهم مع الدولة
البيزنطية صلات مدونة معروفة . وكان أقدم اتصال للغساسنة ببيزنطة في زمن

الحارث الأكبر من سنة ٥٢٩ م إلى سنة ٥٦٠ م إذ أنعموا عليه ، ثم على ولده من بعده ، بلقب بطرق ، وهو لقب حكام الأقاليم عندهم ، ومن ذلك نعلم أن الفساسنة ، وهم يمنيون ، كانوا يستمدون سلطانتهم من دولتهم اليمنية ، ويحاربون الروم فلما زالت دولة اليمين وجاءهم الحرب من حيث كانوا يلمتمسون العمون ، اضطروا إلى الاستماعة بالروم واستمداد السلطان منهم... وفي بلاد تخوم العراق كان المناذرة ملوك الحيرة ، وكان لهم اتصال بملوك الفرس من آل ساسان . ونقرأ من أخبارهم أن (يزدجرد) أرسل ولده (بهرام) إيربى فى بلاط المنذر بالحيرة ؛ وأن (يزدجرد) لما مات ثار الفرس راوضين أن يتولى أحد من أولاده لما كانوا يكرهون من حكمه ، وأن بهرام استعان بالمنذر وولده النعمان فى جيش قدره بثلاثين ألفاً ، وبهم تمكن من الجلوس على عرش أبيه ، ولا أرى فى هذا صورة التابع الخاضع ، وقد كان ذلك سنة ٤٢٠ م ؛ ولكن فى زمن كسرى أنوشروان نرى المنذر الثالث يتولى السلطان من يد كسرى ، وحكم كسرى من سنة ٥٣١ م إلى سنة ٥٧٨ م ، والمنذر قتل فى واقعة محددة التاريخ سنة ٥٥٤ م ، واستمر الأمر على ذلك يولى الفرس حاكم الحيرة من المناذرة ، وربما ولوه من غيرهم كما ولوا عليها إلياس بن قبيصة الطائى . فهذه أسرة يمنية أخرى تبدلت طبيعة اتصالها بجارتها ، بعد أن سقطت دولة اليمين سنة ٤٠٥ م .

وفى داخل الجزيرة كان امرؤ القيس آخر ملوك كندة ، وقد حاربه المنذر الثالث وحارب أسرته نزاعاً على الملك ، وقتل كثيراً من أمراء كندة صبراً ، وبيكهم امرؤ القيس فى شعره :

فلو فى يوم معركة أصيبوا ولكن فى ديار بنى مرينا

فلم يفصل جهاجهم بفصل ولكن فى الدماء مرملينا

وإذا كان المنذر يستند إلى سلطان الفرس فإن سبيل امرئ القيس أن

ليستعين بمنافسيهم الذين ينازعونهم الرغبة في التسلط على البلاد العربية ،
وهم الروم ، ويقصد في ذلك إلى الحارث بن جبلة ، والحارث قد ولى من
سنة ٥٢٩ م إلى سنة ٥٦٩ م ، وهكذا نرى أن ما ذكر من تاريخ الحوادث
يؤيد هذا التحديد .

فالعصر الجاهلي الذي هذه بدايته وتلك نهايته ، هو العصر الذي
ندرسه ، ونعنى بتتبع الأدب شعره ونثره فيه ، وحسبنا ذلك الآن .

آراء حول النثر الجاهلي

- ١ -

النثر أحد ألوان الأدب وأقسامه ، وهو بخلاف الشعر لا يقيد به وزن أو
قافية ، ويعتمد غالباً على الحقائق ، ويركن إلى صدق التعبير ، وجمال التلوين
وجلال التأثير . فإذا اعتمد النثر على الخيال ، وتعتمد إثارة العواطف ،
وصيغ في أسلوب الشعر فذلك هو الشعر المنشور ، والنثر أول ما ينشأ يستخدم
في أغراض المعيشة العادية ، ووسائل الحياة الاجتماعية . ثم لا يلبث أن يكثر
الاهتمام به ، والإقبال عليه ، وتعظم الحاجة إليه ، ويقبل الكتاب يسجلونه
بالكتابة ، فيكثر ذبوعه ، ويزداد انتشاره ، ويؤدي مطالب الحياة وأغراضها
الكثيرة . فإذا ارتقت الحياة ، وتقدمت المدنية ، ازدادت أهمية النثر ،
 واتخذ وسيلة إلى أداء بعض الموضوعات التي تؤدي بالشعر ، فيستخدم في
وصف العواطف وإثارة المشاعر ، ووصف مظاهر الطبيعة ، وفي الاستعطاف
والمتاب والشكر فينشأ النثر الفني الذي يقصد به الفن ، ويبحث على الاتزان
والأريحية ؛ ويعتمد فيه تنظيم الفكرة ، وتدقيق المعنى وجودة السبك وجمال
الوصف وحسن الأداء .

فإذا ازداد العقل نماءً ، والثقافة انتشاراً ، والعلوم سعة ، أخذ العلماء

يدونون بالنثر قواعد هذه العلوم المختلفة ، فينشأ النثر العلمي الذي يعنى به الأدب عناية خاصة ، لأنه منهل من مناهل الثقافة الأدبية ، وأثر من آثار العقلية التى تلشئ الأدب ، ولأن الكثير من هذا النثر العلمى أدب جيد . حيث تزدى الحقائق فيه بلغة النثر الفنى ، كما فى مؤلفات النقد والتاريخ والسياسة والاجتماع ، ولذلك يعد كثير من مؤلفات هذه العلوم أدبا فنيا رائعا لاشتماله على مميزات الأدب الفنى وخصائصه ، فوق أن هذا النثر العلمى يصقل مواهب الأديب وملاكه ويوسع أفقه ويمده بزاخر الأفكار والمعاني والموضوعات .

وأخير أقالنثر الفنى ينقسم إلى خطابة وكتابة فنية ، والكتابة تشل الوصف والقصص فى رأى بعض الكتاب الأوربيين ، ويقسمها بعض كتاب العرب إلى رسائل وقصص ومناظرة وجدل وتاريخ . . أما قدامة بن جعفر فيقسم النثر إلى خطابة وترسل واحتجاج وحديث (١) .

- ٢ -

والأدباء يختلفون فى نشأة النثر الفنى هل وجد فى العصر الجاهلى أو تأخر فى المشأة الأدبية إلى العصر الأموى ؟ :

أما أدباء العربية المتقدمون ، والكثير من الأدباء المعاصرين ، فيرون أن العصر الجاهلى عرف النثر الفنى ، وأجاده العرب القدماء قبل الإسلام إجادة مألغة ، ونزل القرآن بلغة النثر الفنى مفهما لهم ومعجزا (٢) .

وأما المستشرقون ومن تابعهم فيرون أن عرب الجاهلية لم يعرفوا هذا النثر ، كما يشهده عصر صدر الإسلام ، ويقررون إنه إنما نشأ على يد ابن المقفع المتوفى فى صدر الدولة العباسية عام ١٤٣ هـ ، ومن ذهب إلى ذلك

(١) ص ٩٣ نقد النثر ط ١٩٣٩ .

(٢) ومن ذهب إلى هذا رأى كذلك صاحب كتاب « الفن ومذاهبه فى النثر

العربى » وكذلك زكى مبارك فى كتابه « النثر الفنى » .

المسيو مرسية الفرنسي (١) ، والمستشرق جب الإنجليزى (٢) .

أما الدكتور طه حسين فيقرر أنه لا يستطيع بحال من الأحوال أن يطمئن إلى أن العصر الجاهلى كان له نثر فنى (٣) وإن كان له نثر خاص لم يصل إلينا لضعف الذاكرة وخلوه من الوزن (٤) هذا النثر هو الخطابة ، وأن أول القرن الثانى الهجرى هو الذى شهد ظهور الحياة العقلية وهو الذى شهد مظهر هذه الحياة العقلية وهو نشأة النثر الفنى (٥) ، أما القرآن فى رأيه فليس نثرا كما أنه ليس شعرا ، وإنما هو كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير (٦) ، فالنثر العربى الذى ليس هو لغة التخاطب ولا الأحاديث العادية والذى لا يعبر عن عاطفة أو شعور من حيث هما عاطفة أو شعور بل من حيث هما صورة عامة يظهر فيها نتيجة التفكير ، هذا النثر فى رأيه هو أثر من آثار الحياة الحياة الإسلامية الجديدة (٧) ، فقد وجد فى هذا العصر كما يقول الدكتور النثر بألوانه المختلفة ، فوجد نثر عربى خالص فى التاريخ ، وفى مناقشة الفرق المتكلمة ، ووجد نثر عربى خالص فى الدين ، ثم وجد نثر عربى تشوبه الشذاهة الأجنبية فى هذه الكتب التى طلب العرب إلى الروم أو الموالى نقلها إلى العربية (٨) .

واسكتنا على أى حال لانقر هذه الآراء المختلفة التى تجد وجود النثر الفنى فى العصر الجاهلى ، وإن كنا نؤمن بأن القرآن الكريم لا يماثله نثر فنى فى لغة العرب ، كما نؤمن بأن النثر الأدبى بعد الإسلام أخذ ينمو وينهض

(١) ٣٨ ج ١ النثر الفنى لوكى مبارك ،

(٢) ص ٧ و ٩ مجلة الأدب والفن عدد نوفمبر ١٩٤٥ من مقال للاستاذ

جب بعنوان خواطر فى الأدب العربى .

(٣) ص ٢٥ من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين .

(٤) ص ٢٩ المرجع (٥) ص ٣٥ المرجع

(٦) ص ٢٥ المرجع (٧) ص ٢٨ المرجع

(٨) ص ٣٦ المرجع .

منذ مطلع القرن الثاني الهجرى . وبلغ منزلة عالية على يد عبد الحميد الكاتب
ومن جاء بعده من أفذاذ الأدباء وأتمتهم كابن المقفع والجاحظ ورواهما .
ويقول ابن رشيق في عمده : وكان الكلام كله منشورا . فاحتاجت
العرب إلى التفتى بمكارم أخلاقها ، وطيب أعراقها ، وذكر أياها العالمة ،
وأوطأها النازحة ، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام . فلما تم لهم
وزنه سموه شعرا (١) .

- ٣ -

هذا ولا يعنى الأدب من النثر الجاهلى إلا ما حرق بأجنحة من الخيال
والعاطفة والحكمة حتى ليعده من قبيل الشعر المنشور . ولما كان الحفظ والرواية
لا التدوين - هما أساس التواتر في العلم بفرائد النثر الجاهلى ، فقد ضاع
الكثير منه ، بعكس المنظوم الذى ساعدت أوزانه وقوافيه على حياته واستيعابه
والنعم أقرب إلى الاستقرار فى الحافظة والتردد على الشفاه .

ونحن نعرف بين الشعر الجاهلى نماذج بديدة سلسلة رقيقة بعيدة كل البعد
عن الوحشية ، فلماذا لا توجد نماذج مثلها من النثر الجاهلى ؟ ولماذا تتعسف
وننسب اليها الاتعجال ولا ننسبه إلى ذلك الشعر المأثور الذى لولا اطلاعنا
السابق لتصورنا أنه من إنتاج عصرنا الحاضر ؟ ومن السهل أن نتفق مع مؤرخى
الأدب ونقادهم ، على أن النثر الجاهلى الفنى يقتضيه إلى حكمة ، ومثل ، وخطابة
ورصايا ومحاورات ومنافرات وسجع وكهان . فن أشهر حكماء العرب
الجاهليين :

أكرم بن صيفى التميمى ، وعامر بن الظرب العدوانى ، واقهان الحكيم الذى
اشتهرت حكمه القصصية فى العالم اشتهار أساطير أيوب فى الغرب ، وقد طبعت
ودرس فى أوروبا منذ أكثر من قرن ، ومن مظاهر سردها اتباع الجمل

الاسمية بدل العملية المألوفة في الأسلوب العربي . ومن أشهر خطباء العرب الجاهليين : قس بن ساعدة الإيادي ، وله كلمات بديعة مأثورة مشهورة بحكمها وأمثالها ، وكان العرب يتبعها كمون اليه في خصوصياتهم كما كانوا يتهاوتون على خطبه في سوق عكاظ ، ومن الخطباء أيضا : هاني . بن قبيصة الشيباني .

ومن أشهر الموصين البلقاء الجاهليين من العرب : ذو الأصبع العداني ، والأوس بن حارثة . ومن أشهر المحاورين والمنافرين العرب في الجاهلية : قس بن ساعدة الإيادي ، وعامر بن الطفيل ، وعاقمة بن علاثة ، وكانا يقتارعا ن الرياسة على بني عامر ، وكانا يقتافران بالمهارة والمناظرة البليغة ، وأقوالهما في ذلك مشهورة .

ومن أشهر الحكماء العرب في الجاهلية : الكاهنة زبراء .

هذه صور شائعة بعلو كعب الأدباء العرب النائرين في العصر الجاهلي . ونظم الفن في روعته ، لا يقل جلالا وجمالا عن شعر الجاهلية المنظوم ، وهو تراث قيم بالنسبة إلى عصره ، جدير بأن نعتزه ، وأن نلتفت إليه كل الالتفات في تاريخ الأدب الجاهلي ودراسته .

وفي هذا المقام ننوه بحكمة لقمان الحكيم ، الذي يجعله كثير من المراجع العربية القديمة عربيا ، ومن بينها كتاب (الأمثال) للبيداني ، وفي كتب التفسير ذكر للقمان . وإشارة إلى اختلاف الآراء فيه هل هو عربي أو سرياني أو حضري أو حبشي أو يوناني ؟ وهل هو حكيم أو نبي أو رسول ؟ وقد ذكرت ذلك في كتاب (الذكر الحكيم) . . . ويذهب المستشرق الإنجليزي رندل هريس في كتابه (قصة أحيقار) - طبع لندن سنة ١٨٩٨ ص ٧٥ من المقدمة - إلى أن القرآن الكريم قد أشار إلى أحيقار في سورة لقمان وأن لقمان هو أحيقار نفسه ، إذ أن كلا من لقمان

وأحيقار يوصف بالحكمة ، وأن كلا منهما كان يلقي ابنه حكماً يبدؤها بقوله « يا بني » ، وأن بعض حكم أحيقار تشبه بعض الحكم التي جاءت في القرآن على لسان لقمان ، فالآية الكريمة : (واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الخير) (١) يناظرها ما جاء في وصية أحيقار لابنه : (يا بني احن رأسك ، ورقق من صوتك ، وكن بشوشاً وامش في الطريق المستقيم ، ولا تك أحق ، ولا ترفع صوتك بالضحك فإنه لو كان البيت يبني بالصوت المرتفع لبني الحمار بيتين في يوم واحد) . ولا شك أن التشابه قوى وواضح ، وقصة أحيقار مشهورة ، وترجمت إلى كثير من اللغات ، وهي إحدى القصص التي كانت شهرزاد ترويها للملك شهریار ، والتي عرفناها في كتاب ألف ليلة وليلة . وقد وردت في أقدم نصوصها بترجمة آرامية قديمة يرجع أن تاريخ تأليفها قبل نهاية القرن الخامس قبل الميلاد ، ويروي كتيافس الاسكندراني - وهو من كتاب القرن الثامن بعد الميلاد - أن ديمقريطس - الذي كان يعيش في القرن الخامس قبل الميلاد - قد ألف كتاباً في المواعظ الاخلاقية البابلية ، تناول فيه ما في قصة أحيقار من حكمة . ويوجد شبه بين قصة أحيقار وبعض أسفار العهد القديم كأسفار الأمثال ، بل وبين بعض أجزاء العهد الجديد . وقد ترجم السريان قصة أحيقار ، والنص السرياني هو أصل جميع التراجم التي ظهرت للقصة بعد ذلك ويشير عدي بن زيد إلى أحيقار في شعره :

عصفن على الحيقار وسط جنوده وبيتن في لذاته رب مارد

وكان أحيقار وزيراً حكماً للملك آشور ونيينوى ، وهو سنحاريب .

وكان أحيقار يتوق إلى أن يرزق بولد يرث حكمته وثروته ، ولكنه لم ينجب من ستين امرأة تزوجها ، لذلك بادر بترك الوثلية إلى عبادة إله واحد ، ولما تضرع إلى الله سمع صوتاً يقول له : « خذ نادان ابن أخنك واجعله لك ولداً ، وعليه علمك وأدبك » ، وكان رضيعاً ففعل ذلك ، وكبر الغلام وكبر أحيقار ، واستخلف سنحاريب الشاب نادان في الوزارة . كان أبيه وعند ذلك أخذ أحيقار في بذل النصيح لابنه ، وفي تعليمه تجارب الحياة وعبر الأيام التي مرت به ، وكل وصايا أحيقار تبدأ بكلمة « يا بني » ، وفي القصة بعد ذلك أحداث ومآس كثيرة ، منها فساد نادان في سياسته وسوء أخلاقه واسترداد أبيه ما وهب له من ثروة ووشاية نادان بأبيه عند الملك واختباء أحيقار في سرداب ووقوع الملك في أزمة سياسية وظهور أحيقار ، وظهور براءته ، وانتحار نادان . وقد ذكر المسعودي لقمان ورجح أنه كان حكيماً من الحكماء ، ولا أستبعد أن يكون هو أحيقار نفسه .

(١) راجع ٢٣ - ٤١ من كتاب تاريخ الأدب السرياني تأليف مراد كابل وعبدالكردى .

الحياة الادبية في العصر الجاهلي (١)

نرانا أمام نهضة جليلة في الأدب العربي تناولت أعرق مدارسه كدار العلوم والأزهر : فبرى في الأولى جهودا أصيلة موفقة داعية الإعجاب بها كذلك التي يقوم إبراهيم أنيس وحامد عبد الغادر في فقه اللغة وفلسفتها وعلم النفس الأدبي ونرى في كلية اللغة العربية بالأزهر نظيرا لها كمثل ما يقوم بها محمد عبد المنعم خفاجي الذي شغل بعلم الأدب وبالنقد الأدبي خاصة

والاستاذ خفاجي ظاهرة فذة شائقة في الورائة والاطلاع والاستقراء والإنتاج : فهو بسيط الأديب الكبير الشيخ نافع الخفاجي : وهو من أسرة بنى خفاجة التي تنتمي الى أصول عربية قديمة ومنهم الأمراء الخفاجيون في إقليم الكوفة . والأسماء الخفاجيون بحلب ، ومنهم الأمير ابن سنان الخفاجي الحلبي ، ومن أشهر النابغة -ين في مصر من الخفاجيين الشهاب الخفاجي المصري

وهذا الرجل الذي يحمل أعلى شهادات الأزهر العلمية (وهي شهادة الاستاذية في الأدب والبلاغة - التي تعادل الدكتوراه ، من الجامعات السامية كالسوربون مثلا - ، والذي أخرج حتى الآن نحو مائة كتاب في فنون الأدب ، والذي يتولى الاستاذية بكلية اللغة العربية في الأزهر ، والذي يشغل ليل نهار بالتأليف والمطالعة حتى إنه لم يعرف عن أزهرى قديما أو حديثا أنه اطلع مثل اطلاعه على مئات الكتب القيمة من مخطوطة ومطبوعة ، هذا الرجل العلامة الموهوب الذي لا يكتفي بترانه العربي فيتعلم الفرنسية والإنجليزية ليقف بنفسه على أمهات التصانيف والمراجع

(١) دراسة لهذا الكتاب بعد ظهور الطبعة الأولى كتبها الدكتور المرحوم احمد زكي أبو شادي ، وأذاع بها من صوت أمريكا ، ونقلته عنها محطة الإذاعة البريطانية العربية

الأوربية والأفريقية وليتذوق الأدب العالمي من نهائيه الأولى
ومنابعه الأصلية ، أصبح الآن مناط آمال الأزهرين في التجديد الأدبي .
ولنه لعسير أن يختار المرء كتاباً من كتبه للعرض في مجال الحديث عن
الأدب العربي ، نظراً لكثرتها وتنوعها ولتناولها جميع فروع الأدب .
والاستاذ خفاجي ليس لغوياً ولا أدبياً فحسب ، بل هو شاعر أيضاً ، شأنه
في ذلك شأن طه حسين ، ولذلك - إلى جانب ثقافته الواسعة التي تلهمهم
كل معرفة ميسورة - كان طابع كتابته شاعرياً جميلاً مع الحرص على الدقة
العلمية في الوقت ذاته . ولذلك نالت تصانيفه احتراماً عاماً في جميع الأوساط
الأدبية ببلاد العرب وفي دوائر الاستشراق ، بغض النظر عن موافقتنا على
آرائه أو مخالفتنا له فيها .

وأمامنا الآن كتابه « الحياة الأدبية في العصر الجاهلي » وهو الحلقة
الأولى من تاريخ الأدب العربي المشغول بإخراجه تباعاً ، وقد صدق حين
قال : إن تاريخ الأدب العربي هو تاريخ لقومية الأمة العربية وأخلاقياتها
وعاداتها وآمالها وآلامها ، ولكل ما تأثرت به من مؤثرات حياتها الفكرية
والاجتماعية والسياسية والأدبية . ثم استمع إلى قوله : إن تاريخ الأدب
ليس علماً جافاً . بل أساسه الذوق ودراسة الفنون الأدبية في الأمة دراسة
واسعة . . . فعلى مؤرخ الأدب أن يدرس أسباب رقي الأدب وانحطاطه
وتأثر الأدباء بها أو تأثيرهم فيها ، وأن يدرس صلات المحدثين بالقدماء
أدباء وشعراء وكتاباً وخطباء ونقاداً ، وأن يتعمق في فهم المذاهب والمدارس
الأدبية العامة وصلاتها ببعضها ببعض ، والعوامل التي أدت إلى قيام كل مدرسة
وميزاتها وخصائصها ومدى تأثيرها بما قبلها وتأثيرها فيما بعدها من المدارس
والمذاهب الأدبية العامة . فهذه المدارس والحركات الأدبية كانت تلعب دوراً
هاماً ، ولها الأهمية الكبيرة في دراسة تاريخ الأدب الذي ليس سرداً لنصوص
أدبية وتراجم عامة ، ولكنه يوضح لنا الصلات بين المذاهب الأدبية ويربط
كتاباً بآخر وجماعة بجماعة ومدرسة بمدرسة كما يدرس أسباب الانفصالات

الادبية المختلفة في عصور الادب وتأثير لقول الكتاب في نهضة الادب
والشعر وتوجيههما وجهة جديدة ،

إن هذا الاسلوب المنرسل الناصح النافذ لما لا يعرف بين الازهرين إلا
في أفذاذ أدبائهم كالمرصفي ومحمد عبده وسعد زغلول وعلى عبد الرازق
ومصطفى عبد الرازق ،

وهذا الكتاب الفخيم الذي أتى لنا بتحليل جديد عميق للحياة الادبية
في العصر الجاهلي هو أساس متين صالح للدارس الباحث في موضوعه ، ولو
أنه أساس قابل للتعديل حتما في ضوء البحوث والكشوف والاستنباطات
المستمرة وليس مثل الاستاذ خفاجي بالذي يتعالى على شيء من هذا ، بل
بالعكس نجده الحريص على الاستقصاء والتحقيق وتعديل نظراته ونقداته
على ضوء العلم .

وهكذا سيكون كلامنا عن الحياة الادبية في العصر الجاهلي دائماً على
عمادين: أحدهما كتاب الاستاذ خفاجي إن لم نقل كتبه في هذا الموضوع
الجليل ، إذ له كتب أخرى مكملّة أو شارحة مثل (أعلام الشعر الجاهلي)
(الشعراء الجاهليون) وغيرهما ، والآخر الكشوف العلمية الحديثة التي يجب
على ضوئها تنقيح نظرياتنا القديمة وتعديلها ، وبذلك نخدم تاريخ الادب
الجاهلي الخدمة الحقّة ونتمكن من حسن دراسة ذلك الادب والاستمتاع به

الحياة الادبية في العصر الجاهلي

بقلم الاديب الحجازي الكبير عبد الله عبد الجبار

محمد عبد المنعم خفاجي ، اسم لامع في دنيا الادب في العالم العربي
الحديث وشخصية عجيبة محببة ، هي مزيج من الكبرياء ، والتواضع ، تواضع
النفس الكبيرة التي تجامل ، وتفرق في المجاملة حتى ليحسبها البعض ضعفاً وما
هي من الضعف في شيء ، إنما هي سمة الإنسانية المهدبة المؤمنة بالخير

والفضائل ، والتي تعتقد أن القوة هي أن يتواضع المرء حيث يجب التواضع ، ويتكبر حيث يجب التكبر ، والذين لم يعرفوا أصحابنا الخفاجي ، أو يخاطبوه عن كتب سيد هشون حين يرون هذا الحمل الوديع ، وهو ينقلب إلى أسد هصور إذا مامست كرامته أو كرامة بلده ، أو كرامة العروبة ، أو كرامة الأحرار في أى مكان ، وكيف يزود من هذه الكرامة بلسانه وفلسه ، ويعلمها حرياً كلامية شعواء ضد الطغاة والطغيان ، ويصب عليهم النسم والقذائف ، لا يبالي ما قد تجرعه عليه هذه الجرأة من وبال ، لأنه ترى على أن لا يمشى في الحق لومة لائم .

وصاحبنا الخفاجي يمتاز بالإنتاج الغزير ، ولا أعرف أديباً في العالم العربي يدانيه في هذه الغزارة ، فقد بلغت كتبه التي ألفها وحققها أكثر من مائة كتاب ، وهو لم يتخط الأربعين إلا بقليل .

وقد سمعت صديقتنا الساقدة الجهير الأستاذة طاني السحرتي يقول عنه ذات يوم : « لو أن هذه الكتب التي أنتجها الخفاجي . لم يكن له فيها من عمل إلا أنه نسخها وحسب ، لأصابتنا الدهشة ، وقلنا له : كيف تأتي لك الوقت الذي نسخها فيه ، فكيف وقد ألفها تأليفاً ورجع إلى العدد الكثير من المصادر والمراجع ؟ » .

فالخفاجي - إذن - مكثار . وهذه المزية يقابلها أصدقاؤه بالدهشة والفتنة - ويقابلها منافسوه - وهم قلة - بالحقق والحسد .

وأنا أقول للذين يهيمون على الخفاجي هذا السيل الغزير من الإنتاج ، ويهتمونه بالسرعة في بعض الأحيان : ألا يكفيكم أن تحتوى هذه المائة كتاب على خمسين كتاباً جيدة جداً ، أو عشرين أو عشرة أو خمسة كتب بمتازة بلغت الذروة في البحث الأكاديمي ، وكل منها يصلح لأن يكون رسالة دكتوراه ، بمتازة ؟ ألا يكفيكم مثلاً كتابه « ابن المعتز » ، أو « الحياة الأدبية في العصر العباسي » ، أو « رائد الشعر الحديث » ، أو « قصة الأدب في مصر » ، أو كتابه هذا « الحياة الأدبية في «عصر الجاهلي» » ، أو كتابه مذاهب الأدب ،

أو سوى ذلك من العديد من كتبه ودراساته ؛ وإن باحثاً منصفاً لا يستطيع أن ينكر هذه الحقيقة أبداً ، فالحفاجي دكتور مضروب في عشرة أردنا أم لم نرد . . . وهو بهذا الصنيع قد فعل ما يفعله عادة أساتذة الجامعات في كل حياتهم الجامعية التي يخصصونها غالباً لموضوع واحد ، ومادة واحدة . وزاد عليهم مائة كتاب أخرى في التاريخ والأدب والتصوف والاجتماع والتراجم ، والبحوث الإسلامية والعربية والوطنية ، وأيا كان رأى النقاد فيها ؛ فهي - في نظري - تحتوى على الجديد العميق من الفائدة العلمية والأدبية ، وألا يكفي أن يطرى بعض هذه الكتب أدباء لهم مكانتهم الأدبية : كالسحرتي ، وسلامة موسى ، وأبي شادي ، ووديع فلسطين ، وروكس العريزي ، وأحمد عارف الزين ، والشيخ محمد رضا الشيباني ، وسواهم من أعلام العالم العربي ، والإسلامي عامة .

ولصديقتنا الحفاجي فضل كبير على الأدب المعاصر بدراساته ومحوته عنه ، وبما جمع ودون من نصوصه ، ومن آراء النقاد والباحثين فيه ، كما فعل في كتابه « صور من الأدب الحديث » .

وقد نشر عن الحفاجي ثلاثة كتب كبيرة للأسانذة : حلیم منری ، ومحمد رضوان ، وفكري أبو النصر ، وكتبت عنه مئات البحوث والدراسات والمقالات .

والحفاجي أديب ، شرق الأسلوب تمنحني في قراءته دون أن تمل ؛ وهو قادر على تذليل الموضوعات الجافة وتطويعها بقلمه الحي حتى تغدو عذبة سائغة في النفوس . . . وهو ذكي لماح ، سرعان ما يستشف الفكرة الجديدة ، ويتمثلها ويلتمس لها المراجع والمطابق ، فإذا هي بعد زمن قصير أو طويل كتاب جديد .

والحفاجي - قد أسهم مع المسهمين في تغذية الفكر العربي الحديث بالدراسات البكر التي لم يسبق إليها ، وحسبك أن تعلم أن الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الحسالي طلب من رجال إدارته كتباً عن تاريخ الأزهر

ورجاله ، لتقديمها إلى هيئات ثقافية أجنبية فلم يجدوا كتاباً - في صميم الموضوع - غير كتاب الخفاجي (الأزهري في ألف عام) ، وهو يقع في ثلاثة مجلدات أما كتابه (مواكب الحرية في مصر الإسلامية) فهو صورة حية لروح التاريخ المصري حين يحلوها أديب وطني حر ، وهو جديد في موضوعه . وما أجدرة أن يقرر في المدارس الثانوية ، فهو خير من عشرات كتب التاريخ الجافة التي تعتمد على السرد ، وليس وراءها أى هدف أو أية غاية وطنية أو قومية . وفي هذا المجال أجدني حائزاً بين كتبه ، أذكر : (الإسلام وحقوق الإنسان) ، أم (الإسلام رسالة الإصلاح والحرية) ، أم (الإسلام دين الإنسانية الخالد) ، أم (صور من الفكر العربي وتاريخ الإسلام) ، أم كتابه (قصة الأدب في الاندلس) ، أم (قصة الأدب المعاصر) ، أم (الذكر الحكيم) ، أم تفسيره للقرآن الكريم ؛ أم (قصص من التاريخ) الذي نشره محتويًا على سبعة كتب من تأليفه ، أم غير ذلك من دراستاته .

أما كتاب (الحياة الأدبية في العصر الجاهلي) الذي يقدمه الخفاجي إلى القارئ العربي بعد تسع سنوات من طبعته الأولى في طبعة جديدة فريدة ، فهو كتاب واف في موضوعه . استقصى فيه كل البحوث الهامة التي لا يستغنى عنها دارس هذا العصر ، سواء كانت تمهيدية ، أو أساسية ، ونظرة في الكتاب تلك على أهميته ، فبعد التمهيد الشافي الذي عقده لموضوع « الأدب بين الذوق واللغة » ، تحدث عن المؤثرات في الأدب الجاهلي ، ووصف الجزيرة العربية وأقسامها ، وأصل العرب ، والشعوب العربية وطبقاتها . ثم تناول الحياة السياسية والاجتماعية والدينية والعقلية ، وعقد فصلاً متمماً للخط العربي في الجاهلية ، ثم تحدث عن أيام العرب وأثرها في الأدب ، مستشهداً بما أنارت به من أشعار حماسية ، ودرس اللغة العربية أصلها ونشأتها وأثر الاسواق العربية في تهذيب اللغة وترقية الأدب ، واختلاف اللهجات العربية ، وخصائص اللغة العربية ، وعوامل نموها ، وفصاحة لغة قرينش ،

ثم تناول تطور المناهج في دراسة الادب العربي وتاريخه ، ونقسم الادب إلى إنشائي ووصفي . . كل ذلك في الباب الاول من هذا الكتاب القيم حتى إذا كان الباب الثاني يتحدث عن معنى الجاهلية ، وناقش آراء القائلين بأسبقية الشعر على النثر ، وأثبت أن النثر أقدم من الشعر ، ثم يتحدث عن النثر وقسمه إلى : مرسل ، ومزدوج ، ومسجوع ، وذكر خصائص النثر الجاهلي في معانيه وأغراضه وأساليبه ، وعزى كل ذلك بأثرة فنية من النثر الجاهلي ، ثم تكلم عن الحكم والامثال ، سواء كانت نثرية أو شعرية حتمية أم فرضية . ثم تناول الوصايا ونماذجها ، والخطابة ودواعيها ، وأغراضها وأساليبها ، وأشهر الخطباء ، وتحدث عن المحاورات والمناسقات والمفاخرات ، والكهانة وسجع الكهانة ، ثم عرض صوراً جميلة من القصص الجاهلي .

فإذا انتقل إلى الباب الثالث الذي عقده للشعر الجاهلي ، استهل حديثه بالحديث عن الشعر عامة وتعريف القدامى والمحدثين له ، وروى لنا كيف نشأ الشعر عامة ، وتدرج من دور البساطة إلى دور السجع ، ثم إلى دور الوزن ، ثم كيف تطور الشعر الجاهلي من الأبيات القليلة حتى تقهـمـ يد للقصائد الطوال ، وتحدث عن تأثير الشعر في النفوس ، وهزلة الشاعر ، والتكسب بالشعر ، وشاعرية العرب . ثم قسم الشعر إلى : تمثيلي وقصصي ووجداني ، وبين الغنائية الغالبة على الشعر الجاهلي ؛ ثم تكلم عن تنقل الشعر في القبائل ، وشياطين الشعراء ؛ وطبقات الشعراء الجاهليين ، ورواية الشعر الجاهلي ، وعقد فصلاً ممتعاً للشعر الجاهلي بين التجديد والتقليد ؛ وتناول موضوع الصنعة والطبع في الشعر الجاهلي ، ودافع بحماسة مدعمة بالأدلة عن الشعر الجاهلي ؛ ثم أوضح لنا كيف كان الشعر الجاهلي سجلاً صادقاً لأخلاق العرب وعقائدهم ومعارفهم وحياتهم الاجتماعية ، وعزز آراءه بشواهد بليغة من روائع الشعر الجاهلي .

ثم درس المعلمات وسبب تسميتها بذلك وفص الآراء المتضاربة ورجح

رأى التبريزى القائل : بأن وجه تسميتها بالمعلقات علوقها بأذهان صفارهم وكبارهم ، ومرءوسهم وروسائهم ، وذلك لشدة اعتنائهم بها . ثم تحدث عن منزلة المعلقات وشراحها ، وتناولها بالعرض والنقد ، معلقة معلقة .

وعقد فصلا لأغراض الشعر الجاهلى كالمديح والهجاء والفخر والثناء والحماسة والعتاب والاعتذار والحكمة والاخلاق والوصف والاسباب . ثم فسر لامعانى الشعر الجاهلى ، وأخيلته وألماظه وأساليبه ، وتحدث عن الرجز والقصيد ، وكانت لفظة بارعة من مؤلفنا تحدثه عن الشاعرات العربيات فى الجاهلية . ومن أقوى فصول الكتاب الفصل الذى عقده لأرباء علماء الادب فى الشعر الجاهلى قديما وحديثا ، وقد ناقش فيه مناقشة بارعة آراء الدكتور طه حسين وطائفة من المستشرقين . ولم يلس المؤلف أن يتحدث عن النقد الادبى فى الجاهلية . ثم تناول الحكومة الادبية بين قصيدتى علقمة وامرئ القيس وعقد فصلا جديلا عن الموازنة بين الشعراء ، ثم قام بتطبيق بارع حين وازن بين شاعرين جاهليين هما زهير والاعشى ، ووازن بين قصائد جاهلية مشهورة ، وعرض صنورا من الشعر الجاهلى . . وختم الكتاب يبحث عن المصور الادبية وتحديد المعهر الجاهلى ، إلى غير ذلك .

وبعد ، فهذا عرض سريع لموسم الموضوعات فى هذا الكتاب القيم ، وأشهد أن هذا البحث على كثرة ما قرأت فى هذا الموضوع - يعتبر من أحفل البحوث ؛ وأكثرها شمولا واستيعابا ، وتجلية للحياة الادبية فى تلك الحقبة السخيفة من التاريخ العربى ، ولا يسفى فى ختام هذه الكلمة القصيرة إلا أن أحيى الاستاذ الخماجى على جهاده الادبى المتصل ، وجهوده الثقافية المشكورة فى سبيل دعم القومية العربية الوائبة ؟

عبد الله عبد الجبار

القاهرة ١٩ يوايو ١٩٥٨

خاتمة الكتاب

هذه هي الطبعة الثانية لكتاب « الحياة الأدبية في العصر الجاهلي » ،
التي تشتمل على زيادات كثيرة تكاد تبلغ مائتي صفحة ، والكتاب أوسع
دراسة للأدب الجاهلي وفنونه ، وسماته ، وقد لقيت الطبعة الأولى منه
كثيراً من اهتمام الدارسين والباحثين .

وبحسبي أن أكون قد مهدت بهذا الكتاب لفهم أصول الأدب
ومذاهبه ، وأن أكون قد وضعت المناهج الحقة لدراسة الأدب العربي
عامة والجاهلي خاصة ، وفي ذلك ما فيه من زيادة نصيبنا من الثقافة الأدبية ،
ومن بعث الاهتمام بهذه اللغة الأصيلة ، لغة القرآن الكريم .

ولست في حاجة إلى القول بأن العناية بالأدب القديم ثنائية بكتاب الله
الخالد ، ومؤازرة قوية في سبيل فهمه والتأثر به . . ومن الله السداد
والنوفق .

محمد عبد المنعم خلفا جى

فهرست الكتاب

صحيفة	صحيفة
٩٢ يوم حليلة	٣ مقدمة
٩٣ يوم الزيرين	٤ تمهيد
٩٣ يوم شعب جبلة	٥ تاريخ كلية أدب
٩٤ يوم خوزي	١٨ تاريخ أدب اللغة
٩٥ أيام الفجار	٢٠ علاقته بالتاريخ العام
٩٧ يوم ذي قار	٢١ تقسيمه إلى عصور
٩٩ - ١٢٥ اللغة العربية	٢٣ - ١٣٠ الباب الأول : المؤثرات
٩٩ أصلها	في الأدب الجاهلي
١٠٣ نشأتها	٢٤ موطن العرب
١٠٦ أطوار تهذيبها	٢٧ أصل العرب
١٠٧ - ١١٦ أثر الأسواق	٢٩ الشعوب العربية
١٠٩ عكاظ	٣٠ القبائل العربية
١١٦ بحنة	٢٥ حياة العرب
١١٦ ذو المجاز	٣٥ مدلول كلمة عرب
١١٦ اختلاف اللهجات العربية	٢٧ حياة العرب الاجتماعية
١١٩ خصائص اللغة العربية	٤٢ حياتهم السياسية
١٢٠ عوامل نمو اللغة العربية	٥٥ حياتهم الدينية
١٢٣ فصاحة لغة قريش	٦٥ معارف العرب في الجاهلية
١٢٤ اللغة العربية ومنزاتها بعد نزول	٧٢ الخط العربي في الجاهلية
القرآن	٧٧ - ٩٨ أيام العرب
١٢٦ - الأدب العربي ودراساته	٧٩ حرب داحس
١٣١ - ٢٠٣ الباب الثاني : النثر الجاهلي	٨٥ حرب البسوس
١٣١ معنى الجاهلية	٩٢ يوم بعاث

صحيفة	صحيفة
٢١٦ الشعر في الجاهلية	١٣١ الشعر والنثر
٢١٧ تأثيره	١٣٧ ميزات النثر الجاهلي
٢١٨ منزلة الشاعر	١٣٩ أمثلة للنثر المأثور في العصر الجاهلي
٢١٩ التكسب بالشعر	١٤٥ أقسام النثر : الحكم والأمثال
٢٢٠ شاعرية العرب	١٤٥ نماذج لها
٢٢٢ لون الشعر الجاهلي	١٤٧ ماهي الحكمة
٢٢٥ تنقل الشعر	١٤٨ ماهو المثل
٢٢٦ شياطين الشعراء	١٥٠ الوصايا والنصائح : نماذج
٢٢٩ طبقات الشعراء	١٥٢ ماهي الوصايا
٢٣٤ رواية الشعر	١٥٢ الخطابة : نماذج
١٣٥ رواة الشعر الجاهلي	١٥٧ ماهي الخطابة
٢٣٧ الشعر الجاهلي بين التجديد والتقليد	١٥٨ الخطابة عند الجاهليين
٢٤١ الشعر الجاهلي بين الطبع والصنعة	١٥٩ دواعيها - أغراضها
٢٤٧ الطبع والصنعة في الشعر الجاهلي	١٦٠ أسلوب الخطابة
أيضا	١٦١ المأثور منها
٢٥١ دفاع عن الشعر الجاهلي	١٦١ الخطابة والخطيب
٢٥٨ صلة الشعر الجاهلي بالتاريخ	١٦٢ أشهر الخطباء : قسم الإيادي
٢٥٩ تصويره الأخلاق	١٧١ أكم
٢٦١ تسجيله للعقائد	١٧٢ عمرو بن معد يكرب
٢٠٢ معارف العرب في الشعر الجاهلي	١٧٤ من خطباء العرب
١٦٣ الشعر والحياة الاجتماعية	١٨٦ المحاورات
٢٦٨ المعلقة ومنزلتها من الشعر الجاهلي	١٨٧ سجع السكبان
٢٧٧ معلقة طرفة	١٩٠ صور من القصص الجاهلي
٢٨٤ معلقة امرئ القيس	٢٠٤-٧٤ الباب الثالث : الشعر الجاهلي
٢٩١ معلقة عمرو بن كلثوم	٢٠٤ ماهو الشعر
٢٩٥ معلقة زهير	٢٠٦ آراء في الشعر
٥٩٨ معلقة عنتره	٢٠٧ نشأة الشعر

صحيفة	صحيفة
٣٦٤ الرجز في العصر الجاهلي	٣٠٤ معلقة ليبيد
٣٦٥ الشعر الجاهلي بين الرجز والقصيد	٣٠٧ معلقة الحارث
٣٦٧ العربيات الشاعرات في العصر الجاهلي	٣٠٩ أبواب الشعر الجاهلي
٣٧٦ آراء علماء الأدب في الشعر الجاهلي	٣٠٩ المدح
٤٠٤ الحكومة الأدبية بين قصيدتين	٣٠٢ الهجاء
٤٢٥ الموازنة بين الشعراء	٣١٣ الفخر
٤٣٧ الموازنة بين شاعرين جاهليين	٣١٥ الرثاء
٤٥٨ قصيدتان جاهليتان	٣٢٣ الحماسة
٤٦٥ بين الجاهليين والمختصرين	٣٢٧ العتاب
٤٦٧ صور من الشعر الجاهلي	٣٢٨ الاعتذار
٤٧٥ حول الأدب الجاهلي	٣٢٩ الحكمة والأخلاق
٤٧٦ حول العصر الجاهلي	٣٣١ الوصف
٤٨٢ آراء حول النثر الجاهلي	٣٣٣ النسيب
٤٨٩ خاتمة الكتاب	٣٤١٠ النقد الأدبي في الجاهلية
٤٩٠ الحياة الأدبية - ١	٣٤٥ فنون الشعر الجاهلي أو أغراضه
٤٩٢ الحياة الأدبية - ٢	٣٤٩ معاني الشعر الجاهلي
٤٩٨ - ٥٠٤ ملاحق	٣٥٣ أخيلة الشعر الجاهلي
	٣٥٧ الأغاظه وأسلوبه

مؤلفات وتحقيقات د. محمد عبد المنعم خفاجي

- ابن المعتز وتراثه في الادب والنقد والبيان
الادب الجاهلي (نصوص ودراسة)
الادب العربي وتاريخه في العصرين الاموي والعباسي
الادب العربي في الاندلس
الآداب العربية في العصر العباسي الاول
اعجاز القرآن (تحقيق)
الاقتصاد في الاسلام
البديع (تحقيق)
الحياة الادبية في العصر الجاهلي
الحياة الادبية بعد ظهور الاسلام
الحياة الادبية بعد سقوط بغداد الى العصر الحديث
دراسات في الادب الجاهلي والاسلامي
دراسات في الادب العربي الحديث
دراسات في الادب المعاصر.
- للباقلائي
للابن المعتز

الفكر الاسلامي بين الاصاله والتجديد
قصة الادب في مصر
القصيدة العربية : دراسات ونقد
المختار في الحديث النبوي الشريف
من تراثنا الخالد.